ترجمة رباع ربابعة

رواية

2020
1.1.2020

صرخة الخطّاف

أحمد أوميت

«أخطاؤنا تصبح سلعة في حياة الآخرين»

أحمد أوميت

صرخة الخطّاف

رواية بوليسيّة تركيّة

ترجمة ربّاع ربابعة

صرخة الخطّاف

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق
منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

صرخة الخطّاف

تأليف: أحمد أوميت

ترجمة: ربّاع ربابعة

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-38-521-9

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام / المرجع: MC-02-01-9097275
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي
KIRLANGIC FIRTINASI
© 2018 AHMET ÜMİT / KALEM AGENCY

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إهداء

إلى صديقتي الصحفية الشجاعة، والأديبة
بوكت أشجي كورال...

وإلى صديقي سردار كورال الحبيب الوفي
والمخلص لبوكت...

وما نار الجحيم من دنيا باعت ضميرها؟!

رأيت الألم. رأيت الحدقة التي كانت تنمو مثل زهرة وسط عيونهم، ثم تنكمش ببطء شديد لتنفجر بعدها بغتة كأنما هي صيحة. رأيت شفاها مرتجفة، ووجوها بدت مثل شمع العسل، وخدودا ذابلة، ووجنات عِظام متضخمة، ومحاجر عيون عميقة أصبحت كأمثال الكهوف المنفردة، وألسنة معقودة داخل أفواه يابسة. وعلمت أن اللحظة التي ندرك فيها ذاتنا هي اللحظة التي نتلوّى فيها بين مخالب الألم.

لم تكن صرخة، ولا رجفة، ولا حتى همسة، نعم، إن ذلك الأنين الوحشي الذي لا أعرف من أين أتى، قد سمعته في أعماق قلبي. بقيت بلا نفس، جفّ حلقي، واشتعل جبيني بالنيران، وانزلقت في ذلك الفضاء السحيق كأنّي أنساق إلى حلم عجيب. واجهتُ أشدّ أسرار الحياة غموضًا، إنه سرّ لم يُذكَر، ولم يُكتَب، ولم يُرَ. قطعت كلّ مراحل الظلام، وسمعت صوت الدم الجاري، وشعرت ببرودة الموت في عروقي. إني لا أنكر، فلقد أحببت تلك الحقيقة الخالصة التي تطهّرت بالوحشية. تجدّد جسمي، وتطهّرت روحي، واستخرجتُ ذاتا جديدة من ذاتي. أنا لا أتحدث عن الذكريات المرعبة التي رافقتني سنوات، وما منحَته من حقارة. لقد مكثَت في الأيام الغابرة، وتخلّصتُ من ذاك العار كما يتخلص ثعبان من جلده. إن ذلك الجرح الذي أنهك جسدي -وإن كان يؤلمني بين حِين وآخر- جعلني أكثر صلابة. وعلمت أن ذلك الكابوس الذي دنّس أحلام طفولتي هو

أثمن فرصة في حياتي. نزعت من ظهري حدبة الماضي وقذفتها منذ زمن بعيد. لم يعُد يعنيني سوى الحاضر. أنا أتحدث عن المغزى، أتحدث عن تقديس الحياة بالموت، وتعظيم الروح بالألم، وعن الجلوس مع الآلهة على العرش نفسه، لا عن الركوع أمامهم، بل أتحدث عن تلك الرجفة الفريدة، وذلك الخوف العميق، وعن عثوره على المغزى الخاص لتلك الروح المتمردة التي أثملتها القوة. ولهذا السبب كنت خائفا...

كنت خائفا، لأنني رأيت تلك اللحظة الأولى التي يقتل الإنسان فيها إنسانا، سمعت صيحة نصر القاتل، وصرخة خوف الضحية. أنا أيضا صُحت مثل القاتل وصرخت مثل الضحية. وأحببت هذا الحال للإنسان. لا توجد حقيقة أخرى زلزلت جسدي بذاك الشغف، ولا توجد حقيقة أخرى نفذت في ذاتي بذاك العمق. لهذا السبب كنت خائفا. خفتُ البداية من جديد، وعَيش تجربة تلك الحياة المهيبة مجدّدا. لهذا السبب زجرتُ نفسي. لقد خنت نفسي سنوات طويلة لأقمع ذلك الدافع العظيم الذي يستعدّ للنهوض في كل حين، وحتى لا تعود الإنسانية إلى حالتها البريئة في أبسط صورها. إن ذلك البؤس الرائع الذي صنعني من ذاتي، حاولتُ علاجه بفُتات السعادة الرخيص، فاخترت العواطف السهلة بدلا من القديمة. خدعت نفسي والعالم بأكمله أيضا. وأوشكت أن أنجح وكاد عملي يذوب في أسرار الظلام، لكنهم لم يتركوني، إذ شرعوا يقتلون باسمي دون أن أحصل على أي متعة، ودون أن أكسب حقي من ذلك الجمال الفريد، ودون الإحساس بالشبع من ذلك العمل المذهل، ودون الوصول إلى سر الظلام. لذلك لم أستطع الصبر على هذا التمرد والهمجية، ولا على هذا الإسراف؛ نعم، لهذا السبب عُدت من جديد...

1

"هناك جريمة قتل أخرى يا سيّدي!"

بدأت سلسلة الجنايات، التي حوّلت أيام الصيف المشعّة إلى كابوس، في اليوم الثاني من شهر يونيو. بعد ثلاثة أيام من المطر المتواصل... في الوقت الذي تراخت فيه المدينة بأكملها... في اليوم الأول لتلك الحرارة التي تُثقل روح الإنسان...

كنّا مساء في حديقة حانة تاتاولا. كنّا جالسين في مكاننا المعتاد، إلى طاولة خشبيّة في ظل شجرة صنّار قديمة. كانت الأوراق الخضراء الكبيرة التي زينت أغصان الشجرة العجوز ساكنة، لا نسيم فيها ولا تموّج. بدت شجرة الصنّار الكبيرة مثل هيكل عملاق في غاية الصلابة وقد انحنى على طاولتنا. أخرجَت أفكانيا المروحة للتبريد. لكن هيهات، فمع أن المروحة الصغيرة كانت تخلق نسيما خافتا، إلا أن تلك الرطوبة الشديدة التي جعلتنا نحسّ بأننا نعيش تحت الماء لم تكن تترك ياقتنا بأي شكل.

أقمت عند أفكانيا؛ لا أخفي عليكم، لقد كانت تلك الليلة من الليالي الجميلة التي سُلبَت من الحياة. نسيتُ الدنيا، ونسيت نفسي أيضًا، وتهت في ذلك الكون الساحر المسمّى بالعشق بفعل الأصوات، والروائح، والأغاني، وبالطبع أيضا القليل من النبيذ، لكن الأكثر من ذلك كلّه وجود المرأة التي أحببتها في حياتي. حينما أغلقنا حانة تاتاولا وذهبنا إلى بيت أفكانيا، لم أكن أتذكر أي شيء سوى جسدها الدافئ الذي تضوع منه

رائحة عطر اللاوند، وتلك الهمسات الحلوة التي كانت تتطاير في ظلام الليل، وضياع شخصين أحدهما في جسد الآخر، ليأتي من بعد ذلك النوم الهادئ العميق.

حينما استيقظت، كانت الشمس تجول بجرأة على وجه أفكانيا وشعرها. لم أستطع المقاومة، فأنا أيضا لمست شعرها الأشقر.. وحين فعلتُ فتحَت عينيها. ابتسمت شفتاها الذابلتان بشكل عفوي.

قالت بصوت حنون: "صباح الخير يا روحي، صباح الخير يا نوزات."

استلقيت وطبعت قبلة على شفتيها.

"صباح الخير عزيزتي أفكانيا، صباح الخير يا حياتي..." تحوّلت نظراتي إلى النافذة. "لقد مضى وقت طويل وعليّ الذهاب."

قالت وهي تجلس على السرير: "مستحيل، لن أتركك قبل أن تتناول الفطورا"

تحسَبني آكل كثيرا إذ زيّنت الطاولة بالأطعمة اللذيذة المتعددة. أصناف مختلفة من جبنة التولوم، والمضفرة، وديلي، وجبنة بالأعشاب... والزيتون بألوانه الأخضر، والأسود، والبني... والطماطم الحمراء الداكنة، والفلفل الطازج، وخيار تشنكل كوي المقرمش... وأنواع متعددة من المربى أعدته أفكانيا بيديها... مربّى الورد، والفراولة، والمشمش، والخوخ، والبرتقال، والحمضيات... كل شخص يحمل هاجسًا يحكمه، وكان هاجس أفكانيا هو المربّى. فإعداده إرثٌ أخذته عن جدتها ماريكا. كانت ماريكا تؤمن أن صنع المربّى له أثر جيّد على روح الإنسان. ومع أنّ هذه المرأة المسكينة كانت مريضة بالسكري إلى درجة لم تكن تستطيع معها تذوّق المربى الذي تعدّه بيديها، لكنها لم تتخلّ يوما عن إعداده.

قالت محبوبتي الروميّة متحدثة عن جدتها: "كان هذا بمثابة علاج لها ونوع من الطقوس الجيدة أيضا."

لا بدّ أن هذا ما جعل أفكانيا تتشبّث بهذا العُرف بعد وفاة جدّتها. كأنّها كانت تحس أنّه في حال تركَت إعداد المربّى فإنها تُهين جدتها. فكانت تضع المربّى الذي تصنعه بيدها صيفًا أو شتاء على الرفوف في مدخل الحانة. ولم يكن في وسع أحد أن يلمس تلك القوارير الملونة، لكنها كانت تهديها فقط لمن تحبّ من أصدقائها.

"يجب على الأناس الطيبين أن يتذوقوا هذه المربّى... الأناس الطيبون فقط هم من يحق لهم تذوّق هذا الطعام المقدّس."

في الحقيقة امتلأت معدتي جيدا بعد أن أكلت زوجا من بيض العيون، غير أن أفكانيا كانت تصرّ على تذوقي مربى الحمضيات.

"أعددت هذا المربى من قشور الحمضيات التي أحضرت لي بشكل خاص من مدينة مرسين. له طعم رائع، ستحس برائحته من أعماقك..."

لم أكسر خاطرها، وبينما كنت أدهن قطعة الخبز بمربى الحمضيات ذي اللون العنبري رن هاتفي. وحينما قرأت اسم علي على الشاشة أدركت أن هناك وظيفة جديدة، وأن بعضهم قتل الآخر مجددا، وأنه لا بد من الذهاب مجددا إلى مسرح الجريمة ومسح كل أجزاء المكان من أجل العثور على دليل، والسعي مرة أخرى من أجل البحث عن شاهد، واستجواب المشتبه بهم مجددا، وتتبع المتهمين من جديد... أحسست فجأة بالتعب. لم يكن لدي فضول لمعرفة كيف قتلت الضحية، ولا حتى معرفة هوية القاتل. لم تكن لدي رغبة في رؤية الدم بعد الآن، فلمس الأجسام التي أصبحت باردة باتت تخيفني. هل أصبحت كبيرا في السن؟ أم أنني بدأت أشعر بالملل من هذه المهنة؟ لا لا، حالة الاختناق هذه لم تكن بسبب

شعوري بالملل، وإنما كانت فقط بتأثير الرطوبة العالية. وعندما رفعت رأسي التقت عيناي بعيني أفكانيا ذات اللون الأخضر المائي. كانت ترمقني بنظرة قلق. لم أعبأ بالهاتف الذي بقي يرن بكل إصرار، وأكلت بشهية مبالغ فيها لقمة كبيرة من قطعة الخبز المطلية بمربى الحمضيات على أمل التخلص من هذا المزاج الذي وقعت فيه قليلا.

همهمت وأنا أمضغ: "مممممم، لذيذ جدا، حتى أنه ألذّ من مربى قشور السيدة سولا..."

"أنت سيّئ يا نوزات..." غير أنها لم تتمالك غضبها، فضربت بيدها اليمنى كتفي الأيسر. "أنت سيء جدا."

هربت من لكماتها الصغيرة وقلت: "توقفي، توقفي، أردت بذلك إثارة غيرتك." وأظهرت لها قشور المربى التي تعسّلت داخل السائل الأصفر الذهبي.

"حقا إنه لذيذ... والله، ألذّ مربّى أكلتها في حياتي. رائحتها، وحلاوتها، إنّ كلّ شيء فيها بمقداره الصحيح، سلمت يداك..."

التمعت عيناها الناعستان من سهر الليل.

"شكرا نوزات، شكرا لك، فيها العافية..."

وبهذا القدر كان من السهل جدا أن أسعد حبيبتي ذات القلب الطيب. لو لم يكن علي مصرًّا في اتصاله. نعم، بدأ اتصاله من جديد. لم تتحمل أفكانيا.

"ألن تُجيب؟ ربما يكون مهمًّا."

كتمت صوت الهاتف بدلا من الرد، وواصلت مضغ اللقمة التي كانت في فمي وأنا أبدي ملامح نشوة اللذة على وجهي. تخلّى علي عن عناده. وبعد شُرب القهوة ومساعدة أفكانيا في ترتيب الطاولة تمكنت من العودة

لمساعدي.

بشّرني علي قائلا: "هناك جريمة قتل أخرى يا سيدي، نحن في إحدى متنزّهات قاسم باشا، ومن الجيد أن تأتوا."

لم أكن واثقا بأنه سيكون جيدا، لكن كان يتوجب عليّ الذهاب...

وبعد أن طبعت قبلة شُكر على شفتي أفكانيا الدافئتين المختلطتين بالقهوة، ركبت سيارتي المخضرمة. ومع أن الوقت كان صباحا إلا أن جوف سيارتي كان حارًّا كالفرن. فتحت زجاج السيارة من الجهتين إلى آخرهما. فامتلأت بالضجيج المنبعث من شارع الاستقلال. فتحت الراديو أملا في العثور على أغنية جميلة. لكن هيهات ذلك، فقد كان فيه إعلان عن ثلاجة بصوت امرأة استماتت وهي تمدح علامتها التجارية...

ضغطت على دوّاسة الوقود وانطلقت تجنبا لخسارة المزيد من الوقت.

2

"تعرّفا على الشراسة في وقت مبكر جدا..."

إسطنبول مليئة بالمفاجآت، وهذا المتنزّه الذي ظهر لي فجأة مثل واحة في وسط أكوام الطّوب الإسمنتيّ كان كذلك أيضا. ومن المثير للسخرية وجود جسد في هذا المتنزّه الجميل الذي كان يقع على ضفاف المباني غير الملونة وسط الأزقة الضيقة.

أوقفت سيارتي خلف حافلة بيضاء تابعة لفريق معاينة مسرح الجريمة. وبمجرد أن فتحت الباب وقعت في حرارة جهنمية. كان الإسفلت، والسيارات، والرصيف، وحاوية المهملات التي على جانب الطريق، وعمود الكهرباء، والأسوار الحديدية، وباب المتنزّه الخشبي، وكل جوانب المتنزّه وأطرافه تحترق من شدة الحرارة. دخلت إلى المتنزّه بخطوات سريعة. وظننت أن الشجرة الضخمة ذات الأغصان الطويلة والأوراق العريضة ستخلصني من هذا الحر، لكن بلا جدوى. فلم يكن للظل أي فائدة أبدا، حتى عندما هربت من الشمس فإن العرق ظلّ ينزّ من كل مسامات جسدي. وبينما كنت أجفّف جبيني وقفا رأسي بالمنديل الذي أخرجته من جيبي، سمعت صوتا.

"مرحبا سيدي، أهلا وسهلا..."

كان مساعدي علي يقف أمامي على مبعدة بضع خطوات تحت شجرة الميس الصغيرة، بدا أنه لم يكن متأثرا من الحرارة أبدا، فقد كان هذا

الداهية يبتسم مُبرزًا أسنانه المستوية. وأنا أيضا حاولت الابتسام...

"مرحبا عزيزي علي، أعطاك الله العافية... أين الجثّة؟"

أشار بالجهاز اللاسلكي الذي كان يصدر أزيزا في يده إلى مكان يقع خلف الأشجار.

"هناك، في ملعب الأطفال." كان يشير إلى أبعد زاوية في المتنزّه، وهي أبعد مكان عن الشارع. "ربما أحضروه من الجهة العليا، فهناك لا يكون أحد في الليل أبدا."

كان يتحدث عن الطريق الضيقة التي تقع في أعلى المتنزّه، عند حافّة صاعدة. سألته وهو يقترب:

"من وجده؟"

"طفلان... في الثامنة أو التاسعة من العمر." وفي هذه المرة أشار بالجهاز اللاسلكي الذي كان يصدر أزيزا إلى المبنى المجاور وقال: "يدرسان في تلك المدرسة... هربا وقت الاستراحة وجاءا إلى المتنزّه ليلعبا لعبة التزحلق. وحينما صادفا الجسد صرخا بشدة."

"وهل كان مظهر المقتول يبدو بشعا جدا؟"

قال مساعدي: "لا، في الحقيقة لم يكن بشعا كثيرا... لكنه في النهاية يبقى جسدا... جسد في الحوض الرملي..."

في تلك الأثناء، وردت إلى ذهني حالة الذعر التي بدت على وجه الطفلين.

"تعرّفا على الشراسة في وقت مبكر جدا..."

لم يفهم مساعدي ما قلته.

"نعم سيدي، ماذا قلتم؟"

"لا شيء، لا شيء عزيزي علي." نظرت إلى داخل المتنزّه مرة أخرى. لم

أر فيه أي كائن حي، سوى كلبين من كلاب الشوارع كانا مستظلّين تحت شجرة الجوز، وقد أطبقا عينيهما تثاقلا من شدة الحر؛ أحدهما لونه أسود، والآخر صفراوي كلون القش. "حسنا، هل هناك شاهد... هل من أحد رأى الحادثة؟"

تهرّب بنظراته مني كما لو أنه كان مسؤولا عن ذلك.

"لا يا سيدي، لا يوجد أحد، ربما وقعت الجريمة في منتصف الليل... فمن سيأتي إلى المتنزّه في ذلك الوقت؟"

"من المفيد أن نبحث جيدا عزيزي علي. فربما هناك من كان يشرب النبيذ في الليل. هيا، تجول في الحي. واسأل المقاهي والحوانيت، هل رأوا شيئا غريبا منذ الليلة الماضية؟ هل رأوا أشخاصا مشبوهين في منتصف الليل؟ هل سمعوا صراخا، أو صيحة، أو نداء، أو أي صوت غريب؟"

"أمرك سيدي"

وبينما كان مساعدي يتجه للخروج من الباب الخشبي الذي دخلت منه قبل قليل، ناديته من خلفه.

"لنلتقي في مكان الجريمة حينما ينتهي عملك..."

سرت تحت ظل الأشجار الذي لا فائدة منه إلى أبعد زاوية في المتنزّه والتي كانت مخصصة للأطفال خلف شجرة الكستناء الكبيرة. في تلك الزاوية المنعزلة اشتعلت تحت أشعة الشمس الأراجيح، وألعاب التوازن، وجسور الحبال المخصصة للعب الأطفال الصغار الحركاتَ البهلوانية، والزّحلوقة ذات اللون الزهري. كان الجسد ملقى على الأرض التي تنتهي إليها هذه الزحلوقةّ. بدا الرجل كطفل حزين سقط فوق الرمال. كأنما تزحلق عن الزحلوقة بشدة فبقي ملقى على الأرض بعد أن لم يساعده أحد على النهوض. غطى شعر رأسه الأسود الداكن جبينه الضيق. ومما

يثير الانتباه عصابة عين ذات لون أحمر معقودة خلف رأسه. كان جبينه ملقى على الأرض فلم أستطع رؤية وجهه بشكل تام. ومن المحتمل أن الطلقة التي دخلت من مؤخرة رأسه خرجت من فمه. كان قميصه ملونا باللون الأحمر من الدم الذي انساب فوق صدره وانهمر فوق الرمال الصفراء مشكّلا أحواضا صغيرة من الدماء التي أصبحت سوداء.

"ربما قُتلت الضحية هنا."

عرفت فورا صوت زينب. كانت تقف على نحو قريب خلف ثلاثة رجال من فريق معاينة مسرح الجريمة متميزين بقلنسوات على رؤوسهم وبلباسهم الخاص يتفحصون الرمل. بدت كأنها تستظل بظل الضابط شفيق مدقق فريق معاينة مسرح الجريمة الذي كان يقف بجانبها مباشرة. كانا ناجحين، لكن لا يمكن القول إنهما كانا متّفقين فيما بينهما، خاصّة أن كليهما كانا ينفجران من شدة غيرة أحدهما من الآخر، كما هو حال كثير من أفراد الشرطة في السلك البوليسي. كان شفيق دقيقا، يُخرج الشعرة من العجين فلا تفوته أي جزئية في مسرح الجريمة. أما زينب فقد كانت تربط ما بين الجزئيات التي يجمعها شفيق وترسم موقع الجريمة رسما كاملا، وتشرح كيفية وقوع الجريمة وتقدّم لنا تقريرا عن الحالة الروحية للقاتل. لهذا السبب كانت دائما تطلب معلومات جديدة، وتضغط على ضابط فريق المعاينة. كان شفيق الذي يأتي باستمرار إلى مواقع الجرائم في هذه المدينة التي يُقتل فيها كل يوم عدد من الأشخاص يتضجّر من زينب ويختنق منها ويشكوها إليّ.

"يا سيدي، أخبروا هذه الفتاة أن لدي أعمالا أخرى أيضا. هل يُعقل أن تتصل بي هاتفيا في اليوم الواحد خمس مرات؟"

كنت أحاول أن لا أجرح أحدهما، فكلاهما عزيز عليّ، وكلاهما أيضا

لا يُستغنى عنه.

كنت أقول له: "حسنا شفيق، اهتم بعملك، وأنا سأتحدث مع زينب"
وكنت أتابع قائلا: "احذر أن تتوانى عن أعمالنا."

وها هما جاءا يعملان مرة أخرى مع بعضهما، كانا ينظران إلى الجسد الملقى في الحوض الرملي ويتجادلان فيما بينهما.

قالت زينب من جديد: "ربما قتلت الضحية هنا" وأضافت قائلة: "لأنه ليس من الممكن أن يكون الدم بهذا المقدار".

لم يقتنع شفيق بهذا الاحتمال، فرسم على الرمل خطين متوازيين فيما بينهما ممتدين إلى الزّحلوقة.

"لا أعتقد ذلك، انظري، فقد جُرّ المقتول إلى هنا. أما ترين الخطوط؟"
لم تتردد باحثتنا الجميلة في الرد عليه أبدا.

"معك حق، فقد جُرّ إلى هنا، لكن ربما سُحبَ وهو على قيد الحياة. وقُتل هنا، فبعد قليل سيعثر فريقك على ظرف الطلقة ونواتها أيضا."

أنا أيضا اشتركت في الحوار معهما قائلا: "حسنا، وأين آثار القاتل؟ يجب أن تكون هنا في مكان ما."

تهيأ كلاهما، لكن أجابت زينب عن سؤالي.

"لقد مسحها يا سيدي. فالقاتل يبدو محترفا،" وأشارت إلى مؤخرة رأسه. "قتله برصاصة واحدة، ربما استعمل كاتم صوت." ضيّقت عينيها ونظرت إلى الشارع. "وإلا لكان الصوت مسموعا. فهو لن يجازف بهذا حتى لو كان الوقت في منتصف الليل."

اختار شفيق الذي تعب من الجدال الحلّ الأوسط.

"إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن المقتول كان فاقد الوعي، وإلا لقاوَم."
تحولت نظراتي إلى رأس المقتول. كانت نصف أذنه اليمنى مبتورة من

وجهه الذي أصبح لونه أصفر.

قالت زينب: "نعم، أخذ المجرم نصف أذنه اليمنى." وأضافت مؤكدة على ذلك: "ليس هناك كثير من الدماء في هذا الجزء من الرأس، لا بد أنّه قطعها من قبل وكوى الجرح بالنار."

كان الحوار سيجري مجرى عجيبا لو لم يكن الجوّ خانقا، فقد غيّر شفيق الموضوع وهو يمسح بالجزء الخلفي من ذراعه حبات العرق التي تجمعت فوق جبينه.

"حارٌّ، حارٌّ جدا يا سيدي. كأننا نعيش في مستنقع..."

وكلما ارتفعت الشمس أصبح المتنزّه أكثر خنقا، وصارت أنفاسنا متقطعة وألسنتنا جافة وحلوقنا يابسة. وبينما كنت أنظر حولي لمعرفة ما إذا كان مع أحدهم ماء، وقعت عيني على شيء زهري اللون في الرمال الصفراء الذهبية. كان هذا الشيء تحت رجل الضحية. أثار فضولي، فتقدمت قليلا نحو الحوض الرملي. كان شفيق مستمرا في حديثه.

"إذا كان الجو حارا في ساعات الصباح إلى هذه الدرجة، فالله أعلم كيف سيكون عند الظهيرة؟!"

قلت بصرامة: "دقيقة، دقيقة يا شفيق."

ذهل شفيق، لكن طغت علامات الفضول على وجهه أكثر من تأثره بالموقف. لاحظت زينب ذلك أيضا.

"ماذا هناك سيدي، ماذا رأيتم؟"

بدلا من الرد عليها، سألت الشرطي الأنحف من بين رجال الشرطة الذين كانوا يعاينون الجسد.

"ما ذاك الشيء الزهري؟"

أجاب شفيق موضحا: "إنها لعبة يا سيدي، لعبة باربي. تركتها هناك

كي تروها. ولكي يبقى مسرح الجريمة كما هو..."

عدت إلى الشرطي النحيف من جديد.

"يا بني، أعطني تلك اللعبة."

مدّ يده اليمنى التي كانت داخل القفّازات البلاستيكية إلى لعبة باربي وأمسكها بإصبعيه الإبهام والسبّابة وناولني إياها. أمسكت رجل اللعبة الأيسر بالمنديل الذي أخرجته من جيبي. ومن حيث لا أدري، سقطت الكلمات من شفتي بشكل عفوي.

"أيسون! إن هذه لعبة أيسون!"

كان الجميع ينظر إليّ بدهشة. وبعد فترة قصيرة من الصمت، سألت زينب بصوت مليء بالحيرة.

"أهي ابنتكم؟ لكن، كيف يمكن ذلك؟!"

قلت: "لا أعرف، لا أعرف يا زينب."

كان شفيق ورجال الشرطة الذين لم يفهموا ما يجري ينظرون إلينا باهتمام. لم يكن بوسعي الاهتمام بهم، فقد كنت أتمعن في اللعبة ذات الشعر الأشقر. قرّبتها إلى وجهي قليلا. لم يكن هناك أي كسر في ذراعها الأيمن. عاينتها مرة أخرى لكي أتأكد، لا، ليس فيها أي كسر. أخذت نفسا عميقا.

"لا لا، إنها ليست لعبة أيسون. فذراع لعبتها مكسور، وأنا من ألصقته."

"هذا يعني أن هذه اللعبة ليست لعبة المرحومة طفلتكم يا سيدي. صحيح، هذا مستحيل، فكيف يمكن أن تكون لعبتها؟"

اطمأن شفيق، وبدأ يطلق ظنونا لا حاجة لها مطلقا.

"ربما هذه اللعبة ليست لها علاقة بالجسد أبدا. ربما نسيتها إحدى

الفتيات اللاتي أتين للعب في الأمس. فهذا المكان هو متنزّه للأطفال في النهاية..."

في الحقيقة كان من الممكن أن يكون كذلك، وأوشكت أن أوافقه الرأي لو لم أشعر بشيء غريب على شعر رأس القتيل. كان شعر رأسه الضخم كثيفا جدا، لم يكن هذا السواد اللامع الذي كان يحترق تحت أشعة الشمس يبدو طبيعيا أبدا. نعم، فقد كان الرجل يستعمل باروكة شعر. وحينما لاحظت هذه الجزئية ازداد اهتمامي بشكل أكثر. وتقدمت بضع خطوات نحو الرجل وحاولت رؤية وجهه. لم أستطع رؤيته. طلبت المساعدة من ذلك الشرطي مرة أخرى.

"يا بني، أحلل هذه العصابة عن القتيل، ثم ارفع لنا رأسه."

حلّ الشرطي ذو الوزن الخفيف قطعة القماش المخملي بمهارة كبيرة، ثم حمل الجسد ورفع رأسه إلى الأعلى ببطء شديد. جفلت منه، ودهشت لكنني تمالكت نفسي جيدا. حبست أنفاسي ونظرت إليه مرة أخرى. هذا الأنف المقوّس، وهذه العينان ذات اللون البني المتجمدتان في حفرتين عميقتين تحت حاجبيه السميكين، وهذا الذقن المدبب وذو الغمازة...

قلت: "هذا، إنه ذلك الدنيء... إنه ذلك الحقير!"

نعم، لقد كان هو، كبر في السن قليلا، لكنه كان هو بعينه ولا أشك في ذلك. كان شفيق وزينب في دهشة مما يجري. تمعّنت زينب بالضحية وحينما أدركت أنها لن تتخلص من فضولها لم تصبر وسألت: "من هو؟ عمن تتحدثون يا سيدي؟"

تجهّم وجهي من تلقاء نفسه وكأنه رأى مخلوقا بشعا.

"ذلك الدنيء... إنه ذلك الدنيء... إنه ذلك الشاذ الذي تحرّش بابنتي قبل سنوات."

3

"هل كانت مصادفة، أم رسالة مقصودة لي؟"

كنت جالسا تحت شجرة الصفصاف ذات الظل المتناثر. وكان مُساعدي علي الذي يقف أمامي قد عاد من الحي خالي الوفاض بعد حديثه مع الأهالي. إذ لم يصادف أحدٌ أي حادثة غريبة، ولم ير أحدٌ أيّ شخص مشبوه. فكما قالت زينب إن المجرم أو المجرمين تحركوا باحترافية. لكن مهما يكن، لا بد أنهم تركوا مفتاحا واضحا، ولا بد أنهم تركوا دليلا سيقودنا إليهم. فهذا ما كان يحدث سابقا، وفي هذه الدعوى أيضا الأصل أن يكون كذلك... لكن فريق معاينة مسرح الجريمة وبعد جمعه المعلومات القليلة التي في حوزتنا لم يصل إلى أيّ دليل أبدا. لم يتمكن من العثور على دليل واحد في المرحلة الأولى على الأقل. كانت زينب التي لم تستسلم بسهولة، تبحث في الحوض الرملي عن ظرف الطلقة ونواتها. أما أنا فقد كنت أتظاهر بالاستماع إلى ما يقوله علي، لكن ذهني بقي عالقا بالسؤال عن ما إذا كانت هذه الجناية لها علاقة بابنتي أو لا. وهل ترْكُ هذا الرجل الذي تحرّش بابنتي أيسون، مع لعبة باربي بلباسها الزهري في موقع الجريمة مصادفة أم رسالة مقصودة لي؟ وبينما كان ذهني مشغولا بهذه الأسئلة، جاء المدعي العام نادر إلى موقع الجريمة.

قال بصوت سلطوي: "صباح الخير يا أصدقاء،" وحينما رآني قال بصوت لين: "أوو، سيدي النقيب. أنتم هنا؟ معنى هذا أنتم من سينظر

في القضية. جميل، سنعمل معا إذن."

كان مثل علي، بدا وكأنه لم يتأثر بالحرارة على الإطلاق، كان جسمه رشيقا يضاهي جسم مصارع، وصوته قوي. نهضت على قدمي متخلصا من خمولي.

شددت على يده قائلا: "صباح الخير، صباح الخير حضرة المدعي."

اقتربنا بخطوات ثقيلة مثل صديقين وليس كمسؤول وموظف نحو الحوض الرملي الذي أحرقته شمس الضحى بحرارتها.

"نعم، الضحية هناك."

نزل نادر على الفور إلى الحوض الرملي ليعاين الجسد قبل أن أتمم كلامي. فواصلت كلامي وأنا جاثم فوق الحدبة التي على الحافة.

"كما ترون قُتل بطلقة واحدة في مؤخرة رأسه... وأخذ القاتل أيضا نصف الأذن اليمنى للمقتول. وهذا يقوّي احتمالية أن هذا القاتل يعمل بالأجرة. فربما يأخذ قطعة من المقتول ويعطيها للشخص المؤجّر كي يثبت قيامه بجريمة القتل. وهناك احتمال كبير أن المقتول سُحبَ إلى هنا. فربما فقد وعيه. وسوف نعلم كيف أُفقدَ وعيه بعد تشريح الجثة. واحتمال أن يكون القتلة أيضا اثنين، ومن يدري، ربما واحدا فقط؟ وما زال الوقت مبكرا للحديث بشكل قطعي..."

وبينما كنت أسرد هذه الأمور، كان هناك أمر تردّدتُ في الخوض فيه؛ هل يتوجب عليّ إخبار نادر باحتمال أن تكون الجريمة لها علاقة بابنتي، أم أن أخفي هذا الاحتمال في نفسي؟ وفي الحقيقة، كنت أرغب في تولّي هذه القضية. فالتردّد الذي أحاط بي حينما سمعت الخبر أول مرة وأنا في حانة تاتاولا قد اختفى. جريمة القتل هذه أصبحت تثير اهتمامي بشكل غريب. ربما كان اعتقادي باحتمال ارتباطها بابنتي هو السبب في

ذلك، لكن هناك سبب آخر أيضا: وهو أنها جريمة مذهلة. قتل الضحية بهذه الاحترافية، وإعداد مشهد متزن في مسرح الجريمة... كنت أرى أن جريمة القتل هذه نوع من التحدّي، وأردت مع التحيّز المهني، أن أدفّع هذا القاتل الجريء ثمن هذا السلوك الهمجي. ومن جانب آخر، لم يكن من الصحيح أن أنظر في هذه القضية إذا كانت فعلا متعلقة بي. لذلك كان لا بدّ أخلاقيا من الحديث عن لعبة باربي التي أهداها المقتول إلى ابنتي، لكن إمكانية سحب الملف مني منعتني من التصريح بهذا الأمر. والغريب أيضا، هو أن شفيق وزينب لم يتكلما في هذا الموضوع أبدا. مع أن زينب لم يكن لديها مانع في سرد أفكارها بالتفصيل عن كل ما له علاقة بالجريمة للمدعي الأنيق. ولم يكن شفيق مختلفا عن زينب، فقد شرح أيضا من جديد إلى جانب الطريقة التي قتل بها المقتول، كلّ الإمكانيات المحتملة لكيفية نقل الجسد إلى هنا. لكنهما لم يتحدثا عن احتمالية وجود علاقة بين لعبة باربي وابنتي ولم يذكرا له معرفتي بالقاتل. تركا الأمر لي حتى وإن لم يكن هذا الموضوع سرًّا بيننا.

كان المدعي الشاب الذي لم يكن له أي علم بالعاصفة الصامتة في ذهني يستمع لما يقوله شفيق وزينب من جهة، ويواصل معاينته الحوض الرملي باهتمام من جهة أخرى. كنت أعرف نادر، فقد عملنا سويا في بعض القضايا، كان رجلا متعلقا كثيرا بعمله، وأحد رجال القانون الذين ندر وجودهم في الآونة الأخيرة. ولا أخفي عليكم، حتى أنا شخصيا، اعتبرت معاينته مسرح الجريمة بهذه الدقة تحت هذه الحرارة الخانقة نوعا من المبالغة. لا بد أن بعض الأمور كانت تدور في ذهنه، لكن كلما طال أمد صمته صار أكثر إزعاجا.

نهضتُ وقلت: "هذا الرجل كان متحرشا بالأطفال، صدر حُكم

بحقه ودخل السجن."

قال باستغراب: "أحقا كان هكذا؟ أكان متحرشا بالأطفال؟"

تنهدت قائلا: "نعم هكذا، وقد تحرش بابنتي أيضا."

واعترفتُ أخيرا، إذ لا يمكنني أن أخفي مثل هذه المعلومة على أيّ حال. اعترافي كان في مكانه، شعرت بالراحة قليلا، غير أن نادر فتح عينيه الجميلتين المشابهتين لعيني امرأة مندهشا وكأنهما سيطيران من مكانهما.

"ماذا تقولون يا حضرة النقيب؟ هل تحرش بابنتكم؟"

هززت رأسي بهدوء: "نعم، تحرش بابنتي المتوفاة، قبل سنوات... قبل أن أفقد أيسونتي... وهناك المزيد أيضا، فهذا المقتول أهدى ابنتي مثل هذه اللعبة الزهرية."

ازدادت دهشته لكنه تمالك نفسه سريعا. رمق الجسد الذي بدأ ينتفخ ببطء تحت أشعة الشمس الحارقة وكأنه يبحث عن جواب لسؤال مهم، وحينما لم يستطع العثور على إجابة نظر إليّ من جديد.

"ما رأيكم بهذا العمل؟ ما المغزى من هذا كله؟"

في الواقع، لم أكن هادئا على الإطلاق، غير أني تظاهرت بالهدوء، فضممت ذراعيّ على صدري وبدأت بسرد الاحتمالات.

"من المحتمل أن من قام بهذا العمل شخص قد تعرضت ابنته أو قريبة له للتحرش الجنسي. لأنني قد عشت تلك الحادثة أيضا. فليحفظكم الله من هذا البلاء، يصبح الإنسان مجنونا. وتصبح عيونكم عمياء لا ترى شيئا على الإطلاق. وتكادون بهذا الغضب الأعمى أن تقتلوا المتحرش." وأشرت بيدي إلى الضحية. "لكن الغريب في الأمر هو أنه ليس هناك أي غضب أو انفعال في هذه الواقعة، وليس هناك أي حركة جنونية، فالجثة خالية من الثقوب، وأُنهيَت حياة الرجل هذا بطلقة واحدة وبكل هدوء

وذكاء ومهارة كبيرة..." عدت من جديد للمدعي: "حتى أنهم تركوا رسالة. نعم، إنّ ترك الضحية في هذا المتنزّه، وربط عينيه بقطعة قماش حمراء، وطلقة واحدة من مؤخرة رأسه، وغيرها جميعا لها مغزى. فالقاتل يريد أن يعطينا رسالة وإن كنّا لا نعرف مغزاها حتى الآن..."

"أليس ما حدث واضحا للعيان يا سيدي؟" قالها علي مقاطعا كلامي. "فهؤلاء الرجال أرادوا أن يقولوا لنا: أنتم بصفتكم ممثّلين للدولة لم تستطيعوا منع المتحرشين، ولهذا السبب قمنا بهذا العمل."

رمق نادر مساعدي علي بطرف عينه، غير أنه لم يكن مكترثا كثيرا. وسألني وهو يمسح حبات العرق التي تجمعت فوق جبينه بمنديل أزرق ليليّ أخرجه من جيبه.

"ما علاقة هذه الحادثة بكم يا حضرة النقيب؟ ولماذا يريدون إدخالكم في هذا العمل؟"

شعر علي بالضجر لعدم الاكتراث به، وأراد أن يجيب بدلا عني، غير أن زينب كانت أسرع في الرد.

"ربما ليس هناك أي علاقة. ومن المحتمل أن تكون مجرد مصادفة فقط. وربما يكون هذا المتحرش أهدى مثل هذه اللعبة لفتاة أخرى. وقد يكون هذا الرجل متعلقا بلعب باربي ذات اللباس الزهري. فالأب الذي تعرضت ابنته للتحرش الجنسي قتل هذا الرجل وترك بجانبه هذه اللعبة أيضا."

لم تختف علامات الاستفهام في عيون نادر بأي شكل، فهو مثلنا أيضا، كان يحاول رؤية الصورة بأكملها، لكنه لم يستطع وضع أجزائها في مكانها.

"ربما." قالها أخيرا. "ربما آنسة زينب، سنعرف ذلك قريبا." ونظر من جديد إلى الحوض الرملي وكرر كلامي قائلا: "طلقة واحدة في مؤخرة

الرأس، وعصابة عين ذات لون أحمر مخملي، واختيار متنزّه الأطفال كموقع للجريمة، ولعبة بلباس زهري... أنت محق يا حضرة النقيب، كل هذه الأمور تتضمن حكاية... حكاية لم نعرف مضمونها الكامل حتى الآن. آمل أن لا تكون هذه طقوسا..." أخذ نفسا عميقا. "إن هذه الحادثة تشبه حادثة قاتل متسلسل أكثر من أن تكون لقاتل يعمل بالإيجار.. آمل أن أكون مخطئا، وآمل أن لا تتكرر مرة أخرى، لكن من المفيد أن نعمّق التحقيق في هذا الاتجاه." صمت لحظة، ثم أشرق وجهه بابتسامة مليئة بالثقة. "لا تقلقوا، سنعمل معا سواء أكانت هذه الحادثة لها علاقة بكم أو لا. فأنا لن أفوّت فرصة العمل مع النقيب نوزات..."

4

"لكنه قاتل متسلسل من نوع مختلف..."

عاكف صويقان... كان هذا هو اسم القتيل. ذلك المتحرش الذي وجدنا جثته اليوم في الحوض الرملي في متنزّه الأطفال... كان شابا وسيما حينما عرفته، غير أن شعره كان قد تساقط منذ ذلك الوقت. ما زال وجه الرجل ماثلا أمام عيني حتى هذه اللحظة. فأنا حفظت في ذهني حياتي كلها بأدق تفاصيلها. لا أدّعي أن ذاكرتي قوية، على العكس، فقد أصبحت أنسى كثيرا في الآونة الأخيرة. حتى أنني كنت أنسى في الصباح مكان ساعتي التي خلعتها في المساء. لكن تلك الحادثة كانت مؤثرة جدا بالنسبة إليّ حتى أنني كنت أتذكر عاكف بكل تفاصيله. كان وجهه نظيفا، ومَن يراه لا يظن أبدا أن هذا الشخص يمكن أن يكون مصابا بمرض التعدي على الأطفال. كان يتحدث اللغة التركية بشكل سليم، وكان لطيفا للغاية، بل لطيفا أكثر من اللازم... فأنا أيضا حينما رأيته للمرة الأولى لم يخطر إليّ بتاتا أنه قد يكون منحرفا. كان يعمل في محل القرطاسية المقابل لمدرسة أيسون...

ابتلينا بهذه الحادثة المثيرة للاشمئزاز حينما كانت ابنتنا أيسون في الصف الثالث في المدرسة الأساسية. كان من لاحظ الأمر زوجتي المرحومة كزيده. فقد ارتابها الشك حينما عادت أيسون من المدرسة ومعها لعبة باربي بلباسها الزهري، فسألتها عن مصدر هذه اللعبة. وعندما أجابت

أيسون "إنها من أخي عاكف" ازدادت شكوكها أكثر، وأخبرتني بالأمر في ذلك المساء. لم أكترث على الإطلاق حينما سمعت ذلك لأول مرة، فقد كانت أيسون فتاة قريبة من الجميع، ولا يمكنها أبدا رد أولئك الذين يودون التحدث معها. ومع أن والدتها قد حذرتها مرارا وتكرارا، إلا أنها لم تتخل أبدا عن طبعها اللطيف أمام الجميع. ولأنني كنت أعرف طبعها جيدا، وربما لأنني اعتقدت أيضا أن ذلك الأخ عاكف أحبها مثل أخته، وأراد أن يهديها هدية. لكن كزيده أدركت الأمر بحدسها الذي لا يخطئ.

قالت بغضب: "لماذا يا حياتي؟ لماذا يهدي ذلك الرجل لعبة لطفلة لا يعرفها؟ أيجوز ذلك؟! ما هي صفته كي يعطي ابنتي هدية؟!"

لم أستطع الاعتراض على زوجتي وإن كنتُ أجد في غضبها نوعا من المبالغة. ولم تتوقف كزيده عند هذا الحد، بل إنها أمرتني بصوت سلطوي.

"غدا ستذهب إلى ذلك الرجل يا نوزات... يجب أن تذهب إليه وتعيد الهدية إليه."

فاضت عينا أيسون عندما قالت زوجتي هذا الكلام، يبدو أنها أحبت هذه اللعبة، ومن الواضح أنها ترغب في إبقائها لديها. أدركت كزيده حزن أيسون، ووجدت بذكائها العملي الحل الأوسط على الفور.

"حسنا، نعطيه ثمنها... وتبقى اللعبة عندنا، لكن حذّر ذلك الرجل يا نوزات، حذّره من أن يعطي هدية أو غيرها لأي كان مرة أخرى،" ثم توقفت أمام أيسون. "سنجلب لك كل ما تريدين يا ابنتي. ويجب عليك أن لا تقبلي هدية من أحد. فهذا ليس صحيحا..."

أمالت أيسون رأسها إلى الأمام بهدوء، ثم نظرت إليّ كعادتها تطلب مني المساعدة. قلت لها: "والدتك محقة يا ابنتي. يجب عيك أن لا تقبلي هدية

من أي شخص لا نعرفه. فنحن سنجلب لك كل ما تريدين..."

رفعت أيسون التي أدركت أهمية الأمر شفتيها المتدليتين، ومسحت عينيها المبللتين، وجلست تحل واجبها المدرسي دون أن تطيل في كلامها. ومع أني تحدثت مع ابنتي بهذا الشكل إلا أنني كنت أعتقد أنه لن تكون هناك حيلة مبطنة تحت هذه الهدية. ومع ذلك، في صباح اليوم التالي أخذتُ ابنتي إلى المدرسة بناء على طلب كزيده. مررنا أولا بمحل القرطاسية، قالت أيسون "ها هو أخي عاكف" وهي تشير إلى شاب وجهه حسن ولباسه جميل كان يقف خلف الطاولة. اصفرّ وجه الشاب خوفا حينما رآني بجانب أيسون، لكنه حاول أن يبدو هادئا. سألته وأنا أضع اللعبة فوق الطاولة: "أأنت من أعطى هذه اللعبة لابنتي؟"

زيّن شفاهه الحمراء المكتنزة بابتسامة بريئة. وبعد أن ابتلع ريقه تلعثم قائلا: "لا ت... لا ت... لا تؤاخذوني، فقد طلبت ابنتكم هذه اللعبة كثيرا فأعطيتها إياها عن طيب خاطر... اعتقدت أن إسعاد الأطفال عمل نؤجر عليه."

بدا صريحا، لكنني لم أكترث به.

نبّهته قائلا: "اسمع يا عاكف، لا تعط الأطفال هدايا عندما لا يكونوا مع أهليهم..."

قال: "لكن يا سيدي..." فأغلقت فمه بقولي: " لا لكن ولا غيرها، أنت بهذا توقع نفسك في مصيبة. هل فهمت؟"

"فهمت يا سيدي..." قالها وقد بدا أنه مستسلم، غير أنه لم يتوقف عن المتابعة دون أن يخرج ما بداخله. "لكن صدّقوني، لم أكن أحمل نيّة سيئة..."

قاطعته قائلا: "هذا ليس له علاقة بالنية يا عاكف" وتابعت "لا أنا

ولا ابنتي نعرفك. ولا أنت أيضا تعرفنا. قد تكون فعلت هذا بنية حسنة، لكنه يبقى تصرفا في غير محله. والآن ستأخذ ثمن هذه اللعبة، ولن تعط بعد الآن هدية أو غيرها لا لابنتي ولا لأي طفل على الإطلاق."

غمغم قائلا: "حاضر سيدي، كما تريدون". كان محطما، وحزينا إلى درجة ندمت عندها على تصرفي معه بقسوة. وربما لهذا السبب، شددت يده مسلما عليه بعد أن أعطيته ثمن اللعبة. ضاعت يده الرقيقة في كفي. وقلت في نفسي كم هي باردة، كأنها يد جثّة. كان الفتى خائفا، بل مرعوبا جدا.

وبينما كنت أظن أنه لا بدّ أن أتفوه ببعض الكلمات بنية الاعتذار، لاحظت نظرته إليّ. كانت لمعانا مليئا بالكره، كانت مثل سكين وامض لعق وجهي بسرعة البرق، كانت لحظة ثم اختفت... كانت قصيرة جدا، فلم أكن واثقا مما رأيت، وقلت في نفسي ربما كنت مخطئا فيما رأيت. ومهما يكن، فإني لم أنس تلك النظرة، وبمجرد عودتي إلى المركز اتصلت بمُنير الأحول من فرع الخدمة العامة وطلبت منه التحقق من عاكف صويقان. وبعد بضع ساعات بانت الحقيقة. فمع أن عمره ما زال خمسًا وعشرين سنة إلا أنه احتُجز أربع مرات بتهمة التحرش الجنسي بالأطفال. في تلك الأثناء راودتني نفسي باقتحام محل القرطاسية واعتقال ذلك الفتى. لكن بأي تهمة سأفعل ذلك؟ إذ لا أستطيع أن أزجه في السجن لأنه أهدى ابنتي لعبة باربي. اتصلت بمنير من جديد، فشرح لي كل ما جرى منذ بدايته، وطلبت منه أن يتعقب هذا الشاذ. كان منير من الشرطة الجوالة.

"لا تقلقوا سيدي نوزات، سيقع ذاك الدنيء بين أيدينا في أقرب وقت."

وفعلا حدث ما قال، فقبل أن يمضي اسبوعان قبضوا على عاكف

صويقان متلبسا في محل القرطاسية وهو يحاول التحرش بيده بطفلة أخرى.

لقد رأيت هذا المتحرش مرة واحدة، وبعدها لم نلتق بتاتا. لكن بعد هذه الحادثة بثلاث سنوات، قرأت في الصحيفة خبرًا عن اعتقاله بتهمة التحرّش بطفلة عمرها ثمان سنوات والزج به في سجن توكات. وذُكر في الخبر أيضًا إصابته بجروح بالغة بعد أن حاول السجناء قتله، لكنّه خُلّصَ منهم ووُضع في زنزانة انفراديّة كي يُكمل عقوبته. هذا يعني أنه أنهى عقوبته واندمج بعدها مع الناس من جديد. لكن يبدو أن هناك أناسا لم يعفوا عنه، فقاموا بإنهاء حياة هذا الحقير بطلقة واحدة في مؤخرة رأسه. كان كل شيء طبيعيا حتى الآن. كان بإمكاني أن أغض الطرف عن هذه الحادثة ولا أعيرها اهتماما، لكن عقلي بقي عالقا بلعبة باربي ذات اللباس الزهري. هل يا ترى كانت مصادفة، أم أن بعضهم يريد إقحامي في هذه القضية؟ إن كان الأمر كذلك، فستظهر رائحته عما قريب...

وبينما كنت أفكّر في ذلك، دخل علي وزينب بعجلة إلى مكتبي. وحينما رأيتهما علمت أنهما توصلا إلى معلومات مهمة. فعلي كان متوترا، أما زينب فقد كانت تبدو هادئة، لكن اللمعان في عينيها ذات اللون الكستنائي كان ينبض بالإثارة. لم تستطع أن تتمالك نفسها أكثر، فوضعت على الطاولة الملف المغطى باللون الأزرق الذي كانت تمسكه في حضنها وقالت:

"القط الأعمى[1]... لقد استيقظ القط الأعمى يا سيدي..."

"أي قط أعمى؟ ومن الذي استيقظ يا زينب؟"

"القاتل المتسلسل... السيد نادر كان محقا، فهذه جريمة قاتل متسلسل."

---

1 إشارة إلى لعبة القط الأعمى المنتشرة في كثير من أنحاء العالم، حيث يتم ربط قطعة قماش على عيني أحد اللاعبين، ليبدأ بعدها بمحاولة إمساك الآخرين وعيناه معقودتان.

اشترك علي في هذه المحادثة المثيرة.

"نعم سيدي، نحن في مواجهة قاتل رهيب."

لم يكن في صوته أي خوف، على العكس تماما، فقد كان يتحدث بلهجة المحارب الذي وجد الخصم المناسب، ولكنني لم أفهم شيئا على الإطلاق.

"يا أبنائي، هلّا شرحتما لي الموضوع منذ البداية؟ لماذا تتحدثان هكذا بكلام مجزأ ومنفصل؟!"

فتحت زينب عينيها مكررة ما قالته: "إنه القاتل المتسلسل يا سيدي، إنه القط الأعمى الذي لا يرحم."

اختطف علي الكلام من فم زينب وقال: "لكنه قاتل متسلسل من نوع مختلف يا سيدي... إنه يقتل المتحرشين بالأطفال." بدا وكأنه يتحدث بلغة المعجب بالقاتل. "ولُقّب بالقط الأعمى لأنه يربط عيون القتلى. فكأنه أراد أن يقول بذلك: أنا لست من يقتل هؤلاء الأنذال، وإنما هي أرواح الأطفال الذين تعرضوا للتحرش الجنسي. فهو يرى في نفسه أنه شخص ينشر العدالة. نعم، إن هذا لا يعدّ ظلما كبيرا."

ومع أننا لم نتمكن بعد من تحديد هوية القاتل، فإن علي بدأ بالتعليق والتحليل.

"ما هذا يا علي؟ يبدو أنك توافق الرجل على الجريمة التي ارتكبها."

تلعثم، وبرقت عينا ذلك الماكر الذي أعرفه جيدا.

"لا يا سيدي، أنا لا أوافقه على الجناية، لكن... القط الأعمى إنسان عجيب. ومن الواضح أنه كرس نفسه لمحو الأشرار... فهو لا يشبه القتلة الذين قبضنا عليهم."

بدأت تدور أشياء في ذاكرتي. فقد تذكرت الخبر الذي كان يشير إلى

"وجود قاتل متسلسل"، كانت الصحف تفتتح عناوينها الرئيسية به، وأجهزة التلفاز تصرخ به. في تلك الأثناء كنت في مدينة أنطاليا أتولّى جريمة قتل لقاتل هَوَسيّ. لهذا السبب لا أتذكر التفاصيل حول القاتل المتسلسل، لكنني ما زلت أتذكر جيدا أنهم لقّبوه بالقط الأعمى. لكن هل هو من قتل عاكف صويقان؟ هذا ما كنت غير متأكد منه.

"ومن أين تعرف يا علي؟!" قلتها مُحبِطًا حماسه. "حتى أننا لسنا متأكدين من أن القاتل هو القط الأعمى. فهل تظن أننا عثرنا على القاتل لأن عيني عاكف مربوطتان؟"

أزالت زينب فضولي.

"ليس فقط عصابة العين يا سيدي، وإنما أيضا الطريقة التي ارتكبت بها جريمة القتل نفسها. فهو يضرب القتلى في مؤخرة رؤوسهم بطلقة واحدة، ويعقد عيونهم بعصابة حمراء، ويقطع آذانهم اليمنى، ويترك بجانبهم لعبة."

أكمل علي الذي لم يستطع الوقوف في مكانه الكلام بدلا من زينب.

"علاوة على ذلك، يترك القتلى في الأماكن المخصّصة للأطفال مثل حديقة المدرسة، أو في متنزّهات الأطفال، أو في حديقة الملاهي. هل يعقل أن يكون التشابه كبيرا إلى هذه الدرجة؟ انظروا إليّ، ها أنا أبصم هنا! إن قاتل عاكف صويقان هو القط الأعمى."

كان من الممكن ذلك، ولكن يجب أن لا نتخذ أي قرار سريع.

"متى كانت آخر جريمة ارتكبها هذا القاتل؟"

فتحت زينب التي كانت تجلس على الأريكة الملف المغطى باللون الأزرق.

"الآن سأخبركم يا سيدي." بدأت أصابعها الطويلة والرقيقة تنزلق على إحدى الأوراق. "ها هي هنا... كانت في شهر يونيو في عام 2012. نعم،

فقد كانت آخر جريمة ارتكبها في السادس من شهر يونيو عام 2012. لقد قتل شخصا يُدعى نوري قارلي داغ، كان يعمل ميكانيكي سيارات... سُجّلت بحق القتيل تهمة التحرش بالأطفال... فقد ثبت قيامه باغتصاب ثلاثة أولاد. ولهذا السبب أخذ عقابه ودخل السجن. وبعدها وُجدت جثته في السادس من يونيو في حديقة تابعة لمدرسة أساسية في حي ألتون إزادة... وكانت بجانبه لعبة شاحنة ذات لون أرجواني. قُتل بطلقة واحدة في مؤخرة رأسه. كانت على عينيه عصابة حمراء مخملية، ونصف أذنه اليمنى مقطوعة. ولم يُعثر في مسرح الجريمة على ظرف الطلقة أو نواتها."

كان هذا التشابه مدهشا كثيرا، ولا أخفي عليكم فقد بدأ القط الأعمى يثير اهتمامي.

"ألم يرتكب أي جريمة بعد ذلك التاريخ؟"

نظرت زينب إلى الملف من جديد.

"لا يا سيدي، فبعد تلك الحادثة دفن نفسه في صمت، وبتعبير مهني، دخل في سبات عميق. لكنه بعد سنوات، لا ندري ما الذي حدث حتى عاد للقتل من جديد..."

"وما الذي سيحدث؟!" قالها علي وقد نهض من مكانه. "فهناك الكثير من الناس المنحرفين في هذه الدولة، وهذا الرجل المسكين وجد وظيفة له..."

فقَد علي توازنه ووصل أخيرا لمرحلة يدافع فيها عن القتلة، ولم يكن بوسعي الآن أن أدخل معه في نقاش حول العدالة.

"حسنا، كم شخصا قتل هذا الرجل حتى اليوم؟ هل تعرفون عدد الضحايا؟"

حفظَت زينب هذه المعلومة كغيرها من المعلومات الهامة.

"12 شخصا يا سيدي... علما أنه ارتكب الجرائم جميعها في عام 2012. فهذا العدد 12 مهم..."

صمتت، وكانت ترمقني وكأنها تريد أن ترى مدى تأثير كلماتها.

"ما المقصود بالعدد 12؟ ما الذي يتضمنه؟"

لمع في عينيها نور مبهم.

"لا نعرف المقصود بالضبط، سنعرفه عما قريب."

نعم، فقد كان هذا الرجل الملقب بالقط الأعمى لغزا كبيرا يقف أمامنا. ربما كان مجنونا يظن نفسا مقاتلا يحارب في سبيل العدالة. وربما كان عاجزا يحاول أن يشفي نفسه بقتل روحه المجروحة. وسألت حتى أكون على بينة من الأمر.

"هل كان جميع الأشخاص الذين قتلوا في عام 2012 متحرشين جنسيا بالأطفال؟"

أرجعت زينب بيدها إلى الخلف شعرها الذي تدلى أمام عينيها.

"بكل تأكيد يا سيدي، كلهم كانوا متحرشين جنسيا بالأطفال، واعتُقلوا جميعا بهذه التهمة. اعترف بعضهم بذنبه، وبعضهم الآخر كان من خلال فحص الأطفال الذين تعرضوا للاغتصاب. وقد عوقب كل منهم على الأقل مرتين بسبب هذه الجريمة البشعة."

"وهل قام القط الأعمى بقتلهم جميعا بالوتيرة نفسها؟"

هزت رأسها للأسفل بشكل قطعي.

"بالطبع، قتلٌ بطلقة واحدة في مؤخرة الرأس، وعصابة عين حمراء، وقطع الأذن اليمنى، ولعبة بجانب الجثة في الأماكن المخصصة للأطفال..."

"وكان عددهم 12 متحرشا في عام 2012،" قالها علي بشغف وتابع. "هذا إن لم يكن هناك ضحايا آخرين لم نعثر عليها، فربما قُتل أيضا..."

"لا أعتقد ذلك عزيزي علي." قالتها زينب مقاطعة كلامه. "فالقاتل لا يخفي جرائمه، على العكس تماما، هو يريد منا أن نراها، يريد منا أن نعرف أنه عاقب المتحرشين بالأطفال. فهو يؤمن أنه بذلك يحقق العدالة. لكن الأهم من ذلك، أنه ربما تعرض في الصغر للتحرش أو الاغتصاب ويسعى للأخذ بالثأر. يسعى للانتقام من الاغتصاب الذي حطم جسده ومزق روحه على حد سواء... وربما ذلك الرقم 12 له علاقة مرتبطة به... فربما تعرض للتحرش في حياته 12 مرة..."

قلت متوقعا: "وربما 12 شخصا قاموا ب..." لم تتحمل باحثتنا هذا الاحتمال.

" لا، هذا غير معقول، 12 شخصا أمام طفل صغير..."

لقد رأيت وسمعت ما هو أسوأ من ذلك، لكن الجدال في هذا لن يوصلنا إلى أي حل.

"ألا توجد معلومات أخرى عن هذا الرجل؟ معلومات حول هوية القط الأعمى... دليل ... شاهد عيان... أثر..."

قالت زينب بيأس: "لا يا سيدي، فهذا الرجل في الواقع واسع الحيلة. قتل 12 شخصا، وخرج منها مثل الشعرة من العجين. لم يترك خلفه أي ثغرة مفتوحة، ولا شاهدا، ولا أثرا، ولا دليلا. إنه يعرف طريقتنا في العمل جيدا، لا ندري فربما يكون واحدا منا..."

قهقه علي قليلا.

"ربما يكون شفيق، مهما يكن، فهو في النهاية ضابط في فريق معاينة مسرح الجريمة."

لم نضحك لا أنا ولا زينب. فأنا لا أحب أن أتهم الأشخاص الذين أعمل معهم حتى لو كان ذلك من باب الممازحة.

"من الذي كان معنيا بهذا الملف؟" قلتها وقد توجهت أنظاري إلى الملف المغطى باللون الأزرق. "من الذي كان ينظر في قضية القط الأعمى قبل خمس سنوات؟"

فتحت زينب صفحات الملف.

"نعم. ها هو هنا... إنه النقيب ذكائي... النقيب ذكائي أواجيق"

ابتسمت حينما سمعت اسم الضابط.

"ها، أهو السّلوقيّ ذكائي؟"

بدت علامات الاستغراب على وجهيهما.

"ليس لي ذنب يا أصدقاء، فهذا هو لقب الرجل. كان شرطيا جيدا، حقا كان شرطيا جيدا. فقد حل جميع القضايا الجنائية التي استلمها. لهذا السبب أطلقوا عليه لقب السلوقي. لكونه صيّادًا جيّدًا وماهرًا" توقفت، ونظرت من جديد إلى الملف. " يبدو أنه لم ينجح في هذه القضية."

5

"الطقوس مهمة جدا للقتلة المتسلسلين!"

عانقت رائحة الورود الصيفية ذات الألوان الزهرية الحديقة بأكملها. وجدتُ النّقيب القديم -الشرطي المتقاعد حديثا-واسمه الآخر ذكائي السلوقي في حديقة منزله المتواضع، كان جاثيا على ساقيه الطويلتين يقوم بتهوية التربة الجافة. حينما رآني اعتدل في جلسته مبتسما من الأعماق.

"أوو نوزات، أوو حضرة النقيب!" فتح ذراعيه، وبدا جسمه كالطود العظيم. "الشكر لله على مجيئك. أهلا وسهلا بك. متى كانت آخر مرة التقينا فيها يا رجل؟"

تعانقنا.

"مضى على الأقل سنتان" قلتها وأنا أربت بيدي على ظهره. "حينما نظرنا معا في قضية القاتل المعطّر... تلك الجنايات التي حدثت في منطقة صاري ير..."

توهجت عيناه العنبريتان، وبدت لي واضحةً أذناه ذاتا الشّحْمَتَين المستدقّتين، وتلك ميزة هامّة في منحه لقب السلوقي.

"ها، تلك الممرضة التي كانت تقتل السيدات الكبار... لكنها كانت امرأة مهووسة وقوية، أليس كذلك؟ كانت تقتل الضحايا وتعطرهم. ماذا كان اسم ذلك العطر... كان عطرا فرنسيا كما أعتقد..."

ذكرت اسم العطر محاولا استخدام اللهجة الفرنسية. "Ô de

Lancome". وتابعت. "ومن النادر وجوده في الأسواق. واستطعنا أن نقبض عليها لأنها قامت بالتوصية على طلبية بالجملة من ذلك العطر."

رمقني بغبطة.

"أحسنت نوزات، ذاكرتك قوية جدا، فأنا لا أستطيع أن أتذكر ما أكلته في الأمس."

"لا يا سيد ذكائي" قلتها وأنا أهز كتفي. "قضية القتل المعطّر بقيت عالقة في ذهني لأنها تُعَدّ عملا إبداعيا."

حاول أن يتذكر وهو يضيّق بعينيه.

"هذه المرضة كانت لديها مشكلة مع جدتها، أليس كذلك؟ ماذا كانت المشكلة بالتحديد، أهي متعلقة بسرير هذه العجوز المسكينة أم أنها كانت غير ذلك؟"

"نعم، ما تذكّرته كان صحيحا. فهذه المرضة في صغرها أُجبرَت على الاعتناء بجدتها. كانت هذه الجدة العجوز لا تستطيع أن تمسك نفسها، فتفعل على سريرها ما تفعله في الحمام. والفتاة هي من ينظف سريرها بناء على طلب والدتها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن والدتها أجبرتها على أن تصبح ممرضة... وربما هناك صدمات أخرى عاشتها الفتاة. على أيّ حال، هذه الفتاة لم تتحمل أكثر من ذلك. وأصبحت بعد سنوات تقتل النساء العجائز وتُفْرِغ عليهن بعد قتلهن العطرَ الذي كانت تستخدمه جدتها..."

"لماذا تركتَ السيد نوزات واقفا هكذا؟" التفتنا خلفنا حينما سمعنا صوت امرأة. إنها السيدة جليلة التي كانت تقف تحت أشعة الشمس الناعمة وقت العصر. "سامحك الله يا ذكائي، أهكذا يكرم الضيف؟"

ضحك ذكائي ضحكة مذنب وأجاب على الفور بدون اكتراث.

"اصبري يا جليلة، للتوّ جاء الرجل، وها نحن ما زلنا هنا..."

لم تكن هذه الكلمات منطقية أبدا بالنسبة إلى المرأة البوسنيّة جليلة التي كانت طويلة بطول زوجها على الأقل، وكبيرة بحجمه. نظرت إليّ بعد أن رمقت ذكائي بنظرة مفادها ماذا أفعل معك.

"لا تؤاخذنا يا سيد نوزات، هكذا هو السيد ذكائي، سلمه الله." أشارت إلى الطاولة التي كانت تحت شجرة المانوليا. "من فضلكم اجلسوا هناك... فالمكان هناك لطيف..."

لا بدّ أنها كانت تشعر بالملل لبقائها كل يوم بجانب زوجها. وأنا متأكد أن ذكائي لم يكن مشغوفا بهذا الوضع، لكن ماذا عساه أن يفعل؟ لا بد أن يبقى في المنزل، وكان أقصى ما يمكن فعله هو الخروج إلى الحديقة والانشغال بتربتها وزهورها. لكن لا بد أن أعترف بأن ذكائي كان على ما يرام. فلم تكن تبدو عليه معنويات محطمة، أو اكتئاب أو توتّر... وقلت في نفسي: يا ليتني أشعر بالراحة مثله في سنوات التقاعد. وسنرى في ذلك الوقت كيف ستتحملني أفكانيا؟

"هيا عزيزي نوزات هيا، لنذهب هناك،" قالها ذكائي الذي أمسك ذراعي وسحبني إلى الطاولة الخشبية التي كانت تحت شجرة المانوليا ذات العروق الكبيرة. "هيا تعال، وإلا فلن تتركنا جليلة على راحتنا."

جلست على الكرسي الذي كان في طرف الطاولة الخشبية دون أن أنبس بأي كلمة، حقا كان المكان لطيفا، فنسائم البحر تهبّ على الحديقة الوردية مجتازة بإعجاز الأبنية المنتصبة والشوارع الضيقة.

"هل أعدّ لكم القهوة أم عصيرا من الليمون البارد؟"

كأن ذلك السكون وتلك الرقة عند النساء البدينات قد نفدا في صوتها أيضا. وبالطبع، لم أتخلّ عن مجاملتي في الرد.

"لا تتعبوا أنفسكم."

عقدَت حاجبيها الأشقرين.

"وأين التعب في ذلك سيد نوزات، فمنذ زمن طويل لم تدخل منزلنا..."

"حسنا، فليكن ليمونًا."

رمقت زوجها بنظرة مفادها المزاح.

"وأنتم يا سيد ذكائي، ماذا ستشربون؟"

رمق الشرطي المتقاعد زوجته بنظرة مليئة بالحب.

"ها، وأنا أيضا سأشرب من عصير ليمونكم المشهور سيدة جليلة، فالقهوة لا جدوى منها في هذه الحرارة..."

تحركت صاحبة المنزل ذات الجسم البدين إلى الداخل برشاقة غير متوقعة، فيما جلس زوجها في الجهة المقابلة لي على الطاولة الخشبية.

"صحيح نوزات، أيّ رياح أتت بك إلى هنا؟ ليس هناك شيء سيء، أليس كذلك؟"

لقد أدرك في ذاته أن الموضوع مهم. لذلك تركت عبارات الشوق وما شابهها من كلام فارغ، ودخلت في صلب الموضوع مباشرة.

"جئت من أجل قضية حدثت قبل خمس سنوات، وأنت كنت من ينظر فيها..."

تجهّم وجهه كأنما هو في مواجهة وضع عسير، بدا خائفا من إحراج أن لا يتذكّر شيئًا.

ساعدته قائلا: "ذلك القاتل الذي كان يقتل المتحرشين جنسيا بالأطفال، ذلك الرجل الذي لقبته أنت."

قال مندهشا.

"القط الأعمى... أهو القط الأعمى؟ هل قُبض عليه؟"

لم يكن شعوره واضحا، فهل كان يشعر بالسعادة من اعتقال القاتل الذي كان يطارده سنوات، أم أنه كان حزينا لعدم قدرته على اعتقاله بنفسه؟

"لا لا، لم يعتقل، لكنه عاد إلى القتل من جديد."

اطمأنّ، لكنه لم يتكّئ على الطاولة الخشبية، ونظر باستغراب.

"هل عاد إلى القتل؟"

بدا كأنّه وجد ذلك غريبا جدا.

"هذا ما نعتقده. فقد وجدنا جثّة هذا الصباح. وكانت طقوس القط الأعمى بأكملها مطبقة عليها."

اقترب مني مسندا مرفقيه على الطاولة.

"أي طقوس؟"

ركز في وجهي عينيه اللتين بدتا بنيّتين في الظل، وكان ينتظر ما سأقوله بأذنين مصغيتَين حتى لا تفوته كلمة واحدة.

"أنت تعرفها في الأصل، فهو يختار الشخص الذي يعتدي على الأطفال، ويقتله بطلقة واحدة في مؤخرة الرأس، ويغطي عينيه بعصابة حمراء..."

لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك.

"وهل ترك إلى جانبه لعبة؟"

هززت رأسي.

"لعبة باربي... كما أنه قطع نصف الأذن اليمنى للضحية."

ذهب ذلك الرجل الهادئ الذي كان يعيش سنوات تقاعده، ليأتي بدلا منه الصائد المتجول. لكنه كان غير متأكد، فقد كانت هناك مشكلة مهمة تخالج ذهنه. سأل وكأنما يتحدث إلى نفسه.

"نحن في أي شهر؟ أفي شهر مايو؟"

صححت قائلا: "في شهر يونيو، اليوم هو 2 يونيو."

كرر بصوت مسموع قائلا: "الثاني من يونيو..." وتابع. "نعم، فالقاتل أيضا ارتكب جريمته سابقا في 2 يونيو عام 2012" لمعت عيناه بالفرح. "نعم، يبدو أن القط الأعمى عاد للساحة من جديد."

انقطعت النسائم التي كانت تهب من البحر فجأة، وأصبحت أتنفس بصعوبة تحت وطأة الحرارة.

"هل أنت متأكد؟"

تردد لحظة، وسأل بحماس بدلا من أن يجيب عن سؤالي.

"أين وجدتم الجسد؟"

أجبت وأنا أفتح ياقة قميصي.

"في حديقة قاسم باشا، في متنزّه الأطفال..."

بدأ يطلق توقعاته دون أن يرفع عينيه عن وجهي ولو لحظة واحدة.

"عند زحلوقة، في حوض رملي..."

"من أين تعرف؟"

بدا وكأنه تذكر ذكرى رهيبة.

"قبل خمس سنوات، في الثاني من يونيو عثرنا على جثّة. كان القتيل يبدو وكأنه تزحلق عن الزحلوقة ولم يستطع القيام، فبقيت قدماه في الحوض الرملي. وكانت تحت قدميه لعبة باربي ذات لباس زهري."

كان الأمر مثيرا للاهتمام.

"وهل كان ذاك الجسد ملقى في قاسم باشا أيضا؟"

"لا، كان في إحدى متنزّهات جهان كر..." ابتسم بمكر. "القط الأعمى لا يخاطر بنفسه على الإطلاق. فهو لا يستعمل المكان الذي استعمله

سابقا. لم يفعل هذا في 12 جريمة، ولا أعتقد أنه سيفعل ذلك لاحقا."

كان يبالغ في حديثه عن الرجل.

"لكنه لم يتخل عن طقوسه الخاصة، فقد استعمل على الأقل أماكن متماثلة."

بدأ يتحدث بالتفصيل عن القاتل وكأنه يتحدث عن شخص يعرفه جيدا.

"الطقوس مهمة جدا بالنسبة إلى القتلة المتسلسلين، وهي كذلك بالنسبة إلى القط الأعمى. ومن الاستحالة أن يتخلى عنها، فهي بالنسبة إليه بطاقة عمل ونوع من التوقيع... إن كانت هناك جريمة ثانية، فإنها ستكون في حضانة." فكّر لحظة. "في اليوم الرابع من الشهر، نعم، فإن كان القاتل سيرتكب جريمة ثانية، فإنه سيقتل الضحية في اليوم الرابع من الشهر، وسيترك الجسد في حديقة حضانة... لأنه فعل الشيء نفسه قبل خمس سنوات. فقد ترك الجسد الثاني الذي قتله في شهر يونيو في فيروز آغا في حديقة حضانة..."

لقد كان يتنبأ بما لم يتوقعه أحد منا. ولا أخفي الصراحة فقد بجّلته ولكني لم أعترف له بذلك.

واكتفيت بقول: "ونحن أيضا اعتقدنا ذلك، لذلك سنتخذ بعض التدابير حول الحضانات في اليوم الرابع من الشهر، ولكن إن لم يقتل أحدا؟"

تحركت عيناه بشغف.

"سيقتل يا نوزات، وليس هناك من احتمال آخر، فهو مضطر للقتل حتى تكتمل الدائرة، لكن..."

بقيت نظراته في وجهي.

"لكن،" قلتها بفضول.

تحرك باضطراب على الكرسي الذي يجلس عليه.

"هناك أمر مخالف للصواب..." قام بحساب أعداد مخفية على لوحة غير مرئية. "نعم نوزات، هنالك أمر مخالف للصواب في هذا العمل. فالقط الأعمى ارتكب أول جريمة له في شهر يناير. ليس في اليوم الثاني من يونيو، وإنما في اليوم الأول من شهر يناير... فهو إن عاد للقتل مجددا..."

أكملت قائلا: "فلا بد أن تكون جريمته الأولى في اليوم الأول من شهر يناير،"

انقبضت أساريره.

"هذا ما كان يجب حدوثه. لكن لماذا تغير التاريخ مع أن جميع الطقوس الأخرى كانت في مكانها؟"

كان يبدو مغتما.

فقلت متوقعا: "لم يبدأ في وقته لأنه ربما كان مسافرا للخارج، أو كان في السجن..."

تحدث وكأنه يقول أنت لا تعرف.

"لا، كان سينتظر، فأنا أعرف الرجل جيدا، فهو مستعد أن ينتظر السنة القادمة بكل صبر." تنفس بألم. "لا يا نوزات، القط الأعمى لا يفسد دائرته..."

كان ما قاله صحيحا، لكنني شعرت بضرورة الاعتراض من جديد.

"حسنا، لكن القاتل الذي نواجهه مريض نفسي ومجنون أيضا. أليس من الطبيعي أن يكون تصرفه غير متناسق؟"

كاد أن يغضب.

"مستحيل. فهو لن يتخلى عن الوتيرة التي كان عليها. ولن يرتكب جريمة حتى ولو أفسد روتينه. افهم يا نوزات، هذه طقوس. ولا توجد للقاتل المتسلسل قاعدة أخرى يجب اتباعها غير القاعدة التي وضعها بنفسه. ولهذا السبب لم نتمكن من القبض عليه. فهو لن يفقد نفسه بتاتا، ولن يتعجل على الإطلاق. يختار ضحاياه بعد فحص دقيق، ويقتلهم بدم بارد، وينظم مسرح الجريمة بدقة فنان، ولا يترك خلفه أي دليل."

كان يتحدث كما لو أنه يتألّم. كان يتحدث عن شخص كأنه لم يخرج من حياته أبدا، كأنما يتحدث عن محبوبة جرحت قلبه، وعن قريب غدار، وصديق خائن... حينها تيقنت أن قضية الجرائم التي ارتكبها هذا القاتل المتسلسل هي القضية الوحيدة التي انشغل بها ذكائي ولم يستطع حلها طوال حياته المهنية.

قلت بهدوء: "أنا أعرف مدى مهارة القط الأعمى. لقد اطلعت على الوثائق الموجودة في الملف... أنت مُحِقّ، فلم أجد فيها أي معلومة مهمة تفيدنا في عملنا. لهذا السبب جئت إلى هنا. جئت لأنه لا أحد يعرف القط الأعمى أكثر منك. فربما كان في خلدك شيء لم تكتبه في التقارير، وربما كانت هناك تفاصيل تخالج ذهنك."

تهرّب بنظراته؛ نعم، فقد كان يملك بعض المعلومات التي لا نعرفها، لكنه لم يعترف.

"لا يا عزيزي نوزات، والله لا يوجد، وأنا أيضا أعرف بقدر ما تعرفه أنت. ليتني أستطيع مساعدتك، لكنني وضعت كل ما وجدته، وكل ما تحدثت به، وكل ما له علاقة في الملف."

لقد كان يكذب، لهذا السبب أطال من الكلام الفارغ.

"القط الأعمى قاتل في غاية الاحتراف. وإذا كان لا بد من الصراحة، فقد اعتقدت أن يكون القاتل شرطيا. لأنه لا يترك خلفه أي دليل، لا يترك أثر رجل ولا أثر يد، ولا لعابًا ولا عرقًا ولا شاهد عيان... مع أنه يقتل ضحاياه في الأماكن العامة حيث يتواجد الناس."

أردت الإطالة في الموضوع لعله يزل بكلمة أنتظرها.

"ربما هناك مساعد له..."

كان من الواضح أنه فكر كثيرا في هذا الوضع المعقد.

"لا، ليس له مساعد أو غيره، الرجل يعمل بمفرده. ليتهم كانوا شخصين، لأنهما سيكونان أكثر عُرضة لارتكاب الأخطاء. أنت تعرف، كلّما ازداد عدد الأشخاص في مكان الجريمة كانت الآثار أكثر. لا يا نوزات، الرجل يتحرك وحده، وهو حقا شخص ماهر..."

قلت له: "ربما شريكه أيضا جيد بنفس القدر" فقاطعني قائلا: "لا يا نوزات، من الصعب أن يكون هناك شريك لهذا الرجل. فالشخص الذي يقتل المعتدين على الأطفال لديه في ماضيه أسرار مخزية وجروح عميقة. وليس من السهل أن يتشاركها مع الآخرين. حتى وإن تشارك فمن الصعب أن يفهمه الآخر. لا، أنا متأكد، الرجل يتحرك بمفرده... ويستخدم وسيلة نقل بالطبع. لكن لم ير أحد شيئا. لا نعرف لونها ولا علامتها التجارية... القط الأعمى قاتل ذكي جدا، وواسع الحيلة أيضا..."

كان يائسا في حديثه إلى درجة شعرت عندها بالملل.

"حسنا، لكن ماذا سنفعل، ألن نطارد الرجل؟"

حاول المراوغة بابتسامة زائفة.

"أيعقل هذا؟ بكل تأكيد ستطارد الرجل، لكن عليك بالصبر. يجب عليك الانتظار، انتظر قليلا حتى نرى ما الذي سيحدث."

ارتفع صوتي بشكل عفوي.

"يعني هل سننتظر إلى أن يُقتل أحدهم؟"

هز كتفيه.

"قم بكل ما يلزم. واتخذ التدابير اللازمة أمام الحضانات وانتظر." أرخى ذراعيه للأمام كمن يستسلم. "أعرف أن الانتظار هو الجزء الأصعب في عملك. لكن ليس هناك من حل آخر، إذ يجب انتظار القط الأعمى حتى يقتل أحدًا ما، ويترك الضحية في مكان ما، ويُجري طقوسه الخاصّة. ربما حينها قد يترك ثغرة. لا أستطيع أن أرى أي احتمال آخر، فأنا أتحدث إليك بصفتي شخصًا انشغل في هذه القضية سنوات عدّة ولم يستطع الوصول إلى أي نتيجة على الإطلاق..."

ربما لم يتمكن من الوصول إلى أي نتيجة، لكنني كنت متأكدا أن لديه معلومات أكثر مما لدينا. نعم، كنت أشعر ذلك بوضوح. والأسوأ في الأمر، هو عدم رغبته في مشاركتها معي. حتى في هذه اللحظة لم يكن مخلصا في شرح أفكاره الحقيقية. لأن ذكائي لم يغلق بعد ملف القط الأعمى. فهو ما زال يتعقب أثر ذلك القاتل المتسلسل. لم يكن هذا الأمر ينسجم مع القانون، لكن الحقيقة أن الشرطة بالنسبة إلى ذكائي لم تكن مهنة وحسب وإنما هي الحياة بحد ذاتها. وبينما كنت أفكر في هذه الأمور، ظهرت السيدة جليلة وحاملةً صينية فيها كأسان من عصير الليمون. وضعتهما أمامنا سريعا بمهارة كبيرة.

"صحة وعافية!"

وبينما كان السائل الأصفر بنكهة النعناع يتدفق في فمي ويسيل داخلي مُعطيًا حلقي الجاف برودة لطيفة، سألَتني صاحبة البيت.

"كيف أفاكنيا؟ إن شاء الله أنها في صحة وعافية..."

استقبلناهما من قبل في حانة تاتاولا. وقد أحبّت أفكانيا كثيرا. أجبتها بلطف وأنا أضع عصير الليمون على الطاولة.

"شكرا جزيلا سيدة جليلة. هي بخير." وفي تلك الأثناء قلت على الفور الكذبة التي خطرت ببالي. "ننتظركم مجددا في حانة تاتاولا. فحينما سمعت أفكانيا بأنني سآتي إلى هنا قالت لي: 'ادعو السيد ذكائي والسيدة جليلة إلينا'."

لم يكن ذئب الشرطة الذي عمل سنوات سعيدا بهذه الدعوة المفاجئة، وبدأ يرمقني بقسوة. لكن السيدة جليلة كانت معجبة بذلك.

"أووه، كم هي دعوة جميلة، بالطبع سنأتي. منذ وقت طويل لم نخرج من المنزل." نكزت بكوعها زوجها الذي لم تصدر عنه أيّ ردة فعل. "أليس كذلك يا ذكائي؟ سنذهب، أليس كذلك؟"

وماذا عليه أن يفعل ذكائي؟ فقد كان هو الآخر سعيدا بكذبه.

"بالطبع حياتي،" قالها بإخلاص مزيف مثل ابتسامته الزائفة على الأقل.

"هل يُعقَل أن تدعونا السيدة أفكانيا ولا نذهب؟"

6

"ليس هناك من معنى لاستنزاف جُرح رضيتَ به..."

قامت القيامة عندما أوقفتُ سيارتي المخضرمة أمام منزلي. مددت رأسي من النافذة وإذ بي أرى الكلب بختيار يلاحق ثلاثة كلاب جاءت إلى الحيّ من خارجه. حاول أطول الكلاب ذو الوبر الأصفر أن يدافع لحظة، لكنّ كلب زقاقنا البلطجي أخذه فورا تحت قدميه. لم يتهاون لحظة، فقد غرس أنيابه في عنقه وأراد قتل الحيوان المسكين. نزلت من السيارة مسرعا.

لحقت قائلا: "توقف! توقف بختيار! لا تفعل!"

ولأنه لم يستطع إدراك صوت المنادي، دار مبرزا أنيابه لي.

صحت: "بختيار! ماذا تفعل بختيار! أمتهور أنت؟!"

تردّد عندما عرفني، لكنه كان غاضبا جدا، فبقي مستمرا في هريره، ولم يهدأ على الفور.

فواصلت مؤنّبًا: "وقح أنت! ألي أيضا تبرز أنيابك؟!"

بدأ هريره يخف ببطء، فاستغلّ الكلب الهزيل ذو الوبر الأصفر الفرصة حينها، وتخلص من مخالبه هاربًا بكل ما أوتي من قوة. أراد بختيار اللحاق به. فوقفت أمامه رافعا يدي.

"لا بختيار! لا، توقّف عندك"

تردد ولم يستطع معرفة ماذا سيفعل، رمقني مرة، ورمق مُنافِسَه

الذي انسلّ منه، لكنه انقاد لأمري؛ فأرخى ذيله وسار بخطوات غاضبة.

"نعم هكذا، أيليق بك أن تعتدي على الكلاب الأخرى؟!"

كان ينظر كمن يريد أن يتكلم، ثم أدرك أن هذا سيكون مضيعة للجهد، فتخلى عن ذلك، وتوجه إلى العظام الكبيرة التي كانت بانتظاره في إناء الطعام على الرصيف.

"لقد ظلمته يا سيدي."

عندما أدرت رأسي وجدت الطباخ عارف يرمقني بعتب.

"لا ذنب لبختيار. الكلاب الأخرى هي من بدأت بالاعتداء... رأيت بعيني، هو دافع عن نفسه..."

"أحقا هذا؟" هذا ما استطعت قوله. "لقد اعتقدتُ أن..."

توجّهَت أنظاري إلى الكلب الذي أجحفتُ بحقه، يبدو أنّه نسيَني، فقد كان يلوك عظمة كبيرة بين أسنانه. وشعرت بالحاجة لأن أوضح للسيد عارف.

"كان سيقتل الكلب الآخر لو تركته..."

كان عارف رجلا منصفا ودائما ما يقول الحقيقة.

"الصراحة أن الكلاب الثلاثة هي التي كانت ستقضي على بختيار.. فقد كان المسكين يلوك العظام التي أحضرتها من الدكّان. وفجأة انقضّت الكلاب عليه... فجأة، وأمام عيني... كانت مسعورة..." نظر إلى الكلاب التي أصبحت تختفي في نهاية الطريق. "ومع ذلك، لا أريد ظلمها، فربما كانت هي أيضا جائعة، وربما لم تكن أمامها حلول أخرى، لكن هي التي بدأت الصراع. وهذا الكلب دافع عن نفسه فقط... ولو لم يدافع لمزّقته تلك الكلاب... وأنتم سيدي تعرفون أفضل مني، فهذه الدنيا لا ترحم أحدا، إنسانا كان أو حيوانا، فإن لم ترفعوا صوتكم سيأخذون خبزكم

من بين أيديكم."

لم أكن أعرف ماذا سأقول، وعلى أي حال، لم يُطل السيد عارف كلامه.

"على كل حال، أريد الذهاب، طاب مساءكم."

وبينما كنت سأتمتم بأشياء مفادها مساء الخير، توقف فجأة، واستدار. "ها سيدي، طهيت أنواعا من الطعام، ستحبونها، ليس في بيتكم طعام الآن، تفضلوا نأكل سوية. وسنعدّ إلى جانبها سلطة لبن بارد بالخيار أيضا."

لا، لم يكن يبحث عن زبائن لمطعمه، وإنما كان يدعو صديقه للطعام.

"شكرا سيد عارف، عندي القليل من الباميا. تفضل نأكل سوية، ستكفينا معًا، إلى جانبها جبنة بيضاء وغيرها، وربما أيضا نشرب كأسًا أو اثنين من النبيذ."

ابتسم مبرزا أسنانه التي اصفرت من التدخين.

"ليكن في وقت آخر سيدي، فالآن يجب عليّ تحضير وجبات الغد... هنيئا مريئا لكم."

وبينما كان طباخنا الكريم يبتعد اقتربتُ من الكلب بختيار.

قلت بصوت رقيق: "لا تؤاخذني بختيار، لا تؤاخذني يا ابني، فقد أسأت الفهم. ومع ذلك، لا أسمح لك بقتل ذلك الحيوان الآخر."

لم يكن هناك غضب أو عتب في عينيه اللتين كانتا بلون القرفة. وكأنه كان يقول: "هذا ليس موضوعا مهما إلى تلك الدرجة".

تركت بختيار وطعامه وحيدا على بلاط الرصيف الحار ودخلت منزلي. فمع أن المساء قد حل إلا أن الأزقة كانت مشتعلة بالحرارة، ولكن حينما دخلت منزلي استقبلتني تلك البرودة الناعمة التي أعرفها جيدا. كان لا

بد لهذه البرودة التي كانت خلف الباب أن تسعدني، لكن على العكس، فقد أهالت عليّ حزنا عميقا. فبعد تلك البرودة الناعمة التي أعرفها جيدا، ذلك الحزن الذي أعرفه جيدا... حرمان لا يعرف النهاية، وحسرة لا تعرف السكينة، مضت سنوات عديدة، وما زال ذلك الجرح العميق ينزف بين حين وآخر...

بالطبع، لم أكن أشعر دائما بهذا الشعور، فمهما كان حجم الألم كبيرا فإن الإنسان ينسى بطبعه. أنا أيضا تفاجأت بفعل ذلك بنفسي. ومع أني كنت أقول: "لن أنسى، لن أستطيع النسيان"، لكن بعض الذكريات زالت، وتلاشت الألوان، وخفتت الأصوات، وبدت الروائح تختفي. أحيانا أحاول إحياء وجه ابنتي وزوجتي في مخيلتي، لكن بلا جدوى، فمهما أفعل لا يمثُلان أمام عيني. فكنت أضطر للنظر إلى صورهما مرارا وتكرارا. كنت أغضب من نفسي وألومها بسبب ذلك، لكن بلا جدوى، فصورهما تبقى تمّحي من ذاكرتي...

لم يكن بوسعي دخول هذا المنزل المليئة زواياه بذكريات زوجتي وابنتي لو لم أشاهد اليوم تلك اللعبة المماثلة للعبة أيسون في ذلك المتنزّه في قاسم باشا، ولو لم أعرف أيضا هوية ذلك الرجل المقتول. وكما حذرتني أفكانيا أيضا مرارا وتكرارا، ليس هناك من معنى لاستنزاف جرح رضيتَ به. لكن، هناك أمور يجب أن أتأكد منها بعد أن شاهدتها اليوم في موقع الجريمة. مضت ساعات عليها ولم أتخلص من شكوكي فيها، على العكس، فكلما مضى الوقت زاد قلقي. هل يمكن أن يكون قتل الرجل المعتدي جنسيا على الأطفال بهذه البراعة له علاقة بي؟ توجهت إلى السلم الذي ينتهي إلى الطابق السفلي بخطوات ثابتة. لم أنزل القبو منذ زمن طويل جدا، لذلك كلما نزلت خطوة أنّت درجات السلّم تحت

قدمي كما لو أنها تتألّم.

وعلى جانب الباب الخشبي، كان المفتاح داخل صندوق صغير صنعته بيدي.

الله أعلم كم مضى عليه دون أن يمس... كان مغبرا، والصدأ في كل جوانبه. أدخلته داخل القفل آملًا أن لا يتعثر، وأدرته مرة، ثم مرة أخرى، فأخرى... فتح الباب، ودفعت جناح الباب برفق. ضربَت أنفي رائحةٌ رطبة وكريهة. لمستُ زرّ الضوء، فاشتعل المصباح بعد أزيز. كانت صورة القبو حزينة. صناديق بعضها علا بعضا، وقرص فونوغراف مليء بالغبار فوق الصندوق الجوزي الكبير، وأباجورات قديمة في التهوية، وسجادة كبيرة مزقتها العثاث... لا بد أن ألعاب أيسون هنا في إحدى صناديق الكرتون هذه. نعم، لم يكن قلبي يطاوعني في التخلّي عن أمتعتها، ولا حتى قطعة واحدة: لباسها، وكتبها، وألعابها، وقلائدها، وخواتمها، وساعتها، وكل ما لها كان في هذه الصناديق. أمتعة كزيده أيضا كانت بجانبها مباشرة. لم يطاوعني قلبي في التخلي عنها. لم أستطع إعطائها لأحد. هذا المكان كان منزلهما، وأمتعتهما لا بد أن تبقى فيه حتى وإن فارقنا جسداهما.

أمتعة أيسون في الصناديق التي رتبتها في ثلاثة صفوف على جانب الجدار... كتبت على الصناديق واحدا واحدا كل ما تحتويه، وكأننا كنا سنرحل فنعثر عليها بكل سهولة في البيت الذي سننتقل إليه. ولو كان اليوم لما استطعت فعل ذلك. فربما فعلت هذا بحزن، وغضب، وقهر في تلك الأيام الرهيبة التي فقدت فيها أيسون وكزيده... وروحي كانت تشتعل احتراقا، وربما فعلت هذا خصوصا كي تحترق روحي... لمعاقبة نفسي التي كانت تشعر بالذنب لعدم تمكني من العثور على قتلة زوجتي وابنتي... في الحقيقة لم أستطع التذكر، لم أستطع تذكر أي شيء، ليس

من العلاجات التي أتناولها، وإنما بسبب تلك الضربة الشديدة المفاجئة التي أربكت ذاكرتي عن بكرة أبيها. وربما أيضا لأني أردت نسيانها جميعها وبكل تفاصيلها.

ترددت قبل فتح الصناديق وكأنني سأؤذي الذكريات. كنت قد كتبت وبدقة متناهية "ألعاب أيسون". في السطر السفلي منها أيضا "قائمة المطبخ، ومجسمات المنازل، وألعاب ليغو". لا، لعبة باربي ليست في هذا الصندوق، وإنما يجب أن تكون في الصندوق الأسفل. صندوق مكتوب عليه "أطفال أيسون". كان مليئا بدمى أطفال. فقد كانت ابنتي شَغوفة بدمى الأطفال. لم تكن تشعر بالملل منها حتى وإن كان لديها المئات من هذه اللعب. فقد كان لهذه الدمى أسماء مختلفة، وحكايات متباينة، وكانت تتكلم معها جميعا بنبرات مختلفة. تتكلم معها وكأنها أحياء. وبالطبع، كانت تجيب نفسها بنبرة أصواتها. هذا الوضع أزعجني وزوجتي في البداية، لكن شعرنا بالاطمئنان حينما قال علماء النفس: "لا توجد مشكلة، فابنتكم لديها خيال واسع فقط." وبالطبع، حينما كبرت قليلا قلّ اهتمامها. لكنها لم تتخل في غرفتها عن دمى الأطفال.

أنزلت الصندوق، وفتحت غطاءه. كانت دمى الأطفال التي هي بمثابة كنز بالنسبة إلى أيسون في زمن من الأزمان، تنظر جميعها بعتب وكأنما تقول: "لماذا تركتمونا هنا؟" أحسست بقبضة يد معقودة في عنقي. لم أترك العنان لنفسي. هكذا فعلت، فقد حاولت العثور على لعبة باربي ذات اللباس الزهري بعد رفعي دُمى الأطفال التي كانت في الأعلى. لكنها لم تكن موجودة، فباربي التي بحثت عنها بين دمى الأطفال الصغيرة، ذات الشعر الأسود، والشعر الأصفر، وذات اللون الكستنائي، والشعر الأحمر وغيرها من الدمى ذات الألبسة الملونة لم تكن موجودة بينها. هل كنت

مخطئا؟ أم أن لعبة باربي التي كانت في موقع الجريمة حقا هي لعبة ابنتي؟ حسنا، لكن كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ ماذا يعني ذلك؟ هل يعني أن القاتل دخل منزلي، ونزل القبو، وأخذ اللعبة من هذا الصندوق؟ لا، لا، هذا ليس ممكنا. ومع أني كنت أهدّئ من نفسي إلا أنني شعرت بالعرق يتصبب منّي، وأن قلبي ينبض بسرعة. فقدت وعيي وأصبحت أنثر بيأس كل الألعاب التي تقع بيدي يمينا وشمالا. تردّدت بعدها، وأخذت نفسا عميقا. لكن القبو كانت رطوبته عالية، ورائحته ثقيلة جدا إلى درجة منعت نفسي عندها من السعال بصعوبة. كان لا بد من الخروج فورا من هنا، لكن من المستحيل أن أخرج دون العثور على اللعبة. غُصت من جديد داخل الصندوق... ها هي، إنها هنا، أسفل الصندوق، بين رجلي دمية طفل أصلع وبدين. شعرت بالراحة وحملت بيدي لعبة باربي ذات اللباس الزهري. نظرت على الفور إلى ذراعها الأيمن، شكرا لله، شكرا لله، كان أثر التصليح ما زال موجودا. نعم، هذه كانت لأيسون. فضممتها إلى صدري بعطف وحنان ولم أستطع حينها السيطرة على دموعي.

"كانت مصادفة،" قلتها وأنا أنشق بأنفي. "كانت مجرد مصادفة فقط."

7

"هناك معلومات يخفيها عنّا."

أيقظتني الحرارة قبل أن توقظني أشعة الشمس. فتحت عيني وجسمي يتصبب عرقا، والسرير متبلل. فغيرت غطاء المخدة، والملحفة، وملابسي، واستلقيت على الفراش من جديد، لكن أنّى لي النوم؟ تقلبت يمينا، وشمالا... ومع ضوء النهار الذي سقط على النافذة، بدأت موجة العرق من جديد. يبدو أن حرارة اليوم لن تطاق، وستكون أكثر ارتفاعا، وأكثر رطوبة، وأشد خنقا. ربما كان لا بد لي من النوم في الطابق السفلي، في الغرفة الصغيرة المطلة على الشمال. لكنني تكاسلت عن النزول، بل وطار النعاس من عيني. نهضت، واستحممت، كانت المياه الباردة جيدة، انشرح صدري قليلا ثم حلقت، ولبست. وبينما كنت متوجها نحو السلم خطرت ببالي الزهور. فتوجهت أنظاري إلى صورة كزيده. "وهل نسيت الزهور من جديد يا نوزات؟!" نعم، نسيتها من جديد. وعلى الفور حملت دورق الماء وأسرعت نحو المغسلة. وحينما وصلت إلى الشرفة الصغيرة التي فيها أواني الزهور، رأيت الزهور البنفسجية قد بدأت تجفّ. وبدلا عن كزيده، قلت في نفسي معاتبا: "آه يا نوزات، آه!" وبدأت بإفراغ الماء الفاتر في أواني الزهور. لا، فهذه المرة أيضا أنقذت الزهور البنفسجية، لكن كم مرة نسيت سقايتها؟ لا بد من الآن فصاعدا أن أكون أكثر دقة. كانت زهور إبرة الراعي أكثر جسارة، كأنها تعاند الحرارة بزهورها الحمراء،

والبنفسجية، والزهرية. سقيتها أيضا بشكل جيد، وجمعت أوراقها الجافة الواحدة تلو الأخرى. فكانت تلك الرائحة الجميلة التي بلغ عبقها خيشومي قد غطت المكان. شعرت باطمئنان أكثر. وابتسمت وأنا أنظر إلى صورة زوجتي. "حسنا عزيزتي كزيده، أنهيت الأمر، هذه المرة أيضا لم تجف الزهور." عندما نزلت للأسفل أخذت لعبة باربي ذات اللباس الزهري التي تركتها فوق الطاولة بعد أن أخرجتها في الأمس من القبو وخرجت للزقاق.

كان هناك نسيم طفيف أمام الباب، لكن لم يكن له مثقال ذرة تأثير على تلك الحرارة الجاثمة فوق المدينة كحائط خفِيّ. ألقيت نظرة على ما حولي، لم يكن الكلب بختيار موجودا. ربما ذهب إلى الشاطئ أملا في العثور على ركن بارد. رأيته سابقا عدة مرات قريبا من كوخ محمود بائع السمك. فذاك المكان يهبّ عليه الهواء صيفا وشتاء، وربما ذهب مجددا ليقيم هناك. ركبت سيارتي المخضرمة دون المزيد من الانتظار وسلكتُ الطريق المؤدي إلى مركز الشرطة.

وحينما وصلت المركز، توجهت على الفور إلى الغرفة التي تحوي الأدلة. أعلم أنه تصرّف غبي، لكنني لم أستطع التغلب على ذلك الوسواس الذي أنهك جسدي حتى هذه اللحظة رغم أنني كنت أمسك في يدي لعبة أيسون. وكأنني إذا قارنت بين اللعبتين سأكون متيقنا أن هذه الجريمة لن يكون لها علاقة بي أو بابنتي المتوفاة. لم أواجه صعوبة في العثور على اللعبة ذات اللباس الزهري مع أنها كانت تقع بين العديد من أكياس الأدلة. نعم، كانت هناك، في مقدمة الطاولة. كانت تماما مثل اللعبة التي في يدي، تحدّق فيّ بألم من داخل كيس شفاف. اقتربت، وأخذت اللعبة. ووضعتها بجانب لعبة أيسون. في الحقيقة، بدتا مختلفتين كثيرا

عن بعضهما. لون لباس لعبة ابنتي كان زهريا وأحمر أما اللعبة الموجودة في موقع الجريمة فقد كان لونها زهريا وأزرق... علاوة على ذلك، اللعبة التي وجدناها البارحة أطول ببضع سنتيمترات من اللعبة التي أحضرتها من المنزل. أصبحت بعدها متأكدا أن القاتل لم يكن يرسل لي رسالة. وكما قالت زينب إنها مجرد مصادفة. والقط الأعمى الذي بدأ بالقتال من جديد -مكرّرا روتينه السابق-قد ترك لعبة من جديد في موقع الجريمة... وتلك اللعبة لسوء حظي مشابهة لباربي أيسون. هذا كل ما في الأمر.

خرجت من غرفة الأدلة وأنا أشعر بالراحة، وفي تلك اللحظة تهيأ لي أني رأيت عليا وزينب. عبرا مثل ظلين من أمام عيني. سرت خلفهما مُباعدًا بين خطواتي. وحينما وصلت إلى غرفة علي في نهاية الممر أدركت أنني لم أكن مخطئا. كانا هناك، كانا جالسين على طاولة المشاكس علي، وعلى وشك أن يتناولا أول لقمة لهما من فطائرهما بشهية شابة، وحينما رأياني انتصبا واقفين على عجل.

"اجلسا، اجلسا." أشرت إلى الفطائر التي انتشرت رائحتها في الغرفة. "صحة وعافية."

لمع وجه علي المتعب.

"تفضلوا سيدي، لدينا ما يكفينا جميعا."

بدا أن الفطائر المحمرة كالرمان والمعروضة على كيس من ورق فوق الطاولة تنظر إلينا وتقول: لماذا أنتم واقفون، هيا تقدموا لأكلي!

"حسنا، اطلب الشاي لي أيضا." قلتها بينما أجلس على الكرسي المقابل لزينب. قدّم لي مساعدي كوبَ شايه بكل أدب.

"أنتم ابدأوا سيدي، وأنا سأحضر بدلا منه."

طار إلى الممر بسرعة الرمح قبل أن يمنحني فرصة للاعتراض. سحبت

أمامي كوب الشاي ذي الخصر الرقيق.

"ما الخطب يا زينب، ماذا تفعلان في الصباح الباكر هنا؟"

اعتدلت على كرسيّها.

"كنا في المتنزّه طوال الليل سيدي... نبحث عن تلك الرصاصة. الرصاصة التي قتلت المقتول... لكن لم نتمكن من العثور لا على ظرف الطلقة ولا على نواتها. أتحدث بلا مبالغة، فقد غربلنا رمال الحوض، لا يوجد شيء..."

كانت تتحدث عن وضع في غاية الأهمية، فلو عثرا على ظرف الطلقة ونواتها لكان من الممكن أن نقوي توقعاتنا حول استبعاد القط الأعمى من أن يكون مرتكب هذه الجريمة الأخيرة. وبما أنه لم يُعثّر عليهما فهذا يعني أن المتهم المألوف لدينا هو ذلك القاتل المتسلسل الذي أنهى جرائمه قبل خمس سنوات.

قلت: " تؤكّدين على أن الرّجل مازال مستمرًّا في روتينه."

رمشت عيناها المحمرّتان ذات اللون الكستنائي من السهر مرتين.

"هكذا يبدو، لكن هناك اختلافا مهمًّا"

"ما هو؟"

"التواريخ سيدي." علا صوتها وقد بدا أنها تخلّصت من نعاسها المُسْكِر.

"تاريخ هذه الجريمة الأخيرة لا يتفق مع تاريخ الجريمة الأولى التي ارتكبها القط الأعمى. فلو بدأ القط الأعمى بالقتل من جديد للزم أن تكون جريمته الأولى في

1 يناير من هذه السنة."

قلت في نفسي أحسنتِ يا زينب، فهذا يعني أنها أيضا اقتربت من هذه

الجزئية المهمة التي يبرهن عليها ذكائي.

أكّدتُ قائلا: "بالضبط، التواريخ ليست متفقة"

سألت وأنا أتناول إحدى الفطائر التي كانت على الطاولة تنظر وكأنها تقول هيّا تناولني!

"أنتم ما رأيكم سيدي؟ هل القاتل هو القط الأعمى؟"

أبقيت الفطيرة التي تناولتها كما هي في يدي.

"لا أعرف زينب، نحن أمام شخص مريض نفسيًّا. ذكائي يصرّ على أن الرجل لن يفسد روتينه، لكنّه ليس معروفا."

باحثتنا أعربت عن فكرها وهي تمد يدها أيضا نحو الفطيرة التي أمامها.

"من المحتمل أنه تصرف هكذا لكي يربكنا. ربما تكون طقوسه، لكنه لا يريد أن يوقع نفسه. وربما لهذا السبب غيّر تاريخ الجريمة الأخيرة."

قرضت لقمة واحدة من الفطيرة وقلت بعد أن ابتلعتها: "مع أنه ترك الجثة في حديقة أطفال كما فعل في 2 يونيو قبل خمس سنوات، في أسفل الزحلوقة..."

ما زالت الفطيرة في يد زينب.

"هكذا هو الحال، والأسوأ من ذلك، أنه ارتكب جريمته الثانية في الرابع من يونيو، فإن بقي ملتزما بطقوسه، فغدا سيتوجب عليه أن يقتل شخصا أيضا."

يبدو أنها وعليا قد فكرا كثيرا في المسألة ليلة الأمس.

"بالضبط، وهذا أيضا سيمنحنا فرصة مهمة. فهذا يعني أنه ربما يكون لدينا حظّ إن بقي القط الأعمى ملتزمًا بروتينه."

لم تفهم، فوضّحت بعد أن أجّلت أكل اللقمة الثانية من فطيرتي.

"أنا أتحدث عن المكان الذي سيرتكب فيه جريمته يا عزيزتي زينب، فقد ترك ضحيته قبل خمس سنوات التي كانت في 4 يونيو في حضانة..."

التمعت عيناها ذات اللون الكستنائي.

"إذن، يجب أن نضع جميع دور الحضانة في إسطنبول تحت المراقبة."

صرّحت بقراري قبل أن أتناول اللقمة الثانية.

"نعم، في هذه الليلة سنعلن حالة التأهب في جميع الوحدات. فبعد قليل سأذهب إلى المدير عصمت..."

ما زالت زينب تمسك فطيرتها في يدها.

"هيا كلي،" قلتها وعجينة الفطيرة المقرمشة قد تبعثرت في فمي. "ماذا تنتظرين؟"

شرد ذهنها وكأنها لم تسمع كلامي.

"وإن لم يكن القط الأعمى؟ أو إن كان هناك أحد يقلده فعلا؟" تحركت عيناها بإثارة. "بالطبع هكذا يا سيدي، فإن كانت النظرية عن القتلة المتسلسلين صحيحة فإن هؤلاء الرجال لا يغيرون وتيرتهم بسهولة. علاوة على ذلك، فنحن نتحدث عن قاتل متسلسل قد بدأ بالقتل من جديد بعد مضي خمس سنوات، أفلا يريد الرجل أن يتذكره الجميع؟"

زينب أيضا كانت تكرر كلام ذكائي، لكنها لم تكن مثله في إصراره. أردت تهدئتها، لأن الاحتمالين أيضا لم يكونا يغيران شيئا كثيرا مما سنقوم به.

"نعم، هذا واحد من الاحتمالات أيضا. لكن حتى وإن كان القاتل شخصا آخر فإن الشخص الذي يجب أن نبحث عنه هو أيضا القط الأعمى..."

"حتى وإن كان شخصا آخر؟" كان السائل علي الذي دخل وبيده كوب من الشاي. "هل تقولون إن القاتل شخص آخر؟"

"لا عزيزي علي، نحن نطرح أفكارا فقط."

قوّس شفتيه ساخرا وهو يضع على الطاولة كوب الشاي الذي علا منه البخار.

"كلام فارغ! الرجل قام بجميع طقوسه في موقع الجريمة، فما الذي سنناقشه بعد؟! كل شيء واضح وضوح الشمس."

حركت زينب رأسها بضجر وتناولت أخيرا لقمة من الفطيرة. أدرك علي بعينيه مدى انزعاجها.

"أتلك فكرتك؟" سألها باندهاش. "في مساء الأمس لم تقولي هكذا."

لم أكن راغبا في جدالهما.

"صاحب هذا الفكر في الأصل هو ذكائي... في الأمس ذهبت إليه بعد الظهر. لكنه هو أيضًا ليس متأكدا..."

ابتسم علي وهو يجلس على كرسيه.

"أهو الضابط الملقب بالسّلوقيّ؟"

"السّلوقيّ ذكائي. وهو الشخص الوحيد الذي يعرف جميع التفاصيل التي في الملف. لكن للأسف قال ذكائي: ' ليس لدي أي معلومة،' فهو لا يملك أدنى إشارة."

كانت زينب تنتظر لكي تفهم.

"ألم تصدقوه؟"

أجبت وأنا أمد يدي إلى كوب الشاي.

"لم أصدقه، فهو يكذب. هناك معلومات يخفيها عنّا. معلومات ليست موجودة في الملف على الإطلاق..." كلاهما وقع في حيرة. "هيا، ماذا تنتظران بعد؟ هيا كلا فطائركما. سنتكلم ونحن نأكل، صحة وعافية!"

وفي الوقت الذي أخذت فيه رشفة كبيرة من الشاي تناولا فطائرهما،

لكن عليا بقي ذهنه متعلقا بكلماتي التي قلتها قبل قليل. لهذا فبعد أن ابتلع اللقمة التي في فمه سأل قائلا: "ولماذا يخفي المعلومات؟ لماذا قد يرغب في حماية القط الأعمى؟"

وضعت كوب الشاي على الطاولة.

"لا يريد حمايته عزيزي علي، هو يريد أن يعتقله بنفسه. ولا يريد أن يمسك أحد غيره بالقاتل المتسلسل الذي طارده سنوات. لا أعرف، ربما أيضا لا يثق في غيره. فهو يؤمن أنه لا يستطيع أحد غيره القيام بهذا العمل الصعب."

اندهش علي النقي الذي لا يعرف الحياة والناس بقدر كاف.

"يا للعجب، كم من الناس العجيبة في هذه الدنيا؟!"

"لا تقل هكذا يا ولدي، ذكائي شرطي حقيقي وهو أهْلٌ لعمله. وليس هناك من جريمة إلا وحلّها. وعدم قدرته على الإمساك بالقط الأعمى أمر لا يستسيغه..."

اقترح علي كعادته دائما بمنطقه البسيط الحل الأسهل.

"ليتكم سألتموه بصراحة يا سيدي، فربما أجاب."

"لا، لن يجيب، بل سينكر. أنا أعرف ذكائي جيدا، هو رجل عنيد، ولا يتخلى عن أسلوبه." حملت بيدي من جديد ما تبقى من فطيرتي. "يعني يا صديقيّ، سندق باب ذكائي مرة أخرى. وربما لن تكون هناك حاجة إلى ذلك، فقد يأتي إلينا. إنّه شخص ذو ضمير حي... على كل حال... أنت اذهب إلى أقارب الضحايا الذين قتلهم القط الأعمى. فهناك فائدة من الاطلاع على الماضي. فربما نصل إلى بعض التفاصيل غير الموجودة في التقارير عن القاتل المتسلسل. اسألهم، هل تواصل معهم ذكائي في هذه الأيام؟"

"أمركم سيدي، زينب حضّرت جميع قوائمهم من قبل، وسأحاول حلّ المسألة اليوم."

نظرت إلى زينب. "رائع، ونحن أيضا سنتواصل مع أقارب عاكف صويقان، آمل أن يكون لديهم ما يقولونه."

حركت زينب رأسها بألم.

"ليس هناك أي قريب لعاكف صويقان سيدي. الضحية نشأت في سكن الأيتام."

هذه الجزئية أثارت اهتمام علي الذي نشأ في مساكن وكالة حماية الطفل.

"أي سكن هذا؟ أهو خارج إسطنبول؟"

أجابت باحثتنا بأريحية شخص قام بمهمته على أكمل وجه.

"في مدينة جنق قلعة... وقد أُغلق السكن قبل عشر سنوات، لكن لحسن حظنا، السيد حجابي مدير السكن في ذلك الوقت يعيش الآن في إسطنبول. أصبح متقاعدا. يسكن في شقة في منطقة زيتن بورنو. تكلمت معه في الأمس، فقد عرفه فورا. حزن كثيرا على موت عاكف. وقال: 'أنا على استعداد لتقديم أي مساعدة'."

كان يلزمنا أحد مثله. أشرت إلى الفطائر المتبقية...

"حسنا، هيا أنهيا طعامكما، وأنا سأتكلم مع المدير عصمت لكي يأخذوا جميع التدابير اللازمة حول دور الحضانة..."

8

"أطفالي كلهم ألماس."

ليس في الماضي البعيد جدًّا، وإنما قبل عشرين سنة، كانت منطقة زيتن برنو حيًّا فقيرا، لكنه كان لطيفا، والأكواخ التي في حدائقها أنواع مختلفة من الأشجار تتكون من طابق واحد. أما الآن فقد أصبح هذا الحي مزرعة من الخرسانات المرتفعة، مغطاة بأبنية مثيرة للاشمئزاز، مكدسة جنبا إلى جنب، علا بعضها فوق بعض، متشابهة فيما بينها... كان حجابي إنجه مدير السكن الذي نشأ فيه المقتول، يسكن شقّة في الطابق الرابع في واحدة من تلك الأبنية القبيحة التي أنشأتها الدولة. بدأنا بصعود السلم الضيق نظرا لأن المصعد معطّل. الأحذية التي وضعت أمام الأبواب، أصوات الأطفال، روائح الطعام التي لا تطاق في هذه الحرارة... كيف يمكن للناس الذين لم يستطيعوا حتى الآن أن يصبحوا إسطنبوليين أن لا يشعروا بأي إزعاج على الإطلاق بعد أن اقتلعوا أنفسهم من إحدى مناطق الأناضول وجاءوا ليتشبثوا بهذه الغابة القاسية المدعوة بالمدينة والمكونة من الأبنية؟!

لا بد أن السيد حجابي كان ينتظرنا عند الباب. فقد فتح الباب عند الطرقة الأولى. مع أن الجو كان حارا إلا أنه كان يرتدي بذلة ذات لون بني، وقميصا بلون الخردل، وربطة بلون القهوة الداكنة... كان من الواضح أنه أبدى أهمية لهذه المقابلة، كانت عيناه الجزء الأكثر لفتًا للنظر: عينان

سوداوان وكبيرتان ترمقان بخجل غريب... لم يدم الصمت كثيرا، انتشرت في وجهه ابتسامة، والتمعت عيناه.

"الآنسة زينب، أليس كذلك؟ وأنتم أيضا لا بد أنكم النقيب نوزات؟" أفسح الطريق متنحيا جانبا بكل لطف. "تفضلوا سيدي، تفضلوا، أهلا وسهلا..."

دخلنا وكانت باحثتنا في المقدمة، وأنا في الخلف. كان منزله مرتبا تماما، أثاثه كان لطيفا وإن لم يكن بجودة عالية، ولم يكن أحد في البيت غير حجابي. سألت زينب السؤال الذي تبادر إلى ذهني.

"هل تعيشون وحدكم؟"

غطى وجهه حزنٌ طفيف.

"نعم، أعيش وحيدا. لم أتزوج يا آنسة زينب. كنت دائما في الأناضول من أجل العمل. ولم أستطع حل مشكلة الزواج وأنا أتجول من مدينة لأخرى." ابتسم وهو ينظر إليّ. "كانت هناك تجربة أو اثنتين يا سيد نوزات، لكن لم يحالفنا الحظ، فلم نستطع الحصول على نتيجة. أما الآن فقد بلغ عمري سن الكمال. لا تنظري هكذا يا آنسة زينب، ففي هذه السنة أنهيت الخامسة والستين. فبعد هذا العمر، من سيرغب بالزواج من رجل عجوز مثلي؟"

كان ظالما لنفسه، فقد بدا عمره خمسين سنة لا أكثر. كان ودودا ولطيفا، ولا بد أن لسانه كان يحسن الكلام أيضا. أشداقه الرمادية، وبشرته الكستنائية التي احترقت في الشمس، وعيناه السوداوان الواسعتان اللتان تحدقان من تحت حاجبيه المتناسقين، كلّها تذكّر النّاظر إليه بالممثلين القدماء في فلم الصنوبر الأخضر، وكانت ندبة خده الأيسر تضفي معنى دراماتيكيا على وجهه. نعم، ربما كان ممثلا قد انتهى

زمنه قليلا، لكن النساء تحب أمثال هؤلاء الرجال. وخاصة لأن زمانهم قد مضى. لكن لم نشأ لا أنا ولا زينب الدخول في هذا الموضوع. وبالطبع أيضا صاحب البيت لم يزد في كلامه، وأشار إلى الأريكة الخضراء بجوار مدفأة الحديد مباشرة.

"تفضلوا سيدي، تفضلوا، اجلسوا هناك من فضلكم."

حينما رآني أنظر إلى المدفأة تحدث وقد بدت على وجهه ملامح السرور.

"إنها إرث عائلي، ولها ذكريات كثيرة. لهذا السبب لم أتركها في أي مكان على الإطلاق. نقلتها إلى كل مكان ذهبت إليه. بالطبع يوجد غاز طبيعي في هذه العمارة، لكنني أحضرتها إلى هنا، فهي الشيء الوحيد المتبقي من والدي، ولم تطاوعني نفسي على تركها."

أكدت قائلا: "أفهمك سيد حجابي، وأنا أيضا لا أستطيع أن أمحو من عيني الأشياء التي لها ذكرى."

جلستُ وزينب متجاورَين. لم تكن الأريكة مريحة على الإطلاق، فوجدت الحل باستنادي إلى الخلف. ومع أن زينب أمضت الليلة كاملة دون نوم إلا أنها كانت تبدو ممتنّة لما يحدث، ودون مقدّمات دخلتُ في الموضوع.

"نشكركم سيد حجابي لموافقتكم على التحدث. فكما وضحت زينب على الهاتف، نحن نحقق في مقتل عاكف صويقان..."

كان هناك حزن حقيقي على وجه الرجل.

"شيء لا يصدّق... لقد ارتعدت حين سمعت..." لم يستطع أن يكمل أكثر. وبدأت الدموع تنهمر على خديه. "أعتذر، أعتذر..." أخرج منديلا من جيبه، وانتشرت رائحة عطر خفيفة في المكان. جفف خديه. "حينما يخطر إلى ذهني ذلك يسوء حالي..." طوى منديله بشكل منظم، وأعاده

إلى جيبه من جديد. "كان طفلا طيبا، طيبا جدا... كان صامتا، هادئا، لا يتعرض لأحد، ولا يتشاجر مع أحد. فماذا أرادوا من هذا المسكين؟"

هل يُعقَل أن يجهل أن عاكفًا متحرّش بالأطفال؟

دخلت في الموضوع قائلا: " كيف تقابلتم معه؟ " كنت متأكدا أنه سيبدأ بالدفاع عن طالبه حينما أبدأ باتهامه، وحتى أنه سيحاول أن يخفي ما يعرفه. " لا بد أن عاكف كان صغيرا جدا حينما جاء إلى سكنكم..."

دخلت عيناه في أحلام اليقظة.

"كان صغيرا، صغيرا جدا... في التاسعة من العمر. كان لطيفا، وطفلا ذكيا جدا أيضا. مات والداه في حادث سير. لديه اثنان من الأعمام في منطقة أذينه... لكنهما فقيران، لم يكن في وسعهما الاعتناء حتى بأطفالهما. أحضره إلى السكن عمّه الأكبر. لا أتذكر أكان اسمه زهدي أم غيره. وعمه الآخر لم يأت على الإطلاق. حتى زهدي جاء سنةً ثم انقطعت رجله عن السكن. بالطبع هكذا يحدث دائما..." أخذ نفسا عميقا. " أنا والد هؤلاء الأطفال وأمهم..."

بدأ بالخروج عن الموضوع.

"كم بقي عاكف في السكن؟"

أجاب دون أن يشعر بالحاجة للحساب أبدا.

"بقي حتى إنهاء الثانوية... لم يرسب في أي صف، حتى أنه لم يحصل قط على أي تقدير ضعيف في شهادته. كما قلت لكم كان ذكيا للغاية، ومجتهدا جدا أيضا... ويكتب قصصا جميلة. اعتقدت أنه سيصبح كاتبا. هناك معلم في الأدب، السيّد طلعت، نعم طلعت قزل شاي... جزاه الله كل خير، كان يعتني بهذا الطفل بشكل خاص... لديه ابنتان لا يُبعد عاكفا عنهما... وكان يهديه كتبا وأقلاما وغيرها، وفي الأعياد أيضًا

أحذية وملابس..."

التقت عيناي بعينَي زينب. فقد خطر ببالنا الاحتمال السيء نفسه.

سألت باحثتنا بصوت منخفض: "هل كان عاكف يحبّ السيد طلعت؟"

هي أيضا كانت تعتقد مثلي أن عاكفًا تعرّض للاعتداء الجنسي في صغره. فحينما سمعت أن السيد طلعت قزل شاي كان يهتم بالطفل اهتمامًا مبالغًا فيه، توارد إلى ذهنها احتمالية أن يكون هذا المعلم قد تحرش به. لكن السيد حجابي لم يكن معنا في القارب نفسه.

"بالطبع كان يحبه،" قالها وقد انتشرت على وجهه ابتسامة بريئة. "ولماذا لا يحبه؟ فهو الشخص الوحيد الذي كان يهتم بعاكف من بعدي. كان طلعت إنسانا رائعا جدا. وأستطيع القول إنه أفضل أستاذ تعرفت عليه. عِلْمًا أن نهايته كانت مرعبة. شيء لا يصدق، فزوجته، نعم زوجته، قامت بقتله طعنا... يقولون إنها كانت تغار من طالباته. لم يكن وضعها النفسي جيدا... وبالطبع أدخلوها مستشفى الأمراض النفسية... ولا أدري ماذا كان مصير ابنتيه..."

قاطعت كلامه من جديد قائلا: "حسنا، قلتم إن عاكفًا بقي عندكم إلى أن أكمل الثانوية، أفلم تتواصلا بعد ذلك؟"

ضيّق عينيه وبدا كأنه يُعاتب.

"سامحك الله سيد نوزات، هل يعقل بأن لا نتقابل؟ أتراني رجلا قادرا على ترك أطفالي في الشارع؟" أشار بيده إلى الحائط الذي كان لونه بلون كيس الورق. كان الحائط مغطى بالعديد من البراويز. وفي داخل البراويز صور بدأت بالذبول. بعضها كانت أثناء التخرج، وبعضها الآخر في حفلة عرس، حتى أن هناك صورًا لرجل يحمل في حضنه مولودا جديدا. "هؤلاء

أطفالي، وأطفالهم أيضا أحفادي. أتراسل معهم جميعا، وأتحدث معهم على الهاتف. الآن ظهر ما يسمى بالإنترنت، يطلبون مني التواصل من خلاله، لكنني لا أستطيع إتقانه..."

قاطعت كلامه قائلا: "حسنا، وعاكف صويقان، هل كنت مستمرا في تواصلك معه؟"

اغتم وجهه.

"لقد بينت ذلك... بالطبع كانت علاقتي مستمرة. تكلم معي آخر مرة قبل شهرين. كان يجمع مالا من أجل سميح زميل الطفولة... بالطبع، نحن علّمنا أطفالنا على الوفاء. فهم دائما يساعد بعضهم بعضًا."

وأخيرا فجّرت باحثتنا كلمتها بعد أن عجزت عن الصبر.

"ما دام أنكم تعرفون عاكف بهذا القدر، لا بد أنكم تعرفون أيضا أنه كان شخصا متحرشا بالأطفال."

قطّب السيد حجابي حاجبيه بلونهما الكستنائي الفاتح، وعبرت وجهه أوّلًا ثم تبعتها سحابة غضب.

"ماذا؟ ماذا؟ عن ماذا تتحدثون آنسة زينب؟"

لم يكن لدى ابنتنا نيّة في التراجع خطوة للوراء أبدا.

"عاكف صويقان الذي تمدحونه منذ جلوسنا، هو شخص مريض نفسيًّا. فهو متحرش بالأطفال. وهناك قضايا فتحت ضدّه. وقد دخل السجن بسبب هذه التهمة. ألم تسمعوا بهذا؟"

أصبح وجه الرجل مثل الجير.

"كيف؟ لا، لا، لا بد أن هناك خطأ. أسمع ذلك لأول مرة منكم..." يبدو أنه قد خاف. "لا بد أن هناك تشابهًا في الأسماء. شخص آخر اسمه عاكف صويقان. لا يمكن أن يكون ولدي بهذا الشكل."

كان يبدو صادقا، لكن الحقيقة واضحة جدا. فهو إما كان يبالغ حينما قال إني أعتني بجميع طلابي ولا ينقطع الاتصال بيننا أبدا، أو أنه يكذب بصراحة.

"مع الأسف ليس هناك خطأ يا سيد حجابي،" قلتها بصوت بارد. "المقتول عاكف صويقان هو الشخص الذي تعرفونه. وحقا هو شخص متحرش بالأطفال... ومن المحتمل أن سبب الجريمة له علاقة بانحرافه..."

انفتحت عيناه السوداوان الكبيرتان من الدهشة، لم يكن في وسعي الانتظار حتى يعود إلى وعيه.

"هذا هو الحال للأسف الشديد. وأنا أريد أن أسألك هذا: هل كانت هناك شكوى لعاكف حول هذه المسألة في تلك السنوات، أقصد في طفولته أو بداية شبابه؟ قضية تحرش أو غيرها... على سبيل المثال، ذاك السيد طلعت... قلتم إنه أستاذ طيب، نحن بالطبع لا نريد أن نضع على وزرنا خطيئة الرجل. لكن نريد أن نفهم كل ما جرى منذ البداية... لكي نعثر على قاتل عاكف..."

ضمّ ركبتيه في المكان الذي يجلس فيه، وأجاب بشكل قطعي.

"أنتم مخطئون، وكل ما ذكرتموه ليس صحيحا. فلا عاكف كما قلتم، ولا السيّد طلعت أيضا هكذا إنسان..." بدأ فكّه يرتجف. "أيضا... أيضا لا يمكن أن يقيم أحد كذلك في السكن الذي أديره. لا، أطفالي كلّهم الماس،" ذهب ذلك اللطيف صاحب البيت، وحلّ بدلا منه رجل مستعد للصراع في أي لحظة. رفع صوته أكثر. "سيد نوزات، أنتم في وهم كبير. إنكم تظلمون عاكف. فالطفل الذي أرعاه لا يمكن أن يحمل أبدا مثل هذه المشاعر، ولا يمكن أن يتصرف كمثل هذه التصرفات البشعة. لا يا

سيدي، لا يمكن لأحد أن يقنعني بهذا."

كان الرجل يعيش في عالم الخيال. كان شخصا مثاليا، ويعتقد أن الأطفال الذين ربّاهم لا بد أن يكونوا كذلك. عرفت الكثير من أمثال هؤلاء الناس، فهم لا يريدون أن يتواجهوا مع الفشل أو الإساءة أو حتى أدنى سلبّية. بل إنهم لا يعترفون بوجود السلبية. يعتقدون أنهم إذا كانوا طيبين فلا بد أن تكون الدنيا بأكملها طيبة مثلهم. ومع أن الحياة تصحّحهم باستمرار فإنهم لا يتخلون عن تفاؤلهم الغبي.

قالت زينب مقاطعة: "يعني يا سيدي حجابي، ألم يشهد سكنكم أيّ حادثة لاستغلال جنسي قط؟"

كانت عيناه تنظران بكراهية.

صاح قائلا: "كيف يمكنكم أن تتكلموا معي هكذا؟ كيف تجرؤون على طرح هذا السؤال؟"

كانت زينب تستعد للهجوم عليه.

قلت منبّها: "اهدأوا، اهدأوا من فضلكم سيد حجابي، أمامكم فتاة. لا ترفعوا صوتكم. فهذا لا يليق بسيد مثلكم."

لم يكن يتوقع مثل هذا الرد فبدت على وجهه حيرة عميقة.

"لكنها تتهم بصراحة... إنها تتهم... وتفتري..." عاد لزينب من جديد. "لا يا سيدتي، لم يكن هناك في سكننا في عهدي مثل هذه الوقائع البشعة أبدا، إن كنتم لا تصدقون فاذهبوا إلى المديرية العامة، وتحققوا ما إذا كانت هنالك شكاوى مسجلة أم لا..." اشتعل غضبه بشدة حتى أصبح ينظر فيها يمينا وشمالا دون أن يدري ماذا يفعل. "إذن... إذن لا تؤاخذوني، لكن لا أريد أن أجيب على أسئلتكم بعد الآن. من فضلكم اتركوا منزلي... نعم سيدي، كلاكما معا... انتهى حوارنا... لطفا، من فضلكم اتركوني وحيدا..."

9

"سيبسي إسماعيل سيتولى أمر الجنازة."

حينما خرجنا من باب العمارة جثمت علينا من جديد، مثل ألم عنيد، تلك الحرارة برطوبتها العالية التي نسيناها فترة. لحسن الحظ، كنت قد أوقفت سيارتي المخضرمة في الظل. كانت زينب تجلس على المقعد الذي بجانبي وهي صامتة وفي حالة من الاستياء. مضطربة من سهرها ومتأثرة جدا من همجية ذلك الرجل. لم تنبس بأي كلمة حينما كانت تعبر الممر، وتنزل السلم. والآن، تنتظر بصمت تشغيل سيارتي وأنظارها كانت متعلقة بولد وابنتين يلعبون معا في حديقة صغيرة. وحينما كنت سأقول لها لا تهتمي بما حدث، منعني هاتفي برنينه. كان المتصل صاحبنا المشاكس. وهل كان يعقل أن يمضي يوم دون أن يُسمعني صوته؟

فتحت الهاتف قائلا: "نعم عزيزي علي، أسمعك."

كان سماع اسم حبيبها فقط كافيا لزينب كي تتخلص من ركودها السابق. تجاهلت الابتسامة التي ارتسمت على شفاه جولييت السمراء وأصغيت إلى روميو على الهاتف.

"ستنطلق جنازة القتيل غدا بعد صلاة الظهر سيدي. من جامع السلطان مهري ماه في أدرنه قابي... انتهت عملية التشريح، بإمكان زينب أخذ التقرير."

لم تكن هذه المسألة تثير اهتمامي، لكنني لم أستطع السكوت دون أن

أسأل.

" هل البلدية ستدفن الجنازة؟ فمن المعلوم أنه لا قريب للقتيل..."

"هذا ما كنت سأقوله يا سيدي. سيبسي إسماعيل سيتولى أمر الجنازة."

نعم ها هو، كان خبرا غير متوقع.

"أهو السيبسي إسماعيل الذي نعرفه؟ رئيس المافيا الأخرق ذاك..."

"هو نفسه سيدي."

كان سيبسي إسماعيل طوال السنوات القليلة الماضية رئيس عصابة جائر، يعيث في الأرض فسادا. كنت أعرف تلوّث يديه بأعمال غير قانونية مثل الإتاوة، والاستيلاء على الأراضي، والمناقصات الظّالمة. تورط سابقا في جريمة أدت إلى مقتل ثلاثة أشخاص في إحدى حانات كوجك جكمجه. احتُجز كثيرًا، وتملّص دومًا من جريمته بإلقائها على رجاله. أنا من حققت معه بشأن الحادثة التي وقعت في كوجك جكمجه. كان سافلا ودمه باردا لكنّه راسخ بشكل عجيب. فقد كان لا ينتهك قواعده التي وضعها البتة. لم يرتعب أمامي مطلقا، كان منتصبا، فلم ينحن، ولم ينثن. ولا أعتقد أن سيبسي سيكون راضيا عن ذكر اسمه إلى جانب متحرش بالأطفال بتاتا.

"وما علاقة هذا المستهتر بالضحية؟"

"لا أعرف سيدي، وأنا أيضا استغربت كثيرا حينما سمعت. هل يا ترى كان عاكف من عصابته؟"

مَثُلَ الشابّ أمام عيني، مَثُلَ بوجهه الذي التقيته قبل سنوات وليس بجسده الذي رأيته صباح الأمس. لم يكن عاكف ذاك الشخص الذي ينضمّ إلى عصابات ولا غيرها. كان صاحب شخصية ضعيفة، ولديه جرأة فقط في الاعتداء على الأطفال الصغار غير المحميّين.

قلت: "لا أعتقد عزيزي علي،" وبمجرد أن قلت ذلك وقعت في شكّ. "ومع ذلك فإنّه من الصعب التأكيد... ربما تكون محقًّا، فربما كانت لعاكف وظيفة في العصابة."

وثب مساعدي بحماس.

"إن أردتم أحضرت السيسي على الفور، فلنجر تحقيقا مع ذاك الوغد."

أنا متأكد أنه كان قادرا على فعلها، فمهما كان الثمن فإنّ بإمكانه أن يسحب السيسي من تلابيبه ويحضره إلى المركز، لكن هل كان سيشرح الحقيقة؟ هذا ما كان مجهولا.

"لا، لا يا علي، لننتظر قليلا، غدا سنتحدث مع السيسي في الجنازة. أنت ماذا فعلت؟ هل استطعت جمع المعلومات من أقارب الضحايا الذين قُتلوا على يد القط الأعمى؟"

"تكلمت قبل قليل مع والد أحدهم. اسمه كامل جوتوك. والد هارون جوتوك الذي قتل في يناير عام 2012. رجل متدين ونظيف. أو هكذا يبدو. لكنه متأثر من الحادثة كثيرا. ومع أنه مر على الحادثة خمس سنوات فإنه كان متضايقا أمامي. لم يكن منزعجا من مقتل ولده، وإنما من اعتباره متحرشا. حتى أنه لم يدافع عن ابنه أبدا. لا بد أنه كان على علم بتحرشه. لكن ليست لديه أي معلومة عن القاتل. بل إنه ليس مكترثا كثيرا بمن يكون القاتل. وإنما هو قلق على ما سيلقاه ولده في العالم الآخر. وبدا أنه يدعو 'إن شاء الله، يكون هارون قد أدّى كفارته. إن شاء الله ربّي العظيم سيصفح عنه.' ربما كان فرحا بمقتل ولده. فهو يؤمن أنه إن كان قد دفع ثمن ذنوبه في هذه الدنيا فهذا يعني أنه سينجو من جهنم في العالم الآخر... على أيّ حال، لا أريد الإطالة في الكلام، سيدي، هذا

الرجل المدعو كامل لم يعط معلومات عن القاتل وإنما أعطى معلومات مهمة عن سيدنا ذكائي. أنتم محققون، فما زال السيد ذكائي يحقق في القضية. فقبل بضعة شهور زار كامل جوتوك في منزله مرة أخرى... ولم يخبره بأنه أصبح متقاعدا..."

هذا هو الخبر الذي أنتظره.

"وماذا سأل ذكائي؟"

"سألهم أسئلتي: تعرض ولدهم للتهديد أم لا... أكان له عدو أم لا... إن كانت لديهم معلومات عن القاتل أم لا... وحينما ذكر كامل جوتوك أنه لا يعرف شيئا، غضب قليلا وحذّره: 'لا تخفوا عني أي معلومة.' وقال: 'ألا تريدون العثور على قاتل ولدكم؟ أنا فقط من يستطيع مساعدتكم.' لكن كامل لا يملك أي معلومة ليفصح عنها. ومع ذلك لم يستسلم السيد ذكائي، فقد ترك رقم هاتفه. وقال له: 'إن وصلتم لأي معلومة اتصلوا بي فورا.'"

كان مثلما اعتقدت تماما. فذكائي لم يكن راضيا عن تقاعده، لم يكن بوسعه أن ينعزل دون أن يغلق الجزء المتبقي من الملف. كان لا بد له من القبض على القط الأعمى حتى يشعر بالاطمئنان. لم أكن أدينه، بل كنت أفهمه. كانت المشكلة الوحيدة عدم تشاركه معنا، فهذا الأمر، قد يؤثر سلبا على تحقيقنا. ربما من المحتمل أن نتفق لو أدخلته في التحقيق بطريقة غير رسمية حتى وإن كان مخالفا للقانون، فإن عثرنا على القاتل فلا أهمية لهذا القانون. لكن، هل صاحبنا ذكائي يقبل بهذا؟ هذا ما كنت أشك فيه.

قلت لمساعدي: "واضح عزيزي علي، استمر بالتواصل مع أقارب الضحايا، ونحن سنذهب إلى بيت المقتول الأخير. إلى اللقاء في المساء"

حينما أغلقت الهاتف لاحظت زينب وهي ترمقني بقلق. فتحت باب السيارة كي تخفف من هوائها الخانق قليلا. ومع ذلك لم تستطع أن تمنع تجمع حبات العرق فوق جبينها.

سألت قائلة: "هل نحن أيضا سنصبح هكذا؟"

لم أفهم عن ماذا تتحدث.

"كيف سنكون؟"

"مثل الضابط ذكائي... ما زال متابعا للقضية، أليس كذلك؟"

فهمت ابنتنا الذكية المسألة حتى وإن لم تسمع كلام علي. أكدت وأنا أضع الهاتف في جيبي.

"نعم، ما زال يتابع القطّ الأعمى. يبدو أنه لن يرتاح دون أن يقبض على القاتل المتسلسل... بالطبع ربما هذا سيخلق لنا مشكلة أثناء التحقيق."

لم يختف الفضول من وجهها المتعب.

"أنا لا أتحدث عن خلقه مشكلة لنا سيدي. أنا أتحدث عن الحياة التي يعيشها الضابط ذكائي. هل من الصحيح أن يكون مرتبطا بعمله إلى هذه الدرجة؟"

أطلقت قهقهة صغيرة.

"ليته كان التزاما بالمهنة عزيزتي زينب، فهناك ما هو أصعب بكثير. فعدم وجود حياة أخرى خارج المهنة هو الأصعب... لكن ماذا نستطيع أن نقول؟ فالرجل عاش هكذا لسنوات، وكان سعيدا بهذا. فحينما يقال له انتهى عملك، كيف يتركه ويذهب...؟"

كررت زينب قولها من جديد: "هل نحن أيضا سنصبح هكذا؟" لكن كان صوتها هذه المرة حزينا جدا بمعنى الكلمة. هل كانت حزينة على ذكائي أم أنها كانت حزينة على احتمالية مشاركتنا المصير نفسه؟ هذا ما صعّب

فهمه. علاوة على ذلك، ستتزوج من رجل شرطي، وليس من أي شرطي وإنما من شرطي عاشق لمهنته. فإن صار علي مثل ذكائي، وهذا الاحتمال وارد جدًّا، فكم هو صحيح أن تتزوّج من شخص كهذا وتنجب منه طفلا؟ وربما لم تكن تفكر في علي وإنما في نفسها كيف ستصبح حينما تصير مثل ذكائي: باحثة فسُد عقلها بالقتلة. حاولت تهدئتها وكأن هذا سيكون له أثر. وأقول كأنه سيكون له أثر لأن هذه التهدئة ستكون من شرطيّ ليس مختلفا كثيرًا عن ذكائي.

"لا أعرف ذلك عزيزتي زينب، لكني لا أعتقد أن هذا الشعور سيكون سيئا جدا. فأن تكوني مثل ذكائي أفضل بألف مرة من الأشخاص العميان في وظائفهم الذين نصادفهم في المؤسسة الأمنية بين الفينة والأخرى. فالأناس الذين همهم مرتبط بالدنيا وبالحياة وبأنفسهم طيبون. وبالطبع، لا تقلقي، فذكائي سيفهم الحال، وسيدرك أنه كان يعمل بالمجرفة عبثا." وأنهيت الكلام وأنا أمد يدي إلى المفتاح. "نعم، ذكائي سيعود إلى رشده، ويشرح لنا ما يعرفه، وسيترك العمل إلينا..."

10

"هؤلاء ليس لهم أرواح، فجميعهم سفلة يجرون خلف شهواتهم..."

كانت شقة الضحية في حي أيوب، في الطابق السفلي في إحدى الأبنية الحجرية التي نفدت طاقتها منذ مدة طويلة. وحينما دخلنا من باب المبنى الذي أكمل عمره منذ أمد طويل، بعد أن سرنا في الشوارع المرصوفة بالحصى والتي تحولت تحت الشمس إلى لوحات فضية أبهرت أبصارنا، ارتطمت بأنفنا رائحة عفن البحر؛ تلك الرائحة التي يعرفها جيدا المقيمون في الأحياء القريبة من الساحل في إسطنبول. لم ألق بالا، فقد كانت البرودة النسبية للعمارة بعد تلك الحرارة الجهنمية في الخارج بمثابة علاج. لا بد أن زينب أيضا كانت تشعر مثلي، فقد بدأت تتفحّص مدخل العمارة وعلامات الرضا عن نفسها بادية على وجهها المتعب. دخلت إلى رئتنا تلك الرطوبة الثقيلة الكامنة في الجدران التي لم تر لونا ولا طلاء منذ زمن طويل. وبينما كنا ننزل الدرج المتآكل جفلنا عند سماعنا أصواتًا تنبعث من الطابق السفلي. لم يكن أحد يقيم في الشقة الوحيدة في الطابق السفلي إلا عاكف صويقان. بدلا من الإجابة على زينب التي كانت تنظر نظرة مفادها من يمكن أن يكون، وضعت يدي على مقربة من سلاحي وبدأت نزول الدرج بخطوات متأنية. وبعد نزول بضع درجات وصلنا باب الشقة. جفلنا من جديد، فقد كان في الباب فرجة. قرّبت

يدي أكثر من السلاح الذي على خصري ودفعت الباء بهدوء.

"ماذا يعني هذا الآن؟" وإذ بصوت طن في أذني. "لم هذه البراويز الفارغة؟ ما الذي يريد أن يقوله هذا الوغد؟"

سكت فجأة، لا بد أنه شعر بدخولنا من خلال صوت الألواح الخشبية الأرضية التي تئن تحت أقدامنا في الردهة. وحينما عبرنا باب الصالون التقينا وجها لوجه.

"سيدي!" قالها رجل أمامي مندهشا. "سيدي، أهذا أنتم؟"

فقد كان الشخص الذي أمامي منير الأحول. نعم، فقد كان سابقا مساعد ضابط في مديرية فرع الأمن العام، والآن أصبح ينادى بالضابط منير. تلاشى القلق من وجهه، ولمعت عيناه بضوء جميل.

"ماذا تفعل هنا يا منير؟"

"وماذا أفعل يا سيدي، نتعقب المتحرش..." وبينما كان يقول هذا تعلقت أنظاره بزينب. لم تكن نظرات عادية، وإنما كادت نظراته تنهم الفتاة نهما. ولكي يعود إلى رشده نبّهته بصوت سلطوي.

"ألا تعرف أن عاكف صويقان قد قتل؟"

كان متأثرا من جمال زينب إلى درجة لم يعرف معها سبب غضبي، غير أنه تلطف ونظر إليّ.

"نعرف، نعرف... لهذا السبب نحن هنا..." كان يواجه صعوبة في استجماع أفكاره. "أءء، لا تسيئوا الفهم سيدي، فليس عندي أي رغبة في التدخل في قضيتكم. نحن نحاول أن نحمي الأطفال من هؤلاء المنحرفين... وهذا هو السبب الذي يجعلنا نطاردهم حتى بعد موتهم. مع من كانوا، ومن رافقوا، وأي مواقع الإنترنت يتعقبونها، وهل لديهم علاقات مع متحرشين آخرين." اتجهت أنظاره مرة أخرى إلى زينب.

"وأنتم أيضا تتعقبون القاتل بالطبع. حسنا، هل استطعتم العثور على دليل؟"

قلت بصوت قاس: "من تسأل؟"

عاد المتسكع إلى رشده على الفور.

"ماذا؟! ماذا قلتم سيدي؟"

"من تسأل يا منير؟ إحدى عينيك على زينب والأخرى عليّ! حقا أنت أحول يا ابني!"

بينما كانت زينب تضحك بصمت، أصبح وجه منير بلحيته ذات الثلاثة أيام شديد الحمرة.

بدأ يتمتم قائلا: "لا، لا يا سيدي، أيجوز هذا؟! لا تؤاخذوني... أحس أنني رأيت الآنسة من قبل لهذا السبب..."

"الآنسة هي باحثتنا، وفي نفس الوقت هي ذراعي الأيمن. وهي خطيبة علي... تتذكر الضابط علي، أليس كذلك؟"

نظرت لحظة لزينب، لاحظت أنها لم تكن راضية عن تصرفي، فقد كان حاجباها معقودين، لا بد أن كلماتي أزعجتها. أعتقد أنها كان تقول: أنا أحمي نفسي، فلماذا تتدخل في حياتي؟

"على أيّ حال، ليس مهما يا منير، لنرجع إلى موضوعنا. هذا الشخص المسمى عاكف... لديكم ملف خاص عنه، أليس كذلك؟"

فرح منير بتغيير الموضوع.

"بالطبع موجود" قالها وهو يشعر بالراحة، "علاوة على ذلك ملف فيه تفصيلات كثيرة." توقف. "تتذكرون، هذا الرجل كان سيتحرش بالمرحومة ابنتكم..."

هززت رأسي بحزن.

"أتذكر يا منير، أتذكر كل شيء."

تحدث بغضب.

"وكيف يمكن للإنسان أن ينسى مثل هذا الأمر؟ نعم سيدي، هؤلاء الناس سفلة. بل إنهم سفلة السفلة... يجب أن لا ننسى أفعالهم السيئة وإن فارقوا الحياة. نعم، بدأنا بمتابعة هذا المنحرف المسمى بعاكف صويقان بعد أن خرج من السجن. لم تكن المتابعة له فقط، وإنما كانت أيضا لجميع المتحرشين الذين لم نتركهم أبدا. وأنا لا أقصد أننا نتعقب كل متحرش في كل ساعة، أو دقيقة، أو أننا نترقب كل تصرفاته. وإنما نعرف مكان عمله، ونتحقق من مكان سكنه. نتكلم مع المسؤولين عنه في العمل، وجيرانه في الحي، ونسألهم عن تصرفاته الشاذة دون أن يشعر بشيء من ذلك. في الحقيقة، لم يقم عاكف صويقان بأي حادثة منذ سنتين. أو على الأصح أننا لم نر منه شيئا يعكس انحرافه. أعتقد أنه قتل بسبب ذنوبه السابقة. والقاتل هو شخص يحتضن الدفاتر القديمة..."

ولأنه متخصص في موضوع المتحرشين أردت معرفة فكره.

"عثرنا في موقع الجريمة على لعبة طفل... مشابهة للعبة باربي التي أعطاها عاكف صويقان لابنتي... عيونه كانت مغلقة بعصابة حمراء. ونصف أذنه اليمنى..."

لم يأذن بإكمال كلامي وقاطعني على الفور.

"القط الأعمى؟" قالها بصوت قادم من أعماقه. "قولوا من البداية إن القط الأعمى عاد من جديد" تلعثم، وجالت عيناه في وجهي ببطء شديد. "لكن ما علاقة هذه الحادثة بكم؟ أم، أم أن هذا هو تحدّ؟" صمت من جديد، وتابع بإعجاب. "يا سلام، القط الأعمى وسع هدفه. فهو يزيد أن

يرسل رسالة إلينا من خلالك. إلينا جميعا في المؤسسة الأمنية."

لم أفكر بهذا الشكل على الإطلاق. فليس هناك من سبب لأن يتحداني القط الأعمى. لكن من المؤكّد أنّ منيرًا كان يملك معلومات عن هذا القاتل المتسلسل أكثر مني.

"هلا تحدثت لي عن القط الأعمى؟"

لم يبق في ذهنه لا جمال زينب ولا توبيخي الذي أطعمته إياه قبل قليل، لحس شفتيه وبدأ بالحديث.

"في الحقيقة الرجل بطل حقيقي. يفعل ما لا نستطيع نحن فعله. يحل المشكلة من جذورها. فلا يبقى لا تحرش ولا متحرش..."

كان منير يمدح الجريمة صراحة، ويرى القاتل بطلا كما قال عنه بالضبط. لكنني لم أرغب في مناقشته.

سألت ببساطة. "من هو هذا القط الأعمى؟"

هز كتفه بلا مبالاة.

"وما أدراني سيدي؟ هذه ليست قضيتي. شعبة التحقيق بحثت عنه. لكنها لم تستطع العثور على دليل خلفه أبدا، فالرجل ماهر جدا كما قلت لكم."

"هذا ما حصل، لم يستطيعوا العثور على شيء. لكن أنت تعرف أيضا الأشخاص الذين تعرضوا للتحرش، ما رأيك في القط الأعمى، هل من الممكن أن يكون قد تعرض للاعتداء في صغره؟"

تصرف بشكل جدي فجأة.

"ربما، فقد صادفنا الكثير من هذه الحوادث. حتى أن بعضا منهم يقوم بهذا الشذوذ في كبره لأنه تعرض للاغتصاب في صغره. لكنني لا أعتقد ان القط الأعمى يقوم بهذا الأمر، فهو ليس من هذا النوع. ربما

تعرض أحد أقاربه للاعتداء الجنسي. ولده، ابنته، وربما أخوه. وأقول لكم لا تستبعدوا هذا الاحتمال أبدا." حك لحيته بضجر. "الاغتصاب يا سيدي عمل مدمر لا يؤثر على القربان فحسب، بل وعلى أقاربه جميعا، فيقلب حياتهم رأسا على عقب. نعم، فالشخص الذي تعرض للاعتداء قد يختار تعذيب الآخرين في سبيل التخلص من هذه الصدمة. فإن كانت رغبة القتل موجودة عند الرجل فإن هذا العمل سيهدّئه..."

"ولكن لمدة معينة،" قالتها زينب مقاطعة كلامه. "فالصدمة ستستيقظ من جديد، وستلزمه أن يعذّب أو يقتل من جديد."

"بالطبع آنسة زينب،" قالها بأدب، وبطريقة خجولة نوعا ما. "لا بد أن يكون القط الأعمى هكذا. قتل في عام 2012 اثني عشر شخصا. هذا يعني أن قتله ل 12 شخصا أراحه مدة خمس سنوات فقط. انظروا، فهو قد بدأ بالقتل من جديد. لكن أنا مثلكم، فليس بين يدي أي ورقة أو وثيقة."

كان يبدو صافي النية بعد سماعه للتوبيخ قبل قليل. لكن هذا لا يعني أن ما جاء به صحيحا. لكن كان بالإمكان أن يفيدنا بمعلومات مهمة.

"حسنا، لنعد للمقتول، باعتقادك، هل تعرض عاكف صويقان في صغره للاعتداء الجنسي؟"

أعرب عن فكره بكل ثقة وكأنه خبير في هذا الموضوع.

"ليس شرطا سيدي. فهناك من بينهم ممن تعرض للاعتداء الجنسي، ومنهم من لم يتعرض للاعتداء. لكن محاولة العثور على عذر سيعطي المتحرشين مبررا."

ومن يدري ما هي الحوادث المخيفة التي صادفوها؟ كنت أفهم هذا الكره عند أمثال هؤلاء الرجال، لكن حبذا لو أنهم لا يخلطون عواطفهم بالعمل. أشرت إلى الصالون الذي كنا نقف على بابه.

"هل بحثتم في البيت. أهناك أشياء تفيدنا في التحقيق؟"

"موجود، موجود سيدي... لا تفيدكم في العثور على القط الأعمى، ولكن هناك أشياء كثيرة ستظهر لكم الحالة النفسية لهذا الشاذ المقتول."

فسح لنا الطريق وهو يتنحى جانبا. "تعالوا وشاهدوا بأم أعينكم."

وما أن دخلنا الصالون حتى فهمت فورا ما الذي يقصده. كانت جميع الجدران باللون الأزرق الداكن، تكاد تكون قريبة من اللون الكحلي. وكانت النوافذ مغطاة بستائر لونها عنابي.

همست زينب: "يا لها من روح قاتمة! ما أسوأ هذه الألوان!"

كانت هناك أربعة نجوم صفراء على الجدران الأربعة. وبراويز خشبية معلقة، لكن لم يكن بداخلها لا رسم ولا صورة، وإنما كان بداخلها كراتين بيضاء لا تعبر عن فرح أو حزن أو ألم. كراتين بيضاء للغاية لم تكن ترمز إلى لحظات حدثت، وربما لن تحدث أبدا.

اقتربت من البرواز المعلق على الجدار الواسع أمامي، وبدأت بفحصه عن اليمين، والشمال، ومن تحته ومن فوقه.

"لا تتعبوا أنفسكم سيدي، فحصناها، بل ودققناها بضوء خاص؛ فليس هناك من كتابة أو رسم أو خط."

وبينما كان الضابط منير يواصل حديثه، رأيت في الزاوية خزانة صغيرة مصنوعة من الخشب. كانت مثل الجدران مغطاة بنجمة صفراء، وجميع الكتب فيها مغطاة بورق أزرق، كانت أوراقا زرقاء بنفس لون الجدران. كان من السهل أن نتخلص من الموضوع بقولنا إن هذا الرجل أحمق بمعنى الكلمة، لكن المهم هنا هو أن نحل لغز النجمة الصفراء، وهذا الأزرق المؤلم، وهذه الصفحات البيضاء التي داخل البراويز.

"ما هي الأشياء التي يقرأها يا ترى؟" سألت ذلك زينب وهي تسحب

واحدا من الكتب المغلفة باللون الأزرق. فتحت الكتاب وقالت مندهشة وهي تقلب صفحاته. "فارغ، فارغ تماما، ليس في هذه الصفحات شيء مكتوب. وضعٌ غريب، لو لم يكن الرجل هو الضحية لقلت إنه القاتل المتسلسل الذي نبحث عنه."

أنا أيضا أخذت أحد الكتب، فتحته، لم يكن فيه أي حرف، ولا أي خدش على صفحاته. هذه ليست كتبا، وإنما دفاتر لم تستعمل. تذكرت كلمات المتقاعد السيد حجابي مدير السكن. ذكر أن عاكف كان يكتب حكايات في غاية الجمال. هل يا ترى أحضر هذه الدفاتر من أجل الحكايات التي سيكتبها؟ لا يا أخي، لو كان الأمر كذلك، لكان هناك واحدا أو اثنين، لكن كان في خزانة الكتب ما يقارب الخمسين دفترا على الأقل، جميعها مغطاة بغلاف لونه أزرق، وداخلها صفحات فارغة تماما.

شتت منير أفكاري حينما قال: "ربما تكون كتبا لم تكتب حتى الآن. فمن المحتمل أن عاكف صويقان كان سيقيد فيها أفعاله القبيحة، أفعاله المخلة بالشرف ضد الأطفال الصغار. لكنه لم يجرؤ على الكتابة."

أعربت زينب عن فكرها وهي تضع في المكتبة الدفتر الذي في يدها.

"ليته كتب، لأفادنا كثيرا."

لم يكن في صوتها لا غضب ولا كره.

"وكيف سيفيدنا يا زينب؟ فهو لن يشرح الحقيقة، بل سيخلط الحوادث ويتظاهر بالبراءة."

نظرت إليه باحثتنا نظرة باردة.

"لا أعتقد؛ عاكف كان غير راض عن نفسه. هذه البراويز الفارغة، وهذه الدفاتر تعبر عن مدى ألم الرجل. ربما لو كتب أو استطاع الكتابة لتخلى عن التحرش بالأطفال، ولواجه الأفعال التي فعلت به والتي فعلها

بغيره. ومن المحتمل أن يعفو عن نفسه، وربما لطلب العفو من ضحاياه."

بكل تأكيد لم يكن منير مؤيدا هذا الرأي.

"هؤلاء الرجال لا يتخلون بسهولة أبدا. بل إنهم لن ينجوا من هذا المرض حتى وإن أرادوا علاج أنفسهم. سيبقون مستمرين في تدمير حياة المعصومين من الأطفال المساكين." كلما تحدث اشتد غضبه. "لا أدري، ربما الحل الوحيد هو إخصاؤهم. لكن من منهم يقبل ذلك..."

" ربما يقبلوا" قالتها زينب موبّخة. "حتى وإن كانوا منحرفين، أو مغتصبين للأطفال، ففي النهاية نحن أمام إنسان، له روح مثلنا ومثلك أيضا. وربما أيضا كانوا يشعرون بالندم. يجب علينا أن نفهم سبب هذا العمل. وكيف لنا أن نستطيع منعهم دون أن نعرف السبب؟!"

كان الحوار بينهم يزداد إثارة، وكان منير يستعد للرد بحماس. لكن باحثتنا استمرت في كلامها دون أن تلقي بالا.

"إذا لم نقترب من الحادثة بهذا الشكل، فلن نستطيع الوصول إلى مصدر المشكلة. فمثلما أننا لا نستطيع منع الجرائم حتى وإن اعتقلنا القتلة فردا فردا كذلك فإننا لن نتمكن من حل هذه المعضلة بقتل المتحرشين. لم يكن عاكف صويقان إنسانا سعيدا. لا بد أنه كان يحلم بحياة أخرى. حياة تتكون من أرواح وأجساد نقية، لم تلمس، ولم تدنس." أشارت بيدها إلى البراويز الفارغة التي على الجدار. "تماما مثل هذه الرسوم البيضاء، وتماما مثل تلك الصفحات البيضاء التي لم تتسخ بعد في تلك الدفاتر المغطاة بالجلد الأزرق... هكذا أراد أن يعيش، لكنه لم يكن بوسعه أن يمنع نفسه."

قاطعها منير قائلا: "لا يمكن أن يحدث هذا على الإطلاق، مضى وقت وأنا أشرح لكم آنسة زينب... هؤلاء ليس لهم أرواح، فجميعهم سفلة

يجرون خلف شهواتهم..."

لو تركتهما فسيطول النقاش بينهما. فقلت مقاطعا لهما: "ربما كان عاكف يرى كتابة في هذه السطور. ولماذا لا يمكن؟ فربما كان يقرأ الروايات، والقصص، والأشعار في هذه الصفحات التي نراها فارغة. بالطبع حكايات بناها بنفسه. لكنه لا يريد أحد أن يقرأها. لهذا السبب تركها فارغة." نظرت إلى الصالون مرة أخرى. "هلا نظرتم إلى هناك، تبدو وكأنها قائمة أفلام. ربما بهذا الشكل فقط يستطيع أن يتملص من الأشياء التي فعلها أو فعلت به."

قالت زينب مؤكدة كلامي "ربما سيدي، أفلا ننسى نحن أيضا مشاكلنا وآلامنا حينما نقرأ رواية؟ من المحتمل أن عاكف صويقان أيضا استطاع الصبر على الحياة بهذا الشكل فقط."

وضع منير النقطة الأخيرة منهيا النقاش بصوت ساخر وبلا شفقة. "إذن، صاحبنا القط الأعمى قدم لهذا الرجل معروفا كبيرا، فقد أنهى تلك الحياة المريرة التي لم يستطع تحملها هذا المنحرف."

11

"هذه الحرارة لا تبشّر بالخير يا سيدي!"

انعقد أملنا كلّه في حلول المساء، فقد اعتقدنا أن الحرارة ستخفّ مع غياب الشمس وستهب نسائم البحر، فيتلاشى هذا الجوّ الخانق. لكن لسوء الحظ، كما أن الحرارة لم تتناقص ولو مثقال ذرة، ازدادت الرطوبة كثيرا. كنا نجلس في مقهى أمام قصر دولمة باهجه تحت سماء صافية بدأت تتحول تدريجيًّا إلى لون كحلي. ولولا حركة البواخر التي كانت تخلق أمواجا في بعض الأحيان لكان البحر ساكنا مثل بحيرة راكدة. كانت جميع الطاولات في المقهى ممتلئة، وكان الناس قد ألقوا أنفسهم على شواطئ البحر أملا بلقاء قطع من نسائم باردة. ونحن أيضا لم نستطع المخاطرة بالذهاب إلى المركز فالتقينا بعلي هنا. ذهبت زينب إلى المغسلة كي تغسل وجهها، أما نحن فجلسنا على الطاولة صامتين. توقف مساعدي علي الذي لم يحصل على أي نتيجة من المقابلات التي أجراها، عن تقديم تقريره الشفهي، وغاص بخياله وهو ينظر إلى البحر المتوهج باللون الأحمر.

"مثل البركان..." قالها بصوت غريب. "كأنه يشتعل... بعد قليل سيغلي، وسيفيض ما حوله. سيذيب السواحل، وسيحرقنا جميعا، وسيحرق كل إسطنبول." دافع عن أفكاره بإصرار دون أن يهتم بابتسامتي الساخرة على شفتي. "لا تثقوا بي، لكن هذه الحرارة لا تبشر

بالخير يا سيدي، هذا الجو سيقتلنا جميعا!"

كانت ياقة قميصه مفتوحة، وشعره متناثرا، وفمه مفتوحا كمن يتنفس بصعوبة. فحتى هذا البطل المغوار الذي كان بمقدوره أن يركّع عصابات المافيا سقط في النهاية مستسلما أمام هذه الحرارة الجهنمية.

"لا تبالغ يا علي، لن يموت أحد، بعد أيام سيمضي الحر. ثق بسيدك، إن لم تكن اليوم فغدا ستأتي رياح، وستبرد المدينة، وكل شيء سيعود إلى وضعه الطبيعي. وستصبح قصة 'يا لها من حرارة جهنمية!' حكاية نشرحها فيما بعد." أشرت إلى البحر الساكن. "أترى هذه المياه التي يتخللها اللون الأحمر، في عام 1954 تغطت بالثلوج. لا، لم يتجمد البحر، وإنما جاءت إليه ثلوج كبيرة من البحر الأسود. المرحوم أبي كان يشرح ذلك. كان الناس يتجولون فوق الثلوج للتسلية، ويحجلون إلى أن يصلوا الطرف الآخر. وأنت أيضا ستشرح بعد سنوات لأطفالك شهر يونيو الاستثنائي هذا..."

ضحك بصعوبة.

"أتمنى أن أجد فرصة أشرح فيها."

لم ينم ليلة الأمس، وهذا الجو الخانق قلب أعصابه رأسا على عقب.

"بالطبع سيكون ذلك، أقول لك إنه لن يطول كثيرا. انظر، في الأيام الماضية أمطرت لمدة ثلاثة أيام، الحقيقة أن تلك العاصفة تكون عادة في الأول من يناير، لكنها غيرت مسارها، فجاءت هذه السنة مبكرة قبل موعدها ببضعة أيام... ولا بد أن هذا هو سبب الحرارة. حسنا، الحرارة مبالغ فيها قليلا لكنها اليوم أو بعده ستفارقنا."

تحدث وهو يمسح بيده عرق جبهته.

"المعلومات التي ذكرتموها جميلة يا سيدي، لكن هذه الحرارة يبدو

أنها لن تزول. فهل اقتربت القيامة أم ماذا يا ترى؟"

أطلقت ضحكة.

"أصبحت تتحدث مثل العجائز يا ولدي."

ضحك المشاكس أيضا.

"لا أدري، لكنني لم أر شيئا مثل هذا قط. كأننا نعيش في جهنم..."

أشار أمامي إلى الشاي الذي كان بلون دم الأرنب. "لا أفهم كيف تشربون الشاي في هذا الحر..."

أجبت بهدوء وبصوت ثابت.

"الشاي جيد عزيزي علي، فهو يخفف الحرارة..."

"أي تخفيف هذا يا سيدي؟! فمنذ أن جلسنا هنا شربت زجاجتين من الماء البارد وما زلت عطشا، لكن أنتم تعاندون الحرارة بشربكم الشاي المغلي..."

وبينما كنت مستعدا لإعطاء محاضرة قصيرة حول أثر الشاي في تخفيف الحرارة، منعني من ذلك هاتف من أفكانيا.

"ألو، ألو، أفكانيا..."

طن في أذني ذلك الصوت المخمور الذي يبعث الأمان في نفسي.

"مرحبا نوزات! قلقت عليك حينما غبت عني. كيف حالك؟ ليس هناك شيء سيّئ، أليس كذلك؟"

ولأنني لم أستطع قول ليست هناك مشكلة إذا استثنينا عودة القاتل المتسلسل من جديد بعد أن قتل 12 شخصا قبل خمس سنوات، فقد قلت بثقة: "أنا بخير، بخير، كانت هناك بعض الأمور التي يجب أن أحلها ولهذا السبب لم أتّصل.

كيف حالك؟"

"أنا بخير لا مشكلة عندي. لكن..." تلعثمت. لا، هناك أمر ما. "أنا بخير لكن هؤلاء اللاجئين السوريّين..."

لا بد أنها سمعت الأخبار، لكنها لا تتصل بي لهذا السبب. يبدو أنها تشعر بالاكتئاب.

أجبت قائلا: "نعم، أوضاعهم مؤلمة جدا، لكن أنا أيضا لا أعرف مصير هؤلاء الناس."

"لا، أنا أتحدث عن صديقنا السيد مدني. في بيته مصيبة عظيمة."

"ومن مدني هذا؟"

قالت باندهاش: "يا إلهي، نعم صحيح، أنت لم ترَهم. السيد مدني يقيم مع عائلته في مخيم اللاجئين في فريكوي. بعض الأيام يزورونني. هذا المساء سيأتون أيضا. عندهم مصيبة كبيرة. لهذا السبب اتصلت بك. يجب أن تتحدث معهم. هلا أتيت إلينا..."

كانت قلقة، ولم يكن بالسهولة أن تطلب مني مساعدة، إذا نادتني فهذا يعني أن هناك شيئا مهما، لكنني بدأت بالثرثرة.

"بالطبع يا سيدتي، هل يعقل أن تنادينا ملكة الحانات أفكانيا ولا نذهب إليها؟! لدينا اجتماع قصير، وبمجرد أن ينتهي سأكون بجانبك."

أدركت من حركة تنفسها أنها ضحكت بهدوء، غير أنها لم تشاركني في المزاح.

قالت فقط: "شكرا نوزات، أنا في الانتظار. مع السلامة!"

شعرت بالفضول لأول مرة، إذ ما هو الشيء الذي كان يقلقها يا ترى؟

قطعت زينب التي عادت إلينا حبل أفكاري بقولها "ما هذه الحال عزيزي علي؟" عقدت حاجبيها وهي تنظر إلى عشيقها. "أراك مشتتا..."

استجمع نفسه على كرسيه وعقد زرّي القميص.

"لا لا، لست مشتّتًا وإنما هو تعب اليوم... فقد أتعبني قليلا الأشخاص الذين تحدثت إليهم. شعرت بالاستياء..." مسح رقبته المتعرّقة. "كما قلت قبل قليل يا سيدي، لا أحد منهم يعرف هويّة القاتل. بل إنهم لا يشتبهون ولو بشخص واحد. قابلت بعد الظهر أربعة أشخاص. وهم أقارب أربعة من الضحايا المتحرشين الذين قُتلوا عام 2012. انزعج جميعهم من فتح الموضوع من جديد. ثلاثة من آبائهم قالوا الجملة نفسها تقريبا: 'نحن نسينا كل ما جرى، ونشكو أمرنا إلى الله.' مع أنني كنت أخبرهم أننا نبحث عن القاتل. لكن السيدة سنّور والدة إلكار باهتجي المقتول في الثاني من يونيو عام 2012 قالت متأملة: 'هل ستجدون قاتل ولدي؟ من فضلكم اعثروا على ذلك الحقير. لقد اتهموا ولدي، لوّثوا سُمعة ولدي إلكار دون أن يرتكب ذنبا. وذاك الجاني قتل ولدي. اعثروا على ذلك المفترس، كي يعرف الجميع الحقيقة.' تلك المرأة الوحيدة فقط التي طلبت مني المساعدة، ولسوء الحظ لم يكن بيدها أي شيء تقوله."

احتسيت رشفة شاي.

"جميع القتلى كانوا متحرشين بالأطفال، فكيف يمكن أن لا يكون لهم أعداء؟ كيف يمكن لأقارب الأطفال المتحرش بهم أن يتركوا المعتدين يعيشون براحتهم؟"

أخذ مساعدي نفسا عميقا بضجر.

"هذا ما لا أعرفه سيدي، نظرت في ملفات الضحايا. لم يتعرضوا لأي اعتداء من أقارب الأطفال الذين تعرضوا للاغتصاب... حدثت بالطبع بعض الوقائع في السجون التي دخلوها، فقد قام بعض المساجين بالاعتداء على اثنين منهم وإشباعهم ضربا. وأحدهم أيضا تعرض للطعن

بالسكين. هذا كل ما في الأمر."

قالت زينب مؤكدة كلام صديقها: "نعم، فعاكف صويقان لم يتلقّ أيّ تهديد في حياته إذا استثنينا الاعتداء الذي تعرض له في السجن، ولا يوجد في ملفه شكوى أو غيرها قام بها."

اضطررت إلى رفع صوتي في الحديث من أجل قمع ضوضاء السيارات العالقة في الشارع.

"هل يمكن أن يكون المتحرشون قد تجنبوا تقديم الشكاوى؟ فكروا معي، هؤلاء الرجال كأنهم ملعونون. فالجميع ينظر إليهم نظرة قذرة. فهم لن يستطيعوا الذهاب للشرطة حتى وإن قام شخص ما بتهديدهم. وهذا الوضع يشمل عائلتهم أيضا. فهذا الأمر يدنّس أقارب المعتدين جنسيا على الأطفال. فليس من السهل أن تكون أما، أو أبا، أو أختا، أو أخا للمتحرش. وكما قال علي، إن هؤلاء يشعرون بالخجل من فتح القضية من جديد. فهم يريدون إغلاق الموضوع ونسيان ما جرى. لهذا السبب فهم يتهربون من التصريح بأي شيء. حتى وإن أفصحوا فماذا سينفعهم؟ فقريبهم في الأصل قد فارق الحياة. بل ربما أن معظمهم يعتقد أن قتله كان خيرا، ففي النهاية كان هذا المنحرف يدنس اسم عائلتهم كلها."

أيدت زينب كلامي وهي تمد يدها إلى الأمام نحو الزجاجة التي لاح عليها البخار.

"ربما سيدي" قالتها وهي تفرغ ماء الزجاجة في الكأس. "يبدو أنه لا فائدة مرجوة من أقارب القتلى. ربما من المفيد أن نضغط أكثر على الضابط ذكائي."

شربت الرشفة الأخيرة من كوب الشاي.

"نعم، سأتكلم مع ذكائي من جديد،" قلتها وأنا أضع الكوب على

الطاولة. "لكن لا بد من جمع معلومات أكثر، لا أريد الذهاب إليه بيد فارغة."

عدت إلى زينب التي ما زالت تحمل كأس الماء الذي شربت منه وكأنها تساعده في تلطيف برودته.

"أريد أن تعودي إلى سنة 2012. أعرف أنك ذكرت بعض تواريخ الجنايات، وأعداد الضحايا، لكنني أريدها كلها، من الجناية الأولى وحتى الأخيرة... لا نريد تحقيقات الشرطة فحسب، وإنما نريد معرفة كل شيء وكل ما كتبته الصحف في تلك الأيام، ومن كتبوا، وكيف كانت تعليقاتهم. نقاط تم السهو عنها، وأقوال غفل عنها، وأدلة لم يهتم بها... فكل ما هو متعلق بالقضية مهم ولازم. فنحن لن نتمكن من فهم طقوس القط الأعمى بشكل آخر."

تحدث علي الذي لم يستوعب حتى الآن سبب شربي الشاي في هذه الحرارة وهو ينظر باستغراب إلى الكوب الذي وضعته على الطاولة.

"نحن في الأصل نعرف يا سيدي، فالقاتل لا يخفي شيئا."

قلت بشكل قطعي: "لا، لا نعرف عزيزي علي، نحن نعرف أنه يعقد عيون الضحايا، ويضربهم في مؤخرة رؤوسهم، ويقطع آذانهم اليمنى، ويتركهم في الأماكن المخصصة للأطفال، ويضع إلى جانب كل واحد منهم لعبة... أنا أتحدث عن تواريخ الجرائم. إلى ماذا تشير الأعداد؟ يجب أن نعرف مضمونها. القط الأعمى قتل 12 شخصا سنة 2012. أريد جميع الروابط بين تاريخ القتل والأماكن التي تركت فيها الجثث. هل هناك شخص أو مؤسسة أو منظمة ينتمي إليها الضحايا؟ يجب علينا أن نعرف كل هذه الأمور." توقفت لحظة. "حتى وإن عرفنا كل هذه الأمور فقد لا نستطيع الوصول إلى معلومة مهمة عن القاتل، لكن نحن مضطرون أن

نجرب ذلك. هذا العمل صعب للغاية يا أصدقاء، وأرجو منكم أن تكونوا مستيقظين أكثر، وحذرين بشكل مضاعف."

تحركت زينب بحماس.

"فهمت يا سيدي، لا تقلقوا أبدا، سنعرف جميع المعلومات التي تريدونها..."

نظرت إليهما بثقة.

"لا أريد معلومة فحسب، أريد تعليقا أيضا. نحن بحاجة أيضا إلى تحاليل متعلقة بشخصية القط الأعمى. جميع القتلة يخطئون مهما بلغت موهبتهم. ومن المحتمل أن القط الأعمى قد أخطأ، لكننا لم ندرك ذلك. وإن لم يخطئ فإنه سيقع في الخطأ. فنحن صادفنا أشياء كثيرة وعشنا أمورا غريبة في هذه الوظيفة، خطط جرائم لا تخطر ببال شيطان، وحِيَلًا كاملة لا يقدر عليها شرطي مهما بلغت براعته، لكن في الوقت نفسه هناك أخطاء تُرى بالعين، وهي حماقات لم تكن تتوقعها من هؤلاء القتلة الأذكياء... لا تنسوا هذا يا أصدقائي، تسعى الحياة دائما إلى أن تقف ضد القاتل. بكل تأكيد سيترك إشارة، سيترك خلفه آثارا حتى وإن لم يصرح بها، لذلك علينا في البداية أن نتعلم كيف نراها."

12

"اختفى، اختفى فخّار. خرج صباحا من المنزل، ولم يعد بعد."

بمجرد أن دخلت باب حانة تاتاولا، استقبلتني روائح الأطباق الشهية المنبعثة من المطبخ. واستقبلني أيضا صوت المرحومة مزينة عبلة. "ليس هناك طريق أُخرى غير الموت..." شعور بسعادة مُفرطة مرّة أخرى، وإحراج استيقظ في الأعماق من جديد. نعم إحراج، إن قلتم لماذا فلا أعرف. ربما بسبب الشعور بالذنب الذي نتج عن شعوري بالسعادة في الوقت الذي تعج فيه الدنيا بالآلام. أعترف أنني كلما جئت إلى هذه الحانة أحس أنني في وطن جديد، أحس أنني أدخل إلى الدنيا من باب آخر. دنيا تخلو من الوحشية، والموت، والتدمير... وطن مليء بالشفقة والمحبة، والتسامح بقدر الإمكان... أعرف، لم يكن حقيقة، أعرف أنه كان وهْمًا، لكنه وهم لطيف. وهْم يبيّن أن الحياة ما زالت جميلة رغم كل هذه الرذائل، وهْم يُثبت أن الموت ليس الاحتمال الأخير بعكس ما تقوله المغنية مزينة عبلة.

تشتت أفكاري بصوت أفكانيا "نوزات، عزيزي نوزات". التقيت بعينيها الخضراوَين حينما رفعت رأسي. "منذ فترة وأنا أنادي عليك، فلم أنت شارد الذهن؟" رفعت حاجبيها بعتب مصطنع. "بمن تفكر هكذا بهذا العمق؟"

أطلقت ابتسامة كبيرة.

"من سيكون؟ بكل تأكيد أفكر فيك"

تجهم وجهها من كذبي.

"إنك بكذبك تحاول إرضائي يا حبيبي."

لو لم يكن عيبا لكنت عانقت جسدها الذي يفوح عطرا كالمسك. لكنني اكتفيت بقول: "ليس كذبا أفكانيا، والله ليس كذبا، لقد اشتقت إليك..."

وبينما نحن كنا على وشك أن نتعانق مثل عاشقين مجنونين كبيرين سمعت صوتا رقيقا. "أفكانيا، أفكانيا..."

وحينما أدرت رأسي التقيت بطفلة تطاير شعرها الأسود في الهواء. أثارت انتباهي اللعبة التي كانت في يدها. إنها لعبة باربي. لا أؤمن بالقدر ولا بالمعجزات، لكن لا أخفي عليكم فقد شعرت بالرعب عند رؤية لعبة باربي في حانة أفكانيا.

"اللعبة، أين وجدت تلك اللعبة؟"

خرجت الكلمات من تلقاء نفسها. لم تفهم الفتاة الصغيرة كلماتي، عقدت حاجبيها وهي تنظر إلى هذا الرجل القبيح أمامها.

تدخلت أفكانيا قائلة: "أنا اشتريتها لها." بالطبع كانت مستغربة من هذا الموقف. "أنا اشتريت هذه اللعبة، ماذا هناك يا نوزات؟"

كانت نبرة الانتقاد واضحة في صوتها.

"لا شيء، أعتذر، مجرد سؤال فقط."

لم تصدّق، لكنها لم تسأل، ونظرت إلى الطفلة.

"نعم حبيبتي عزز، تكلمي حياتي، ماذا تريدين؟ لماذا قمت عن الطاولة؟"

كانت عزز في الخامسة أو السادسة من عمرها. سمراء، ولطيفة

جدا... تمايلت في المكان الذي وقفت فيه وهي تضغط على صدر اللعبة التي بيدها اليمنى. وتحدثت بصوت رقيق.

"ماء، لا يوجد ماء..."

انحنت أفكانيا وطبعت على خد الفتاة الرقيقة قبلة كبيرة.

"حاضر يا روحي، حاضر يا جميلتي، اذهبي إلى الطاولة، وسيأتي الماء..."

تطايرت تنورة عزز الصفراء وهي تركض نحو الطاولة الكبيرة المنصوبة في زاوية الحديقة. قالت أفكانيا: "سوريّة." كان في صوتها عتاب غير بائن. "إنها سوريّة من تلك الطفلات الحزينات... ماذا حدث يا نوزات، لمَ كنت غاضبا؟ أم أنك تظن أن الطفلة سارقة؟"

نعم، أنا أستحق أن أسمع كل هذه الكلمات.

"لا، لا ليس كذلك، إنما خلطت اللعبة التي في حضنها بلعبة أخرى، بلعبة وجدناها أمس في موقع الجريمة. حينما رأيت اللعبة، ارتعبت لحظة، وفقدت نفسي. حقا أنا آسف، لم يخطر إلى ذهني اتهام الطفلة بالسرقة على الإطلاق."

ارتسمت على وجهها الجميل ابتسامة متعاطفة، لكنها كانت هادئة.

"أعرف يا نوزات، أعرف أنك لا تفعل ذلك..." اتجهت أنظارها نحو الطاولة التي ذهبت إليها عزز. كان هناك من عشرة إلى خمسة عشر شخصا. النساء حزينات جدا، والرجال قلقين، أما الأطفال فقد كانوا عنيدين يلعبون حول الطاولة وهم سعداء. غممت قائلة: "إنهم في أوضاع سيئة جدا، يائسون جدا، وكما قلت في الهاتف أنا أدعو هؤلاء إلى هنا من حين لآخر. إنهم يعيشون في فريكوي في مركز إسكان اللاجئين..." أخذت نفسا عميقا. "انتظر، سآخذ ماء، وأعود حالا." قطعت بضع خطوات، ثم عادت وبدت أنها قلقة. "لا تؤاخذني، بقيت واقفا على قدميك...

أعددت الطاولة المعهودة، تحت شجرة الأكاسيا، اذهب هناك..."

"حسنا، حسنا أفكانيا، لا تقلقي علي، انتبهي لعملك..."

وبينما كنت متجها نحو طاولتنا المنصوبة تحت شجرة الأكاسيا الكبيرة، تعلقت أنظاري بعزز. كانت تتحدث بحماس. تتحدث مع طفل أسمر مثلها. تذكرت أيسون. كانت شقراء، وأكبر من عزز بقليل. لكنها أيضا حينما كانت في هذا السن لم تكن تقف في مكانها، فكانت تجري من هنا إلى هناك. كانت صغيرة جدا، وتسأل باستمرار، وتنتقل للسؤال الآخر قبل أن تسمع جواب سؤالها الأول. بكيت في داخلي ولم أستطع النظر إلى تلك الطفلة السورية ذات الشعر الجميل. جلست في مكاني المعتاد على الطاولة التي جُهّزت من أجلي، وأسندت ظهر الكرسي نحو بدن شجرة الأكاسيا المتعب. تناولت من بين المقبلات زجاجة النبيذ التي خُيّل إليّ أنها تنظر إليّ وتقول: هيّا تقدّم! لم لا تأخذني؟ سمعت صوت أفكانيا وأنا أفرغ سائل النبيذ الذي بدا مثل لون الثلج.

"من فضلكم لا تخجلوا، هذا بيتكم، اطلبوا كل ما تريدونه من فضلكم."

كان الضيوف ينظرون إليها بإعجاب وامتنان كما لو أن أمامهم قديسة. وبينما كنت أحتسي الرشفة الأولى من النبيذ نهض عن الطاولة أكبر الرجال سنا، كان نحيفا، وطويلا مثل غصن جاف وكان جسمه مائلا. بدأ بالتحدث، لكن صوته كان منخفضا جدا إلى درجة لم أستطع معها فهم ما يقول. لا بد أنه يقدم الشكر، لأن وجنتَي أفكانيا احمرّتا. فحبيبتي المتواضعة تكاد تغوص في الأرض من الخجل إذا مدحها أحد ما. وحينما طال الكلام، أدركت أن الموضوع تغير، حتى أن أفكانيا حينما سمعت كلام الرجل أشارت إليّ وقالت: "لا تقلق، الآن سأشرح كل شيء

لنوزات، هو سيحلّ الموضوع." عندها انتصبوا جميعا عند طاولتي قبل أن أتناول الرشفة الثانية من خمري.

"عزيزي نوزات، أريد أن أعرفك بالسيد مدني."

كان الرجل الطويل والنحيف الذي يقف إلى جانب أفكانيا يرمقني بخوف.

"مرحبا،" قلتها وأنا أمد يدي. "سعدت بالتعرف عليكم."

كان مشوبًا بسُمرة لطيفة، ولعينيه لون تُرابيّ أضاف معنى عميقًا لوجهه الطويل.

انحنى أمامي قائلا: "وأنا أيضا سعدت بمعرفتكم."

كانت أصابع يده رقيقة، لذلك اكتفيت بالضغط قليلا كي لا أحرق روحه. أشرت إلى الكرسي الذي كان أمامي وقلت: "تفضلوا، تفضلوا اجلسوا هناك."

التوت رقبته.

"لا، لا أريد إزعاجكم."

كان لفظه مختلفا قليلا، لكنه كان يتكلم التركية بشكل صحيح.

"لا إزعاج يا سيد مدني،" قالتها أفكانيا بلطف. "لهذا السبب نوزات هنا، جاء من أجلكم."

جلس الرجل العجوز على الكرسي بطريقة خجولة. جلست أفكانيا أيضا إلى جانبه. كان هناك صمت قصير. فوقع على عاتقي بدء الكلام.

"جئتم من سوريا، أليس كذلك؟"

انتعش قائلا: "نعم جئنا من حلب، كنت مترجما. مترجم لغة تركية... قرأت سابقا في أنقرة، في جامعة حجة تبة... كنت أعمل مترجما لموظفي الدولة ورجال الأعمال القادمين من تركيا. أخي الصغير

أدهم، كان يعيش في اللاذقية. ابنتي عدوية أيضا تزوجت هناك. كنا بعيدين بعضنا عن بعض لكن حياتنا كانت جميلة... ثم جاءت الحرب وانتهى كل شيء. لم يبق لا منزل ولا متنزّه ولا عائلة... وماتت ابنتي وأخي وزوجته وولده بقنبلة... جميعهم كانوا في البيت نفسه. جميعهم قُتلوا بالقنبلة نفسها..." تبللت عيناه، وبدأت دمعتان ترتجفان من طرف رموشه الكبيرة. "المهم، لا أريد أن أتعبكم معي بحكايتي، جئنا في النهاية بشق الأنفس إلى تركيا..."

كان الوضع متوترا، ومن باب التخفيف قلت بصوت مليء بالشفقة:

"أهلا وسهلا، هل أنتم هنا سعداء؟ هل كُل شيء على ما يرام؟"

كان متردّدا، كان كمن تردّد في نفسه بين أن يقول الحقيقة أو ينكرها.

"سعداء، سعداء... وعلى الأصح كنا سعداء. لكننا فقدنا فخّار..."

لم أستطع فهم ما يقول.

"فخّار؟"

"فخّار ابن أخي المرحوم أدهم. حينما توفي والداه أخذناه معنا. إنه الولد الوحيد للعائلة من بعدي."

أشرت إلى الفتاة الصغيرة التي كانت تركض في الأمام.

"أهو أخو عزز؟"

فقد مدني سروره واتجهت أنظاره إلى عزز.

"نعم فخار أخوها، وهو أكبر من عزز"

قالت أفكانيا التي كانت تنصت لما يقوله مدني: "ما أجمل ما قمت به من حماية لأولاد أخيك." كان صوتها مليئا بالإعجاب. "السيد مدني من الناس الذين تقبّل أياديهم... حقا أنت إنسان عظيم."

تحدّب حقا ظهر الرجل العجوز.

"أستغفر الله، الله هو العظيم وليس نحن. ونحن نفعل ما يأمرنا به الله."

بدأ بالخروج عن الموضوع. "كنتم تتحدثون عن فخّار، ماذا حدث لفخار؟"

ابتلع ريقه.

"اختفى، لقد اختفى فخار، خرج صباحا من المنزل، ولم يعد بعد."

لم يستطع إكمال حديثه، وبدأ بالبكاء. التقت عيناي بعيني أفكانيا. كلانا لم يتجرّأ على الكلام. فتركنا الرجل المسكين في حاله، انهارت دموعه بصمت، لم يستمر كثيرا وبدأ يرفع رأسه وهو ينشق بأنفه.

"لا تؤاخذوني... يا لهذا العجز، ويا لهذه الغربة، ما أضعف ابن آدم..."

مددت له كوب ماء.

"اشربوا، سيكون جيدا."

قال بامتنان: "شكرا، شكرا جزيلا."

بدأ بالحديث من جديد وهو يمسح عينيه المبتلّتين بيده الجافّة.

"ثلاثة أيام... قبل ثلاثة أيام اختفى فخّار."

هذا ما قاله فقط، ثم سكت.

"ألم تتلقوا أيّ خبر؟"

"أبدا، لم نتلقى أي خبر على الإطلاق. ما زال في الثالثة عشر من العمر.. طفل ذكي جدا، وذو أخلاق حسنة. عثر على عمل في محل للحلوى في منطقة شيشلي. يعمل هناك منذ شهر. خرج من أجل العمل. ولم يعد بعدها."

"هل ذهبتم إلى مكان عمله؟ ماذا قالوا؟"

انفعل، وارتفع صوته لأول مرة.

"وكيف لا أذهب؟ ذهبت منذ المساء الأول. شرحت الوضع لمديره. فاستغرب الرجل كثيرا. ففخّار في ذلك الصباح أخذ إجازة لأنه قال إنّه مريض وسيذهب إلى البيت. لكن فخّار لم يأت لا في ذلك المساء ولا في الليلتين المتعاقبتين."

"هل أخبرتم الشرطة؟"

بدا الانفعال في وجهه واضحا.

"بالطبع أخبرتهم. استمعوا إليّ واستجوبوني. وقالوا: 'إذا حدث شيء سنتصل بك'. لكن مضى اليوم الأول ولم يتصلوا. ومضى اليوم الثاني ولم يتصلوا أيضا. فذهبت مجددا إلى مركز الشرطة. قالوا: 'لا تقلق، ما زلنا نبحث. 'لكن لم تظهر أي نتيجة. لا نعرف ماذا سنفعل. نحاول الحديث مع الناس، فلا أحد يثق بنا، يعتقدون أننا نحاول الحصول على المال بإثارة شفقتهم... مع أن همّنا هو ولدنا..."

ليس عندي ما أقوله حول شكاياتهم، لهذا السبب ركزت على الموضوع الرئيسي.

"هل تحدثتم مع أصدقاء فخار؟ من المحتمل أنه خرج من إسطنبول. لا أدري، فربما أيضا قد هرب إلى اليونان أو ما شابه."

تجهمّ وجهه بانفعال.

"لا، فخار لا يمكن أن يقوم بذلك. فلو أراد الذهاب لأخبرنا. نحن قلقون. بالله عليكم ساعدونا."

فاضت عينا الرجل المسكين من جديد.

"حسنا، حسنا سيد مدني" قلتها وأنا أحاول تسكينه. "لا تحزنوا، فربما ذهب إلى أماكن لم تخطر إلى ذهننا أبدا، أو ربما يكون متواجدا

عند إحدى عائلات صديقه. لكن سنعرف ذلك، بل انتظروا، سأتصل بالرفاق فورا." أخرجت هاتفي، واتصلت بهاتف منير. لكنه كان مغلقا. فعدت لمدني. "مغلق. سأتصل به في الصباح مرة أخرى. وسأخبركم فور الحصول على نتيجة."

انحنى مدني من أجل تقبيل يدي، فسحبتها بصعوبة. عبّر عن امتنانه وعاد إلى الطاولة التي فيها عائلته.

قالت أفكانيا: "يجب أن تعثر على فخار." عيناها مبلّلتان، لكن صوتها كان حازما. "عليك أن تعثر على ابن أخيه. أين يمكن أن يذهب طفل في هذا العمر؟"

كانت الإجابات كثيرة جدا على هذا السؤال، وأعترف أنها كلها كانت احتمالات سيئة. ولهذا السبب قلت بصوت مليء بالثقة بدلا من أن أجيب على سؤالها:

"لا تقلقي أفكانيا، لا تقلقي، سأعثر على ذلك الطفل. عهد لك، سأحل هذه القضية بأي شكل من الأشكال."

13

"مقبرة الأطفال الموتى غير المدفونين."

استقبلني الكلب بختيار في منتصف الليل أمام باب البيت. فحينما نزلت من السيارة نهض عن مكان استلقائه في الرصيف دون أن يكترث للجوّ الخانق وحرّك ذيله، ثم اتجه نحوي بكسل لكن بخطوات ثابتة. احتك برجلي بلطف. مسحت رأسه حتى نعم وبره.

"مرحبا بختيار، كيف حالك يا ولدي؟"

دفعني برأسه برفق بدلا من الإجابة. لقد نسي حادثة الأمس تماما، فعُدنا صديقين قديمين مجددا. دار بجسمه الكبير حول قدمي، يبدو أنه كان يريد اللعب لكن مزاجي لم يسمح لي بذلك.

"هذا المساء أنا متعب جدا يا بختيار، سنلعب في وقت آخر."

لم يصر على ذلك ونظر نظرة مفادها لا بأس ما دام هكذا. وتمدد بجسمه الكبير من جديد على الرصيف. تركت صديقي المتفاهم متمددا في الشارع وسط أحاديث جيراننا الذين يجلسون على الشرفات حتى منتصف الليل من أجل الاسترخاء. ثم فتحت الباب.

وحينما عبرت إلى الداخل، نقرت في أذني تلك الطقطقة المعهودة. اتجهت أنظاري نحو ساعة والدي التذكارية التي كانت تحت السلم الخشبي. كانت الساعة 00:37. لم أجلس كثيرا عند أفكانيا. فقد تعكّر مزاجنا بعد حديثنا مع السيد مدني. لم يبق طعم لا للخمر ولا للمقبلات.

والأدهى من ذلك أني كنت متعبا ومنهكا جدا. رأت أفكانيا حالي ومع ذلك أصرّت على بقائي عندها، فرفضتُ بأدب، لكنها لم تسمح لي بالمغادرة إلا بعد شرب قهوتها التي أعدتها بيدها.

وبينما كنت أسير نحو السلم الذي يصعد إلى الطابق العلوي، تضاعف تعبي، بل إنني كنت أواجه صعوبة في رفع قدمي وأنا أصعد الدرج. أردت أن أستلقي على الفور ساعات، بل أيّامًا. لكنني كنت أدرك أن هذا مستحيل. نعم، كنت سأذهب إلى فراشي بإرادتي، وربما سأنام بضع دقائق سأفتح عينيّ بعدها. وكالعادة سيقوم ذهني من تلقاء نفسه بحسابه اليومي. ستعبُر ذهني وجوه الضحايا، فردا فردا أمام عيني، وسأفكر في القاتل الذي لم أعرف هويته بعد. كنت سأحاول فهم سبب قتله وهدفه من ذلك. وبكل تأكيد لن أصل إلى هدف وسأبقى أتقلب على سريري يمنة ويسرة... ولأني كنت أعرف أن هذا سيحدث فإنني لم أذهب إلى سريري على الفور، بل ذهبت إلى الحمام واستحممت. كان الماء البارد جيدا، ارتحت، وتنشط ذهني وبدني أيضا. لكن الجو كان خانقا جدا إلى درجة تعرّقت عندها من جديد فيما أخرج من الحمام إلى غرفة النوم. لم أشعل الضوء، فقد كان ضوء الشارع كافيا لأن أرى كل أشياء الغرفة وتفاصيلها. شربت نصف كوب الماء الذي سكبته من مشربة الماء جوار السرير، ثم استلقيت على الفراش. نصبت عيني نحو المصباح المطفأ في السقف وبدأت بالتفكير في القط الأعمى. لماذا خرج عن روتينه الخاص؟ لمَ لا يتفق تاريخ الجريمة مع تواريخ الجرائم السابقة؟ أم أن الجناية الأخيرة قام بها آخرون كما يظن ذلك ذكائي؟ كان من المبكر جدا قول ذلك. لا بد من الانتظار، نعم، كانت حالة غير سارة، لكن لم يكن لدينا حل آخر سوى عودة القاتل إلى القتل من جديد. وسواء كان القط

الأعمى أو غيره، فالقاتل إنسان مثلنا. هو أيضا يُخطئ مثل الناس. وليس من المنطق أبدا أن نعتقد أنه إنسان كامل.

إن كان مرتكب أو مرتكبو الجريمة ليست لهم علاقة بالقط الأعمى، فما هي أهدافهم؟ ما الذي يريدون فعله؟ هل يقلدون القط الأعمى يا ترى؟ ربما، فالإنسان كائن غريب، ومن الطبيعي أن يظهر بعض المجانين الذين يسعون لأن يقلدوا أفعاله. وربما كانوا يسعون خلف هدف. إذن، ماذا سيكون رأي القط الأعمى في هذا العمل؟ هل سيشعر بالانزعاج من المقلّدين، أم أنه سيفرح لاقتدائهم به. كنت أتوقع أن القط الأعمى لم يكن راضيا عن هذا العمل. وبناء عليه فربما يدخل في حساب مع مقلّديه. سيكون عملا خطيرا. لكن من المحتمل أنه كان منزعجا من استفادة الآخرين من شهرته الخاصة، وقيامهم أيضا بالقتل باسمه. نعم هكذا، وربما كان القاتل المتسلسل هو بالذات من نظم جريمة القتل الأخيرة هذه. وربما ليس بيده وإنما قرر ارتكاب هذه الجريمة من خلال مناصريه. فلا أحد بمقدوره أن يعرف بما يجري ويدور في ذهن مجنون.

بينما كانت الأسئلة تتزايد في ذهني لاحظت أن عينيّ تنطبقان من تلقاء نفسَيها. ربما كان من الجيد لو أنني دونت تلك الأسئلة في مكان، لكنّي شعرت بثقل جاثم على نفسي إلى درجة لم أستطع معها التحرك من مكاني، غير أنني تقلبت جهة الحائط، ونمت على الجهة اليسرى من بدني المتعب. في تلك اللحظة التقيت بصورة أيسون التي رأيتها من خلال الضوء الخافت بشكل واضح على الحائط أمامي. عيناها الكبيرتان منتصبتان في وجهي، وكانت تنظر كأنها تقول: 'ماذا تفعل يا أبي؟ أموتنا ليس كافيا حتى تقتل نفسك الآن؟!' أغلقت جفنَيّ متجاهلا تحذير ابنتي. وبذلك أكون قد هربت من الحقائق، لكنكم لا تنجون بسهولة هكذا من القتلى. حتى

أن غطاء ذلك النوم العميق والرقيق لن ينجيكم منهم.

لا أعرف كم استمر، لكن حينما عبرت ذلك الظلام العجيب رأيت تلك الساحة المشجّرة؛ اعتقدت بداية الأمر أنه قبر أيسون. ذلك المكان الذي تنام فيه زوجتي كزيده وأيسون وهو مكان الاستراحة الأخير المملوء بالأمن. وحينما عبرت من الباب الخشبي أدركت أن هذا المكان عبارة عن غابة صغيرة لم أرها من قبل. التطمت بأنفي رائحة التين الحادة. لم تكن شجرة التين فحسب، وإنما أيضا أشجار الجوز، والخوخ، والأكاسيا، والبطم، والتنّب، والصنّار، والبلوط، والكستناء... كان كل مكان مغطى بالأشجار... أشجار ذات لون أخضر بأطيافه المختلفة، جميعها يختلف بعضها عن بعض لكنها ما زالت شابة، وطويلة وسليمة. كانت أغصانها كثيفة وأوراقها كبيرة جدا إلى درجة تصعب عندها رؤية السماء. كان هناك 12 طريقا للمشي تمتد من بين جذوع بلون الفضة، ولون التراب، ولون العسل، واللون البني... 12 طريق. نعم، خرج العدد 12 في وجهي من جديد. 12 طريقًا، كانت تفتح على ساحة واسعة نوعا ما. وكان في الساحة حديقة للأطفال. أراجيح، وزحلوقات، وموازين أطفال، وجسور صغيرة، ومنازل صغيرة كانت جميعها خشبية. حتى الأسوار المحيطة بالحوض الرملي كانت مصنوعة من الخشب. لكن هذا المتنزّه الجميل كان يوقظ شعور القسوة لدى الإنسان. لم أتأخر في فهم السبب، إذ لم يكن هناك أي طفل أبدا. لا فتاة تركض، ولا طفل يتحرك، ولا أصوات تهتف بالفرح. الزحلوقات، والأراجيح، والموازين، والحوض الرملي، وكل الأشياء الموضوعة لتسلية الأطفال كانت خالية من الناس وحزينة للغاية. لم يكن صوت الإنسان معدوما فحسب، وإنما أيضا لم تكن هناك لا زقزقة العصافير، ولا ضوضاء السناجب التي تقفز على أغصان الشجر،

ولا أزيز الرياح على الورق... لم يكن هناك أي صوت في هذه الساحة الكبيرة. كنت سابقا أتلذذ بإلقاء نفسي في الحقول والزوايا الساكنة حينما أتعب من ضجيج المدينة وازدحامها، لكن الآن في وسط هذا المكان الأخضر، نما بداخلي رعب عجيب.

في تلك اللحظة رأيت طفلة. خرجت تركض من الطريق الترابي الثالث من بين الطرق 12 التي كانت مثل خيط عنكبوت يلف المتنزّه الأخضر؛ لا لم تكن تركض، وإنما بدت وكأنها تطير. كانت الطفلة تعبر من بين الأشجار مثل الريح، لكنها لم تكن سعيدة. على العكس، كانت حزينة، وقلقة، وخائفة. لم أر وجهها، لكنني أدركت من حركاتها أنها في حالة ذعر... كانت تركض مجهدة نفسها وكأنها تريد التخلص من شخص ما. كانت نحيفة، وترتدي ملابس سيئة، لم أستطع التأكد، لكن لا بد أنها كانت في العاشرة من عمرها. لم أستطع معرفة ما إذا كانت سمراء، أم شقراء، أم حنطية.

وبينما كنت أفكر في سبب خوفها وممن تهرب وإذ بي أرى رجلا. كان يرتدي معطفا بلون البيج. أحسست من وقفته، وقامته أني كنت أعرفه من قبل، لكنني لم أستطع التأكد. لا بد أنه يتعقب الطفلة. ولا بد أن هذا الركض كان منذ فترة طويلة. لا بد أنه أضاع الطفلة لحظة، فقد كان ينظر في الساحة يمنة ويسرة بقلق. كيف لاحظ، وكيف عرف لا أدري، لكنه اتجه نحو الجهة التي دخلت منها الطفلة. كان أيضا كالطفلة لا يركض، وإنما يطير. لم أستطع رؤية قدميه على الأرض، فقد كان سريعا، حتى أنه كان أسرع من الطفلة التي يطاردها. لا مجال للنجاة، ففي النهاية سيقبض على فريسته الصغيرة.

صحت قائلا: "توقف، توقف، انتظر!"

لكن صوتي كان يعود بعد أن يصطدم بأجسام الأشجار السميكة، وبأغصانها الكثيفة، وبأوراقها الكبيرة.

"توقف، توقف، انتظر!"

يبدو أن الرجل لم يسمعني، واختفى في الطريق الترابي الذي دخلت منه الطفلة قبل قليل. لم يكن بالإمكان اللحاق بهما، لكن الشيء العجيب، أنهما بعد أن قطعا بضع خطوات ظهرا أمامي في الطريق الذي ركضا فيه. بل إنه ظهر أمام عيني بشكل واضح للغاية؛ رأيت نهاية الدرب الذي كان ملتويا ثلاث مرات كثعبان أصفر. كانت نهاية الدرب في أسفل حائط من طوب أحمر.

قلت بخوف: "يا لهفاه، واحسرتاه، سيقبض الرجل على الطفلة."

استجمعت أنفاسي، وبدأت بالجري نحو الحائط بكل قوتي. لا بد أن أصل إليهما قبل أن يمسك الرجل بالطفلة. بدت المسافة قصيرة، ولكن كلما ركضت ابتعد عني حائط الطوب أكثر. كانت تجري من جانبي أشجار الجوز، والتنّب، والصنار، والبلوط، والكستناء والصفصاف، لكن لم أستطع الوصول إلى الحائط.

وبينما كنت أقول: "ما الذي يحدث؟" علقت قدمي بشيء، فوقعت على الأرض. لقد كان التراب ناعما للغاية. حاولت أن استجمع قواي، فأردت النهوض، لمست جسد أحدهم. نظرت، فإذا هي رِجل صغيرة. نعم، كنت أمسك برجل طفل ميت. فقد كانت في يدي رجل متصلبة لطفل ميت، وجهه باهتا مثل الفضة، وجسمه متجمدا كالثلج. كنت مندهشا، في تلك اللحظة رأيت المنظر المخيف. كان حولي العشرات، بل المئات من الجثث. كان كل مكان ممتلئا بأجساد الأطفال. كانت تلك الأشجار الكثيفة، وهياكلها البنية، وأغصانها السميكة، وأوراقها الكبيرة،

وكل مكان، وكل شيء مغطى بالأطفال الموتى. المكان هنا مقبرة مفتوحة، مقبرة الأطفال الموتى غير المدفونين. أصابني هلع شديد. من رأسي إلى أخمص قدمي، لكنني نجوت من هذا الخوف بسرعة. تذكرت الطفلة الهاربة، كان لا بد أن أخلّصها على الأقل، أو على الأقل كان يجب أن لا أسمح بموتها أبدا. ها هي هناك، الحمد لله، لم يمسك بها، الحمد لله لقد نجحت في التخلص من الرجل. كانت بعد ذلك ستخرج من ظل الأشجار، وستلتقي بعدها معي، ثم سأحضنها وأخلصها من الرجل الذي يتعقبها. كنت مصرا على أن لا تبقى الطفلة في يد الرجل. قتل الأطفال الآخرين، لكنني سأحمي هذه الطفلة. مشيت نحو الطريق الأصفر دون أن ألقي بالا للجثث النحيفة التي كانت تسحق تحت قدميّ، في تلك اللحظة خرجت الطفلة من ظل الأشجار. حينما رأيتها بقيت متجمدا في مكاني. فالطفلة التي كانت تركض باتجاهي هي ابنتي أيسون لا أحد غيرها. كانت تركض نحوي، لكنها لم تكن تقول: "النجدة" ولم تكن تقول: "احمني يا أبي." أردت حضنها وتخليصها من كل المخاطر التي على وجه الأرض. أصبحنا متقابلين، لكن العجيب أنه لم تكن تبدو على وجهها أي علامة تدل على أنها عرفتني. ناديتها: "أيسون، ابنتي أيسون!" بدا أنها لم تسمع، وبقيت تركض نحوي وهي خائفة. فتحت ذراعي وأردت عناقها، لكن حبيبتي ابنتي دخلت في جسدي وخرجت منه.

رأيت الرجل قبل أن أتخلص من حيرتي، كان بين الأشجار. إنه الرجل الحقير الذي كان يطارد ابنتي، كان هذا الوحش الذي من المحتمل أنه قتل جميع الأطفال يركض باتجاهي. وضعت يدي نحو خصري، وأخرجت السلاح، وضعت الرصاصات فيه، وحبست غضبي بداخلي، ومسكت أنفاسي، وانتظرت خروج الرجل من بين الأشجار. لكن عديم الشرف

هذا لم يظهر على الإطلاق. إلى أين ذهب هذا الحقير؟! لا بد أنه رآني. اختبأ في مكان ما لأن قوته كانت تكفيه للاعتداء على الأطفال فقط. لكن لم يكن بإمكان أحد أن يأخذه من بين يدي. قبضت على سلاحي جيدا. وتوجهت نحو الأشجار التي اختفى فيها، وفجأة أحسست بأنفاس أحد في مؤخرة رأسي.

سمعت صوتا معهودا: "هل تريد قتلي يا نوزات؟ هل ستقتلني؟"

نظرت خلفي بسرعة وتجمدت مكاني. كان أمامي ذلك الوجه الذي أعرفه جيدا، ذلك الجسم المتعب الذي ما زال يحمل روحه المبعثرة بكل عناد. خرجت مني صرخة عالية. كان ذلك الرجل الذي ينظر إلى وجهي بابتسامة باهتة، هو أنا شخصيا لا أحد غيري...

فتحت عينيّ بخوف، واختفت بسرعة تلك الغابة الصغيرة بأشجارها الكثيفة، وراحت معها تلك الأجساد الهزيلة، ومقبرة الأطفال الموتى غير المدفونين.

قلت: "كان حلما، يا الله، لقد كان حلما." وحينما أدرت رأسي التقيت بعيون أيسون الكبيرة من جديد. ما زالت تنظر إليّ كأنها تقول: "ماذا تفعل يا أبي؟ أموتنا ليس كافيا حتى تقتل نفسك الآن؟"

14

"أكثر الحقارات سفالة هي السفالة السياسية."

كان منير ينظر إلى جهاز حاسوبه وهو يغمغم قائلا: "فخّار القطبي... فخّار القطبي، قلتم إنه كان يعمل في منطقة شيشلي، أليس كذلك؟"

لم أستطع الاتصال بمنير إلا في الصباح. فالرقم الذي اتصلت به في الأمس يعود لهاتفه الشخصي الذي كان يغلقه كل مساء. لهذا السبب تأخر في الرد. فشرحت له مسألة الطفل السوري المفقود.

قال لي: "إن كان لديكم وقت تعالوا هنا سيدي، سننظر معا."

وبعد نصف ساعة جلست على الأريكة المقابلة لطاولته المليئة بالأوراق في غرفته الخالية من الزينة وبدأت بشرب القهوة.

سأل منير: "اسم عمه مدني، أليس كذلك؟" كانت عيناه الحولاوان منصبّتين في الشاشة، لكن كان في صوته أمل. ربما وجده في النهاية.

قلت بعجلة: "نعم، نعم مدني، وهو الذي طلب مني المساعدة."

ضرب الطاولة بالإصبع الأوسط ليده اليمنى.

"حسنا، ها هو هنا."

اطمأنّ، ودفع كرسيه للخلف.

"لا أخفي عليكم يا سيدي فقد كنت خائفا من الإحراج منكم بسبب كثرة الأطفال المفقودين... أنا أقصد الأطفال السوريين. يعلم الله أنه في كل يوم تنهار علينا طلبات الشكاوى. تحيرنا بمن نبدأ. وهذا هو السبب

الذي جعلني أتعبكم بمجيئكم إلى هنا. وذلك حتى تروا كل ما يجري بأم أعينكم. حتى أنه في بعض الأحيان تضيع بعض طلبات الشكاوى التي يُغفَل عن تسجيلها. لكن الطفل الذي تسألون عنه ليس كذلك." اقترب من جديد إلى جهاز الحاسوب. "فخار القطبي، مفقود منذ ثلاثة أيام. لكن الشكوى مقدمة قبل يوم واحد. وقد قدّمها عمه..."

لا بد أن هناك خطأ.

"دقيقة، دقيقة، أفي الأمس قدّم عمه شكوى؟"

قام منير بتضييق عينيه ودقق الطلب الذي في الشاشة مرة أخرى.

"نعم، هنا مكتوب 3 يناير يوم الجمعة، الساعة 13 :10 لماذا، ماذا هناك يا سيدي؟"

هل أخطأ مدني في التاريخ أم أن رفاقنا هم من أخطأوا، على كل حال هذا ليس مهما كثيرا.

"لا، لا شيء. أنت أخبرني عن الطفل."

لم يستطع معرفة ماذا سيقول، واتجهت أنظاره الملولة نحو الشاشة من جديد.

"في الحقيقة لا توجد معلومات كثيرة. الطفل يعمل في محل للحلوى في منطقة شيشلي. محل الحلوى معروف وله فروع في أنحاء تركيا. لكنه في ذلك المساء لم يعد..."

بعد أن أخذت رشفة من قهوتي قلت بضجر: "أنا أعرف هذا في الأصل، فقد شرح لي ذلك عمه. المهم أنتم ماذا فعلتم؟ هذا ما أود معرفته. هل تمكنتم من الوصول إلى معلومة حول فخار. مع من تواصل مؤخرا، ومن كان بجانبه حينما خرج من عمله؟"

نظر نظرة خجل ممزوجة باليأس والإحراج.

"لا شيء، لا يوجد هنا شيء مسجل من هذا القبيل."

أخذ نفسا عميقا ومد يده نحو الهاتف الموجود على الجانب الأيمن للطاولة، واتصل.

"الآن سنعرف يا سيدي... ألو، ألو رجائي، تعال إلى هنا... هيا بسرعة أنا أنتظرك..."

وبدأ يشرح لي من جديد وهو يغلق الهاتف.

"رجائي مختصّ بقضية الأطفال المفقودين. فليساعده الله، الصراحة أنا لا أريد أن أكون مكانه في هذا العمل." ابتعد عن الحاسوب بكرسيه ذي العجلات. وتقابلنا من جديد. "حقيقة الأمر يا سيدي هو أننا لا نستطيع الوصول إلى شيء. لا بد أن نعترف أنه لا يمكننا أن نفعل شيئا. أنا شرطي منذ فترة طويلة ولم أر في حياتي مثل هذه الكارثة. كنا سابقا نتحكم في الأمر، نجمع من في الشارع ونضعهم في ملاجئهم. لكنهم ازدادوا كثيرا حتى أصبحنا عاجزين عن فعل شيء. بدأت عمليات السرقة بشكل مفرد من أجل بضعة قروش. حقا هناك بعض السوريين لا يجدون الخبز، وهم في القريب سيشرعون في عمليات الأخذ عنوة. وسينشئون عصاباتهم الخاصة. إنها مصيبة كبرى يا سيدي، إنها كارثة عظيمة. ناهيك عن وضع الأطفال المأساوي. وجدنا بعضهم قتلى، وبعضهم يذهب إلى أي مكان من أجل العمل، وبعضهم يقع ضحية بين أيدي عصابات الدعارة... وإن سألتني عن وضع النساء فحالهن أكثر دناءة." ظهرت على وجهه علامات الاشمئزاز. "كل ما يخطر إلى ذهنكم من سفالة، وحقارة بشتى أنواعها... فحينما أنظر في هذه الملفات أخجل من إنسانيتي..." أخفض صوته وكأنه يخاف من سماع أحد ما لنا. "لماذا تدخلنا في القضية السورية يا سيدي مع أنه لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟ مساعدة إنسانية حسنا، لكننا

ظهرنا وكأننا كنا طرفا في هذه المعركة. لماذا، ماذا لدينا هناك في سوريا؟"

السؤال نفسه كان يدور في رأسي، وأنا أيضا مثل منير أحس نفسي عاجزا، كنت مثله متحيرا وغاضبا.

فقلت متمالكا نفسي: "أكثر الحقارات سفالة هي السفالة السياسية، وإذا أضفت إليها الدين والمذاهب فإن ما يتوّلد هو الخيانة وانعدام الشرف... وهذا الذي نعيشه في الوقت الحاضر. علاوة على ذلك، يدفع الناس ثمن هذا كله... وليتنا استطعنا تقديم المساعدة للمساكين السوريين على الأقل. فهذا أيضا لم نتمكن من فعله. اسكت، اسكت يا رجل، لا تجعلني أتكلم أكثر من ذلك..."

في تلك اللحظة طُرق الباب، وفُتح قليلا، دخل موظف شاب ذو خد ممتلئ وشعر أحمر.

"تعال، تعال يا رجائي، ماذا حدث في شأن الطفل المفقود؟ فخّار القطبي... اختفى قبل ثلاثة أيام..."

في البداية رمقني رجائي باستغراب، لا بد أنه ظن أني شخص مسؤول، فسأل بعد أن تهيأ بالشكل المناسب.

"مَن فخّار القطبي يا سيدي؟"

توقّعت في نفسي أن منير سينفجر غضبا، لكنه لم يفعل ذلك.

"الذي يعمل في شيشلي."

قطّب رجائي جبينه.

"أهي تلك الفتاة التي تتسول؟ التي تعرضت لدهس شاحنة..."

لم يحتمل منير فانفجر.

"أي شاحنة يا رجائي؟! أنا أقول لك مفقود، مفقود..."

ابتلع الشرطي الشاب ريقه.

"نعم سيدي، تلك الطفلة أيضا كانت مفقودة، زُعم أنهم أخذوها إلى المستشفى وانقطع خبرها..."

قاطعه قائلا: "يا رجائي، اسم الطفل فخّار، هل فخّار اسم بنت؟ ذلك الطفل الذي كان يعمل في محل للحلوى، والذي لم يعد في المساء للمنزل..."

"آه نعم، نعم، ذلك الطفل..." قالها وقد تقدم نحونا خطوة. وبينما كان يتقدم لم يغفل عن إلقاء نظرة خاطفة نحوي. "الآن تذكرت، أنا ذهبت شخصيا إلى محل الحلوى، وتكلمت مع الجميع. في الحقيقة ذهب إلى العمل يا سيدي، كان هناك ألم في فخذه، لكن الألم كان شديدا إلى درجة لم يستطع الطفل معها الوقوف مكانه. أرسلوا معه شابا وذهبا إلى مستشفى الأطفال. لكن المستشفى كان مزدحما، فعاد الشاب وترك الطفل في المستشفى. ثم بعد ذلك اختفى فخار..."

تجهم وجه منير قليلا.

"ألم تذهب أنت إلى المستشفى؟ ألم تسألهم ماذا حدث للطفل؟"

"وكيف لا أذهب يا سيدي؟ بالطبع ذهبت. تكلمت في ذلك اليوم مع الأطباء الذين على رأس عملهم، والممرضات، وحتى أيضا مع المعنيين بالمرضى في قسم الطوارئ. لكنهم كانوا جميعا يتكلمون بلسان واحد، يقولون: لم نر طفلا هكذا. تحققت من سجلات المستشفى. لا يوجد اسم لفخار."

أشار منير بيده إلى الحاسوب الذي أمامه. "إن ما شرحته ليس مسجلا هنا، لماذا؟"

احمرت خدوده الممتلئة جيدا.

"لم أجد وقتا يا سيدي. وأنتم طلبتم مني أن أهتم بقضية الرجل

الذي يحتجز فتاتين توأمين. ذلك الرجل الذي يبيع الحبال في منطقة تخته قلعة. اسمه عبد الرحيم. والذي قمنا باقتحام منزله في منطقة باشاق شهر.. لم يسمح لنا بدخول بيته محتجًّا بزواجه زواج متعة، لكننا دخلنا منزله بالقوة. فأنا منشغل بهذه القضية منذ ثلاثة أيام. والله لا أنام في اليوم الواحد أكثر من ساعتين يا سيدي. وكما تعلمون عدد الموظفين في المركز لا يكفي. فنحن بحاجة إلى موظفين جدد..."

لم يعرف منير ما الذي سيقوله، نظر إليّ نظرة مفادها إنكم ترون وضعنا ثم قال: "حسنا رجائي حسنا، انتهت مسألة زواج المتعة، من الآن فصاعدا اهتم بملف المفقود فخار..."

كان من الواضح أن في يد الشرطي الشاب أعمالا أخرى. حيث قال: "لكن يا سيدي..."

"لا عذر ولا غيره يا رجائي، افعل ما أقوله لك. اذهب مجددا إلى المستشفى. عندهم كاميرات مراقبة وما شابه من ذلك، انظر إلى هذا الطفل المسمى فخار، هل حقا ذهب إلى المستشفى؟" توقف، ونظر بقسوة. "لا أريد أي مراوغة، اذهب الآن. أريد نتيجة بعد الظهر. مفهوم؟"

تهيأ الشرطي من جديد.

"أمركم يا سيدي..."

خرج من الغرفة دون أن ينبس إليّ بكلمة واحدة ولسان حاله يقول لا بد أنك سبب كل هذا أيها السفيه.

نظرت إلى منير وقلت: "لقد انزعج كثيرا، لو أنك شددت أكثر لخرج عن طاعتك."

نظر إلى الباب الذي خرج منه رجائي ثم إليّ.

أخفض صوته قائلا: "أكان بغير حق يا سيدي؟ في المرة الماضية كانت

تلك الواقعة التي سمعتموها... عديم الشرف المسمى عبد الرحيم، اشترى فتاتين سوريتين. الفتاتان كانتا في عمر الرابعة عشر. فتاتان في وسط إسطنبول، تباعان مثل الأسرى بعشرين ألف دولار. العائلة عاجزة، ولديهم ثلاثة أطفال آخرين. وبهذا المال سيحمون أطفالهم الآخرين. أخبر عنهم الجيران، فوقفنا على الحادثة، ووضعنا هذا الحقير في السجن. لكن جميع رجال الدولة أصبحوا يتصلون بنا كل يوم. المنتسبون للأمن، والإداريون، بل وحتى رؤساء الأحزاب كذلك اتصلوا بنا. هل يعقل مثل هذه الرذالة؟!"

"هل كانوا يهددون؟"

تنفس بغضب.

"بدا أنه ليس تهديدا. فكانوا يقولون عنه: 'عبد الرحيم إنسان خلوق. وليس عنده نية سيئة. وقد أنقذ الفتاتين من الوقوع في الشارع.' لكن اتصال هؤلاء الحمقى بي هو خطأ بحد ذاته. هل يعقل هذا الأمر؟"

مع الأسف يحدث ذلك، فالمؤسسات الأمنية تتسخ أولا في الإدارات التي لا تعترف بحق الحياة لمن هم ليسوا منهم.

خفّفت عنه قائلا: "لا تزعج نفسك، فنحن لا نستطيع فعل شيء."

"لا نستطيع، يا سيدي نوزات، حقا لا يمكن فعل شيء. ليتهم يسمحون لنا بأداء عملنا على الأقل. لقد رأيتم رجائي، إنه يتقطع. فبعد هجرة السوريين إلى تركيا لا بد أن يكون هناك دعم في كادر الأمن. تكلمت بضع مرات، وكتبت طلبا. لكن لا جواب على الإطلاق. على كل حال ليس مهما، لقد أزعجتكم بمشاكلي الخاصة. لكن لا تقلقوا، سنُخرج مسألة فخار إلى النور في أقرب وقت..."

كانت ثقتي بمنير كاملة، وكنت أعرف أنه سيحصل على نتيجة بشكل

من الأشكال. وبينما كنت أتحضر للنهوض سألني: "كيف تجري الأمور في قضيتكم؟ بالنسبة إلى قضية عاكف صويقان... هل تمكنتم من الوصول إلى نتيجة؟"

ذلك القاتل المتسلسل يثير اهتمام هذا الشخص أيضا.

وبينما كنت أقول: "لم يحدث أي شيء حتى هذه اللحظة، وما زلنا مستمرين في التحقيق" بدأ هاتفي يرن. كان المتصل مساعدي. "نعم علي؟"

"عُثر على جثّة أخرى يا سيدي..."

يبدو أن القط الأعمى نزل إلى الساحة من جديد.

"أفي الحضانة؟"

"لا، في متحف للأطفال... القاتل المتسلسل خدعنا يا سيدي، فقد ترك ضحيته الثانية في متحف الأطفال في منطقة توب خانة..."

15

"لا يخرج منّا أمثال هؤلاء القتلة المرعبين..."

يقع متحف الأطفال في منطقة توب خانة ويتكوّن من طابق واحد. جدرانه مطلية باللون الأخضر الغامق. حينما تسلّلت من بين الحشد الفضولي الذي تجمع للمشاهدة إلى أن دخلت باب الحديقة، رأيت الضحية؛ مُلقاة على وجهها فوق الأعشاب الجافة في ظل أشجار الصنوبر. كاد صندلها الجلديّ البُنيّ أن يخرج من رجلها اليُمنى. لم أتعجب من هذا، وإنما تعجبت من كون الصندل صغيرا. كانت رجلا الضحية صغيرتين، مثل رجلَي طفل تقريبا. هل قتلوا طفلا هذه المرة يا ترى؟ حينما اقتربت فهمت، كان المقتول نحيفا، نحيلا إلى حد كبير لكنه بالغ. وحينما رأيت وجهه جانبيًّا تأكدت أنه في عمر الأربعين على الأقل. يداه أيضا مثل رجليه كانتا صغيرتين بشكل عجيب، بدتا أنهما عائدتين لشخص آخر وليس له. قُتل من مؤخرة رأسه كما بيّن علي في الهاتف. غطى الاحمرار جرّاء الرصاصة كامل عنقه. عُقدت عيناه بقطعة قماش حمراء، وكانت في كفه اليُمنى لعبة فولكس واجن ميني باص ذات لون ذهبي، ونصف أذنه اليمنى مبتورة. كان شفيق، ضابط فريق معاينة مسرح الجريمة، يبحث مع فريقه عن دلائل فيما يرفعون رأس القتيل. قال بيأس: "نواة الطلقة ليست موجودة يا سيدي،" يبدو أنه لاحظ قدومي. ومع أنني كنت أعرف الجواب إلا أنني لم أستطع الوقوف دون أن أسأل.

"وظرف الطلقة؟"

"ليس موجودا أيضا."

اقتربت من شفيق وأنا أحاول أن لا أدوس الأماكن التي ترك فوقها إشارات. حينما وقع ظلي فوقه، ترك رأس المقتول من كفيه، ونظر إليّ بكل أدب.

"أسلوب القاتل نفسه الذي ارتكب الجريمة في قاسم باشا. إنه يستخدم الدواء نفسه لكل داء. طلقة واحدة في مؤخرة الرأس، ورابطة عين بلون أحمر، والأذن اليمنى مبتورة، ولعبة ملقاة في مكان الحادثة."

نهض وهو يتنفس بألم. دخل الوهج في عينيه حينما تخلّص من ظِلّي. قال بصوت ملول يخلو من الحماسة: "هذا أيضا من عمل القط الأعمى يا سيدي، ها قد عاد المريض النفسي للقتل من جديد."

حينما نظرت إليه نظرة مفادها لا تتكلم هكذا بلغة الواثق، قال وهو يبتسم بضجر:"بالطبع إن لم يكن هناك أحد يقتل بالطريقة نفسها، لكن لا يخرج منّا أمثال هؤلاء القتلة المرعبين... هذا كل ما في الأمر."

يا ترى ما الذي حلّ بالفريق الأمني؟ جميعهم مهتمون بالقاتل المتسلسل، وكلهم عندهم فضول، وفرضية محاكاته... ولو لم يكن عيبا لقدموا أفكارا لمن يريد أن يرتكب جريمة مكتملة.

قلت: "وماذا تريد أكثر من ذلك يا شفيق؟" كان صوتي قاسيا مع أني لم أرغب في ذلك. "إن القط الأعمى هذا قتل حتى هذه اللحظة 12 شخصا، وارتفع العدد إلى 14 إن كان هو من قام بهاتين الجريمتين مؤخرا... وطوال خمس سنوات لم تحصلوا على معلومة واحدة عن القاتل. لا دليل، ولا إشارة، ولا أثر... بل لم نستطع أن نعرف رسم هذا الحقير.. يا ترى إلى أي مدى سيبقى هذا القاتل يثير الأعاجيب؟"

تعكر مزاجه.

"لا يا سيدي، في رأيي أنه لا داعي أن نبالغ في هذا الحقير. الذين من قبلنا لم يهتموا بالأمر كما يلزم، هذا كل ما في الأمر. الملف الآن أصبح في أيدٍ أمينة. لم ينجو منا حتى هذا اللحظة أي قاتل. القط الأعمى أيضا سيقع بين أيدينا. بالطبع، أنتم أيضا موجودون... لا تعترضوا أبدا... وأنا مستعد أنا أراهن على ذلك بأيّ كان. إنكم ستقبضون على القط الأعمى خلال اسبوعين..."

لم يكن يتملق، فهو لا يفعل ذلك، كان يؤمن بما يقول حقا لكنه هذه المرة كان مخطئا، في هذه المرة حقا عملنا صعب جدا.

حذرته قائلا: "لا تبالغ، لا تبالغ، دعك من مدحي واهتم بعملك."

قوّس شفتيه.

"لا أبالغ يا سيدي، لا أبالغ مطلقا، سواء كان القاتل القط الأعمى أو الدفلى، فالقاتل في النهاية تركي."

بدأت أشعر بالملل.

"يا شفيق، إن كان القاتل تركيا أو أمريكيا لا فرق بينهما، جميعهم مرضى نفسيا. لا تنخدع كثيرا بالمسلسلات الأمريكية. فمعظمها هراء من تخيلات الكتّاب يا ولدي. فلا يوجد قتلة متسلسلين في كل مكان من أمريكا..."

هز كتفيه.

"ومع ذلك فإن عدد القتلة الأذكياء عندهم أكثر من عندنا. فمثلا القاتل تيد بندي يا سيدي. كان يقتل النساء ذوات الشعور الحمراء لشبههن بوالدته. قتل 30 امرأة... وهذا ما اعترف به. لكنني متأكد أنه قتل أكثر من ذلك. أنتم تعملون في الشرطة منذ فترة طويلة، كم عدد

الجرائم المثيرة للدهشة على هذه الشاكلة التي صادفتموها؟ كم جريمة عجيبة مرت بكم طوال عملكم؟ "

هززت رأسي بيأس.

"كل جريمة هي شيء عجيب يا شفيق. وهل هناك أعجب من أن يقوم إنسان بقتل إنسان آخر؟! هل يشترط أن يصل القاتل حد الذروة حتى نقول عنه عجيبا؟! وإن كان ذكيا فماذا يعني؟ فهو في النهاية قاتل. جميع القتلة في عيني مساكين. فليس فيهم ما يستحق التقدير." أدرك شفيق أني بدأت أغضب فلم يجب على كلامي ومع ذلك وجهت ضربتي. "بدلا من أن تمدح القتلة قم بعملك بالشكل الصحيح. انظر، لم تضعوا ولو شريطا هنا..."

حقا لقد نسوا أن يغلقوا مكان الجريمة، وحينما وجد النقص احمرّ وجهه. صاح بالشرطي النحيف من بين الشرطة الثلاثة الذين كانوا يبحثون عن دليل.

"يا جسور، لماذا لم تضعوا شريطا هنا؟"

كان جسور يحاول العثور على قوالب آثار الأقدام على الأرض. فلم يعر شفيق اهتماما كثيرا.

"سنضعه بعد قليل، لم يبق في السيارة أشرطة، وقد ذهب نجيبٌ لإحضارها من المركز..."

قال شفيق مؤنّبًا: "وكيف لم تتبقّ أشرطة في السيارة؟!"

أسكتّه قائلا "حسنا، حسنا شفيق، لو سمحت هل بالإمكان أن ترفع لي رأس القتيل؟"

بدا مستغربا.

"وهل تعرفون هذا أيضا؟"

"لم أر وجهه يا ابني، فكيف سأعرفه؟"

أمسك شفيق ذقن القتيل من جديد ورفع رأسه، كان وجهه مغبرا من تراب الأرض. أزال قطعة القماش عن عينيه. لفت انتباهي بداية حواجبه المصاغة بعناية. كانت عيناه الخضراوين المتجمدتان بين رموشه المكحلة لا تعطيان معنى، أما شفتاه فقد كانتا تبدوان مصطنعتين، كانتا ضخمتين وكأنهما محشوّتان. كان وجهه معتنى به مثل وجه امرأة. اتجهت أنظاري نحو التراب.

"لماذا لا يوجد دم على الأرض؟"

لم يفهم ضابط فريق معاينة مسرح الجريمة.

"دم يا شفيق، دم، لماذا لا يوجد دم على الأرض؟ فلو قُتل هنا لكان الدم على الأرض أكثر من هذا، تماما مثل الجريمة التي وقعت في قاسم باشا."

بقيت يد شفيق اليمنى أسفل ذقن القتيل وبدأ باستعراض أفكاره.

"هذا يعني أن للقط الأعمى روتينا آخر. الرجل قتل تلك الضحية في مكان الجريمة، أما هذه الضحية فقد قتلها في مكان آخر ثم أحضرها إلى هنا..."

لا أظن الأمر بسيطا بهذا القدر.

"ما اسم القتيل؟ هل وجدتم هويّة معه؟"

"فريد سلجيم... هذا هو اسم المقتول يا سيدي..." لم يكن شفيق المتحدث، فحينما أدرت رأسي رأيت زينب منتصبة أمامي وبيدها أوراق. "واسمه الآخر القزم فريد... هذا المقتول أيضا كان متحرشا بالأطفال... لكنه كان متحرشا بالأطفال الذكور فقط."

كنت سعيدا برؤية باحثتنا.

"توقفي توقفي عزيزتي زينب، ما هذه السرعة يا ابنتي؟! متى عرفت كل هذه المعلومات؟"

كلماتي المليئة بالثناء أحرجتها، وأزعجت شفيق. وبينما توجه ضابط فريق معاينة مسرح الجريمة لفحص لعبة فولكس واجن التي كانت في يد المقتول، بدأت زينب تشرح وهي تشعر بالخجل.

"حينما اتصل علي كنت في المركز، وعندما أخبرني بهوية المقتول بدأت بالبحث عنه."

"أحسنت يا زينب..." أشرت إلى الأوراق التي كانت في يدها. "وماذا بعد؟"

نظرت بعينيها ذات اللون الكستنائي إلى أوراقها.

"دخل السجن ثلاث مرات بسبب تحرشه الجنسي بالأطفال. أقام في السجن في فترات مختلفة. طُعن مرتين، ونجا في إحداهما من الموت بصعوبة."

جذب انتباهي الملابس الباهظة التي كان يرتديها القزم فريد.

"ماذا كان يعمل هذا الرجل المسكين؟"

أجابت زينب وهي تنظر إلى ملابس المقتول.

"كان خيّاطًا يا سيدي. يخيط الألبسة الشخصية الفاخرة التي تُعرف بهوت كوتور. كان مشهورا جدا. لديه ورشة في منطقة نشان طاشي. يخيط الملابس للناس الراقية في إسطنبول، لكن انقطع عنه الزبائن حينما عُرف أنه شخص مغتصب للأطفال. بعد ذلك صار يخيط الملابس في منزله لخياطين آخرين دون أن يذكر اسمه الحقيقي."

كانت النقطة المشتركة بينه وبين المقتول في قاسم باشا هي التحرّش الجنسي بالأطفال. وبالطبع فإن هذه النقطة هي القذارة المشتركة بينهما

والتي أدّت إلى مصرعهما. عُدت إلى زينب من جديد.

"أين علي؟"

"أنا هنا يا سيدي..."

كان الشرطي علي غريب الأطوار منتصبا أمام باب المتحف، وإلى جانبه رجل قصير القامة بقدر القزم تقريبا يرتدي فوق جلده الأسمر قميصًا أبيض كالثّلج. تحدث علي وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

"لدينا شاهد."

أثار هذا الخبر فضول الجميع في مكان الجريمة، لكنه لم يكن من المفيد أن يسمع فريق معاينة مسرح الجريمة شهادة الرجل.

"انتظروا هناك سآتي."

اقتربت مع زينب إلى باب المتحف. أشار علي إلى الشخص الذي هو أقصر منه على الأقل بعشرين سنتيمترًا.

"شاهد السيد وايس الحادثة يا سيدي. لكنه ظنّ أنهم يقومون بتصوير مسلسل..."

شرع وايس بالشرح بسرعة الطلقة قبل أن أسأل أي شيء.

"نعم، اعتقدتُ أنهم كانوا يصوّرون، كانوا يعملون كل يوم حتى الصباح... كان الناس يشعرون بالضجر منهم. أتعبوا الحي. الشوارع طوال الليالي مضاءة كالنهار، طقطقة، ضجيج، صياح، نداء ... اعتقدتُ أنهم عادوا من جديد."

رفعت يدي اليمنى.

"تمهل يا سيد وايس، تمهل. هلا شرحت لي كل ما جرى منذ البداية؟ لكن بهدوء... لدينا وقت، من فضلك لا تترك أي جزئية..."

أغلق الرجل القصير عينيه اللتين كانتا جميلتين بقدر جمال عيني

الغزال، ثم فتحهما.

"سأشرح يا سيدي. أنا حارس المتحف في الليل. مسؤولية كبيرة، كل يوم يأتي عشرات الأطفال إلى هنا." نظر إلى نوافذ البناء. "الآن ليسوا موجودين بالطبع، فاليوم الأحد. لكن نحن لا نعلم ما الذي يمكن أن يحدث، أنتم تعرفون أكثر مني بالطبع، فالزمن سيء..."

قاطعه علي منبها إياه: "هيا يا وايس هيا، ادخل في الموضوع."

"حاضر يا سيدي. كما تعلمون كان الجو في ليلة الأمس حار جدا... لم أستطع النوم، تقلبت يمينا وشمالا ثم نهضت. في تلك اللحظة رأيت شخصا عبرَ أمام النافذة. من أمام هذا الباب بالضبط. لكنني اعتقدت أنه كان تصويرا لمسلسل كما وضّحتُ للضابط علي."

"وهل كان التصوير في حديقة المتحف؟"

أشار إلى الشارع بيده التي كانت تشبه غصنا جافا.

"لا، كان التصوير في كل أنحاء الحي. مختارنا الأقرع اتفق مع الشركة المنتجة للمسلسل. وادّعى أنه سيطور المتنزّه الأمامي للحي. لكن الناس هنا كانوا يعتقدون أن هناك هدفا آخر غير هذا، على كل حال... هؤلاء المنتجين للمسلسل أزعجونا جميعا. في الليلة الماضية حصلوا على كهرباء من هذا المبنى، أسرفوا كثيرا فتشاجرت معهم. في ليلة الأمس أيضا حينما رأيت الرجل ظننت أن هناك تصويرا. لكن يبدو أن القادم كان قاتلا..."

حاولت جاهدا إخفاء الإثارة التي بدأت تنهض في داخلي.

"وهل رأيت وجهه؟"

تعكر مزاجه، وأرجع رأسه للوراء.

"لم أره، فلأن علاقتي كانت سيئة مع الأشخاص العاملين في ذلك المسلسل لم أرغب في رؤيته، ولهذا السبب لم أذهب إليه. لكنه كان رجلا

كبيرا، وشخصا قويا..."

وأخيرا وصلنا إلى دليل.

"هل كان وحيدا؟"

كان مترددا.

"أنا رأيت شخصا واحدا، لكن ربما كان في الحافلة الصغيرة أشخاص آخرون."

"أي حافلة؟"

"ألم أقل ذلك؟ كانت هناك حافلة صغيرة. وقفت هناك تماما. ربما كان هناك سائق للحافلة، لكني لم أره..."

شاركت في الحوار زينب التي كانت تنصت باهتمام.

"وهل ذهبوا بالحافلة؟"

مسح بيده حبات العرق الموجودة على جبينه الأسمر الخالص.

"لم أر ذلك، ولكنني سمعت صوت سيارة. من المحتمل أنهم ذهبوا بالحافلة..."

استمرت زينب.

"حسنا، واللوحة؟ هل رأيت لوحة الحافلة؟"

تهرب بنظراته عمدا.

"لا، لا يا سيدتي، لم أرها لسوء الحظ."

"إذن، ولا تعرف ماركة السيارة؟"

فتح ذراعيه الطويلتين جدا بالنسبة إلى بدنه.

"لا، لا أعرف، لكنني رأيت من النافذة لونها فقط... نعم، حافلة سوداء" تردد، لم يكن واثقا من ذلك أيضا، "ربما لونها كحلي، لا لا، رمادي، يعني لون داكن..."

16

"أنا لم أقتل عاكف، إنّه صديقي..."

تمكنّا من الوصول إلى الجنازة في الوقت الذي كان فيه صوت المؤذن المؤثر يتردد على الأسوار التاريخية المقابلة لجامع مهرماه السلطان. لم تكن الأغطية الرصاصية التي على سطح المسجد مشتعلة من شدة الحرارة فحسب، وإنما أيضا كانت الساحة الصغيرة بما فيها الإسفلت الأسود الناعم الذي صار مثل العجين، وأوراق شجرة الأكاسيا المتفحمة، وحجارة الأسوار المهترئة والكراسي الملقاة أمام الحوانيت تشتعل مثل جهنم تحت شمس الظهيرة. كانت هناك ثلاث سيارات مرسيدس ذات لون داكن، وواحدة ذات لون رمادي، وسيارتان BMW ذات لون أزرق، وسيارة كحلية من نوع أودي، وسيارة جيب لم أعرف ماركتها. وجدت مكانا بصعوبة لسيارتي رينو الفقيرة بين هذه السيارات الباهظة. حينما نزلنا من السيارة رمق علي السيارات بدهاء وقال بسرور: "أووو، يبدو أن سيبسي إسماعيل موجود مع كادره بأكمله. سنسعد كثيرا يا سيدي."

مسحت حبات العرق التي تجمعت فوق جبيني وقلت: "لا داعي للعراك من دون سبب يا علي." حينها رأيت حجابي إنجه. مدير سكن الطلاب الذي طردنا في الأمس من منزله. كان يرتدي لباسا أسود للعزاء، لكنه خرج بعجلة من الجنازة وكأن لديه عملا آخر في غاية الأهمية. لا، لم يكن على عجل، وإنما كان يهرع وهو في حالة ذعر شديد. وطار من باب

الجامع أيضا شخصان يتعقبانه. كانا أيضا على عجل، كلاهما أيضا يلبس الأسود، كلاهما أيضا سريع مثل مدير السكن...

"من هؤلاء؟"

قلت: "ومن سيكونون؟ كلاب سيبسي. هيا علي." وتابعت: "هيا، أنت اعترض طريق الأحمقين اللذين في الخلف، وأنا سأمسك بالآخر."

انطلق صاحبنا كالسهم خلف الحقيرين المرتديين بذلة سوداء وكأنه كان ينتظر مني أن أقول له ذلك. وأنا أيضا من أجل أن أعترض طريق حجابي، غصت في البارك الصغير الذي تحول إسفلته إلى عجين من شدة الحرارة. في الحقيقة، كان الإمساك به ضرب من المستحيل، إذ أن مدير السكن كان يركض بخفة لم تكن متوقعة منه، لكن حظه كان متعثرا. فقد وطأ على قشرة شمام من المحتمل أنها من مخلفات شاربي الخمر الثملين في مساء الأمس في البارك، فانزلقت قدماه نحو الأمام، وانزلق جسمه نحو الخلف، فاتحا ذراعيه جانبا كي يجد توازنا له، لكنه فشل في ذلك، فوقع على ظهره أرضا محدثا ضجيجا كبيرا. أسرعت مباعدا بين خطواتي وانتصبت فوق رأسه. هززت إصبع السبابة في وجهه وقلت:

"إلى أين تهرب؟"

انتشرت موجة من الفرح على وجه حجابي حينما رآني أمامه. وصار يغرد بنشوة في المكان الذي سقط فيه وكأنه لم يكن الشخص الذي طردني في الأمس من منزله.

"سيدي، سيدي نوزات، أهذا أنتم؟ وأنا ظننت أن..." رفع رأسه ونظر إلى باب الجامع. فرح كثيرا حينما رأى مساعدي علي قد أوقف الشخصين المتنمرين. "يبدو أن ذاك الرجل صديقكم."

بدلا من أن أجيب على سؤاله مددت يدي.

"من هؤلاء الرجال الذين يتعقبونك؟ ما الذي يريدونه منك؟"

أمسك بيدي وأجاب وهو ينهض من مكانه.

"لا أعرف، انقضّا عليّ فجأة. وكما ترون كلاهما حادّ كالحربة. أمر مخجل، لكن ماذا بوسعي أن أفعل، وجدت الحل في الهروب."

لم يكن في صوته أي أثر للكبر والغرور الذي كان في الأمس.

جددت قائلا: "من هؤلاء؟ لماذا يطاردونك ما دام أنك لا تعرفهم؟"

تهرب بنظراته خوفا.

بينما كان يكرر كذبه "والله لا أعرف يا سيدي،" توقف فجأة، وغطت وجهه إثارة. "انظروا، انظروا إن صديقكم يتشاجر..."

حينما نظرت إلى الاتجاه الذي أشار إليه، رأيت رفيقي علي وهو يضرب برأسه أحد السافلين في منتصف وجهه. وبينما كان علي يتراجع للوراء حتى لا يصيبه شيء من الدم الذي انفجر من أنف الفتى، انقضّ عليه هذه المرة الشخص الآخر. لكن صديقنا الفارس أزاحه جانبا بطريقة لطيفة ولكمه بقوة على خده الأيمن. حتى أنني سمعت صوت عظمه من هنا. وبينما كان الفتى الشاب يتأرجح نحو الشمال، قفز الفتى الذي أكل ضربة في منتصف وجهه فوق علي دون أن يكترث بالدم الجاري من أنفه. لكنه كان عبثا، فقد طرحه علي أرضا. فصار يحاول استجماع قواه وهو في حالة ذهول من قوة الضربة التي أكلها في فكه.

حذّرت مدير السكن الذي كان يشاهد الشجار بكل سرور.

"إياك أن تتحرك من مكانك."

بعدها، بدأت بالركض نحو الرصيف الذي تحول إلى ساحة عراك أمام الجامع. وكنت أصيح من جانب آخر.

"توقفوا، توقفوا، شرطة!"

لكن هيهات من مستمع، فقد أخذ صاحبنا الديك المحارب تحته الفتى الذي لم يعد يظهر وجهه من كثرة الدماء وصار يوسعه ضربا من اليمين والشمال محاولا إتمام أثره المتبقي. وكان الشخص الآخر يحاول أن يستجمع قواه وإن كان يتأرجح قليلا، فصار يدور حولهما بغية العثور على ثغرة للانقضاض على علي، وما إن وجد ذلك حتى قام بتوجيه ركلة شديدة على خاصرته. فترنح علي شمالا وهو يقطّب وجهه بألم، لكنه استجمع قواه بسرعة، وأمسك بركلة الرّجل الثانية في الهواء. لم يستطع السافل الذي لم يكن يتوقع حركة مثل هذه من منافسه أن يقف كثيرا على قدمه وانطرح أرضا. لكن وقوعه كان خفيفا، في تلك اللحظة، رأيت يده اليمنى على خاصرته وهو يخرج بسلاحه.

قال وهو يوجه سلاحه نحو علي: "الآن سألعن شرف أمك، هيا افعل شيئا لنرى."

ألقى علي نظرة أعرفها جيدا نحو السلاح. إنها مخاطرة، علي الآن سيمسك بالسلاح، وفعلا، مد يده نحو سلاح الرجل وقال بغضب:

"هيا أطلق يا حقير، إن لم تطلق سألعن أنا شرف أمك."

تحول العزم الذي كان على وجه قاطع الطريق في مدة قصيرة إلى تردد، لكنه ما زال ممسكا بمقبض سلاحه. وأنا أيضا أخرجت سلاحي وأسندته إلى صدغ رأسه.

"اتركه، اترك فورا ذلك السلاح..."

ارتعب، لكنه لم يترك سلاحه، في تلك اللحظة خفت، إن لمست يده زناد السلاح حتى وإن كان من دون قصد سيؤدي إلى إصابة علي، بل قد يؤدي إلى موته من هذه المسافة. حثثت سلاحي بصدغ رأس الشاب المتعرق، وبينما كنت مستعدا لتحذيره، صاح قبلي شخص آخر.

"اترك يا عرده، اترك ذلك السلاح."

حينما أدرت رأسي رأيت وجه سيبسي إسماعيل الذي أصبح محمرا من شدة الحرارة. كان منتصبا ينظر إلى رجاله بغضب.

"يا حمقى، هل فقدتم عقولكم، هل تتعاركون مع النقيب نوزات؟ أو ما زلت تقف هكذا؟! اتركه، اترك ذلك السلاح..."

ترك عرده سلاحه فورا ولكن لم يكن هذا كافيا.

صحت قائلا: "نم، نم على الأرض بسرعة..."

استلقى عرده مثل سجادة على الرصيف المتوقد. ونهض علي الذي تأرجح أيضا من اللكمات. وما إن نهض حتى صرخ في وجه سيبسي.

"أهؤلاء هم رجالك يا أحمق؟ أهؤلاء الكلاب؟"

لوى صاحب الكلاب عنقه غضبا من هذه الكلمات.

"هذا عيب يا سيد علي، لا تتلفظ بكلام سوقي."

قام صاحبنا الباسل بالمشي نحو سيبسي إسماعيل الذي كان أطول منه وأعرض دون أن يهتم بذلك.

"اصمت أيها الأحمق، أمنك سأتعلم التحدث؟"

لو لم أتدخل لكان وجه سيبسي إسماعيل القبيح ملطخا بالدم في بضع لحظات.

"حسنا علي، حسنا، أنا سأحل الأمر. ارجع إلى هنا وقف عند هذا الأبله."

لكنه كان غاضبا إلى درجة لم يقبل فيها الوقوف عند هذا الرجل، واقترب بأنفه نحو أنف سيبسي إسماعيل الكبير.

صحت بصوت سلطوي. "علي، علي، مع من أتكلم؟"

توقف، لكن عينيه ما زالتا على رئيس العصابة.

"أمركم سيدي، أنا قادم."

لكن إسماعيل كان ينظر من فوق رأس علي نحو البارك الصغير.

"انظروا، انظروا بينما نحن نتصارع هرب ذلك الوغد..."

حقا لقد فر مدير السكن من مكانه، بل إنه اختفى تماما من عند الباب التاريخي...

قال بصوت مليء بالكره: "اهرب يا عديم الشرف اهرب. سأجعلك تدفع ثمن أفعالك في النهاية..."

شعرت في تلك اللحظة أن بينهما حكاية قوية.

قلت للشخصين اللذين كانا على الأرض: "قفا، قفا، هيا بسرعة..."

ترك علي الرئيس سيبسي وتوجه نحو عرده الذي رفع السلاح قبل قليل في وجهه.

"هل لديك رخصة سلاح أيها الأحمق؟"

"نعم،" قالها عرده وهو يمسح جاكيته الملوث بالغبار. "لا تؤاخذني يا سيدي، ليتني كنت أعرف أنك شرطي..."

"لا تداهن أيها الثرثار الأحمق. كن قوي القلب قليلا. حسنا، تصارعنا وانتهى الأمر. لكن دعني أرى رخصتك..."

أدرك علي أيضا الوضع، وعلم أن ما سيشرحه إسماعيل لنا سيكون أكثر قيمة من إخضاع هذه الحشرات الشابة. اقتربت بخطوات ثابتة نحو سيبسي، كان متعطرا بعطر ثقيل. الرائحة تكاد تفقدنا الوعي في هذا الجو الحار. كان رئيس العصابة المسرور بذوبان الثلوج بيننا غير منزعج من هذا الوضع إطلاقا. على العكس تماما، فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هزلية وهو ينظر إلى الرجل المغطى وجهه بالدماء.

"يا ولدي الأحمق سركان، أفي كل صراع تأكل عصا؟!"

أحنى سركان عنقه مثل كلب وفي، ونظر وكأنه يقول وماذا في وسعي أن أفعل، ثم ابتسم وهو يبزر أسنانه الملطخة بالدم.

أطلق سيسي ضحكة صغيرة.

"هذا الرفيق يأكل ضربا مبرحا في كل شغب يا سيدي..." تحولت ضحكته إلى ابتسامة. "حقا كان ذلك جيدا، لكن لماذا تصطدمون مع رجال الدولة؟ لماذا مع النقيب نوزات..."

بدأ يداهن قليلا.

قلت مقاطعا: "كفى إسماعيل، ماذا تفعلون؟ لم تطاردون حجابي؟"

أصبح جديا فورا.

"إنه عديم شرف يا سيدي. علاوة على ذلك جاء إلى جنازة عاكف دون خجل..."

تحوّل علي الذي كان يلقي نظرة على رخصة عرده بنظراته إلى سيسي إسماعيل.

"لمَ تشتم ذلك الرجل، ما الذي فعله بك حجابي؟"

رمق سيسي عليًا بكره وأراد أن يقول شيئا سيّئا فتدخلتُ سريعا.

"حقا يا إسماعيل، من أين تعرف حجابي هذا؟"

ابتلع غضبه، وحرّك عنقه السميك بضجر.

"أعرفه من خلال عاكف يا سيدي. كان عديم الشخصية هذا مديرا في سكنه..."

سأل علي فورا.

"ومن أين تعرف عاكف؟"

بدت على وجهه علامة ساخرة.

"لا تتحمس أبدا يا سيدي، لن تستطيع أن تتهمني بهذا الأمر..."

تعدل مزاج رفيقي الشرير.

"أي أمر يا سيسي، عن ماذا تتحدث يا ابني؟"

"لا تتصرف وكأنك لا تعرف، أنا لم أقتل عاكف. فقد كان صديقي..."

غمز مساعدي عينه بذكاء.

"ومن أين صار صديقك؟"

هذه المرة لم يتهرب سيسي بنظراته، على العكس، فقد جعل نظراته منصبّة في وجه علي معلنا التحدي.

"في السجن، كنا معا في سجن توقات. كان السجناء الآخرون سيقتلونه، جاء وطلب مني المساعدة. فقدمت له الحماية، فبات بعدها صديقا مخلصا لنا."

"ومنذ متى كان المتحرشون بالأطفال أصدقاء مخلصين لك يا إسماعيل؟"

اهتز كما لو أنه تلقّى صفعة، لكنه لم يُخفي ذلك أبدًا، بل أقرّ بخطأه الواضح معترفا بهزيمته.

"أنت محق يا سيدي. مهما قلت فأنت محق. لكن عاكف قطع على نفسه عهدا، أقسم بحق القرآن ولقمة العيش. وقال: 'لن أفعل ذلك' ونحن صدقناه."

كان يكذب. لا بد أن هناك أسبابا مهمة جعلته يصاحب شخصا مثل عاكف. واصلت الهجوم عليه لكي أغيضه.

"لكنه نقض عهده. ولمرات عديدة أيضا... أما كنت تعرف ذلك؟"

هز كتفيه العريضين، وضيق عينيه اللتين لم أستطع تمييز لونهما؛ ما إذا كانا ذات لون أزرق أو رمادي.

"كنت أعرف، وفعلت كل ما بوسعي من أجل أن يترك فعلته. والله إني

وطئت على فمه، وضربته، ووبخته، وأخرجت سلاحي ووضعته على رأسه مرات عدّة. حتى أنني في إحداها أطلقت النار على قدمه. لكن لم تكن هناك أي فائدة مرجوة أبدا. هو أيضا كان مدركا لهذا الوضع المخزي. وحينما قابلته في الأسبوع الأخير قبل موته قال: 'سأقوم بخصي نفسي.' نعم جاء عندي قبل أسبوع. قال لي: 'جد لي طبيبا، والله سأقصه.' واتفقنا على ذلك، حتى أنني بدأت بالبحث عن جراح. لكننا تأخرنا، فقد قام أحد بطيّ دفتره. وأنا لست غاضبا من القاتل. لأنني على ثقة أن عاكف يستحق ذلك."

لم أحصل على إجابة السؤال الذي ما زال يدور في ذهني.

"ما دام أنك تعرف أن عاكف شخص يعتدي على الأطفال، فلماذا كنت تواصل صداقتك معه؟"

ضيق عينيه بإشفاق.

"حكاية طويلة سيدي. فحينما كنا في سجن توقات شرح لي قصة طفولته. كان يتيما، ونشأ في سكن الأيتام. هناك في مكان ما في مدينة جناق قلعه... كان جاهلا بما حوله... ومهما يكن فقد كان جاهلا... وقد اعتبرَ ذاك الأبله بمقام والده."

كان صوته محملا بالهم والحزن والغضب.

تكلم مساعدي فجأة: "هل تقصد بالأبله حجابي؟ هل تقصد مدير السكن؟"

تجهم وجهه، وتغيرت نبرته الصوتية بشكل عجيب.

"هو بعينه، ذلك القواد... ثم بعد ذلك يأتي إلى جنازة عاكف من دون خجل..."

لماذا لم أكن أدري، لكن فضول مساعدي كان يزداد.

"وهل لحجابي اسم آخر؟"

ضيق سيسي إسماعيل عينيه محاولا أن يتذكر.

"اسم عائلته إنجه، لكن كان لديه اسم آخر، إنّه أمير. حينما كان في السكن كان يطلب من الأطفال أن يقولوا له أمير."

قال علي: "هل أنت متأكد؟ أفعلا كان اسمه الثاني أمير؟"

فضول علي أزعج سيسي.

"بالطبع أنا متأكد، فالرجل يستعمل اسم أمير منذ ذلك الوقت. نعم، أمير إنجه."

لكن هذه المعلومات لم تكن كافية لصاحبنا.

"وهل كان في خده الأيسر أثر جرح؟"

"نعم، في وجهه أثر لجرح عميق. هل تعرف عديم الشرف هذا؟"

أنكر علي ذلك.

"لا، لا، كيف لي أن أعرفه؟ لا عمل لدي مع هؤلاء الحمقى"

واصل إسماعيل كلامه من حيث توقف.

"هذا المنحرف يستعمل الأطفال الذين يخدعهم لنفسه، ثم يهديهم لآخرين من أمثاله..."

قاطعته قائلا: "ولمن أهدى عاكف؟"

تنفس إسماعيل بشكل متقطع.

"كان هناك وارث لرذائل حجابي. كأنه أستاذ الأدب."

"أهو الأستاذ طلعت؟ كان يحضر الهدايا لعاكف..."

تجهم وجهه وكأنه رأى أمامه شيئا مثيرا للاشمئزاز.

"نعم، هو بعينه ابن الزانية. في البداية كان حجابي وطلعت يقومان بهذه الرذيلة ببعضهما. أستميحكم عذرا، فقد كان حجابي في الأسفل

وطلعت في الأعلى. هذا الأمر لم يكف للسافل طلعت، فبدأ يقول: أحضر عاكف إلى السرير وإلّا فلا تأت إلى هنا أبدا.' حجابي أطاع أمره وفعل تلك الرذيلة."

"هل كانت جميع هذه الحوادث تحصل في السكن؟"

كان هذا السؤال من فم علي الذي ما زال الدم فيه.

أجاب سيسي إسماعيل.

"نعم في السكن، وفي شقة عديم الشرف أيضا... كم من السنوات استغلوا الأطفال على هذه الشاكلة... عاكف أيضا حينما كبر أصبح يفعل نفس الفعلة بالأطفال الصغار. لأنه لا يستطيع أن يدخل في علاقة مع الفتيات اللواتي في سنه... لا مع النساء ولا مع الذكور.. يغتصب الأطفال... ذكورا وإناثا... شرح ذلك كله وهو يبكي... فأشفقت عليه حينها. وإلّا فأنا لا أسمح لأشخاص من أمثاله أن يرافقوني... لكُنْتُ قطعت عنقه، ورميت جسده في زوايا السجن... لكن حال هذا الطفل لم يفارق عيني قط..."

بقيت أنا وعلي متجمدين في مكاننا. وحينما لم يخرج منا صوت تحدث إسماعيل.

"حينما رأيت عديم الشرف هذا المسمى بحجابي عند تابوت عاكف غضبت، فلطمته مرة، لكن هذا الحقير تحمل ذلك، واستغل الفرصة وهرب حينما حالت بيني وبينه جموع المصلين." أشار إلى الشخصين اللذين ضربهما علي.

"لهذا السبب ركض سركان وعرده من خلفه. لو أمسكنا بعديم الشرف هذا لأخرجت من أنفه حليب أمه، لكن حظ ابن الحرام كان قويا، فنحن بينما كنا نتعارك مع بعضنا انسل من بيننا من جديد..."

17

"ماذا كنتم تعرفون عن هذا الميت يا جماعة المسلمين؟"

انتهت صلاة الظهر، وبدأت جموع المصلين بالاصطفاف بصمت أمام تابوت عاكف. لا تنخدعوا بقولي جموع المصلين، فالحاضرون كانوا قليلين جدا في الساحة المشمسة. لم يكن لعاكف قريب سوى سيبسي إسماعيل ومعارفه الذين حضروا لخاطره، وكان عددهم من خمسة عشر إلى عشرين شخصا ويرتدون بذلات سوداء. إضافة إلى حجابي الذي كان موجودا ثم هرب حينما تعرض للشدة. فإن كان ما شرحه سيبسي إسماعيل صحيحا فمجيء حجابي إلى الجنازة غريب جدا. هذا يعني أنه لم يكن يشعر بالذنب تجاه ما فعله، بل إنه لم يكن يشعر بتأنيب الضمير مطلقا. من المحتمل أنه تكلم في هذا الموضوع مع عاكف صويقان. ومن المحتمل أن طالبه القديم عفا عنه. لكن هذا لم يكن له أي قيمة أبدا. فحتى وإن نسي ذلك الطفل الذي كان ضحية هذا المنحرف كل ما جرى معه، فإن الإنسانية لن تعفو عنه في أي زمن بتاتا. اصطف إلى جانب هؤلاء أيضا خمسة أو ستة أشخاص ممن حضروا الصلاة أمام التابوت. أكانوا يشاركون في صلاة الجنازة لو أنهم عرفوا حقيقة عاكف؟ لا أظن ذلك. هم اصطفوا للصلاة من أجل إرضاء الله، ولأنهم لم يكونوا عارفين بحقيقة هذا الميت. بدأت أفحص وجوه المصلين المشاركين في صلاة الجنازة الذين كانوا يقفون تحت ظل سقف المظلة. أمّا علي فقد كان

إلى جانب سركان وعرده اللذين تعارك معهما في وسط الساحة ينظف ألبسته من الغبار، ويغسل وجهه ويديه. لكنه بدا منهارا، وكانت نظراته وحركاته تبدو بطيئة.

في الحقيقة عرفنا ما نريد أن نعرفه، لكن المعلومات التي بين أيدينا عن القط الأعمى قليلة جدا، لذلك اضطررنا للمشاركة في صلاة الجنازة على أمل أن يحدث شيء غير متوقع، أو أن يظهر أحد ما، أو أن نصل إلى معلومة جديدة أو دليل. وبينما كنت أنظر إلى التابوت الذي يكاد لا يظهر من خلف إسماعيل ورفاقه ذوي الأجسام الكبيرة، تذكرت كلام منير حول القط الأعمى. "إنه يقتل عديمي الشرف هؤلاء واحدا تلو الآخر، دون أن يترك أثرا. إنه يرسلهم إلى الجحيم من أقصر الطرق." لو أنه استمع لما قاله سيبسي إسماعيل لكان بالإمكان أن يغير فكره. فهذا الجسد البارد الذي يرقد في هذا التابوت تحت هذه الحرارة الجهنمية كان في السابق طفلا بريئا. عامله الزمن بطريقة بشعة، أخذ منه والده ووالدته من بين يديه، تركه أقاربه الذين كان لا بد لهم من رعايته، تركه المجتمع بدون حماية. دعكم من مسألة الحماية هذه، بل إن المجتمع لم يكترث به ولم يعطه قيمة، فوقع في النهاية ضحية للمستغلين: لم يلوثوا بدنه فحسب، وإنما روحه أيضا. أنا أقول لكم: "مجتمع"، في الحقيقة هذه الكلمة ليس لها أي معنى. فنحن أبناء هذا الوطن لم نستطع حماية عاكف. عاكف أيضا أصبح مريضا نفسيا، وصار وحشا يفعل بالآخرين ما فعل به. في ذلك التابوت، كان هذا الجسد ينتظر الذهاب إلى مثواه الأخير بعد قليل كي يرقد فيه، فعندما كان قلب صاحب هذا الجسد ينبض، ودمه الحار يجري في عروقه، كانت نفسه تتوق لتلويث أجسام الأطفال الآخرين وأرواحهم. كان يجد في ذلك لذة. لكن العجيب ما قاله سيبسي

إسماعيل. فقد كان رئيس العصابة صادقا في كل ما قاله، لكن الحكاية ناقصة. أنا متأكد مثل تأكدي من اسمي أنه هو أيضا كان مثل ذكائي يخفي الحقائق. وفي اللحظة التي جاء فيها علي إلى جانبي وهو ينفض ذراعيه من أجل تجفيف الماء السائل من ساعديه علا صوت الإمام في الساحة.

"ماذا كنتم تعرفون عن هذا الميت يا جماعة المسلمين؟"

كان الإمام رجلا طويلا، ورقيقا، وصاحب نظرة لامعة. كان يقف خلف التابوت تماما. على الرغم من العمامة التي كانت على رأسه تحت الحر الخانق إلا أنه لم يفقد ذلك الاستقرار الذي كسبه من قيامه بهذه الوظيفة لمرات عديدة. لم يكن في صوته حزن، ولا يأس أيضا، وكان يتحدث بقوة شخص استوعب النهاية الأزلية التي ستصيبنا جميعا.

"بالله عليكم تكلموا، هل كان المرحوم مؤمنا طيبا؟ هل كان مسلما حسنا؟ هل كان إنسانا مسالما؟"

لم تنبس الجماعة بأي صوت. وبدا على وجه الإمام حيرة باهتة. رمق الناس الذين في الصفوف ولسان حاله يقول ما الذي يحدث؟ لكنه لم يصل إلى نتيجة. حدق بالتابوت وكأنه بذلك سيرى الجسد، وكأنه إذا رأى ذلك الجسد الساكن سيعرف منه كل ما يجري. بالطبع لم يفهم شيئا على الإطلاق. فاضطر إلى سؤال المصلين من جديد.

"أنا أتحدث إليكم يا جماعة المسلمين، ماذا كنتم تعرفون عن المرحوم الذي يدعى بعاكف؟"

علا صوت أحدهم في المقدمة.

"كان سيئا."

كان المتكلم سيبسي إسماعيل. جميع الرؤوس في الساحة تحولت فورا إلى رئيس المافيا.

"كان سيئا،" كررها مرة أخرى بصوت جريء. "كان سيئا، لأنه كان مغتصبا، لأنه كان يتعرض للأطفال الصغار، كان مذنبا، وسافلا، ومجرما."

سكت إسماعيل بعد أن تفوه بهذا. وحل في الساحة صمت رهيب. نظر الحاضرون بعضهم إلى بعض مندهشين، وبعضهم أمال رأسه إلى الأمام وبقي على هذه الحالة. وظل الإمام في مكانه دون أن يعرف ما يقول، وراح يهتف من جديد بالحاضرين في الصفوف وبكل أريحية وكأنه لم يسمع كلام سيسي، وكأن أحدا لم يتهم المرحوم بشيء.

"أيها المؤمنون، يا أيها المؤمنون، أنا أتحدث إليكم، أتسامحون هذا المرحوم الذي يرقد الآن في ذلك التابوت على المصلّى الحجري؟"

مرة أخرى لم يخرج من الحاضرين أي صوت، وبدأ سيسي بالحديث من جديد. "سامحناه،" قالها رئيس المافيا بصوت عال. "نعم، سامحناه بحقوقنا." تنفس لحظة. ثم تابع بالحديث وكأن الإمام سألهم سؤالا. "لأنه هو أيضا ضحية أخرى. نعم، نعم باع روحه لذلك الشيطان الضال، لكنه لم يفعل ذلك طوع إرادته. لقد كانت له ذنوب أعظم من ذلك. كان سيتوب عنها لكنه لم يستطع تركها، مرض ولم يستطع مداواة نفسه، لم تكن له أي حيلة، ولم يستطع أن يخرج من المستنقع الذي سقط فيه. أنا بصفتي صديقًا له أسامحه بكل حقوقي. وأدعو الله العظيم أن يعفو عنه..."

كان الإمام الذي بدأت دهشته تزول ينظر إلى الشخص الذي أنهى كلامه نظرة إعجاب وتقدير. ثم نظر إلى بقية الحاضرين وقال: "وأنتم؟ أنتم أيها الحاضرون، هل تسامحونه بحقوقكم؟"

علا الصوت من الصفوف: "سامحناه، سامحناه بحقوقنا، وعفا الله

عن ذنوبه."

كان علي مندهشا، يشاهد ما يجري بعينين واسعتين. وبينما كان الإمام كما هو معتاد يشرح للحاضرين كيف تقام صلاة الجنازة، نظر إليّ مساعدي وغمغم بإعجاب.

"إن سيبسي هذا إنسان رائع. هل يا ترى أخطأنا في فهم هذا الرجل يا سيدي؟"

مرة أخرى اتخذ مساعدي العجول قرارا مستعجلا.

"إنه يطهّر روحه عزيزي علي. وفي نفس الوقت يشرح أمام رجاله سبب مساعدته لعاكف. نوع من استعراض للضمير والأخلاق. هؤلاء الرجال يستميتون في سبيل هذه التصرفات. إنه يبالغ قليلا بالطبع، لأنه يخفي سرا مهما. لذلك سنطلب من زينب أن تبحث في علاقته مع عاكف صويقان. فمن المحتمل أنهما يعرفان بعضهما قبل دخولهما السجن. فما دام أنه يشعر بالغضب تجاه حجابي بهذا القدر فمن المحتمل أن سيبسي أيضا كان يقيم في السكن نفسه."

تشوش رأس علي.

"أفي السكن؟ هل تعتقدون أن سيبسي أيضا كان ولدا يتيما؟"

"ربما. فإن كان ما نظنه صحيحا، يعني إن كانا صديقين منذ طفولتهما، فإننا نكون قد عثرنا على سبب مساعدة سيبسي لعاكف."

كان علي ساخطا لسبب غير معروف.

"أنتم محقون يا سيدي، وإن أردتم سأبحث أنا في هذا الأمر بدلا من زينب. فصديقي السيد نديم تسلم وظيفة مهمة في الوزارة. سيخبرنا بكل التفاصيل، في أي سكن، وأي سنة، وما الحوادث التي وقعت..."

"حسنا، اتصل بنديم فورا، واسأله عن عاكف صويقان، وعن حجابي

هذا مدير السكن." اتجهت أنظاري إلى رئيس المافيا في صلاة الجنازة. "وبالطبع، لا تنسَ سيسي إسماعيل..."

في تلك اللحظة رن هاتفي في غير وقته. أخرجته من جيبي، كان مكتوبا على الشاشة صاحبنا الشرطي المتقاعد. لا أكذب عليكم فقد شعرت بالفضول. فالسلوقي ذكائي اتصل في وقت أبكر مما كنت أتوقع. فتحت الهاتف وأنا أبتعد بسرعة عن جموع المصلين.

"ألو، ألو، نعم ذكائي..."

"قتل من جديد، أليس كذلك؟"

دخل في صلب الموضوع مباشرة.

"نهارك سعيد أنت أيضا،" قلتها ساخرا. "الإنسان بداية يسلم يا رجل!"

"لا تؤاخذني يا نوزات، حينما رأيت الأخبار في التلفاز ارتبكت فجأة."

كان في صوته خجل، لكنه لم يدم طويلا. فتابع. "هل ما يقال صحيح حقا؟ أهو عمل القط الأعمى؟"

أردت التعامل بكتمان.

"هذا ليس معروفا."

بالطبع لم يصمت واستمر بالأسئلة.

"أفي حضانة تركه؟"

أجبت بهدوء.

"لا، وإنما في متحف للأطفال..."

"أفي متحف للأطفال؟" صمت مدة قصيرة. "كما حدث في الثالث من فبراير عام 2012... نعم قبل خمس سنوات عُثر على السيد مرت جان تورقال في متحف أطفال بوستنجي... التواريخ ليست متوافقة، لكن هذا العمل هو في اعتقادي عمل القط الأعمى."

من الغريب أنه غيّر فكره.

"لكنك لم تكن تقول هذا في المرة الماضية."

"نعم لم أكن أقول، لكنني فكرت، فالقط الأعمى قاتل ذكي، فهو يعرف أنه إن استمر على نفس روتينه فسيقبض عليه. ولهذا السبب غير تواريخ الجرائم وأمكنتها. أضف إلى ذلك، أنه لا مانع من تغيير التواريخ لديه، لأن توقيعه أصبح واضحا جدا إلى درجة يعرف معها جميع المطلعين على هذه الواقعة أن هذه الفعلة من صنيع القط الأعمى."

سألت آمِلًا أن يذكرا شيئا مهما.

"ومن أين تعرف أن توقيع القط الأعمى كان في الجريمة الأخيرة؟"

"أتسخر مني يا نوزات؟ قتل الرجل من مؤخرة رأسه، وعقدت عيناه بقطعة قماش حمراء، وبترت نصف أذنه اليمنى، ووضعت بجانبه لعبة فولكس واجن ذات لون ذهبي..."

وكيف علم بكل هذه التفاصيل؟

سألت بغضب: "من قال هذا؟ وممّن سمعت ذلك؟ أمن موظفينا تحصل على المعلومات السرية؟"

"لا يا رجل، أي موظفين؟! الفتاة التي ظهرت في التلفاز هي من بينت ذلك. هل تذكر الفتاة النحيفة التي كانت تعمل مراسلة صحفية في قصر العدل؟ بوكت، صديقتنا بوكت... أعدّوا معها مقابلة."

أعرف بوكت، كانت فتاة جميلة، وصحفية مبدعة، وتحمل إصرارًا يُغضب الآخرين أحيانًا. وحينما تنشغل بقضية تبقى تدور حولكم إلى أن تعرف حقيقة الأمر.

"وماذا كانت تقول بوكت؟"

"والله، كررت جميع ما قلناه في الأمس من دون نقصان، بل ولديها

المزيد. هي أيضا مختصة في القط الأعمى... إنها تعرف كل شيء عن القاتل المتسلسل. ذكرت أسماء الضحايا الاثني عشر جميعهم الذين قُتلوا قبل خمس سنوات، وبينت المواضع التي تركوا فيها، وشرحت جميع الألعاب التي كانت بجانبهم الواحدة تلو الأخرى. اتصلت بي في الأمس، كانت تريد مني أفكارا حول هذا الموضوع. وقد أوصيتها أن تتكلم معك. فربما من المفيد أن تتكلم معها. فقد تظهر لنا فكرة غفلنا عنها."

كانت فكرة سليمة، لكن أردت لسع ذكائي بدلا من قبول هذا.

"كيف ستساعدنا صحفية في وقت رفض فيه أصدقاؤنا، الذين عملوا على هذه القضية سنوات، تقديم المساعدة؟!"

تلعثم.

"هل تقصدني؟"

رددت على سؤاله بسؤال.

"وهل هناك غيرك؟"

بالطبع كان سيبدأ بالإنكار.

"شرحت كل ما أعرف..."

"لا تنكر يا ذكائي، فكلانا في هذه الوظيفة منذ سنوات. أنت تعرف جيدا أن ما تخفيه أكثر مما قلته."

حل صمت قصير.

"إن شرحت ما لم أفصح عنه فهل تضيفني إلى فريق التحقيق؟" استمر بشغف في الحديث دون أن ينتظر جوابي. "اسمعني نوزات، لا أريد منك شيئا، كل ما أريده هو القبض على القط الأعمى. لا بدّ من انهاء هذه القضية..."

كان مثل ما توقعت، فقد أدرك في ذاته أنه لن يستطيع بمفرده

الإمساك بالقاتل، لذلك قرر العمل معنا. وما دام الأمر هكذا فمن المفيد أن نبدأ الصفقة بثمن غال.

"أخبرني بكل ما تعرف، وأنا سأفعل ما في وسعي من أجل أن أضيفك إلى الفريق."

لم تكن كلماتي كافية، فحل صمت من جديد، ظننت أنه لن يوافق لكنه راوغني.

"حسنا" قالها أخيرا. "حسنا، أنا أثق فيك. سأشرح كل ما أعرفه، وأنا على ثقة أنك لن تتخلى عني في هذه القضية."

كان من المزعج شعوره بهذه الثقة في الوقت الذي كنت أنا نفسي غير واثق من كلامي، لكنني لم أكترث بذلك، فما سيقوله أكثر أهمية بالنسبة إلي.

"لنلتقي إذن، فليس لدينا ولو دقيقة واحدة نضيعها."

كان مسرورا جدا.

"حسنا، لنلتقي، أنا بالقرب من تقسيم، سآتي إلى المركز إن أردت ذلك."

حدث ما أردته بحذافيره، وأنهيت الحديث بامتنان.

"اتفقنا، أنتظرك بعد ساعة في منطقة غيرة تبه..."

18

"حافلة صغيرة ذات لون داكن..."

وجدنا ذكائي جالسا على إحدى الطاولات الخشبية في الظل المظلم لأشجار الصنار القديمة في منطقة غيرة تبة، في زاوية الزقاق المشع مقابل شعبة الجنايات. جاء مبكرا، وحينما لم يجدنا في المركز، أخبر زينب أنه سينتظرنا في مقهى المأوى الذي نجلس فيه باستمرار. وحينما رآنا نصعد الدرجات الحجرية للمقهى نهض ببطء شديد. حماس الطفولة في عينيه على عكس جسمه العملاق. اختفت شخصية الرجل الذي كان يعتني بورود منزله في فترة الرخاء، وحلّت مكانها شخصية نقيب شعبة الجنايات المجتهد.

"مرحبا نوزات،" قالها وهو يضغط على يدي بهوس مثل شرطي بدأ وظيفته حديثا. "يبدو أني جئت مبكرا."

"لا، نحن تأخرنا قليلا. حركة المرور كما تعرف صعبة في إسطنبول." أشرت إلى مساعدي الذي كان يتفحص ذكائي باهتمام كبير. "وهذا الضابط علي."

ابتسم ابتسامة صادقة وهو يمد يده إلى مساعدي.

"سُعدت بمعرفتك أخ علي."

يبدو أن الأخ علي قد أحبّ هذا الرجل الذي أفنى عمره في هذه الوظيفة، فضغط على اليد التي مُدّت إليه بحرارة.

"وأنا أيضا سعدت بمعرفتك يا حضرة النقيب."

أشار ذكائي إلى المقاعد الفارغة حول الطاولة.

"تفضلا بالجلوس."

جلست أمام ذكائي، وجلس علي إلى يميني.

"ماذا تشربان؟"

بحث عن النادل ليأخذ طلباتنا دون أن يسمع إجابتنا، لكنه لم يجده.

"أين اختفى الرجل يا ترى؟!"

"سيأتي، سيأتي،" قلتها وأنا ألمس يده بود. "السيد تشاركجي صبري إنسان ثقيل، لكنه سيأتي بعد قليل. أنت ضيف هنا، لا تتدخل، نحن سنحل الأمر."

"حسنا، فليكن كذلك." صمت لحظة ثم سأل وعيناه الكهرمانيّتان الكبيرتان منصبّتين في وجهي: "نعم نوزات، من هو المقتول الثاني؟"

كانت الإثارة في صوته واضحة.

قلت دون اكتراث: "واحد يقال له فريد سلجيم، ويعرف بفريد القزم في الوسط الاجتماعي. هل سمعت الاسم من قبل؟"

قال: "لا، لم أسمع،"

أصبح من اللازم الدخول في التفاصيل.

"كان الرجل خياطا، يخيط الألبسة الشخصية الفاخرة المعروفة باسم هوت كوتور، كان ماهرا جدا لكنه كان متحرشا منحرفا، يتسلّط على الأطفال الذكور."

اتكأ على مقعده ووجهه متجهم.

"أنا مستغرب من هذا الأمر، لأنه لم يذكر في الأخبار أنه متحرش بالأطفال." صمت لحظة وكأنه أراد أن يزيد من تأثير كلماته، ثم بدأ من

جديد. "14 جريمة، مع فريد سلجيم يصبح عدد الجرائم التي ارتكبها القط الأعمى 14 جريمة." كان يتحدث وكأنه لا يشرح لنا وإنما يفكر في نفسه بصوت مسموع. "هل يفكر في إيصال العدد إلى 24 يا ترى، أم أنه سيوصله إلى 18 ؟"

وحينما لاحظ أني لم أفهم، بدأ بالحساب الذي يعرفه جيدا من جديد. "قام في عام 2012 بقتل 12 شخصا. فإن قتل في هذه السنة 12 شخصا فإن مجموع الجرائم التي سيكون قد ارتكبها 24 جريمة. لكن هناك مشكلة يا نوزات. تكلمنا عن ذلك في الأمس، ارتكب القط الأعمى جريمته الأولى قبل خمس سنوات في يناير وليس في يونيو. نعم، فقد قتل في يناير من عام 2012 ثلاثة متحرشين بالأطفال. لكن في هذه السنة، بدأ بالقتل بعد ستة شهور، يعني ما زال هناك 10 جرائم ناقصة. وإيصالها إلى العدد 12 في هذه السنة صعب جدا."

سأل علي ذكائي من أجل سحب الكلام من فمه وليس من أجل فهم الموضوع.

"وهل يتوجب عليه أن يقتل 12 شخصا؟"

كاد السؤال أن يزعج الشرطي المتقاعد.

"نعم واجب، فالعدد 12 مهم جدا، فهو ذو معنى بالنسبة إلى القطّ الأعمى."

تدخلت في الحديث: "ما هو هذا المعنى؟ ماذا تقول يا ذكائي في هذا الأمر؟"

غطت وجهه رهبةٌ.

"لا أدري يا نوزات، فلقد أعملت فكري كثيرا في هذا الموضوع، لكنني لم أستطع حل معناه. لكن عدد 12 بكل تأكيد له معنى. ليس لأنه قتل

في عام 2012 فحسب، وليس لأنه قتل 12 شخصا فقط، وإنما أيضا مجموع الأيام والشهور التي ارتكب فيها الجرائم تساوي 12."

أدرك أن عقلي قد تشوّش.

"بهذا الشكل،" قالها وهو يمد يده إلى الحقيبة البنية التي كانت على الطاولة، أخرج منها دفتر ملاحظات. حينما فتح الدفتر ظهر أمام عيني جدول رُتّبت فيه شهور سنة 2012 وأيامها. "انظروا، هذه التواريخ التي ارتكب فيها القط الأعمى جرائمه. هل ترون؟"

كان في الجدول بعض الأيام من الأسابيع الأولى لشهر يناير، وفبراير، ومارس، ويونيو. وكان مشارا عليها بقلم أحمر.

"ارتكب جريمته الأولى في اليوم الأول من شهر يناير، انتظر ثلاثة أيام ثم قتل في اليوم الرابع، انتظر ثلاثة أيام أخرى وسفك الدم من جديد في اليوم السابع من نفس الشهر. وبهذا الشكل يكون قد أغلق حصاده الدموي لهذا الشهر بقتله 3 أشخاص. والآن لنجمع الأيام التي ارتكب فيها الجريمة: اليوم الأول، والرابع، والسابع من الشهر، ما مجموعها؟"

صمت وترك الجواب لنا.

"12" قال ذلك علي بغضب. لكن تجعد جبينه الأملس وكأنه صادف مشكلة مهمة. "وهل مجموع الأيام في شهر يونيو أيضا يساوي 12؟"

شرح بشغف مثل معلّم مُلمّ بتخصصه.

"ليس في شهر يونيو فقط يا سيدي علي." قالها ثم ضرب الجدول بإصبعه السبابة الكبير. "وإنما أيضا إذا جمعنا الأيام التي ارتكب فيها الجرائم في شهر فبراير ومارس فإن مجموعها يبلغ 12. علاوة على ذلك، يناير الشهر الأول، وفبراير الشهر الثاني، ومارس الشهر الثالث، ويونيو الشهر السادس، إذا جمعنا هذه الشهور فإنها تساوي 12 أيضا... نعم،

فقاتلنا يؤكد دائما على العدد 12." نظر إليّ. " لا شك أن للرقم 12 معنى مهما يا نوزات. بل له معنى عميق جدا. إن استطعنا حله سنقطع شوطا طويلا في التحقيق."

ما زال كتوما في تعامله.

"لماذا لا تُفصح عن فكرتك يا ذكائي؟ لقد فكرت في الموضوع سنوات طوال، لا بد أنك توصلت إلى استنتاج."

وضع يده اليمنى تحت فكه الواسع.

"في الحقيقة لدي فكرة... من الصعب التأكد بالطبع لكن العدد 12 باعتقادي يشير إلى الساعة واليوم والشهر الذي تعرض فيه القط الأعمى للاغتصاب... فربما كانت الساعة 12، وربما كان اليوم 12، وربما كان الشهر 12... وربما أيضا تعرض للاغتصاب في الشهر 12، في اليوم 12، في الساعة 12..."

كان هذا مبالغًا فيه نوعا ما، فربما كان تاريخ ارتكاب الجريمة مهمًّا بالنسبة إلى قاتل متسلسل، لكن لا أعتقد أن هذه التفاصيل قد يكون لها اعتبار عند مغتصب للأطفال. لا بد أن انشغال ذكائي بالقط الأعمى جعله يفكر في أشياء معقدة. وبينما كنت على وشك القول إنك مخطئ، تكلم علي.

"هل أنت متأكد أن القط الأعمى قد تعرض للاغتصاب؟"

كان الشرطي المتقاعد ينظر بثقة.

"متأكد... متأكد سيدي علي. وإن سألتني ما الدليل، فأقول لا شيء. لا شاهد ولا معلومة، لكنني متأكد أن القط الأعمى تعرض لاغتصاب. ربما حدث هذا الأمر وهو طفل..."

حتى وإن كان تعرُّض القط الأعمى للاغتصاب احتمالًا قويًّا، فإنه

يبقى احتمالا فقط. وما دام أن ذكائي كان متأكدا من ذلك بهذه القوة فلا بد أنه يملك معلومات أكثر حول هذا الموضوع.

قلت وهدفي أن يبوح بما عنده: "لا نريد أن نستعجل، فتعرّض القط الأعمى للاغتصاب هي فرضية فقط. فربما يكون أحد أقاربه تعرّض لاغتصاب أو أنه نصب نفسه لتنظيف المجتمع من هؤلاء المنحرفين."

هز ذكائي رأسه مجيبا بشكل قطعي.

"لا، في اعتقادي أنه تعرّض شخصيّا لاغتصاب. ولا خيار آخر. فقطعة القماش الحمراء، واللعبة، والأذن المقطوعة وكل هذه الأمور هي رموز، جميعها تحكي لنا تجربة، تجربة قذرة، تجربة مخزية..."

"وما هذه التجربة؟"

وحينما أدرت رأسي التقت عيناي بالمدّعي نادر، كان يقف على بعد خطوة واحدة خلف زينب، وينظر إلينا نظرة وُدّ من فوق نظارته الشمسية.

"أوو مرحبا بحضرة المدعي،" قلتها وأنا أنهض. "ما هذه الصدفة الجميلة!"

ضغط على يدي التي مددتها.

"جئت لزيارة المدير عصمت، وبينما كنت خارجا من عنده تصادفت مع الآنسة زينب، سألت عنكم، فجاءت بي مشكورة إلى هنا..." ثم نظر إلى ذكائي، ومد يده بود. "لا تؤاخذوني يا سيدي، قاطعت كلامكم، لكن في الحقيقة عندي فضول لمعرفة هذه التجربة."

نهض النقيب المتقاعد مضطربا ولم يترك يد المدعي العام فارغة في الهواء. وظهرت على وجهه حماقة حلوة فكأنما قُبض عليه وهو متلبّس. لكن المشهد الأكثر إثارة هو وجه علي. كان ينظر إلى المدعي بسخط. لا بد

أنه انزعج من جلوس نادر قُرب الفتاة التي يحبها. لكن لم يكن في وسعي الآن أن أنشغل بغيرته على حبيبته. دعوت ضيفنا إلى طاولتنا.

"تفضلوا. تفضلوا حضرة المدعي، اجلسوا هنا."

رجع نادر للخلف فورا، ولمس كتف زينب بهدوء.

"من فضلك، الإناث أولا."

تبدّا جمالٌ مُثيرٌ على وجه زينب الذي أصبح محمرًّا من الحرارة. يبدو أنها لم تلاحظ غيرة علي، وبناء على اقتراح نادر جلست على الكرسي دون أن تتصنع الدلال. وبالطبع لم تتخل عن مجاملتها.

"شكرا جزيلا سيد نادر."

السيد نادر قام بسحب الكرسي من الطاولة المجاورة لنا وجلس بيني وبين علي. وحينما جلس غمز مساعدي.

"وأنتم كيف حالكم سيدي؟"

قال علي باضطراب. "بخير،" ثم نظر إلى زينب بغضب وكرر قائلا: "أنا بخير."

لم يدرك المدعي عداوة صاحبنا أو أنه تغافل عن ذلك؛ وأجال عينيه في ما حوله.

"يا لجمال هذا المكان... واحة بين أكوام الخرسانة." اتجهت أنظاره إلى الشجرة الأزلية التي كانت تظلّلنا. "ما أجملها من شجرة صنار، وما أجمل أغصانها المتفتحة، فكأنما تفتح ذراعيها وأجنحتها لنا نحن البشر. لا بد أنه كانت هنا أشجار صنار أخرى قبل خمس عشرة سنة أو عشرين. لكن لا شيء منها الآن..."

غمغم علي قائلا: "وإن كانت موجودة فماذا سيكون؟ نجلس في الظل بلا فائدة، انظروا إلى هذه الحرارة..."

حدّق نادر في علي الذي كان يتكلم بقسوة، لكنه لم يكترث به، ثم نظر إلى ذكائي.

"حقا يا سيدي النقيب، ما تلك التجربة التي كنتم تتحدثون عنها؟"

"هل تعرفونني؟"

كان المدعي ينظر إليه نظرة إعجاب صادقة.

"سامحكم الله، ومن لا يعرفكم؟ فأنتم أسطورة في مؤسسة الأمن."

احمرّ وجه ذكائي مثل الطفل.

"لا، أستغفر الله، لسنا كذلك..." وجد نجاته برمي الكرة نحوي. "نوزات هو الأسطورة. ونحن قمنا بعملنا فقط... والآن نتذوق طعم التقاعد. والتجربة كانت كلمة عابرة تحدثنا بها هكذا..."

بقيت عينا نادر منصبّتين في وجه ذكائي. "في الحقيقة أعتقد أنه بالإمكان أن تقدّم مساعدة لنا في هذه القضية." ويبدو أنه أدرك من يحقق في القضية الآن فنظر إليّ. "ماذا تقولون سيدي نوزات؟ فسيدي ذكائي كان يحقق في قضية القط الأعمى قبل تقاعده..."

ليس هناك فائدة من الكتمان.

"أعرف، ولهذا السبب التقينا في الحقيقة."

هل استغرب؟ أم أنه تصرف كمستغرب؟ لا ندري، فهمُ ذلك كان صعبا. نظر إلى باحثتنا زينب من جديد.

"من الجيد أننا أتينا هنا يا آنسة زينب، وإلا فإننا سنبقى في غفلة عن آخر التطورات."

لا، لم يكن في صوته عتاب، وإنما كان هناك توبيخ غامض فقط. لكن عليا أصبح وجهه محمرا من شدة الغضب، وصار كل مكان في جسمه يتصبّب عرقا من الألم. وبينما كنت أتمنى في نفسي أن لا يفعل شيئا غير

لائق، دخل ذكائي فجأة في الموضوع مباشرة.

"أستطيع تقديم المساعدة يا حضرة المدعي. حقا أستطيع المساعدة. لا أعرف كم سيكون له تأثير في القبض على القط الأعمى، لكنني سأبذل كل ما في وسعي."

كانت الجملة الأخيرة سببا في هبوب رياح اليأس على الطاولة.

فسأل نادر: "صعبٌ إلى هذه الدرجة؟ هل القط الأعمى حقا إلى هذه الدرجة...

إلى هذه الدرجة..." لم يستطع العثور على الكلمة الصحيحة.

"إلى هذه الدرجة حاذق،" قالها ذكائي مساعدا له. "مبدع، وقوي، وسريع، وعديم الشفقة. وهو أسوأ من كل شيء، ويعرف أسلوب عملنا جيدا... لهذا السبب لا نستطيع القبض عليه..."

توتّر المدعي الشاب.

"هل تقولون إنه يمكن أن يكون واحدا من أفراد المؤسسة الأمنية؟"

قال علي: "ولم لا؟ فنحن نعتقل المتحرشين، ونقدمهم للمحاكمة. ربما فعلها شرطي سئم من هؤلاء."

ومع أني كنت لا أريد ذلك، إلا أنني اضطررت إلى التأكيد على كلام علي حتى لا يبقى وحده.

"علي محق، قد يكون القط الأعمى واحدا منا. من الصعب التأكد من ذلك بالطبع. وربما ليس له أي علاقة بنا، فقد يكون هناك شخص يقوم بهذا العمل على أكمل وجه..."

شاركت زينب في الحوار قائلة: "الرجل حقا محترف، وبارد الدم جدا. لا يترك خلفه أثرا أو علامة. لم نصل حتى هذه اللحظة إلى أي معلومة من شأنها أن تفيد في التحقيق."

"في الحقيقة هناك بعض الأمور" قالها ذكائي وهو يلوي عنقه بخجل.
"نعم هناك بعض المعلومات التي أخفيتها عنكم."

لا بد أن نادرًا تذكّر أنه مُدّعٍ عام في الدولة، فسأل بصوت سلطوي قليلا. "ولمَ أخفيت المعلومات؟"

"من أجل سلامة التحقيق. انظروا، كنا قبل قليل نقول إن القط الأعمى قد يكون واحدا منا. فلو وضعت ما أعرفه في الملف فسيكون صاحبنا القاتل المتسلسل على علم بها..."

رقّت نظرات نادر.

"فهمت، وما هذه المعلومات؟ ستذكرونها، أليس كذلك؟"

انحنى ذكائي على الطاولة، وكأنه كان يخشى سماع الآخرين.

"حافلة صغيرة، القط الأعمى يستعمل حافلة صغيرة. يحمل ضحاياه بهذه الحافلة إلى مكان الحادثة. لكننا لا نعرف لا لون هذه الحافلة ولا ماركتها..."

قال مساعدي: "الحافلة لونها داكن، في هذا الصباح ذكر ذلك شاهد في موقع الجريمة، بيّن أن القاتل يستعمل حافلة صغيرة ذات لون داكن. أسود أو كحلي... لكنه لم ير لا ماركتها ولا سائقها..."

قال المدّعي بيأس: "أهذه المعلومة التي تخفيها؟"

انحنى ذكائي على الطاولة من جديد.

"الرمز الشريطي،" همس وكأنه يكشف عن سر في غاية الأهمية. "الرمز الشريطي للألعاب..."

هذه المرة كانت زينب على عجلة من أمرها.

"نعم، أخذنا الرمز الشريطي الخاص بلعب باربي في قاسم باشا، وبدأنا بالبحث أيضا. وقريبا سنعثر على المحل الذي بيعت منه. كما أننا

نتفحص الرمز الشريطي للعبة فولكس واجن الصفراء التي وجدناها في حديقة متحف الأطفال..."

لم يعبأ ذكائي بهذا الكلام.

"وهل كانت هناك أرقام على الرمز الشريطي؟"

رأت زينب أن إصراره إلى هذا الحد غير مهم.

"بالطبع، هناك أرقام..."

قال زميلي المتقاعد: "لا يا ابنتي، أنا أتحدث عن أرقام أخرى..."

أجاب المدعي العام بدلا من باحثتنا.

"لا، ليس هناك من تلك الأرقام على لعبة باربي التي عثر عليها في قاسم باشا..."

ردت زينب قائلة: "موجود، ورأيتها بأم عيني. كانت الأرقام كما هي. وقريبا سنعرف المكان الذي بيعت منه..."

تحرك نادر بقلق.

"وإن عثرتم عليها فماذا سيكون؟ فما دام أن الرجل محترف فهو لن يستعمل بطاقته الائتمانية..."

وما دام أن علي لا يطيق نادرا، قال معاندا: "فربما يكون في محل البيع كاميرات مراقبة. فمن هناك نستطيع العثور على القاتل..."

كان وجه ذكائي الذي يستمع لرجل القانون الشاب باهتمام يحمل تعبيرا باردا لكن له مغزى.

"لا يوجد يا أخي علي. ثق تماما أنه لا يوجد. فالقط الأعمى لا يسقط في الفخ بهذه السهولة..."

19

"جرائم القتلة المتسلسلين نوع من العبادة."

لم يبق أي مكان فارغ على لوح الحائط. كان أول ما تقع عليه العين هو صور الضحايا الاثنتي عشرة المرتبة بعضها إلى جانب بعض. هؤلاء الأشخاص الاثني عشر الذين قتلوا على يد القط الأعمى جميعهم كانوا منحرفين يغتصبون الأطفال. وبينما كنت أنظر إلى الصور الباهتة لهؤلاء الذين اختلطت أجسامهم بالتراب منذ أمد، كنت أشعر بخليط من مشاعر الشفقة والكراهية. لا يمكن أن أغفر لهم أفعالهم، لكن هذه الحالة تجبرنا على السعي إلى وجوب فهمهم. علاوة على ذلك، فإننا إذا استطعنا أن نعرف سبب هذه التصرفات الشاذة فربما يكون من السهل أن نمنعهم من فعل ذلك. شريطة أن يكون هناك سبب مقنع بالطبع. إذ أنه من الاستحالة أن نفهم هذا من عيون الضحايا التي رُتّبت صورها بعضها جوار بعض. وجدت زينب فجوة في اللوحة ووضعت صورتين للمقتولين الأخيرين: وهما فريد سلجيم الذي قتل في هذه الليلة وعاكف صويقان الذي قتل قبل يومين. كان تحت صور القتلى مباشرة صور الألعاب التي عثر عليها بجانبهم. شاحنة صغيرة أرجوانية، سلحفاة خضراء، دب بني ذو وبر، قطار أصفر، سفينة بيضاء، طائرة زرقاء، وسيارة شحن تركوازية، بندقية راعي البقر ذات لون فضي، حوت أبيض وأسود، بينوكيو ذو أنف وردي، نسر أحمر، وسيف ذو طلاء ذهبي، لعبة باربي، وأخيرا فولكس واجن الذهبية... وعلى

سبيل العينة، أضيفت صورة لقطعة قماش حمراء، وصورة رأس مبتورة أذنه. وفي وسط هذا البحر التفصيلي كان هناك الرقم 12 الذي يلفت الانتباه بحجمه وإلى جانبه علامة استفهام كبيرة أيضا.

"ربما تكون هناك إشارة دينية؟" قالت ذلك زينب وهي تشير بالمسطرة التي كانت في يدها إلى العدد 12. "فكما تعلمون أن الرقم 12 في بعض الأديان عدد مقدس. ففي العديد من الثقافات القديمة هناك حديث عن مرور الشمس والقمر من 12 نقطة. كما أن هناك حديثا عن 12 نجما شماليا و12 نجما جنوبيا..."

مع أن البرودة التي خلقها جهاز التكييف الذي كان يصدر أزيزا في بعض الأحيان قد جعلتني مشتتا إلا أنني لم أتخل عن المشاركة في هذا الحوار العجيب.

"بإمكانك أن تضيفي أقوام اليهود 12 عزيزتي زينب. حتى وإن كان هذا الموضوع محل خلاف إلا أن عدد الأقوام 12 مهم. كما أن في التوراة ذكر مستمر للرقم 12."

لمع بريق غريب في عينيها الداكنتين.

"أنتم محقون يا سيدي... لا ننسى أيضا النبي عيسى والحواريين عددهم 12. ومن بعدهم أيضا الأئمة عددهم 12. أهل البيت الممتدين من حضرة محمد إلى الأئمة عددهم 12..." كررت بصوت هادئ من جديد. "قد تكون في ذهن القاتل حقا إشارات دينية."

قال علي الذي كان يجلس على كرسيه بوجه غاضب: "وما علاقة هذا؟ من أين تأتين بهذه المواضيع الدينية؟ كل ما في الأمر أن هذا القاتل الذي يُدعى بالقط الأعمى يقوم بقتل مغتصبي الأطفال. فلماذا تقومين بخلط الدين والشريعة بالأمر؟"

كان صوته مرتفعا أكثر مما ينبغي، لا بد أنه كان يشعر بالضجر كثيرا، ولا بد أنه كان يبحث عن ذريعة لإحداث الشجار. لهذا السبب عقدت زينب حاجبيها، وكانت على وشك أن تجيب حبيبها فأجبت أنا على كلمات مساعدي: "لماذا تفكر هكذا؟ ربما يكون هناك سبب ديني. فربما يقوم القط الأعمى بالقتل بناء على قراءته لأشياء في الكتب الدينية. وربما يرى نفسه جنديا من جنود الله على الأرض. خادم عزرائيل، وناشر العدالة الإلهية..."

"سيدي محق،" قالتها زينب. كانت تحاول أن تبدو هادئة، لكن التوتر في صوتها كان واضحا جدا. وسلوك حبيبها الذي كان فظا جعلها تغضب وإن كانت لا تعرف سبب استيائه. تابعت قائلة: "المسائل المقدسة لدى القتلة المتسلسلين مهمة جدا. فهناك الكثير ممن يضعون أنفسهم مكان خالقهم. نعم هكذا، يقومون بقبض أرواح الأحياء. إنه تفويض إلهي. حتى أن هناك بعض القتلة المتسلسلين يزعمون أنهم يأخذون أرواح القتلى مع أجسادهم. وبالطبع فإن الأشخاص الذين تقبض أرواحهم هم في الأصل أشخاص منحرفون ضلوا الطريق. فالقاتل يجمع الأرواح المذنبة ويفتح لها طريق الجنة من جديد. فإن كان صاحبنا القط الأعمى يرغب في تخليص نفسه وتخليص روح الضحايا فإنه لن يجد منهجا أفضل من المنهج الديني."

لم يقبل علي بهذا، جرح ولن يشعر بالراحة إلا إذا جرح غيره. ومع أنني كنت موجودا إلا أنه لم يتردد في الكلام الجارح.

"هراء! ليس معقولا بتاتا. لو كان الأمر كذلك لترك القط الأعمى رموزا دينية في موقع الجريمة. فليس هناك أي رموز لا في الجرائم التي كانت قبل خمس سنوات ولا في الجريمتين الأخيرتين... فلا يوجد أي إشارة

لا من المسيحية ولا من الدين الإسلامي ولا من الديانات الأخرى أيضا. الرجل يتعقب مغتصبي الأطفال فقط."

كان ما قاله منطقيا، لكنه لم يكن يعترض زينب من أجل البحث عن المنطق الصحيح، فسبب غضبه هو المُدّعي العام نادر. الغيرة بمقدار جرعة واحدة من شأنها أن تحيي العلاقة، لكن إن زادت عن حدها فربما تمزقها. لسوء الحظ بدأ علي يخرج عن مساره. وهذا يعني كارثة تدمر العلاقة.

"في الحقيقة هناك سؤال آخر يدور في ذهني." قلت ذلك رغبة في تشتيت الموضوع. "أتحدث عن احتمال آخر مختلف تماما."

بدا الفضول على وجه كلٍّ منهما بدلًا من التوتّر، وواصلت دون تردد.

"السيد ذكائي، هل تتذكرون كلامه عن روتين القاتل المتسلسل؟ الجريمتان الأخيرتان لا تتفقان مع الجرائم التي ارتكبت قبل خمس سنوات. فالروتين لدى القتلة المتسلسلين نوع من الطقوس أو العبادات. تماما مثل الفروض الخمسة في اليوم الواحد أو مثل ذهاب المسيحيين إلى الكنيسة أيام الأحد... لكن الجريمتين الأخيرتين لا تتّسقان مع هذا الروتين..."

هز علي كتفه.

"السيد ذكائي قال هذا حتى لا نتمكن من القبض على القط الأعمى."

نجحت أخيرا في تشتيت أفكاره.

"وإن كان مخطئا؟"

نظر كلاهما إلى وجهي، كانا يحاولان فهم ما قلته.

"لنفترض أن القاتل ليس القط الأعمى فعلا، أو لنفترض أن هناك أشخاصًا تقلده؟"

حك علي رأسه باضطراب.

"حسنا سيدي، حتى الحافلة الصغيرة التي استخدمها الرجل هي نفسها..."

لم تتأخر زينب في الرد.

"وكيف عرفت أنها نفس الحافلة يا علي؟ فالحافلة التي يستعملها القتلة ليس معروفا ماركتها أو لونها..."

"لكن هناك حافلة صغيرة أليس كذلك؟" ما زال علي يتحدث بصوت غير مريح. "فليس من الممكن أن يكون هذا أيضا من قبيل المصادفة..." نظر إليّ. "لا يا سيدي، باعتقادي أن جميع هذه الجرائم قام بها نفس الرجل. فالقط الأعمى غيّر روتينه محاولا تشويش أذهاننا بغية إبعاد الأنظار عنه. ألا يمكن ذلك؟ فما فعله الرجل في النهاية ليست أوامر الله. فلمَ يتوجب عليه أن يكررها؟"

جاء الاعتراض من زينب مجددا.

"لو لم يكن القط الأعمى قاتلا متسلسلا لكان كلامك معقولا، لكن هؤلاء الناس لهم منطق مختلف. فهم لا يرتكبون الجرائم وهم غضبى. يختارون الشخص الذين يودون قتله قبل شهور، ويقررون مسبقا مكان الجريمة وكيفيتها. فالقتل بالنسبة إليهم هو شكل البقاء الوجودي. وخاصة أنهم لا يكتفون بقبض أرواح الضحايا فحسب. فتراهم مثل الفنانين يحضرون تحفة لأعمالهم الفنية. ثم يتركون توقيعهم في نهاية أعمالهم. افهم يا عزيزي علي، هذه هي الطريقة التي تشبعهم. فإن كانت لا تشبعهم فلماذا يرتكبون الجريمة؟"

"ألا يمكن أن يعيش هذا الرجل بعد أن يقضي على إشباعه؟ فالأشياء التي تركها في مكان الجريمة جميعها تفاصيل تافهة." تردد قليلا حينما

أدرك أني لا أوافقه. "أعرف يا سيدي أنكم ستقولون إن الشيطان يكمن في التفاصيل لكن الهدف الرئيسي هو قتل المغتصبين. أليس كذلك؟ القط الأعمى أيضا يواصل فعل هذا، وغير روتينه حتى لا يقع في الفخ."

تنفست زينب بيأس كونها لم تستطع إيصال فكرتها.

"ليت الأمر بسيطا بهذا الشكل. سيبدو مكررا لكنني سأعيد شرحه من جديد كي يتضح الأمر. هذا الشخص الملقب بالقط الأعمى من المحتمل أنه تعرض للاغتصاب في صغره، لكنه نسي هذه الحادثة وأصبحت في بطن الزمن، لكن تصادفه لمثل هذه الحادثة بعد سنوات جعله يعاني من انقسام في الوعي إلى درجة صار يسعى عندها للبحث عن تنقية. فالتنقية في لغة القاتل المتسلسل لها معنى واحد فقط؛ وهي القتل."

لم يرغب علي قبول هذا، وحاول أن يطفو على السطح مثل زيت الزيتون.

"هذا ما أقوله أنا أيضا..."

"اسمح لي أن أكمل كلامي" قالت ذلك زينب مواصلة كلامها. "جرائم القتلة المتسلسلين -كما قال سيدي- هي نوع من العبادة بالنسبة إليهم. فمثلما أن الشخص المتدين لا يقوم بعباداته الدينية حسب أهوائه فإن القاتل المتسلسل أيضا لا يمكن أن ينتهك قواعد طقوسه الخاصة. فطريقة ارتكاب الجريمة، وزمن القتل، والإشارات التي يتركها في مكان الحادثة هي عبارة عن رسالة لها معنى أكثر من كونها مجرّد توقيع. لا تنظر إليّ هكذا بعيون غير مصدقة، فالقتلة المتسلسلون يعرّفون بأنفسهم على هذه الشاكلة. يمكن أن نسميها أيضا بيانا شخصيا. كما يمكننا أيضا تقييمه كنوع من التمرد. فالطريقة الأكثر فعالية لمن لم يفهم نفسه ولم يستطع التعريف بها أن يقول لعديمي الإحساس من البشر الذين

ضيعوا شفقتهم وأحرقوا ضمائرهم: 'أنا هنا، انظروا إليّ.' بالطبع إنها طريقة قاسية جدا، وبكل تأكيد هي وحشية جدا وغير إنسانية. لكن هذا هو أسلوبهم. لهذا السبب نحن نقول قاتل متسلسل. رجال يتشكل وجودهم بالقتل."

خفت أن يُخرج هذا المؤتمر الصغير الذي قدمته زينب بأسلوب أكاديمي عليًّا عن طوره فيطول النقاش بيننا، لكن هذا لم يحدث. سأل فقط وهو شارد الذهن.

"يعني أنت تعتقدين أن الجريمتين الأخيرتين ليستا من عمل القط الأعمى بكل تأكيد، أليس كذلك؟ هل أنت متأكدة من ذلك؟"

كان صوته رقيقا، وبدا وكأنه تخلص من التوتر الذي كان يخنقه. ولسان حاله يقول إن ذهني مشوش، لكنك ما دمت تقولين نعم فأنا أيضا أقول نعم. وبالطبع فإن المشاكس والشامخ علي قد أثر في زينب.

"من الصعب جدا أن أقول إنّني متأكدة عزيزي علي. لكن ما قلته كان نتيجة للتجارب التي كسبتها حتى اليوم. وبالطبع يُحتمل أن أكون مخطئة."

قلت داعما لها: "احتمال ضعيف أن تكوني مخطئة، فكما بينت قبل قليل، إن طقوس القط الأعمى لا تتفق مع الجنايتين الأخيرتين."

كانت عينا مساعدي ثابتة على نقطة معينة.

"حسنا، من قتل هؤلاء الرجال إذن؟ هل هو أحد يقتدي بالقط الأعمى؟"

"ربما يا علي، ربما ولكن قد يكون هناك سبب آخر. ومن المفيد أن لا نتسرع في اتخاذ القرار."

كرر معاندا.

"من المفيد أن لا نتسرع في القرار يا سيدي، لكن الرجل سيبقى مستمرا في القتل..."

نظرت إلى وجهه بكل هدوء.

"ونحن سنستمرّ في جمع الأدلة، والبحث عن إشارة، وسنبقى ننتظر تركه لإشارة واضحة. وهل لدينا حل آخر؟"

"لا يوجد سيدي، ليس لدينا حل آخر." مسح فكه بيده. "إذن، لو أننا نركز على الجنايتين الأخيرتين... لو أننا نعثر على الأطفال الذين اغتصبهم المقتولان الأخيران... فربما يكون القاتل أبا لأحد أولئك الأطفال."

كان محتملا لكن لماذا قتل مغتصبين اثنين في آن واحد؟

"هل تعتقد أن الشخصين المقتولين قد قاما باغتصاب نفس الطفل؟"

كان السائل زينب؛ هي مثلي أيضا كانت تفكر بنفس الطريقة.

قال رفيقنا: "أعلم أن هذا يبدو صعبا، لكنه ليس مستحيلا. فعلى سبيل المثال، ربما كلا المقتولّين تواجد في نفس المكان مع الأطفال الذين تعرضوا للاغتصاب. يعني مدرسة مثلا، أو حضانة، أو صالة رياضية... أنا لا أدري بالطبع، يجب أن نبحث..."

كان على حق، فهناك فائدة في البحث.

"إذن أنت قم بهذا العمل عزيزي علي" قلتها مصدرا القرار الأول من هذا النقاش. "ألق نظرة على ملفي الضحيتين لنرى ماذا يخرج لدينا..."

"حاضر سيدي، فورا سأهتم بالأمر."

نظرت إليّ زينب وهي تقول: "هناك موضوع آخر يجب البحث فيه أيضا. أتحدث عن إمكانية أن يكون القط الأعمى واحدا منا. فالرجل لا يكتفي بمعرفة أسلوب عملنا فحسب، وإنما أيضا يصل إلى ملفات المتحرشين بكل سهولة. فلو كان خلاف ذلك لما كانت لديه القدرة على

اختيار ضحاياه بالشكل الصحيح. فهو لم يخطئ في الأشخاص الذين قتلهم بتاتا، كانوا جميعهم متحرشين."

كان هذا احتمالا يدور في عقلي منذ البداية، لكنني لم أفكر في ذكره الآن كثيرا. وسر تعاملي بهذه السرية لم يكن بسبب خوفي على زملائي، وإنما كان لعدم وجود شرطي يمكن أن نضعه في قائمة المشتبه بهم. الشرطي الوحيد الذي يثير الشك في هذه القضية هو ذكائي السلوقي، لكن التفكير في هذا هو الجنون بحد ذاته.

قلت موسّعا دائرة البحث: "لا يشترط أن يكون شرطيا فقط، فقد يكون واحدا من المدّعين العامّين، أو القضاة، أو المحامين الذين ينظرون في القضية. وقد يكون واحدا من مخابري المحكمة... أنت محققة، إذ أنه من المفيد أن نبحث في هذا الموضوع."

وحينما رفعت رأسي التقيت بنظرات علي القاسية.

"لنبحث إذن حول هذا المدعي. أقصد نادر، هو أيضا معني بهذه القضية، أليس كذلك؟"

ولكي أمنع اشتعال نقاش جديد بين علي وزينب التي كانت تستعد للكلام قلت فورا مدافعا عن المدعي العام: "عيّن نادر في هذه القضية مؤخرا، يعني أنّه أيضًا مثلنا يعرف هذه المعلومات حديثا..."

ضحك علي بكل سرور.

"أنا أقول ذلك من باب التحذير يا سيدي، أليس من المهم أن لا نتغافل عن أحد..."

تركت زينب، التي كانت ترى أن الكلام في هذا الموضوع عبثا، المسطرة من يدها على لوح الحائط وهي تبتسم ابتسامة متوترة. وفي تلك اللحظات بدأ هاتفي يرن. المتّصل هو منير. لا بد أنه حصل على خبر متعلق بالطفل

السوري المفقود. أجبتُ على عجل.

"ألو، ما الأخبار يا منير؟"

"الأخبار سيئة سيدي، عثرنا على جثة فخّار... على الساحل في أهر قابي... لا بد من حضور عائلته لتتعرف على الجثة..."

20

"سرقوا كِلية الطفل."

حينما رأيت ارتجاف فكَّي مدني لم يبق عندي شك أن الطفل الذي كان ملقى على الطاولة المعدنية، ذا الوجه الأسمر، والشعر المجعد هو فخار. انحنى الرجل المسن الذي لم يستطع التخلص من قلقه منذ أن دخل إلى القاعة الكبيرة المغطاة بالخزف والتي انتشر في كل جانب فيها رائحة الفورمول الثقيلة.

قال بصوت مرتجف: "نعم، نعم، هذا فخار، إنه عديم الحظ ابن أخي..."

حدق منير الذي كان يقف إلى جانبي بالرجل.

"هل أنت متأكد سيد مدني؟ هل المقتول حقا ابن أخيك؟"

مده يده التي كانت تذكّر بجذع جاف لشجرة محروقة إلى الطفل الذي كان وجهه أبيض مثل الجير.

همس الرجل العجوز: "متأكد، متأكد أنه فخار."

اعتقدت أنه سيفقد وعيه ويبدأ بالنحيب والبكاء لكنه لم يفعل ذلك. سحب يده التي لمس بها الطفل.

"كيف؟ كيف حدث هذا؟"

ما زال صوته حزينا، لكنني استغربت رضاه السريع بحقيقة الألم. حينما تكلمنا أول مرة في تاتاولا، وذلك حينما كان مصير فخار مجهولا،

بدا أكثر حزنا.

قال منير بصوت هادئ: "غرق، سقط في البحر ولم يستطع الخروج..."

ولّت السكينة من وجه مدني.

"لا، لا، فقد كان فخار يسبح جيدا، لقد قتلوه، قتلوا فخار." قال ذلك وهو يصيح. وفجأة سحب الغطاء الأبيض عن جسد الطفل. وحينما سحبه انكشف أمام عيني الجسد العاري لطفل يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة. كرر قائلا: "قتلوا ابن أخي، قتلوه،" بدأ يتفحص جسم الطفل وهو في حالة ذهول. لم يكن هناك جرح حديث العهد علىَ جسد الميت ولا دماء متجمعة على نقالة الموتى المعدنية. لكن مدني غير مصدق لذلك، فأراد أن يدير الجسد ويرى ظهره. فلم يتحمل موظف المشرحة ذو الرأس الكبير الذي كان يقف خلفنا منتظرا باحترام على بعد خطوة واحدة منذ دخولنا الغرفة، وتدخل فورا.

"ماذا تفعل يا سيد؟ توقف، ماذا تفعل؟"

لكن مدني لم يتوقف، فأدار بذراعيه الهزيلين بقوة غير متوقعة الولد المسكين إلى جانبه. توقف حينما أدار الطفل جانبا ولم ير في ظهره أي أثر لجرح. تجمد في مكانه وبدا أنه أدرك خطأه. فقال بخجل: "أعتذر، أعتذر سيدي، فقد ظننت أن..."

لم يأذن موظف المشرحة له بالكلام أكثر.

"كفى، اترك المرحوم بحاله!" قالها وهو يدفع بمدني. ثم بعد ذلك أراد وضع الغطاء على جسد الطفل لكن اعترض في هذه المرة منير.

"دقيقة، انتظر دقيقة."

"لكن سيدي،" قالها وهو يستعد لأن يعترض عليه.

"انتظر" قالها بقسوة. "قلنا لك انتظر."

توقف الموظف ذو الرأس الكبير في مكانه بحزن. رفع منير الجسد بشكل خفيف، وبدأ بفحص بقعة على الجزء العلوي من الخصر. ثار فضولي، وأنا أيضا اتجهت بأنظاري إلى المنطقة التي يفحصها زميلي. كان هناك أثر جرح قد أغلق قبل شهور. لا بد أن الجرّاح كان ماهرا جدا لأن الجرح لا يمكن رؤيته بسهولة، لكن إذا نُظر إليه من قريب فإنه يظهر بوضوح. ترك منير جسد الطفل ونظر إلى موظف المشرحة ذي الرأس الكبير الذي كان يشاهدنا بعيون متوترة.

"حسنا أخي، يمكنك الآن أن تغطي جسده."

سحب الموظف قطعة القماش البيضاء على جسد الطفل بهدوء.

نظر منير إلى مدني وسأله قائلا: "ما ذلك الجرح؟ هل أجريت لفخار عملية جراحية أو ما شابهها؟"

ارتبك الرجل العجوز.

"عملية، نعم، نعم، فقد أجريت له عملية جراحية."

سأل من جديد بتعبير بارد.

"ما هي العملية؟"

قال الرجل: "كلى، عملية في الكلى، كانت كليته لا تعمل..."

استمر رفيقي بالتعمق في الموضوع.

"أكانت عملية نقل؟"

تردد مدني، تهرب بنظراته اللينة، وتكلم على عجل.

"نعم، نعم قاموا بعملية نقل الكلى..."

لم يتخلّ صاحبنا.

"أين قاموا بها؟"

بدا الرجل خائفًا لكنه تمالك نفسه بسرعة.

"قبل سنة في مدينة غازي عنتب، لكنني لا أعرف المستشفى. نحن فقدنا بعضنا من قبل. فنحن أقمنا في كيليس وفخار ذهب إلى غازي عنتب وقام بعمليته هناك. في الحقيقة لديه مرض في كليته منذ صغره. أعتذر منكم فقد كان يخرج منه دم أثناء تبوّله." صمت، وأخذ نفسا عميقا. "لكن ما علاقة هذا؟ هل حقا قتلوا فخّار؟"

أدهشتني تلك الكلمات التي خرجت من فم منير.

"ربما، ربما قتلوا فخار وألقوا به إلى البحر."

لكن حينما تكلمنا في الهاتف ذكر منير أن الطفل مات غرقا؛ وحينما جئت إلى المشرحة شرح كل ما جرى دون أن يشك في أي شيء. كان متأكدا أنه مات غرقا لأن هناك طفلا آخر شهد الحادثة. كان صديقا لفخار واسمه مختار من اللاذقية. في ذلك اليوم تركا العمل وذهبا للسباحة. وحكاية مرض فخار كانت كذبا، فقد ادعى أنه مريض بغية الذهاب للسباحة. وذهب الرفيقان إلى سواحل سماطيا. بعد الظهر عاد مختار إلى عمله لكن فخار بقي هناك. وفي الصباح مر مختار بمحل الحلوى الذي كان يعمل به رفيقه، وحينما علم باختفاء فخار خاف وشرح الوضع لأبيه، وجاءا معا إلى مركز الشرطة. وحينما صارت القضية بين يدي منير صاحب التجربة لم يكتف بما قيل له فقام على الفور بإرسال شخصين إلى المنطقة التي سبحا فيها. وجد الشرطيان اللذان ذهبا إلى هناك ملابس فخار على الساحل. لا بد أن الطفل السوري مات غرقا. هذا ما شرحه منير لكنه الآن غيّر فكره بشكل مفاجئ ليبين أنهم ربما فعلا قتلوا فخار. والغريب في الأمر أن مدني لم يستغرب كثيرا من هذا التوضيح.

"من؟ من هم الذين قتلوا فخارا؟"

قال منير وعيناه منتصبتان في وجه الرجل: "لا أعرف، أنتم من سيقول ذلك، هل لديكم أعداء؟ أو هل لأحد حسابات تجاه فخار؟"

كان صعبا أن نفهم ما يجري في عقل الضابط، لكن كانت شكوكه في مدني قطعية. رجع الرجل العجوز فجأة للوراء.

"لا يا سيدي، لا أعداء لنا. ولا حسابات لفخار مع أحد. كان طفلا مسكينا بحاله. نحن أناس بحالنا." اتجهت أنظاره الرقيقة نحو الجسد المغطى. "يا لسوء حظ الطفل، فقد والدته ووالده أولا، والآن فقد نفسه ..."

غطى بيديه وجهه وبدأ بالبكاء. لم يكترث منير بألم الرجل، ونظر إليّ دون أن يحس بأي شيء.

"يجب أن نقوم بتشريح الجثة. وبذلك سنعرف كيف مات الطفل وخاصة أن عندي..." ألقى نظرة نحو مدني. "وخاصة أن عندي بعض الشكوك، بذلك أكون قد تخلصت منها أيضا..."

"أي شكوك؟"

لا، لست أنا، وإنما كان السائل مدني. فقد سحب يديه عن وجهه فجأة ونظر إلى منير بقلق. تحدث الضابط من دون اكتراث.

"لا أستطيع إخباركم بها، فحينما تأتي نتائج التشريح سنعرف..."

نظر الرجل العجوز نحوي وكأنه يطلب المساعدة.

"وهل ستقومون بتمزيق جسد فخار؟"

وإن كنت أثق بمنير كثيرا إلا أنني لم أكن متأكدا مما سيحدث.

قلت متفهما الوضع: "توقفوا، لا تحزنوا، انتظروا في الخارج وأنا سأتحدث مع الضابط منير. وأنا سأشرح لكم الوضع..."

توجه عديم الحيلة الرجل العجوز الذي كان ينظر إليّ بقلق نحو

الباب. وبينما كان الرجل يخرج من الباب سأل منير بصوت منخفض.

"ما مدى ثقتكم بهذا الرجل؟"

"في الحقيقة أنا لا أعرفه كثيرا، لم تسأل؟"

أخذ نفسا عميقا.

"يا سيدي الوضع الآن كالتالي. هناك تجارة بأعضاء المهاجرين السوريين. تقوم بها شبكة دولية تخدع هؤلاء الناس، وقد أقاموا لكل عضو سوقا خاصا به. هذا المشروع كبير جدا. فهي حادثة كبيرة جدا وإن كانت لا تظهر في الصحف بشكل واضح." أشار برأسه إلى الجسد المغطى.

"وأنتم أيضا سمعتم أن الطفل كانت لديه عملية."

"أي نعم، فقد كانت عملية نقل كلية..."

مر من شفتيه تعبير ساخر.

"وهل صدقتموه؟"

بدأت أنزعج من مثل هذه التأويلات.

"ولم لا أصدقه؟ لم سيكذب الرجل؟"

بدأ بالتحدث بهدوء.

"لم أقل إنه كاذب لكن باعتقادكم أليس هناك شيء غريب؟ فكروا معي، عملية نقل كلية لطفل سوري مهاجر. لا يقدمون المساعدة لمن هم أصحاء، أفتراهم يقدمونها لمن هم مرضى... لا يا سيدي، أنا أرى أنهم قاموا بسرقة كلية الطفل."

كانت كلماته سيئة إلى درجة تحدثت عندها بصوت مرتفع دون أن أشعر.

"حتى وإن كان ذلك فما علاقة هذا بمدني؟ لقد قال الرجل المسكين إن الطفل مر بعملية في الوقت الذي كان فيه بعيدا عنه."

رد بصوت منفعل: "انظروا سيدي، أنتم أردتم أن أهتم بهذه القضية. وأنا تركت الملفات التي كانت بيدي وبدأت العمل بهذه القضية. فإن كنتم لا تحتاجون إلى فكري اتركوني أذهب لأقم بأعمالي الأخرى."

كان محقا من الأرض إلى السماء.

"أعتذر يا منير. الطفل صغير جدا. وأنا لم أعتد على هذه المشارح بعد. لا تؤاخذني، وأنا أشكرك على اهتمامك بهذه القضية. نعم، أنا الآن أستمع إليك..."

بدا تعبير زاهد على وجهه المتعب.

"لا داعي للاعتذار سيدي لكنكم رأيتم. فالرجل تفحص جسد الطفل من كل مكان. لقد كان قلقا. لا بد أنه كان يشتبه بسرقة عضو من أعضاء جسد الطفل. وهو لهذا السبب نفسه يظن أن فخار تعرض للقتل. وهذا ما جعل ذهني مشوشا. ما زلت أعتقد أن الطفل مات غرقا لكن ربما أكون مخطئا، لهذا السبب لا بد من عملية التشريح."

بدأت بفهمه، لكن مدني رجل مسكين فقد مَثُل أمام عيني وجهه الذي كان يطلب المساعدة مني، فلم أصبر وسألت.

"هل تعتقد أن هذا الرجل هو من قام ببيع كلية طفل ابن أخيه؟"

"هذا ما لا أعرفه. لكن أنا متأكدٌ لو أنكم سمعتم ما مر به المهاجرون السوريون لبقيتم مثل أهل الأعراف تقفون ما بين الجنة والنار تماما مثلي. فالفقر يدفع الإنسان إلى الرذيلة بشتى أنواعها. دعك من ابن أخيه، فقد رأيت بعضهم وقد عرضوا أعضاء أبنائهم للبيع. لكن إن سألتم ما الفائدة إن عرفنا حقيقة هذا الأمر فهذا شيء آخر. لكن لا بد أن نقوم بتشريح الطفل كي نعرف على الأقل أسباب موته. والمدعي العام أيضا سيطلب ذلك."

21

"وماذا يقال لما يأتي من الله يا سيد نوزات؟"

في ذلك المساء كانت تنتظرني مفاجأة في حانة أفكانيا. دخلت من باب حانة تاتاولا وأنا في حالة قلق. لم يكن يقلقني كيف سأقول لها إن الطفل مات، فهي تعرف ذلك بالأصل حينما حدثتها بالهاتف. فعندما سمعت ذلك تحسرت قائلة: يا له من طفل مسكين! وبدأت بالبكاء بصمت وهي تنتحب. بقيت أنا واقفا متجمدا في الطرف الآخر من الهاتف، وبعدها تحدثت أفكانيا بصوت مبحوح. "في الغالب هناك شيء اسمه القدر السيّئ يا نوزات. في الغالب هناك أناس يولدون حقا بلا حظ..."

هذا كل ما قالته، وماذا كان بوسعها أن تقول؟! في الحقيقة لم أكن أفكر في الذهاب هذا المساء إلى تاتاولا. لكن صوت أفكانيا كان حزينا جدا إلى درجة لم يطاوعني عندها قلبي على تركها وحيدة. وحينما قررت الذهاب إلى منطقة قورتولوش حملت مدني في السيارة ودعوته للمجيء إلى الحانة لكنه لم يقبل.

قال بصوت هادئ: "يجب أن أخبر زوجتي بهذا الخبر السيّئ، فقد ماتت من شدة القلق. فلتعرف مصيره على الأقل... ستبكي وتنفجر ألما لكنها سترضى في النهاية..."

نظرت إلى الرجل العجوز بطرف عيني. لم يكن يبدو حزينا كثيرا،

على العكس تماما كان يبدو مطمئنا. لا أحب اتهام الناس، لكن رأيت أن ذاك الرجل المنهار الذي كان يطلب مني المساعدة في الأمس قد ارتحل، وحل بدلا منه رجل واجه الأحداث بكل ما أوتي من قوة. لقد قرأت أن الناس الذين مروا بكوارث كبيرة يعتادون على المصائب الكبيرة. ربما كان مدني يعيش الحالة نفسها. ففي الحرب الداخلية فقْد أقارب كثيرين حتى أصبحت هذه الوفيات غير المتوقعة عادية بالنسبة إليه. لكنه شعر أنني أدينه فقال: "وماذا يقال لما يأتي من الله يا سيد نوزات؟ فالخير والشر منه، ولا شك أن لكل شيء سببًا..."

الحمد لله أن هناك ربّا نلجأ إليه في كل زمان، وإلا كيف لنا أن نواجه هذه الحياة؟ ضغطت على دواسة البنزين دون أن أنبس بكلمة. لم أرغب في الحديث طول الطريق الذي كان طويلا بسبب أزمة المساء، كذلك الرجل العجوز لم يكن مختلفا عني. فقد بقي جالسا في مكانه حزينا إلى أن وصلنا مركز إسكان اللاجئين في فريكوي. لكنه سأل فقط وهو ينزل من السيارة: "متى سيسلموننا الجثة؟" لم أكن أعرف لكنني قلت: "لا تقلقوا، لن يطول الوقت كثيرا." هز رأسه بابتسامة حزينة.

"شكرا يا سيد نوزات." قالها وهو ينحني لتقبيل يدي من جديد.

خلّصت نفسي بصعوبة بالغة من هذا الاحترام المبالغ فيه. بعد ذلك أغلق مدني باب سيارتي المخضرمة بهدوء وتوجه إلى المخيم. بقيت في مكاني أشاهده من الخلف وهو يسحب قدميه اللتين تحملان جسمه الهزيل بصعوبة، متوجها إلى زوجته العجوز التي كانت تنتظره في إحدى غرف مخيم اللاجئين؛ تلك الغرف التي لا روح فيها. وأنا أيضا أدرت مقود السيارة نحو قورتولوش وسلكتُ الطريق المؤدي إلى حانة محبوبتي.

وحينما عبرت من ممر تاتاولا سمعت ضحكات منتشية. ومع أن

الزبائن لم يأتوا بعد إلا أن في المطبخ أصوات أشواك وملاعق، فضلا عن الضحكات التي كانت ترن مثل صوت الماء المنسكب من المشربة. من هؤلاء يا ترى؟ وحينما دخلت الحديقة التي جثمت فيها الحرارة بكل قواها، ورأيت من بين الأشجار تحت المصابيح الصفراء شخصين يتراكضان زال فضولي. فقد رأيت أولا أفكانيا ومن ثم رأيت تلك الطفلة السورية. وهي الطفلة عزز ابنة أخ السيد مدني. لم تنغمس عزز في اللعبة فقط وإنما أفكانيا أيضا انغمست فيها تماما، فقد كانت تختبئ خلف شجرة التين الوحيدة التي كانت في الحديقة وتنتظر أن تمسك عزز بها. حتى أنها لم تلاحظ اقترابي. فارتعشت حينما وضعت يدي على كتفها.

قالت بسرور: "ماذا، هل أمسكت بي؟" أدارت رأسها واندهشت حينما رأتني. "نوزات! أهذا أنت؟ متى جئت؟" تلعثمت. هي أيضا أساءت فهمي مثل مدني؛ ظننت أني سأدينها على حالتها هذه.

"أخذت عزز، لأنني لا أريدها أن تعرف بموت فخار. لم أستطع قول ذلك لزوجة مدني. فقد كذبت عليها..."

قلت وأنا أضع قبلة على خدها: "لقد فعلت خيرا، لقد فعلت خيرا عزيزتي أفكانيا."

لم تقاوم وألقت نفسها بين ذراعي، ووضعت رأسها على صدري وأوشكت على البكاء.

"لا تحزني أفكانيا، لا تحزني يا روحي! وإلا لن يكون هناك أي معنى من إحضارك عزز إلى هنا..."

أبعدت رأسها عن صدري وأسبلت عينيها الرقيقتين، وكانت على وشك أن تقول شيئا فجاءت إلينا عزز التي تشبه بلباسها الداكن وردة حمراء.

أمسكت بمحبوبتي قائلة: "أمسكت بك، أمسكت بك أفكانيا!"

نظرت أفكانيا إلى الطفلة نظرة إشفاق وأخذتها بين ذراعيها وبدأت بطبع قبلات على خديها بكل محبة.

"آه، حقا لقد أمسكت بي..."

تخلصت من حزنها لحظة. كان لا بد لي أن أفرح لكن كانت هناك مرارة في داخلي. وإن كنت لا أعرف ما أشعر به بشكل واضح إلا أنه لم يكن فرحا. هل كان إنكارا أم غيرة؟ أم عدم القبول بلعب شخص آخر مع المرأة التي أحبها؟ كان شعورا سيئا، وإن كان يتوجب الاعتراف به فسيكون له طعم سيئ وقذر. تخلصت الفتاة الصغيرة من أفكانيا ونظرت إليّ وهي لا تعلم بما يجري في عقلي.

"فزت أنا، فزت أنا..." قالت وهي تشير بأصابعها الصغار بالعدد ثلاثة.

"لقد فزت بهذا القدر."

جاءت إليّ وأنا على غير استعداد.

قلت لها: "ممتاز..." لكن لم يكن صوتي صادقا، وكانت كلمتي ذابلة جدا إلى درجة شعرت عندها أنه لا بد من التكرار. "ممتاز عزز، أحسنت..."

لم تدرك أفكانيا التي كان ذهنها معلقا بالطفلة الحالة التي كنت فيها. وتظاهرت كذبا أنها مستاءة.

"مع الأسف دائما تفوز عزز يا نوزات. لقد تحيرت ماذا سأفعل معها، أينما أختبئ تجدني..."

قالت الطفلة السورية مؤكدة: "أجدها، في كل مرة أجد أفكانيا. هيا نلعب مرة أخرى..."

تعبت محبوبتي.

"لنسترح قليلا حبيبتي عزز. كما أنني سأتكلم مع عمك نوزات." توقفت. "والآن هيا اذهبي إلى الداخل وأخبري العم إحسان بأن يحضّر

الطاولة. وقدمي له المساعدة إن أراد."

لم ترغب الطفلة أبدا بذلك، لكنها لم تعترض أيضا.

قالت وقد ارتسمت ابتسامة لطيفة على شفتها الصغيرة: "حسنا، حسنا سأذهب إلى العم إحسان." بقينا بعدها نشاهد عزز وهي تسحب رجليها متوجهة إلى الداخل.

"أنا سأهتم بعزز."

لم أفهم ما قالته.

"نعم؟"

"سآخذ عزز إلى جانبي يا نوزات."

لا، لم تكن تسأل، كانت واثقة من نفسها، فهي اتخذت قرارها.

"ماذا، ماذا ستفعلين؟"

لم تظهر أي تردد على الإطلاق.

"سأتبنى الطفلة. وستكون عزز ابنتي..."

لو أنها عرفت ما كان يجري في ذهني قبل قليل لتركتني فورا. ماذا سأقول لها الآن؟ حتى أنها لم تفسح لي مجالا للكلام فبادرت فورا بالحديث بكل حماس.

"أنت تعتقد أنني تسرعت لكنني لم أتسرع، فمنذ أن علمت بموت فخار وأنا أفكر في هذا." نظرت إليّ بعينيها الخضراوَين. "وربما كنت أفكر بهذا منذ البداية لكنني لم أكن أدرك ذلك. فقد أحببت عزز منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها. فقد امتدّ حبل ود بيننا..." بدأت تشعر بالانزعاج لوقوفي صامتا. "من فضلك لا تعترض نوزات، فلا رجعة عن هذا القرار، وسأتبنى هذه الطفلة بأي شكل من الأشكال."

ضحكت كذبا وقلت وأنا أتقمص دور الرجل المتفهّم وإن كنت لا أريد

ذلك: "ولمَ أعترض يا أفكانيا؟ أنا أقدّرك على هذا. لقد اتخذت القرار السليم. نعم، لا بد أن تتبني عزز. بذلك سنكون قد حمينا طفلا على الأقل..."

تبددت فورا غيوم القلق من وجه أفكانيا التي صدقت كلماتي. وارتمت بين أحضاني بكل سرور.

"آه يا نوزات آه، لهذا السبب أنا أحبك... لأنك صاحب أطيب قلب في هذه الدنيا."

في الحقيقة لم أكن صاحب أطيب قلب ولا غيره، وإنما كنت كذابا محترفا. كنت كذابا وجبانا إلى درجة لم أستطع معها أن أقول ما أحس به... لكنني حضنت أفكانيا بشدة، ليس لأني أريد إسنادها، وإنما لأنني كنت أريد منها أن تساعدني. لأنني كنت أريد منها أن تجعل مني إنسانا معقولا وتخلصني من هذا الشعور السيء.

قلت بصوت يطلب العفو: "الجميل هو أنت، وقلبك ووجهك أيضا."

تأثرت، لم تستطع أن تتمالك نفسها وبدأت بالبكاء من جديد.

"نحن سنحمي طفلا واحدا فقط، لكن ماذا سيحل بالأطفال الآخرين يا نوزات؟ كل يوم يموت أطفال سوريون. وربما يحل بهم كل يوم ما هو أعظم من الموت. فماذا سيكون بعد ذلك؟"

سيكون ما هو خير، وسيمضي هذا الشر، وسيتحول العالم إلى حديقة أخوية، وسنعيش جميعا في سعادة. هذا ما كنت أودّ قوله لكنني لم أعد أستطيع إطعام نفسي من الكذب أكثر من ذلك.

قلت: "سيكون مثلما كان في الماضي أيضا. لكنني أخاف أنه لن يكون خيرا. ففي الماضي كان العالم في وضع سيّئ، كان الناس في حالة مخزية. والآن كذلك وربما أسوأ. أنا لا أتحدث بتشاؤم، لكنني فقدت الثقة

بالمستقبل. لقد عشت خيبات أمل كثيرة إلى درجة لم أعد أرغب معها بالتفاؤل. حتى الذين نعتقد أنهم أنقى الناس وأبرأهم هم في ألف حساب. حسابات متسخة ودموية. ربما نصبح في المستقبل أقل تعاسة..."

تعتم وجهها المضاء.

"لم قلت هذا؟ أم أنك تعرف شيئا؟ أم أنهم سيرفضون إعطائنا عزز؟ هل سيسبب مدني لنا مشكلة؟"

ارتبطت بالطفلة ارتباطا وثيقا إلى درجة أصبحت تربط عندها كل ما أقوله. لمست كتفها.

"لا، لم أقصد ذلك..." وبينما كنت أقول ذلك تذكرت كلمات منير في المشرحة. "الفقر يدفع الناس إلى الرذيلة بشتى أنواعها. دعك من ابن أخيه، فقد رأيت بعضهم يعرض أعضاء أبنائهم للبيع." علما أن منير كان يقصد بهذه الكلمات بشكل مباشر مدني، لكن لا فائدة من الحديث بهذا مع أفكانيا.

"لا أظن أن مدني سيسبب أي مشكلة لنا، فهو أو زوجته على حافة الهاوية. وعلى العكس تماما، يجب أن يكونوا سعداء بتبنيك لعزز. لكن لا بد من إلقاء نظرة على القوانين."

لم يختف القلق من عينيها الخضراوين.

"القوانين ليست مهمة يا نوزات، فقبول الرجل كاف. لكن أخاف أن يقولوا: نحن فقدنا فخار ونريد أن نربي عزز بأيدينا."

هززت كتفي.

"لا أعتقد ذلك، فالرجل المسكين يواجه صعوبة في إملاء بطنه، فكيف له أن يربي عزز؟"

لم تسعدها كلماتي.

"لا أدري، ولكنهم يحبون عزز كثيرا، فربما لن يقبلوا بإعطائها..."

لم أرغب بحزنها من جديد.

"أنا سأتكلم مع مدني. فهو يبدو رجلا معقولا. وسأضمن لك ذلك..."

لم تقبل أفكانيا وقالت وهي تهز برأسها: "لا يا نوزات، حديثي معه سيكون أصح. ففي النهاية أنا من سيتبنى الطفلة."

وكأنها كانت تعرف ما أفكر فيه. هل عرفت ما كنت أحس به من تردد يا ترى؟ وحينما رأت وجهي متجهما لمست خدي.

"لا تسئ فهمي يا نوزات، فدائما سأبقى محتاجة لك، فمن الصعب أن أهتم بعزز من دونك لكن من الأفضل أن أتكلم أنا مع مدني."

ابتسمت بتفاؤل خشية أن ينعكس على وجهي ذلك المزاج المعقد، كان تفاؤلا كبيرا وكاذبا...

"حسنا إذن، تكلمي أنت مع مدني، لكننا سنهتم معا بعزز."

اطمأنّت أفكانيا، وحضنتني بسرور.

"بالطبع، سنرعاها معا." قطعت بضع خطوات ثم توقفت وسألت وكأنها تذكرت فجأة. "هل سيكون صعبا بالنسبة إليك؟" نصبت أنظارها في وجهي. "هل ستذكرك عزز بابنتك أيسون؟ هل ستشعر بالألم منها؟"

هذه المرأة بكل تأكيد تقرأ ما بداخلي لكنني أنكرت على الفور.

"أيعقل هذا الشيء؟ فأنا لم أنس أيسون أبدا حتى أتذكرها، فأنا دائما معها. وبالنسبة إلى الطفلة عزز فإنه يسعدني بقاؤها في حياتنا." أمسكت يدها وواصلت الكذب. "تربية الطفلة الصغيرة شعور رائع. سترين ذلك..."

قاطع كلماتي صوت عزز التي جاءت من الباب مسرعة.

"كل شيء جاهز، والعم إحسان يسأل على أي طاولة سنجلس؟"

في تلك اللحظة استيقظت في ذهني ذكرى أليمة. تماما مثل مساء هذا الصيف... لم يكن مشابها تماما لكنه كان يوما حارًّا في يونيو. لم تغرب الشمس بعد، وفي الراديو أغنية مرحة. وروائح شهية ترتفع من المطبخ. في بيتنا الموجود في منطقة بلات... كزيده أعدت الطعام، وابنتي تناديني من باب الغرفة وهي مسرورة: "هيا أبي هيا، الطعام جاهز."

تجمدت فجأة في حديقة تاتاولا، وبدا لي أن جسمي قد خرج عن السيطرة. في الحقيقة كنت أرغب في المشي مع أفكانيا ومسح شعر عزز والجلوس باطمئنان على تلك الطاولة المملوءة بالمقبلات لكنني لم أستطع فعل ذلك. ماذا كان هذا الشعور؟! كيف يمكن لهذا الإحساس أن يسيطر على جسمي وعقلي بهذا الشكل؟! والطرف الرهيب في هذه المسألة هو خوفي من أن تشعر أفكانيا بما أحس به. لكن ألم يكن ممكنا أن أشرح لها هذا؟ لا، كان يجب عليّ أن أستجمع قواي، وأن أتصرف كما يلزم. لكن مهما أفعل فإنه يذهب هراء، فجسمي لم يعد يستمع إليّ، وأحمد الله أن أفكانيا ابتعدت عني وبدأت بالمشي نحو عزز. لكن هذا لن يطول كثيرا، فبعد قليل ستلاحظ الغرابة عندي. وفي تلك اللحظة جاء المدد حينما اتصلت زينب بهاتفي.

"ألو، ألو زينب! نعم، تحدثي يا ابنتي، أنا أستمع إليك..."

قالت باضطراب: "لقد حدث أمر سيء يا سيدي، علي في مصيبة..."

والآن سأنشغل بهذا المشاكس وكأنه لم يكن لدي عمل غيره.

قلت بغضب: "ماذا عمل مجددا؟"

ابتلعت زينب ريقها.

"عثروا عليه عند جسد السيد حجابي إنجه، وفي يده سلاح الجريمة..."

بدأ صوتها يرتجف.

"ماذا، ماذا تقولين يا ابنتي؟ هل مات حجابي؟"

أخذت نفسا عميقا في الطرف الآخر من الهاتف.

"مات. طعن هذا المساء في منزله. وقد قبض الفريق الذي كان متوجها إلى موقع الحادثة على علي في شقة الضحية. يا سيدي، من الجيد أن تأتوا بسرعة..."

22

"ربما كان يتوجب عليكم أن لا تدافعوا عني."

حينما دخلت من الباب ارتطمت بأنفي تلك الرائحة الثقيلة. كان ذلك الجو الخانق في الصالون الصغير بكل ما فيه مخلوطا برائحة الدم المسفوح. ناهيك عن الجو الحار الذي لا يطاق أبدا، والدماء التي راحت تجف. تفحصت بأنظاري الصالون المضاء بالثريا. كان القتيل هناك، أمام الجدار خلف الشريط الأحمر. عينا حجابي المتجمّدتان عالقتين في صور أطفال السكن الذين قال عنهم حينما جئنا إلى البيت أوّل مرّة: "هؤلاء أطفالي." الجزء العلوي من جسده مُغطّى ببقع حمراء داكنة؛ وقميصه ذو الأكمام القصيرة الذي كان من المستحيل التنبؤ بلونه مليئا بثقوب الطعنات. لا بد أنها جريمة غضب. فالقاتل أو القتلة لم يكتفوا بقتل حجابي فحسب، وإنما أيضا أرادوا تمزيق جسده.

"مساء الخير يا سيدي."

حينما أدرت رأسي ضربت أنفي رائحة تبغ غامضة. كان ضابط الأمن إرجو يقف أمامي. واسمه الآخر ابن الحرام إرجو. عمل كل شيء في حياته كي يرتفع. في الحقيقة كان شرطيا ناجحا، لكنه كان بلا ضمير، بلا ضمير أبدا. فقد كان شرطيا يتقن التملق بأشكاله بغية الوصول إلى هدفه، وفي الوقت نفسه يؤذي من هم تحت سُلطته من الشرطة... لقد سحق ضابطين لأنهما كانا سببًا في عرقلة مسيرته. لم أكن أحبه بتاتا،

هو أيضا لم يكن يحبني. لا أنا ولا أيّ أحد من فريقي... وقد كان عدوّ علي بشكل خاص. فقبل ستة شهور تقريبا عثر على جسدين في منطقة سعادية. الأول لابن رجل أعمال مشهور، والآخر لحبيبته؛ إذ قُتل كل منها بطلقة واحده في رأسه ووُضع في سيارة فراري. كان فريقنا هو المعني بهذه الجريمة، لكن إرجو الذي رأى أنه سيكتسب شهرة فوق شهرته في حال العثور على القاتل أراد التدخل من أجل التحقيق في هذه القضية. لم يسمح علي الذي أدرك الأمر له بالتدخل بتاتا. وبدا بينهما النزاع والشقاق إلى درجة قام عندها هذا الشرطي الوسخ الذي كان يثق بعلاقاته الجيدة مع من هم أعلى منه رُتبة بإشهار السلاح في وجه مساعدي. لكن رفيقنا لم يخف أبدا، فقد نزع السلاح من يده أمام أعين رفاقه. وبالطبع لم يُعِد له السلاح وأحضره إليّ. لم أنس ذلك اليوم قط. قال حينها علي: "لقّنت ابن الحرام درسا." غضبت وقتها من علي على قوله البذيء. أبرز حينها المشاكس أنيابه قائلا: "أنا لا أقول الكلام البذيء، وإنما أقول الحقيقة يا سيدي." وها قد وقع علي اليوم فريسة في شباك الشرطي المخادع الذي يقف أمامي بكل سرور. كان يبتسم مظهرا أسنانه الصغيرة التي اصفرت من التدخين.

"جئتم في الوقت المناسب." أشار برأسه الكبير إلى الطرف الأيمن من الصالون. "لقد ملّ رفاقكم من الانتظار."

وحينما نظرت إلى ذلك الاتجاه رأيت عليا وهو جاثم على أريكة ذات لون أخضر، ورأيت زينب جالسة إلى جانبه، لكنني تصرفت متظاهرا بعدم الاهتمام.

"مساء الخير أيها الضابط،" قلتها بصوت سلطوي. "خير، ماذا تفعلون هنا؟"

ارتبك، لكن ارتباكه لم يدم طويلا وتمالك نفسه فورا.

"وماذا سنفعل يا سيدي؟ أما ترون كيف مزقوا الرجل تمزيقا؟ أخبر الجيران أن هناك لصّا، تأخر الرد من اللاسلكي فقمنا نحن بالواجب."

بدا على شفتيه تعبير له مغزى. "انظروا، لقد وجدنا مساعدكم عند رأس الضحية. وعلاوة على ذلك في يده سلاح الجريمة..."

لم أظهر أي ارتباك بتاتا.

"ومن ستجد غيره ونحن في الأصل من يحقق في هذه القضية..."

ارتفع حاجباه الرّقيقان.

"أي قضية؟"

كان صوته مرتفعا قليلا، ونَفَسه القبيح يرتطم في وجهي.

"ابتعد قليلا إرجو،" ودفعته من صدره بإصبع السبابة. "ستدخل في فمي."

أصبح وجهه القبيح محمرًّا، وواصلت هجومي دون أي تردد.

"يا رجل، ما زلت منتصبا أمام أنفي! لا تتنفّس في وجهي على الأقل." وتوجهت نحو مساعدي دون أن أنتظر رده. نهض علي عن الأريكة حينما رأى قدومي، كان ينتظر ووجهه في الأرض ويداه أمامه مثل الطفل المذنب. لا بد أنه هذه المرّة وقع في مصيبة كبيرة، لا بد أنه ضرب الصخر بالعصا. لم أستطع أن أقول له كيف وقعت في المصيبة يا ولدي، ففي البداية كان لا بد أن أنقذه من هذا الضابط اللئيم. لكن هذا الضابط اللئيم لم يسمح بذهابي.

"دقيقة، دقيقة..."

نظرت إليه وغمغمت مُظهرا دهشتي.

"ماذا، ماذا هناك مجددا؟"

كان إلى جانب الضابط ثلاثة أشخاص بزي الشرطة يشاهدون بقلق هذا الكلام المتوتر بيننا.

"يبدو أنكم لم تفهموا يا سيدي،" كان صوته أجرأ قليلا، وبدا أنه يتحدى. "وجدنا رفيقكم علي بجانب الجثة، وفي يديه سكينة عليها دم..."

قاطعته قائلا: "في الأصل أنت لا تفهم، فالمقتول واحد من شهود القضية التي نحقق فيها. وجاء علي إلى هنا من أجل التحقيق معه..."

نظر إليّ ثم نظر إلى مساعدي.

"لكن الضابط علي لم يقل ذلك، فهو صامت لا يتفوه بشيء منذ قدومنا مثل بلبل غصّ بحبة توت."

كان محقًّا فيما يقول، ولو كان غير ذلك لأفحم علي هذا الغراب اللئيم من أول وهلة. ففعلت هذا بدلا منه.

"هل أنت طفل يا إرجو؟ لم علينا أن نشرح لك قضيتنا؟"

كان تصرفي الثابت يشوش ذهنه، لكنه لم ينزل أشرعته بسهولة.

"حسنا، لكننا أوشكنا أن نعتقل الضابط علي."

أظهرت على وجهي غضبا زائفا.

"ليس لك صلاحية للقيام بذلك."

تراجع هذه المرة خطوة واحدة من تلقاء نفسه.

"لكن، لكن يا سيدي..."

"ماذا؟ ألا تفهم يا أخي؟ فمثلما أنت على رأس عملك فإن علي كذلك. كيف يمكن لك أن تعتقل شرطيا على رأس عمله؟"

كانت كلماتي قوية، فتبدّدت غيوم ثقته بنفسه، لكنه ما زال يحاول أن يجعل ذيله منتصبا.

"أنتم لو كنتم مكاني لفعلتم الأمر نفسه يا سيدي. ومن أين لنا أن نعرف أن عليا يحقق في هذه القضية؟ تلقّينا اتّصالًا وتحركنا على إثره، فوجدناه عند رأس القتيل. نحن أظهرنا أدبنا معه بصفته زميلنا وسألناه سؤال إنسان، لكنه لم يتنازل أبدا ليجيبنا..."

كان يقول الحقّ، ولو كان في وقت آخر لأيّدته دون تردد، لكنني لم أرغب بتسليمه عليا دون أن أعرف الخيوط الأساسية لهذه القضية.

"حسنا،" قلتها وأنا أزيد من كمية غضبي الزائفة. "أنتم الآن موجودون في مكان مسؤوليته تقع على عاتق علي، ثم تأتون لتحاسبوه على ذلك!" كان يستعدّ لأن يرد بجواب فتابعت قائلا: "كفى يا إرجو، اذهبوا من هنا، وأنا الآن أتحمل المسؤولية." أشرت بيدي إلى الشرطة الآخرين. "وجود الرجال بهذا العدد هنا يضرّ التحقيق." ثم نظرت إلى زينب: "أين فريق معاينة الجريمة؟"

قالت: "في الطريق يا سيدي،" بدا أنها شعرت بالاطمئنان. "تحدثت مع شفيق قبل قليل، إنهم في الطريق."

"هل تفحصت القتيل؟ هل رأيت أي شيء؟"

أخذَت نفسا بألم.

"من المحتمل أن هناك قِطَعًا جِلديّة في أظافر يده اليمنى، وأقول من المحتمل لأن يدَي المقتول اختلطت بالدماء. يجب فحصها في المختبر. إن وجدنا قطعًا جِلديّة أخرى فإن هذا يعني أن القتيل قد قاوم القاتل أو القتلة. في الحقيقة لم أستطع فحص الجثة كما ينبغي لأن الضابط إرجو منعني من ذلك."

"كيف؟" قلتها وأنا أنظر بغضب نحو إرجو. "بأي صفة تمنع ضابطةً عن عملها؟"

ابتلع الشرطي الخبير ريقه.

"أعتذر يا سيدي لكن الضابط علي مشتبه به..."

"أما زلت تقول مشتبهًا به؟! يا أخي كفى، اذهب من مكاني. ماذا تفعلون في مكان لا يعنيكم؟ هيا، هيا يا إرجو، غادروا المكان..."

كان إرجو يحسّ بوجود شيء ما، لذلك لم يستطع أن يقنع نفسه بمغادرة مكان الجريمة.

قال: "سأشرح هذه الحادثة لسادتي..."

قلت: "افعل ذلك بسرعة، وإن أردت قم بإعداد تقرير لكي أوقع عليه..."

كانت خدعتي في مكانها.

"أستغفر الله يا سيدي، لا حاجة لمثل هذه الأمور، كل ما في الأمر أننا نريد القيام بواجبنا..."

لم أسمح له بإكمال كلامه مرة أخرى.

"ما زلت تطيل يا إرجو، إن كان هناك أمر تتوجس منه فاكتب تقريرا عنه بأسرع وقت، وإن كنت عاجزا عن ذلك فأخبر من تريد شفهيا، وليأتي إليّ بعدها من يريد التحدث معي. لكن الآن كفى، خذ رجالك من هنا وانصرفوا، فلدينا الكثير من العمل..."

"حسنا سيدي، حسنا." واستسلم أخيرا، لكن ليس قبل أن يلدغ. "ما دام أنكم أنتم من ينظر في هذه القضية فإذن أنتم من سيجد القاتل."

"لا تقلق يا إرجو، لا تقلق يا أخي، هذا ما سنفعله نحن، حسنا، والآن أتمنى لك يوم عمل جيدّ..."

وعندما أخذ الضابط الشاب إلى جانبه رجالَه وغادر مكان الجريمة، نظرتُ إلى علي وسألت.

"نعم، تحدث يا ولد، ما الذي حدث هنا؟"

تهرب بعينيه المتعبتين.

"حينما جئت كان حجابي ميتا،" قالها بصوت آلي. "لم يكن أحد في الداخل..."

سكت، وبدا عليه التعب من جديد.

"ما هذا، أهذا كل ما في الأمر فقط؟!"

بدت على وجهه علامات الخجل.

"أعتذر على ما سببته لكم يا سيدي." لم يكن صوته مطمئنا أبدا. "لكن ربما كان يتوجب عليكم أن لا تدافعوا عني."

ما الذي يقوله هذا الولد؟

"لماذا؟ لماذا يتوجب علي أن لا أدافع عنك؟ ألم تأت إلى هنا من أجل الحديث مع حجابي؟"

تهرّب بنظراته مرة أخرى، أردت أن أطرد من عقلي جميع الاحتمالات السيئة، ربما لكونها احتمالات، وربما لكونه مساعدي، فنظرت إلى زينب. لكنها هي أيضا لم تكن تختلف عني. فقد كانت تنظر إليه بشكوك عميقة.

"علي، أنا أسألك، لمَ أتيت إلى هنا؟"

كنت آمل منه أن يقنعني ولو كذبا، وأن يُبعدني عن ذلك الاحتمال الرهيب الذي بدأ يلمع في ذهني، لكنه لم يفعل ذلك.

بل العكس حدث، فحينما قال: "ربما يجب أن تقيلوني من وظيفتي،" زاد من قلقي. "وإلا فإنكم أنتم أيضا ستقعون في مصيبة."

فاض صبر زينب.

"ما الذي تقوله يا علي! كفى، لمَ تتحدث بالألغاز؟ أنت كنت ذاهبا إلى المنزل، فما الذي جرى؟ لم أتيت إلى هنا؟"

تأفّف علي منزعجا.

"لا تزعجيني يا زينب، فكل ما قلته هو..."

ثم بعد هذا يوبخ زينب!

"يا علي، ما معنى لا تزعجيني يا زينب؟" قلتها مقاطعا كلامه. "فنحن قلقون عليك، وماذا سيكون منا غير ذلك؟ فأنت مُلزَم بأن توضح لنا. ماذا كنت تفعل في منزل حجابي؟ فليس هناك من أمر يلزم مجيئك إلى هنا. طلبتُ منك أن تنظر في ملفات الضحايا." في تلك اللحظة تذكّرت. "نعم صحيح، كنتَ أيضا ستتواصل مع صديقك المختصّ بالأطفال. بخصوص سيبسي إسماعيل..." نظرت إلى وجهه بقلق. "أم أن ذلك الصديق أعطاك معلومة مهمة عن مدير السكن يا ترى؟"

بدا أنه تزعزع لكنه لم ينبس بكلمة واحدة، وبكل تأكيد لم أتركه وشأنه.

"أم هل كنت تعرف الضحية من قبل؟"

كان عنيدا في صمته، ولم تحتمل زينب ذلك مرة أخرى.

"لماذا أنت ساكت يا علي؟ لم لا تتحدث؟"

صاح مساعدي: "كفى، كفى، اتركوني وشأني"

رفع قبضة يده اليمنى في الهواء.

"ما الذي تفعله يا علي؟" قلتها متدخلا بينهما. التقت عيناي بعينيه، كان مثل المجنون. وكانت قبضة يده ما زالت في الهواء، وخفت أن ينزلها في وجهي لكنه لم يفعل ذلك، أخذ نفسا عميقا وتوجه نحو الباب.

صاحت زينب من خلفه: "علي! توقف يا علي!"

لم يستمع إلينا وخرج من الباب دون أن يكترث بنا. وبقينا نحن مندهشين في مكاننا.

قالت زينب: "أيمكن أن يكون فعلها علي يا سيدي؟"

"ما الذي تقصدينه يا زينب؟"

غطى وجهها قلق عميق، واتجهت أنظارها الرقيقة نحو الجسد الملقى أمام الحائط.

"ما ترونه يا سيدي."

مَثُلَ وجه علي المليء بالغضب، وعيناه المجنونتان في ذهني لحظة، فطردتُ هذا المشهد على الفور، وعُدت إلى زينب. دافعت عن مساعدي بحزم، ليس لأنني كنت متأكدا، وإنما لأنني كنت محتاجا للتأكد.

"لا، من المستحيل أن يفعل علي هذا."

23

"أنا أضعف من الجميع لأني جُرحت أكثر من الجميع."

حينما جئت إلى المنزل لم أجد في نفسي طاقة حتى للاستحمام. كان يوما مخيفا، بدأ بجريمة، وانتهى بجريمة. كنت مُنهارًا جسدا وروحا. وما أن دخلت الغرفة حتى ألقيت نفسي على السرير فورا. لا بد أنني نمت، ولا أدري كم نمت، فربما بضع ساعات، وربما لحظة واحدة فقط، ثم استيقظت على كلمات زينب.

"أيمكن أن يكون فعلها علي يا سيّدي؟"

كان الصوت قريبا جدا إلى درجة اعتقدت معها أن زينب تقف عند رأسي. نظرت إلى ما حولي مذهولا، وبالطبع لم يكن في الغرفة لا زينب ولا صوتها. لكن ذلك السؤال كان مثل ورم خبيث يواصل قضم دماغي.

نهضت عن السرير قلقا. وبينما اعتادت عيناي على الضوء الخافت طنّ في أذني السؤال نفسه من جديد: "أيمكن أن يكون فعلها علي يا سيدي؟"

هل يمكن أن يكون مساعدي هو القاتل الذي طعن السيد حجابي أمير إنجه عدة طعنات ومزق جسده؟ تبدّا أمام عيني وجه علي المتعب، ورأسه المنحني بخجل، ثم مغادرته كالمجنون. لماذا لم يتحدث إلينا بكل ما جرى؟ لماذا لم يقل: أنا لم أفعلها. بل قال فقط: "حينما جئت كان حجابي ميتًا،" حتى أنه لم يدافع عن نفسه. قال: "يجب أن تُقيلوني من

الوظيفة." لكن هذا لم يكن من الأمور التي يفعلها علي. بل إن هناك أمرًا ما، أمرًا يستدعي الريبة. هل يمكن أن يكون قد قتل حجابي بالفعل؟ وفي النهاية، أصبحتُ أنا أيضا أفكر في هذا الاحتمال الذي قضم دماغي منذ لحظة دخولي مكان الجريمة. حسنا، لكن لمَ يفعلها علي؟ وما إن سألت السؤال حتى بدأت الأجوبة تتدفق في ذهني. لأنه كان يعرف مدير السكن. أو لأن علي ذهب للحديث بشأن عاكف صويقان، فكان حجابي سيئا في تصرفاته، فقام علي بـ... لا، صحيح أن عليًّا مليء بالجنون لكنه لم يكن ليصل إلى هذه المرحلة. لم يكن في إمكانه أن يفعل ذلك، ربما يقوم بتكسير فمه وجدع أنفه لكنه لا يقتل، وخاصة أن مدير السكن لم يكن من الرجال الذين يمكن لهم أن يواجهوا علي بأي شكل. مثلما كان ظُهر هذا اليوم حينما كان هاربا من أحد رجال سيبسي. حقًّا، لماذا لم يعرف علي السيّدَ حجابي أمام الجامع؟ لأنه انشغل بالمشاكسَين اللذين كانا في الخلف. لم يره بالشكل الصحيح. وحينما اشتعل الصراع بينهم اختفى مدير السكن. وربما هرب لأنه كان يعرف عليًّا. علاوة على هذه المعرفة فربما كانت بينهما علاقات... علاقات... هل يمكن أن يكون حجابي مديرا للسّكن الذي نشأ فيه علي؟ ألم يسأل علي من قبل ما إذا كان في وجه الرجل أثر جرح؟ ماذا يعني ذلك؟ هل يمكن أن يكون هذا المنحرف المسمّى حجابي قد فعلها بعلي أيضا؟ لا، لا، فالتفكير في هذا وحده يثير الاشمئزاز. لكن كيف لنا أن نصل إلى الحقيقة دون التفكير في كلّ هذه الاحتمالات؟ حتى زينب كانت تسأل دون أي تردّد.

"أيمكن أن يكون فعلها علي يا سيدي؟"

كيف لي أن أعرف ذلك؟ فالعالم أصبح مكانا سيئا، والناس أصبحوا بلا شفقة إلى درجة أن عليا أيضا وجد الحل في القتل. وربما لو كنت

مكانه... ربما أيضا... لا، لا ليس في إمكاني أن أقتل، علي أيضا لم يقتل. نعم، فربما عنده سبب جعله يتصرّف بهذه الطريقة الغريبة. حسنا، لكن لماذا لم يتحدث إلينا؟ لكنه سيتحدث إلينا اليوم أو في الغد، فلن يطول الوقت كثيرا قبل أن يُفرغ ما في داخله. إنه رفيقي علي، ولا يستطيع أن يخفي ما في داخله. إن لم يتحدث إليّ سيتحدث إلى زينب. لا بدّ أن هناك سببا. نعم، ستحل خيوط هذه المسألة في النهاية. وبالطبع ليت هذه الحرارة ما كانت...

قمت منزعجا من سريري. مددت يدي إلى الضوء، ثم تركتها في اللحظة الأخيرة، فالدنيا حتى في الظلام قبيحة إلى ما لا نهاية. جئت أمام النافذة ومددت رأسي عبرها كأنّ في الخارج نسيمًا عليلًا، كأنّ تلك الريح ستسحب معها الرذائل بأكملها. بدا الحيّ حزينا تحت ضوء المصباح الخافت. لكن لم يكن في الزقاق لا ريح ولا نسيم. ليلة رطوبتها عالية ولا نجوم فيها. وهذا الزقاق القديم الذي اصطفت فيه المنازل المنحنية منذ زمن، هذا الحي المقدس الذي ما زال منذ آلاف السنين، هذه المدينة القديمة التي تعج بالحركة، جميعها تجثم تحت صمت غريب. حتى القوارب التي كانت تعبر الخليج لم تكن تُصدر أصواتًا. جميع الأضواء في منازل الحي مطفأة. هل كان الناس نيامًا حقّا؟ ربما كانوا يتقلبون على سرائرهم الرطبة. بدا لي أني سمعت صوت بكاء طفلة، كان صوت بكاء متقطع... أنصتّ لكنني كنت مخطئا، فليس في هذا الحي الكبير أي صوت، رجعت للوراء بهدوء، وجلست على الأريكة أمام النافذة.

هناك تشاؤم يتصاعد داخلي، كان جاثما بكامل ثقله على قلبي. ماذا، هل كنت سأصاب بنوبة قلبية؟ لا، وإنما كنت أدرك الحياة مرّة أخرى، هذا كل ما في الأمر. في الماضي أيضا لم أكن رجلا متفائلا إلى حد كبير،

لكنني كنت على الأقل رجلا قادرا على التحدي. لم يكن لدي ما أؤمن به لكني كنت عنيدا. لم أقدم على الموت لكنني كنت أحاول أن أقوم بأشياء مفيدة ولها مغزى. في الغالب بدأت أفقد هذا الإحساس. بدأ التفاؤل الذي كان داخلي يموت ببطء. والأسوأ من هذا كله أني بدأت أفقد الناس الذين كانوا يمنحوني قدرة البقاء على الوقوف أمام الحياة ومقاومتها. أوّلا أفكانيا، ثم علي...

بدأت أسمع صوت بكاء تلك الطفلة من جديد. أنصتّ من جديد، لم يكن هناك صوت بكاء أو غيره في الزقاق. لكن هناك طفلة في قلب أفكانيا. إنها عزز السورية ذات الشعر المتطاير. ربما ستكون البنت التي تنزع مني محبوبتي إلى الأبد. لكن لماذا ستنزعها مني؟ لأنها ستدرك قريبا أني رجل أناني. لأنها سوف تلاحظ أني رجل حقير أحاول منع حماية حياة طفلة صغيرة متخذا من آلامي ذريعة لذلك... لا، لا، ليس بهذا القدر، إني أظلم نفسي بهذا الشكل. فأنا أتهم نفسي بظلم تماما مثلما فعلت مع علي. لكن لماذا تعكر مزاجي حينما قالت أفكانيا: "سأتبنى هذه الطفلة؟" لماذا بقيت مذهولا في مكاني؟ لماذا نظرت إلى تلك الطفلة الجميلة بكره؟ ليس بكره، وإنما تشوّش ذهني. في الحقيقة ذهني دائما مشوش. فهذا ما حدث حينما قبلت بأفكانيا بعد موت كزيده. لقد عانت المرأة المسكينة كثيرا من حساسيتي الغبية... لم يكن غباء، فكل ما بدر مني كان صحيحا، إذ أنه ليس من السهل أن تضع إنسانا مكان آخر. فحينما تفقد أشخاصا طالما كنت تحبهم فإنك لن تستطيع أن تحضن غيرهم دون أن تقيم حدادا كافيا عليهم، وإلا فإن هذا يعد أعظم إهانة على الإطلاق في حقّك وحق من فقدتهم. لم يكن في إمكاني فعل هذا، حتى وإن قَبِل عقلي فإن قلبي لم يطق ذلك بتاتا. وهذا ما حدث اليوم في تاتاولا، إذ لم أشعر تجاه الطفلة

بأي كره أبدا، ولم أشعر بالغضب، وإنما فقط أنكرت وضعها مكان أيسون. فاستبدالها بابنتي شتّت فكري. الأصل أن لا يكون هذا، لكنني لم أستطع تمالك نفسي. أحسست أنني أنا من سيقتل ابنتي هذه المرّة. كان هراء، لكن هذا ما أحسست به. إن ما قامت به أفكانيا صحيح، لكن ليتها تحدثت بهذا معي مسبقا. ليتها أعربت لي عن فكرتها منذ البداية، ليتها هيأتني من قبل لذلك. أعتقد أنها تظن أني إنسان طيب، وقوي، وناضج أكثر مما أنا عليه. لكنني لست كذلك، فأنا أضعف من الجميع لأني جُرحت أكثر من الجميع. لكن مهما كان الأمر، فلا بد أن أتخلّص من هذا الشعور. لم يكن في وسعي أن أترك أفكانيا وحدها... لا أفكانيا ولا عزز تلك الطفلة السورية الجميلة.

سمعت صوت بكاء الطفلة من جديد. لا بد أن ذهني يتلاعب بي. لا، هناك طفلة تبكي فعلا. ما سمعته في البداية كان صحيحا، هناك صوت طفلة تبكي. الآن أسمع الصوت بشكل واضح، كان الصوت يأتي من الجيران المجاورين.

كانت الطفلة تقول: "أمي، أنا خائفة يا أمي..." لا بد أنها ابنة السائق تحسين. اسمها نرجس، كانت آيةً في الجمال؛ عيناها كبيرتان زرقاوان، وشعرها أشقر ملتو. بدأت بالكلام قبل ثلاثة أشهر تقريبًا. كانت تقول كلّ ما تحسّ به بطلاقة وإن كانت لا تتلفظ بعض الكلمات بشكل تام. الله أعلم ما سبب خوفها في منتصف الليل. نعم، ها قد سمعت صوت أمها.

قالت: "حسنا حبيبتي حسنا، لقد جئت، لا شيء هنا مخيف."

في الحقيقة هناك أمور كثيرة مُخيفة. لكن إن كانت بجانب أمها... أدركتُ حينها كيف أوشكت على الإساءة بحق عزز. لا، فنحن سنتبنى تلك الطفلة، وسنجعلها تدوس بساطنا، وسنربيها بداخلنا بكل حب رغما

عن تلك الأحاسيس الخاطئة. نعم، لا احتمال لغير ذلك. فسنكون قد أنقذنا شخصا على الأقل. حينما بدأت أفكر بهذا ووصلت إلى هذا القرار بدأت أشعر بالهدوء أكثر. في تلك اللحظة رنّ هاتفي. ظهر على الشاشة اسم زينب. أجبت على عجل.

"لقد أزعجتكم سيدي لكن أعتقد أننا وجدنا المتهمين."

مدّت حبل الكلمات بانفعال... يا ترى هل تتحدّث عن القط الأعمى أم عن أشخاص آخرين؟

"أيّ متهمين يا زينب، من تقصدين بذلك؟"

"قتلة حجايي إنجة يا سيدي."

هل كانت تتحدث هذه الفتاة وهي نائمة؟!

"أين أنت عزيزتي زينب؟"

أجابت دون تردد.

"في المركز يا سيدي، فقد حصلت على سجلات كاميرا المراقبة، هناك متّهمان."

خجلت، فبينما كنت ألقي بنفسي خلف الجدران الآمنة في منزلي، كانت زينب طوال الليل تجول كاميرات الشوارع بحثا عن المتهمين. لا بد أنها توصلت إلى مقاطع فيديو مُهمّة. لا أدري كم كانت الساعة لكن كان الوقت صباحًا ومع ذلك فقد بدا صوتها حادًّا.

"لقد فرحت بهذا الخبر عزيزتي زينب" قلتها متسلّلًا من التعب. "سآتي فورًا..."

24

"أنت تبكين عبثا، فهو لا يرتكب مثل هذه الأمور."

بمجرد أن رأيت مقطع الفيديو تفحصت الرجلين؛ التقطتهما كاميرا المراقبة في الزقاق أثناء دخولهما حديقة العمارة التي كان يقطن فيها حجابي إنجه. في الحقيقة كانت المقاطع غير واضحة، لكن عرفت من خلال البذلات السوداء التي كانا يرتديانها أنهما سركان ورفيقه الوغد الذي كان برفقته. هذان الحقيران اللذان دخلا من باب الحديقة بخطوات ثابتة هما الشخصان نفسَهما اللذين تلقيا في الأمس ضربة من علي.

"رجال سيبسي،" غمغمت وأنا أشير إلى رجلين في الشاشة. "هذا الذي في الأمام عرده، وفي الخلف سركان..."

تبددت غيوم القلق من وجه زينب.

"نعم سيدي، عرده قرقينتي وسركان أصماز... في ملفّهما سوابق كثيرة. جرائم قتل، واغتصاب، ورهن أشخاص من خلال اشتباكات مسلحة وكل ما يخطر إلى ذهنكم. نعم، كلاهما مقرّب من سيبسي إسماعيل. واحتمال كبير أن هذين الشخصين ارتكبا الجريمة."

كنت موافقا لها، لكن هذا مستحيل إذا لم تتحقّق رؤية الصورة كاملة. لا بد أن نكون متأكدين من القاتل الحقيقي، فاتهام الرجلين بالقتل ونحن نقول: "احتمال كبير" دون أن نتأكد قد يوقعنا في مصائب. في الحقيقة كانت زينب تفكر كذلك، وكانت تتصرف على هذه الشاكلة،

لكن حينما كان الموضوع يتعلق بحبيبها علي فإن العاطفة غلبت على عقلها. ومع ذلك فقد حرصت على عدم كسر خاطرها.

"احتمال كبير" قلتها مؤكّدًا. "لو تركناهما لقتلا الرجل أمام الجامع في الأمس، لكن..."

ارتعشت زينب وكأنما أصابت بيدها النار حينما قلت "لكن"، فهي تُخرج معنىً من كل كلمة. لكنني كنت حذرا وانتقلت للسؤال الذي كان يدور في ذهني.

"متى يخرج هذان الرجلان إلى الخارج؟"

كان ذهنها مشوشا إلى درجة لم تستطع عندها أن تدرك فورا ما قلته.

"نعم سيدي؟"

أشرت إلى الشاشة.

"رأينا دخول المتهمين إلى الداخل، متى سيخرجان؟"

عادت إلى الحاسوب وهي في حالة متوترة.

"نعم، حسنا، فهمت."

حرّكت فأرة الحاسوب فانطلق الفيديو، تطايرت على الشاشة ألوان بلا شكل.

"نعم، ها هما هنا، بعد سبعة وثلاثين دقيقة التقطتهما الكاميرا من جديد."

كان المشهد واضحا، فقد ظهر سركان وعرده من جديد على الشاشة. في هذه المرّة بدا سركان في المقدمة لكنهما لم يبدوا في عجلة. لم يكونا منفعلين أو قلقين. لم يكن يبدو أبدا أنهما قتلا شخصا قبل لحظات.

قلت دون أن أدري: "يا لهما من شخصين ساكنين! كأنهما عادا من زيارة قريب لهما..."

تعتم وجه زينب أكثر، وأساءت فهمي من جديد، فبدأت تحاول تغيير نيتي.

"الرجلان مريضان نفسيا يا سيدي، الله أعلم بعدد الجنايات التي ارتكباها. ليتكم ترون ملفّيْهما... كلاهما آلة قتل. إنهما معتادان على هذه الأمور. أليست سبعة وثلاثون دقيقة كافية لأن يقوما بطعن الرجل وقتله؟ حتى أنهما قد يكونا جلسا عند رأس القتيل ودخنا سجائرهما بكل أريحية."

بينما كانت زينب تتحدث أدركتُ حينها أن عليًّا شخص محظوظ. فما أقوى حبّ هذه الفتاة لهذا الولد المجنون! لا بد أن حب المرأة للرجل بهذه الشاكلة يعدّ كنزا له. وأنا أيضا كنت أعرف هذا الشعور. فالمرحومة كزيده وأفكانيا أذاقتاني طعمه.

"أليس كذلك يا سيدي؟" قالتها زينب مُشتّتةً أفكاري. "هل يشبه هذان الحقيران الناس الذين يتركون خلفهم أثارا تدل عليهم بعد جريمة القتل؟"

"لا يشبهان،" قلتها كي لا تقلق أكثر مما هي عليه. "أنت محققة، فقتل الإنسان بالنسبة إليهما حركة طفل يلعب. وخاصة إذا كان وحيدا مثل حجابي. لكن هناك موضوع آخر يثير فضولي. متى يظهر علي في الكاميرا؟"

لم تكن تنتظر مثل هذا السؤال.

"كيف يا سيدي؟"

وضعت يدي على كتفها بيسر.

"قلت علي يا زينب، ظهر في الكاميرا، أليس كذلك؟"

تعتم وجهها بشكل مريب، لكنها لم تُطِل، وعادت إلى الحاسوب من جديد، وحرّكت الفأرة.

"بالطبع، يوجد بالطبع."

تدفقت المشاهد من جديد.

"دخل علي العمارة بعد المشتبه بهما بعشر دقائق."

انسكبت الكلمات من فمي تلقاء نفسها.

"عشر دقائق؟"

"نعم، قصيرة بهذا القدر. لو جاء في وقت أبكر قليلا لالتقى بهما. انظروا، إنه هنا."

بدأت بالنظر إلى علي الذي ظهر في الفيديو؛ كان سريعا في دخوله الحديقة، من الصعب رؤية عينيه لكنه كان حازما، وكان متوترا جدًّا. كنت أعرف حاله هذه، فهذا المشاكس كان دائما ينكمش على هذه الشاكلة قبل أيّ عِراك. فرقبته مسحوبة للوراء بشكل خفيف، وعيناه بارزتان للأمام، وقبضتا يديه مشدودتين... اختفى سريعا من الشاشة تماما كما دخل.

همست قائلا: "ثم ماذا؟ هل يخرج من المنزل؟"

تلعثمت زينب وكأنني سألت سؤالا عجيبا.

"لا، ولماذا يخرج؟"

ابتسمتُ متفهّمًا.

"لا أعرف يا زينب، أسأل كي أعرف. أفلا نسأل هذا السؤال لو كان شخصا آخر؟ فربما خرج، وعاد بعد ذلك من جديد. ألا يجب أن نعرف هذا كي نثبت براءة علي؟"

احمرّ وجهها، وعادت إلى الشاشة.

"فهمت يا سيدي، أنتم محقّون. لكن علي لم يخرج من المنزل. فبعد تسعة وعشرين دقيقة جاء الضابط إرجو ورجاله. انظروا، تلك المشاهد

أيضا موجودة..."

وبينما كانت تمد يدها نحو الفأرة مددت يدي إلى كتفها من جديد.

"لا داعي لذلك، فهذا لا شك فيه..."

هذه المرّة لم تُدِر رأسها، وإنما أدارت كرسيها الدوار.

"أين يكمن الشك؟"

بدت تعابير العتب تظهر في عينيها التي بدأ بياضهما يحمرّ أكثر، وكانت تنظر ولسان حالها يقول لماذا ما زلت تتّهم عليًّا؟ سحبت الكرسي الذي كان في الطرف الآخر من الطاولة، وجلست أمامها.

"وهل تظنين أني تخلّيت عن علي يا زينب؟"

سألتُ بنبرة رقيقة مثل أب رحيم.

"لا،" قالتها وهي تسبل عينيها. "لا، من المستحيل أن تتركنا."

كانت تحبّ صاحبنا المشاكس كثيرا، وربطَت قدَرها به ارتباطا وثيقا لا انفصال فيه.

لمستُ يديها، كانتا باردتين.

"لا يمكن أن أترككما يا ابنتي... لكن إن أردنا أن نُخلّص عليا فيجب علينا أن لا نترك في الخلف أي أثر للنقاش. لن يترك الضابط إرجو هذا الأمر. فالرجل لا يحبنا، وهو العدو اللدود لعلي. ففي المساء حينما انفصل عنّا قدّم تقريرا شفهيّا لأسياده الذين يشرب معهم نبيذا على طاولة واحدة. لهذا السبب يجب أن لا نعطيه أي فرصة، والأهم من ذلك أن نصل إلى حقيقة الأمر. وأنت تعرفين أن في هذه القضية بعض النقاط السوداء."

بدأت بالدفاع من جديد.

"أنتم تتساءلون عن سبب ذهاب علي لرؤية مدير السكن دون علمنا.

هذا الموضوع يدور في ذهني أنا أيضا. لكن ربما خطر إلى ذهنه رأيٌ جديد. فظن أن الكلام معنا سيكون مضيعة للوقت. فعلي كما تعرفونه عجول، دائما يتسرع في تصرفاته. فلا يمكن أن نتوقع ما يصدر عنه."

هززت رأسي بهدوء.

"نعم صحيح، فربما تكون الأمور جرت كما قلت تماما. وربما كان علي يعرف السيد حجابي من قبل. فمن المحتمل أنه حينما عرف بذلك ذهب من أجل الحديث مع مدير السكن. ولم يجد وقتا ليخبرنا بذلك. لكن حينما رأى جسده، لماذا لم يخبرنا؟ فهو لم يتصرف في أي قضية على هذه الشاكلة إلى هذا اليوم. فقد كان حين يصل مكان الحادثة يتصل بي قبل فعل أي شيء. لكنه لم يفعل هذا. على العكس، لقد جلس إلى جانب الجسد ما يقارب نصف ساعة، لماذا؟"

لم تجب زينب، هناك احتمالات كثيرة تجول في ذهنها لكنها لم تشأ أن تذكر إحداها. وفي الحقيقة أنا أيضا لم أكن أعرف بعد ما الذي سأقوله. لم يكن في الغرفة صوت غير صوت ضجيج المكيف الذي كان يحاول أن يقضي على الحرارة العالية.

"لماذا لم يوضح لنا شيئا؟" قالتها بعد دقائق من الصمت. لم تتخلّ عن الدفاع عن محبوبها لكن الاحتمال الذي كان يدور في ذهنها لم يتركها وشأنها. "وأنا مدركة لهذا يا سيدي. لكن يخيفني احتمال أن يكون علي قد قتل شخصا. هو لا يقتل أحدا، أعرف ذلك، لكننا لا نعرف ما الذي جرى وما الذي حدث في تلك السكنات. كنت أسأله أحيانا، لكنه كان يغلق الموضوع، كان دائما يتهرب من الإجابة..."

لم تحتمل أكثر وبدأت بالبكاء. غضبتُ من نفسي، لأنني هدمت أحلام الفتاة، لكن إذا كانت هناك حقيقة فإننا لن نتمكن من إخفائها.

قلت بحزم: "لم يفعلها علي، أنت تبكين عبثا، فهو لا يرتكب مثل هذه الأمور."

نشقت أنفها، لكن أنّى لهذه المسكينة أن تصدّق كلامي؟!

"نعم، هناك نقاط مظلمة، نعلم أن عليا تصرف بغرابة لكن لا بد لهذه الأمور من سبب عزيزتي زينب. وأنا متأكد من وجود سبب."

فتحت عينيها المبتّلتين.

"إن كان يوجد، فلماذا لا يخرج أمامنا ويخبرنا أنه لم يقتل حجابي؟"

كانت دموعها تنهمر على خديها المحمرين بهدوء. فمددت يدي ومسحتها.

"كفى! لا تبك، لا فائدة من البكاء. لا تحزني، سنحل هذا الأمر." ثم تابعت مؤكّدًا. "أعاهدك أنني سأحل هذا الأمر في أقصر وقت، لكن يجب عليك أن تساعديني. يجب أن لا تبكي بعد الآن."

شعرَت بالحياء، وأرجعت رأسها للوراء قليلا، ومسحت دموعها هذه المرة بيديها.

"أعتذر يا سيدي، لم أستطع أن أتمالك نفسي أكثر.." كانت تحاول أن تتمالك نفسها لكنها فشلت. "أحيانا أؤمن أن عليا لم يرتكب الجريمة فأطمئنّ حِينًا، إذ ليس هناك من سبب كي يقوم علي بذلك. لكن هذا لا يطول. إذ تخطر ببالي التناقضات التي ذكرتموها، والنقاط المظلمة. حسنا، لماذا لا يخرج علي ويقول: 'حينما جئت كان الرجل ميتا'."

وأخيرا وجدت فرصة أمامي أستطيع أن أخفف بها عن زينب.

قلت "لقد قال ذلك، نعم، لقد قال علي بالضبط ما يلي: 'حينما جئت كان حجابي ميتا'. وأضاف بعدها. 'لم يكن أحد في الداخل'. ألا تتذكرين ذلك عزيزتي زينب؟ هذه هي الجملة التي قالها كلمة كلمة."

لم تستطع أن تتأكد لكنها أرادت ذلك.

"كنت بعيدة عنكما، ربما لم أسمع. هل حقا قال هذا؟"

ابتسمت تلك الابتسامة التي تمنح الأمان.

"نعم، قال ذلك بالضبط. أقول لك، علي لم يفعل ذلك." أشرت إلى الشاشة من جديد. "من المحتمل أن هذين الحقيرين قاما بقتل مدير السكن."

اندفعت بأمل.

"لو أنكم تتحدثون مع علي... يعني تحدثونه بموضوع سركان وعرده. فربما يعترف بما كان يفعله في موقع الجريمة."

تحدثت بالنبرة الصوتية نفسها المليئة بالأمل.

"لدي فكرة أخرى." ووضعت يدها اليمنى في كفي بهدوء. "لا تقلقي، فغدا حتى المساء سنحل هذه القضية."

25

"كنت أبحث عن القاتل في كاميرات المراقبة."

كانت الأعراف تفوح برائحة الزنبق. فقد أطلقنا اسم الأعراف على الفضاء الفارغ الذي يفصل بين غرفتَي التحقيق، فضاء بلا نوافذ، طويل ودقيق أشبه بمقصورة. غرفتا التحقيق تظهران من خلال الزجاج على الجانبين، والمتهمون في الداخل نشاهدهم من خلال الزجاج يظنون أنهم ينظرون إلى مرآة كبيرة. بالطبع، الذين يرتادون هذا المكان كثيرا يعرفون جيدا أن خلف تلك المرآة شرطة تراقب جميع تصرفاتهم وحركاتهم الصغيرة. فالأعراف تقع بين تلكما المرآتين. والسيدة يتر العاملة القديمة في المركز لا بد أنها قد مسحت هذا الصباح المكان مستعملة رائحة الزنبق. السيدة يتر متعلقة باستمرار برائحة الزنبق. فمكاتبنا، وطاولاتنا، والنوافذ، والحمامات أيضا تفوح مثل المسك برائحة الزنبق. كان كل شيء جيدا، لكن هذه الرائحة الجميلة كانت غريبة بعض الشيء في غرف التحقيق التي كنا نصرخ فيها عند الحاجة إلى ذلك، والتي كنا نضرب فيها المتهمين حينما نفقد السيطرة على أنفسنا. ومع أنّها حُذِّرَت عدّة مرات بشكل غير مباشر فإنها لم تتخلّ عن هوسها بهذه الرائحة. ولأن هذه المرأة كانت ناجحة في عملها، والأهم من ذلك هو أنها أقدم منّا جميعًا، فلم يجسر أحد على نقلها إلى مكان آخر.

بين هذه الروائح الجميلة كنا سنحقق مع المتهمين. أخذنا رئيس

العصابة سيسي إسماعيل إلى الغرفة الشمالية، وسركان إلى الغرفة التي في اليمين. وبالنسبة إلى المتّهم عرده لم نجده في منزله في منطقة توبخانه. لكن لم يطل الأمر كثيرا، فقد وجده رجال الشرطة الذين كانوا في حالة استنفار وأحضروه للمركز. لأنه لم يكن لسيسي ولا لرجاله نية في الاختفاء عن الأعين. بل كانوا واثقين من أنفسهم للغاية؛ فقد عثرنا على سيسي في معرض السيارات الذي كان يستعمله كمكتب له في منطقة شيرين أولر وهو يتناول الفطور. أما سركان فقد اعتقلناه وهو غارق في نومه في شقته المستأجرة في حي بهتشه شهر. بالطبع لم يكن قدومنا أمرًا غريبًا بالنسبة إلى سيسي، ومع ذلك تظاهر بالذهول.

"ما هذا يا سيدي؟ هل قرّرتم تلبيسنا جريمة مقتل عاكف؟"

كنت هادئا في الرد: "لا داعي لذلك إسماعيل، فما دام أن هناك جريمة دموية عزمتَ عليها، فلماذا ألبّسك غيرها؟"

أظهر على شفتيه ابتسامة سخرية.

"وما تلك الجريمة؟"

لم أكن مجبرا على الإجابة، لكني أردت معرفة ردة فعله.

"لا تتجاهل، فقد قتلت أخيرا حجابي. كان قتلا بشعا جدا، أصبح بيته شبيهًا بالمسلخ."

غمغم قائلا: "هل مات؟ الصراحة أنا لا أحزن على موته أبدا. فقد نقص من العالم شخص قذر، لكن لا علاقة لي بهذا الأمر."

سنتكلم أكثر في المركز لذلك لم نطل الحديث معه.

"حسنا إذن، تعال معنا واثبت لنا أنك لم تقتله."

لم يقاوم أبدا، وابتسم بسخرية ولسان حاله يقول لن تجد خبزا لك في هذا الأمر. وقال ساخرا: "دعوني أكمل الشاي على الأقل، وأنتم أيضا

تفضلوا واشربوا القهوة المُرّة."

وحينما ذهبنا لاعتقال سيبسي وسركان لم أستدع عليا. وقد فعلت ذلك عن قصد، لكن بعد أن قبضنا عليهما اتصلت بمساعدي وطلبت منه المجيء بسرعة إلى المركز.

قال بصوت رسمي: "أمركم سيدي، سأكون هناك بعد نصف ساعة."

من المحتمل أنه كان يتوقع إبعاده عن الوظيفة، أو ربما استدعاءه للتحقيق. ولهذا السبب وصل في الوقت المحدد. وكأنه كان يقول فليكن ما يكن... جاء مباشرة إلى الأعراف واستراح هناك دون أن يمر بزينب. يبدو أنه كان يصعب عليه الالتقاء بعشيقته. جاء مُنهارَ الكتفَين، وتحت عينيه هالات داكنة. لا بد أنه كان مثلنا؛ لم ينم طوال الليل. وربما أقلقه استدعائي، لكنه يعلم أن لا مفر من ذلك. كان شجاعا لا يخاف من مواجهة الواقع. لكن ربما لم يكن مستعدا الآن لرؤية زينب، فشجاعته لا تكفيه لذلك. لكنه سيلتقي بها، إذ لم أتمكن من إبعاد تلك الفتاة المخلصة في هذا القضية العجيبة إلى خارج السرب؛ فاستدعيت زينب. قبل أن تأتي باحثَتُنا إلى الأعراف، أشرت إلى المشتبه بهما اللذين كانا ينتظران في غرفة التحقيق بهدوء على الطاولتين الطويلتين.

"سنحقق مع سيبسي وسركان بصفتهما مشتبهًا بهما في قتل حجابي إنجه."

لم تظهر على وجهه أي علامة فرح أو اطمئنان.

سأل فقط: "وهل هناك شاهد؟ وكيف عرفتم أنه مشتبه بهما؟"

"التقطتهما كاميرا المراقبة. ليس إسماعيل، وإنما الشخصين اللذين تعاركت معهما في الأمس."

تجعّد جبينه المستقيم.

"وأنا موجود في تلك الكاميرا،" لم يكن قلقا أبدا، كان يتحدث بصوت غير مبال، فحركت رأسي أيضا على نفس المنوال دون اهتمام.

"وأنت موجود."

لم أساله عن سبب ذهابه إلى مكان الجريمة، ولم أضغط عليه في السؤال عن سبب مكوثه مدة تسعة وعشرين دقيقة هناك. استغرب علي من أسلوبي، ومع ذلك بقي كتوما دون أن يحاول رفع الغطاء عن الموضوع. لكن حينما دخلت زينب إلى الغرفة لم تتمالك نفسها.

"طوال الليل وأنا أتصل بك، لماذا لم تجب؟" قالتها مؤنّبة عليًّا. لو كان ممكنا لتركت العاشقين وخرجت من الغرفة لكن هذا لم يكن مناسبا، ومهما يكن فقد كنت رئيسهما.

"انتهى شحن هاتفي،" هذا ما قاله صديقنا المجنون، لكن هو نفسه لم يكن ليصدّق هذه الذريعة التي احتجّ بها، فقد كان صوته ضعيفا.

"إذن، لو أنك شحنته، ألم تفكر بقلقي عليك؟"

بعثر رفيقنا شعره المتناثر وهو يحك رأسه.

"وما أدراني؟ لقد نسيت. ليتك جئت إلى المنزل، فقد بقيت طوال الليل فيه."

لاحظت ارتجاف شفتي زينب، كانت المسكينة على وشك أن تفقد أعصابها وتبكي، فقد لمعت الدموع في عينيها لكنها لم تنهمر.

"كان لدي الكثير من الأعمال المسلية،" قالتها بصوت معاتب. "كنت أبحث عن القاتل في الكاميرات... من أجل إنقاذ صديق... وأنا أوصي بذلك فهو مسل جدا..."

اهتزّ رفيقنا المشاكس وكأنما أكل لطمة على وجهه، ولأنه لم يستطع أن يعرف ما الذي سيقوله فإنه لم يُجِب كذلك، لكن زينب لم تكن لتهدأ

بأي شكل.

"حسنا، دعك من أمري، افترض أن سيدنا كان محتاجا إليك، عِلمًا أنه كان محتملا أن يحتاج إليك بعد تثبيت المشتبه بهم."

احمرّ وجه علي بشدة.

"أعتذر يا سيدي، ليتني كنت أعلم بما سيحصل."

لم أرغب في النقاش في هذا الموضوع الآن.

"سنتكلم في هذا لاحقا." عدت إلى باحثتنا. "عزيزتي زينب، تحدثت سابقا عن الدم وعن القطع الجلدية التي كانت بين أظافر حجاي. يجب تحديد الحمض النووي الخاص بها. من أجل أن نقارنها بالمشتبه بهما..."

وأنا أيضا حصلت على نصيبي من غضب زينب.

"لقد فعلنا ذلك يا سيدي. فبينما كنتم مشغولين باعتقال المشتبه بهم انشغلتُ بهذا الأمر، وقريبا سنحصل على النتائج."

ابتسمتُ مُظهرًا روح الأبوّة في تعاملي.

"جميل، حسنا أنت أيضا راقبي التحقيق من الخارج. وسنقيّم لاحقا الوضع معا."

وحينما أنهيت كلامي رن هاتفي. كان المتصل بوكت؛ تلك الصحفية المتجولة. وما كنت أفتح هاتفي لولا أن ذكائي قال عنها في الأمس: "إنها تعرف كل شيء عن القاتل المتسلسل. ذكرت أسماء الضحايا الاثني عشر جميعهم الذين قتلوا قبل خمس سنوات، وبينت المواضع التي تركوا فيها، وشرحت جميع الألعاب التي كانت بجانبهم الواحدة تلو الأخرى،" فربما تكون هي قد توصلت إلى أدلّة لا نعرفها.

"ألو،" قلتها وأنا أستحضر أمام عيني وجهها الصغير. "ألو، تفضّلوا سيدة بوكت."

سألت باندهاش.

"هل كان هاتفي مسجلا عندكم؟"

قبل سنتين قُتل صحفي مِثْلِيّ يُدعى بحري في منطقة أقار أتلر، كان صديقا مقربا من بوكت، لهذا السبب استدعيناها إلى المركز، ومن تلك الأيام بقي هاتفها مسجّلا عندي. وبالطبع لم أقل هذا.

"ولماذا لا أحتفظ برقم هاتف صحفيّة مهمّة مثلكم؟"

أطلقت قهقهة صغيرة.

"لا أظن ذلك، فمن المحتمل أن ذكائي أعطاكم إياه. ففي الأمس تحدثنا عنكم."

ليس هناك فائدة من الإطالة في الحديث.

قلت داخلا في الموضوع: "موضوع القط الأعمى، أليس كذلك؟ ماذا تعرفون عن هذا الموضوع؟"

حلّ صمت قصير.

"أريد الحديث معك في هذا الموضوع، لكنني تكلمت معك من أجل موضوع آخر. في الحقيقة موضوع لا طعم له. بخصوص مساعدكم. الضابط علي كورمان يعمل معكم، أليس كذلك؟"

اتجهت أنظاري إلى ذلك الفتى الذي كان يجلس مقابلي، كان ينتظر إنهاء حديثي من أجل الدخول للتحقيق مع سركان.

سألت وأنا أتهرب من ذكر الاسم. "ما الذي حدث؟"

"يقال بأن له علاقة بالجريمة التي ارتكبت أمس في حي زيتن بورنو... يقال بأنه انتظر ساعات عند الجثة. يقال بأنه ربما قام بتظليل الأدلة..."

سألت بغضب.

"من الذي يتفوه بهذا؟"

كان صوتي عاليا جدا إلى درجة بدأ فيها علي وزينب ينظران إليّ بقلق.

قالت بوكت: "مع الأسف لا أستطيع الإفصاح عنهم." كانت متفهّمة من نبرة صوتها. "أردت أن أسألك قبل أن أكتب. أنت شخص شريف، ولا يمكن أن تكذب. وأنا لا أريد أن أكتب خبرا خاطئا."

ابن الحرام إرجو هو من نشر الخبر بكل تأكيد. هذا يعني أنه بدأ بالعمل مباشرة. ففي قلبه حقد دفين ضد علي حتى أنه اتصل بالصحفيين في سبيل إلحاق الضرر به. لا بد أن أشخاصا من مستوى رفيع يساندونه. هذا يعني أنهم سيقومون بحملة داخل المركز الأمني، ليست عملية فحسب، وإنما طعنة بالظهر لا محال. فار الدم في عروقي لكنني تمالكت نفسي. فالرد على بوكت والغضب منها سيكون مفيدا بالدرجة الأولى لإرجو. أخذت نفسا عميقا.

"خطأ يا سيدة بوكت، لقد كذبوا عليكم. لكن إن أردت سنتحدث وجها لوجه. لنلتقي في تقسيم في محل كزي للحلويات في تمام الساعة 16:00"

"سأكون سعيدة بذلك. علاوة على هذا سنتحدث في موضوع القط الأعمى. فعندي لكم ما أقوله."

لقد فرحت بحديثها على هذه الشاكلة، هذا يعني أنها ستتفق معي.

"رائع جدا. حسنا، إلى اللقاء..."

أغلقت هاتفي، وعدت إلى مساعدي الذي كان ينتظر مني أن أتحدث.

"هيا يا رفاق،" قلتها دون أن أظهر أي اهتمام. "لنذهب ونجعل هؤلاء الحمقى يعترفون."

انحنى كلاهما بأدب. وبينما كنت أعبر من بينهما حذّرت مرة أخرى زينب التي كانت تنظر إلى علي بغضب.

"إياك أن تبعدي عينيك عن هذين الشخصين، فملاحظاتك بالنسبة إلينا مهمة جدا."

26

"كنتم في الأمس ستقتلون عبد الله في بيت الله يا رجل!"

كانت غرفة التحقيق تفوح برائحة الزنبق. من الصعب أن نعرف ما إذا كان سركان الذي كان يجلس على الطاولة الطويلة قد لاحظ هذه الرائحة، لكنه حينما رآني داخلا من الباب بدأ ينظر إليّ بعينيه الخضراوَين اللتين كانتا محمرّتين خلف أنفه المضمّد. لم يكن خائفا، فقد كان يحدق بنظرات لا وجل فيها ولا قلق، حتى أنه بسط شفتيه المنتفختين وكان على وشك أن يبتسم، لكنه رأى رفيقنا المجنون الذي كان على بعد خطوة واحدة من الخلف. تجمدت ابتسامته على شفتيه، وبدأ ينظر بقلق. وقد لاحظ علي أيضا خوف سركان.

"ما الأخبار يا أحمق؟" سلّم على المتهم بهذه اللطافة. "انظر إلى هذه الضمادة كم تبدو جميلة عليك، تعال لاحقا حتى أعطيك زينة فيضيء وجهك من جديد."

لقد عاد رفيقنا علي إلى جوه القديم فورا. لم أغضب هذه المرة، على العكس فقد فرحت لتخلصه من وضعه النفسي السابق. أما سركان فقد بدأ بالتملق في سبيل التخلص من الخوف الذي دبّ فيه.

"أنت كوميدي جدا يا سيدي."

عقد علي حاجبيه، ورفع يده اليمنى وكأنما أراد أن ينزلها على وجه المتهم.

"وأين المزاح يا غبي، أنت أمام ضابط في الدولة، استيقظ من سباتك."

أرجع سركان رأسه للوراء خوفا.

"لا تخف،" قالها علي وهو ينزل يده التي بقيت في الهواء بهدوء. "لم نصل بعد إلى هذه المرحلة. فإن لم تجب بصراحة على أسئلتنا فإننا سننتقل إلى هذا المستوى."

سحبت الكرسي وجلست مقابل سركان، ووقف علي خلف المشتبه به. هذا الوضع كان كافيا لأن يقلق سركان. كان يتظاهر بالنظر إليّ لكنه كان يتقهقر خوفا من أن تأتيه في أي لحظة ضربة من علي. وضعت الملف الذي كان بيدي على الطاولة وبدأت بفتح صفحاته متظاهرا بالقراءة ثم رفعت رأسي.

"هل هذه جريمتك الأولى يا سركان؟"

كان القلق باديا على وجهه المصاب، وانتشر في أنحاء جسمه.

"ماذا؟ أي جريمة؟ أنا لم أقتل أحدا! أنتم مخطئون سيدي."

بدلا من الإجابة مددت يدي إلى الملف. تناولت منه صورة شخصية لحجابي إنجه، ومددتها نحو أنف المشتبه به.

"ألم تقتل هذا الرجل؟"

رمشت عيناه المحمرّة عدّة مرات.

"لا، لا أنا لم أقتله. لم أقتله ولم أقتل غيره."

مددت يدي نحو الملف مرة أخرى، وتناولت هذه المرّة صورة المقتول التي التقطت أمس في مسرح الجريمة.

"ألم تكن أنت السبب في هذه الحالة التي عليها هذا الرجل المسكين؟"

ألقى نظرة على الصورة.

"لا، لا لم أفعل ذلك. ولمَ أقتُل عبدَ الله؟!"

انفجرت ضربة من علي على مؤخرة رأسه.

صاح علي قائلا: "عبدَ الله؟ أيّها الماكر، في الأمس كنتم ستقتلون عبد الله في بيت الله وقت الظهر. ثم تخرج الآن وتنكر!"

انحنى سركان الذي أكل ضربة للأمام.

"آه، لماذا تضرب يا رجل؟! أريد محاميا فورا."

لم أكترث أبدا وتناولت من الملف الصورة الثالثة.

"هذه الصورة من الكاميرا التي التقطتكم قرب المساء في الأمس... هناك كاميرات مراقبة، وقد ظهرتم في إحداها." لم يكن يتوقع هذا أبدا. فتفحص الصورة التي مددتها بقلق. "انظر، فقد دخلت حديقة المقتول مع عرده. الشمس لم تغرب بعد. وفي الزاوية يظهر فيها وقت دخولكما. هل رأيت؟" أخرجت الصورة الرابعة دون أن أنتظر منه جوابًا. "وهذه فيها وقت خروجكما. بعد سبع وثلاثين دقيقة تماما... لقد بقيتما في الداخل سبعًا وثلاثين دقيقة. ماذا فعلتما هناك خلال ذلك الوقت؟"

أجاب علي بدلا منه.

"وماذا سيفعلان؟ كانا يمزقان جسد الرجل."

الذعر الذي بدا على وجه سركان يستحق المشاهدة. لا بدّ أنهما لم يفكرا أبدا أن كاميرا المراقبة ستلتقطهما. معظم الشبكات الإجرامية على هذه الشاكلة، يظنون أنهم يحلّون كل شيء من خلال حمل السلاح على جانبهم وطعن الخصم بالسكين بالإضافة إلى جسارة جافة. وعندما تصبح الجريمة معقدة بعض الشيء يقعون في الفخ فورًا. وهذا ما حدث هنا، فسركان الذي كان متأكدا من أن أحدًا لم يره أثناء ارتكابه الجريمة جلس مذهولا أمام هذه الأدلة التي لا يمكن إنكارها، وأصبح عاجزا عن الرد.

"أجب يا أحمق" قالها علي وهو ينزل به الضربة الثانية. "كم ترتيب هذه الجريمة عندك؟"

انحنى سركان من جديد، وقال وهو يستجمع نفسه من جديد.

"أنا لم أقتل، أنا لم أقتل أحدا."

انزعجت من تكراره الكلمات نفسها.

"لكن عرده يقول غير ذلك، فأنت من طعن بطن مدير السكن."

بدا تعبير خبيث على وجهه.

"تحاولون ملء الدلو عبثا يا سيدي. فلا أنا ولا عرده قتلنا أحدا."

نظرت إلى عينيه المحمرتين وأنا أضع يدي على الطاولة.

"حينما نقابلك معه سنعلم ما إذا كنا نحاول ملء الدلو عبثا. أنت من طعن حجابي ولعدة مرات أيضا. لم تتوقف عن طعنه حتى بعد موته. نحن لا نعرف هذا بالطبع، فهذه أقوال رفيقك."

لم يتزحزح هذا السخيف أبدا.

"كان عرده يمازحكم." قالها وهو يبتسم بخبث. "لا تؤاخذني بما أقول، لكنه كان يتسلى بكم."

وحينما أنهى كلامه أنزل به علي الضربة الثالثة.

"ألم أقل لك كن جديًا أيها السخيف؟"

لم تكن الضربة قوية هذه المرة، فسركان لم ينحن للأمام. ومع ذلك فقد تأوه سركان فقط: "آه" هذا كل ما في الأمر. حتى أنه لم يتخل عن سخريته.

"لماذا تضرب يا رجل؟ لم أقتل، وعرده كان يسخر منكم."

تقدم مساعدي نحو الأمام بخفة، وأمسك بيديه القويتين المتهم من تلابيبه ورفعه في الهواء.

"الآن سأعلمك كيف كان يسخر منا؟"

احمر وجه سركان خوفا. "ماذا تفعلون يا سيدي؟"

لم يكترث علي بكلام سركان.

"تحدث الآن يا أحمق. تحدث لنا بماذا تشعر حينما تطعن إنسانا وأنت تنظر في عينيه؟ هيا، تحدث يا أبله، كيف تشعر وأنت ترى الدم يفور بعد أن شققت بطن الرجل بالسكين؟ الشعور بتلك الحرارة..."

كان سركان يواصل إنكاره رغم الخوف الذي كان يزداد في عينيه خلف أنفه الكبير المغطى بالضمادة البيضاء.

"لا أعرف يا سيدي، لم أقتل أحدا أبدا. وإن أردتم عودوا إلى سجلاتي السابقة. أطلقت النار على شخصين لكنني لم أستعمل السكين إطلاقا. لا أحب استعمال السكين."

نبهت علي قائلا: "اتركه يا علي، أجلسه في مكانه لنواصل التحقيق."

انقاد علي لما قلته وترك المتهم، فتكدس سركان على كرسيه مثل كيس فارغ. وعاد علي إلى مكانه السابق. بينما كان المتهم يرتب نفسه سألت ببرود.

"هل عرده هو القاتل؟"

تفككت خيوط السخرية من وجهه لكنه تظاهر بعدم الفهم كي يكسب وقتا أكثر.

"عرده؟ من قتل؟"

بدأت النظر إليه بغضب، لكن لا فائدة من ذلك.

"آه، أنت تقصد حجابي. لا، لا يا سيدي لم يقتل هو أيضا. نحن لم نقتل أحدا."

أحس بقدوم الضربة من علي فأحنى رأسه وجعل وجهه مائلا محاولا

رؤية علي.

"توقف، توقف لا تضربني يا سيدي، أنا أعترف، أعترف بذهابنا إلى بيت السيد حجاي لكن حينما خرجنا من عنده كان سالما لا شيء فيه."

يبدو أن خيوط القضية بدأت تُحَل، لذلك كان من المفيد أن ندخل نفس الممر الذي عبر منه.

سألت: "لماذا ذهبتما إلى منزل حجاي؟ ليس من أجل شرب الشاي بالطبع."

"ذهبنا كي نهدّده. نعم، ذهبنا من أجل تخويفه حتى لا يؤذي الأطفال الصغار. كذلك من أجل أن نعرف قاتل عاكف صويقان..."

صاح علي: "وما شأنكما في ذلك؟ هل أنتما من شرطة؟ ما شأنكما بقاتل عاكف؟"

قال بصوت آلي وكأنما كان يكرر جملة يحاول حفظها.

"عاكف صديقنا، وأردنا الانتقام لأجله."

جاءه ردّي فورا.

"وحينما لم يخبركما حجاي باسم القاتل شرعتما السكين في وجهه..."

أنكر على الفور.

"لا، حتى بيدنا لم نلمسه، تحدثنا فقط. تحدثنا بعنف قليلا. وأسمعناه كلاما بذيئا، لكننا لم نعتد عليه مطلقا. لقد قتله الأشخاص الذين جاءوا بعدنا."

رفعت رأسي، والتقت عيناي بعيني علي. لا بد أن أقوال سركان قد أزعجته. وكيف لا تزعجه وسركان يتهم عليًّا بصراحة مع أنه لا يعلم أنه الشخص الذي جاء بعده؟!

"لا تكذب،" قالها علي وهو ينزل به لطمة أقوى من سابقتها مرة أخرى.

كانت الضربة في هذه المرة بمكانها الصحيح. فانحنى رأس سركان حتى كاد أن يلتصق بالطاولة. استجمع قواه، وحينما رفع رأسه من جديد كانت الدماء تسيل من أنفه.

نبّهتُ عليًّا: "كفى يا علي، تمام، هذا كاف."

ذُهل علي من تعنيفي له، فهذه أول مرة أوبخه فيها أمام متهم في غرفة التحقيق.

"إنه يكذب يا سيدي أمام أعيننا. لقد مزّقا الرجل بطعناتهما، ثم يأتي الآن ويلعب دور البريء."

كنت منزعجا من توتر علي، أما سركان فقد كان يجلس هادئا مع أن الاحمرار كان يزداد فوق ضمادة أنفه.

"اكشِف عن كُمَّي قميصك،" قلتها وأنا أشير إلى ساعديه. "أريد رؤية ذراعيك."

فكّ أزرار الأكمام، وسحب الكُمَّين السوداوين الحريريّين إلى أعلى، وكشف عن ذراعين لم يتعرّضا للشمس قط.

"والآن، مدّها نحو الطاولة."

مدّ ذراعيه. لم يكن هناك أي أثر مما قالته زينب من ظفر أو علامة جرح.

"اقلب ذراعيك."

قلب ذراعيه مُظهرًا باطنَيهما. لا، لم يكن هناك أيّ أثر. لم يكن سركان الشخص الذي قاومه حجابي، هذا ما فهمته على الأقل. نظرت إلى مساعدي مرّة أخرى، كان كمن فقد حماسه. فقد كان متجمدا خلف المتهم.

"من الذي أرسلكما إلى بيت حجابي؟" قلتها مستأنفا التحقيق من

جديد. "أهو سيدكم إسماعيل؟"

بينما كان يُعيد كُمَّيه كما كانا، توقّف حينما تكلمت.

"لا، لم يرسلنا سيدي إسماعيل. وما شأنه بذلك؟ فعاكف صديقنا أيضا، ونحن ذهبنا بأنفسنا إلى منزل عديم الشرف ذلك. كما قلت قبل قليل ذهبنا كي نعرف القاتل. وسيدي إسماعيل لا علم له بذهابنا."

لم يحتمل علي أكثر من ذلك.

"إنه يكذب يا سيدي، ألا ترون ذلك؟ ففي كل مرة تنسكب الأكاذيب من فمه."

أحنى سركان رأسه إلى الأسفل ظنا منه أن لطمة جديدة ستنزل به مرة أخرى.

"تمام علي،" قلتها رافعا يدي اليمنى في الهواء. "حسنا، سنعرف بعد قليل، لكن كن هادئا أولا."

27

"وأنت أيضا كنت طفلا في الماضي!"

كنت قلِقًا جدا وأنا أدخل غرفة التحقيق التي كان بها سيبسي إسماعيل. هل كانت أقوال سركان صحيحة؟ وماذا إن كانا بريئين؟ هل فعلًا ذهبا لتهديد حجابي فقط؟ إذن، كنا سنضطر إلى جعل علي في المرتبة الأولى في قائمة المشتبه بهم. ولا بد أن زينب التي كانت تراقب مجرى التحقيق من الطرف الآخر كانت تشعر بنفس القلق، فحينما خرجنا إلى الأعراف كانت تنظر إلينا بوجه مرتبك وعينين مليئتين بالأسئلة. أمّا علي فقد اتّبع الأسلوب نفسه الذي كان عليه منذ الأمس، منتظرًا مني التعليمات دون أن يُدلي بأي تصريح. وأنا أيضا تجنّبت التعليق في الوقت الحالي، ولم ألّمح إلى أي شيء لا بكلماتي ولا بتصرفاتي. لكنني لم أستطع التهرب من الانجرار إلى القلق الذي كان يتزايد بمرور الوقت. هل يمكن أن يكون علي هو من قتل مدير السكن؟ لا، لم أكن أرغب في تصديق هذا الاحتمال. لكن عدم رغبتي في التصديق لم يكن ليغيّر شيئًا من حقيقة هذا الاحتمال. لا بد أن هناك مسألة أخرى، مسألة قذرة سنعرفها يوما ما. وها أنا دخلت بهذه الأحاسيس إلى غرفة التحقيق التي فيها سيبسي. وقد بدا العطر الثقيل الذي يستخدمه واضحا في الغرفة المغلقة، حتى أنه طغى على رائحة الزنبق التي تستعمله السيدة يتر.

صاح علي حينما دخل: "ما هذه الرائحة يا وغد؟ تفوح عطرا مثل

النساء!"

في السابق أيضا كان علي يغضب بهذا الشكل، لكن روح الدعابة كانت أساسا له. لكنه الآن غاضب تماما، ولم أعرف ما إذا كان استدعاؤه للتحقيق عملا صحيحا أم خاطئا. وبالنسبة إلى سيبسي فقد كان عكس مساعدي؛ هادئا جدا. لكنه تجهم حينما قال علي: "تفوح عطرا مثل النساء"، وبعدها عاد إلى وضعه السابق. ابتسم بخبث.

"وهل الرائحة القذرة في هذا الحر أفضل يا سيدي علي؟"

رد رفيقنا الدّيك المحارب فورا.

"الرائحة الجميلة جيدة، لكن هل يليق بالرجل أن يستحم بمثل هذه الروائح؟"

كان من الواضح أنه يستفز إسماعيل. لكن رئيس العصابة الذي كان مدركا للأمر لم يكترث بتاتا.

"لا بد أن تدرس عن العطور جيدا سيدي علي، فعطري لا علاقة له بعطر النساء. حقا هو عطر رجال، وإن أردت أرسلت لك دزينة منها، فأنت تعمل كثيرا في هذه الأيام كما هو معلوم. فكلما تعرقت تضع منها على بشرتك."

كان وجه مساعدي المتجهم يشير إلى أن هذا الحوار سينتهي بكارثة.

تدخلت قائلا: "أطلت يا إسماعيل، بهذا القدر كفاية."

أشار بعينيه الصغيرتين إلى علي.

"هو من بدأ يا سيدي."

"فليكن من كان، كفى ثرثرة."

علي أيضا أدرك من نبرة صوتي أن هذا الحوار لم يعجبني، فبقي صامتا، ووقف على بعد خطوة واحدة خلف سيبسي استعدادا للقيام بواجبه.

وأنا أيضا جلست أمام المشتبه به وفتحت الملف دون استعجال. قرأت الأسطر بصمت وأنا أحرك شفتي متظاهرا بالنظر إلى بعض الملاحظات المهمة، ثم نظرت إلى سيبسي.

"نعم يا إسماعيل، لماذا قتلت حجابي إنجه؟"

كان مثل سركان تماما هادئا جدا.

"أنا لم أقتل أحدا، ولمَ أقتل ذلك المخنّث؟"

رمقته لفترة بُغية فهمه ثم أعربت عن فكري.

"هل كان من أجل الانتقام لعاكف؟ كنت في الأمس تتهم مدير السكن. فقد أرسلت سركان وعرده من أجل قتل الرجل..."

قال كاذبا: "لم أرسل أحدا، فحينما رأيته واقفا عند التابوت فار الدم في عروقي. لم أتمالك نفسي وسرت نحوه. ورجالي قاموا حينها بالواجب."

"ما الذي أخذه منك حجابي ولم تستطع استرداده؟"

اندهش سيبسي من سؤال علي لفترة، لكن هذا لم يطل.

"أجبت عن ذلك في الأمس. فهو السبب في وقوع عاكف في هذه المصائب. يعني، يمكن القول إنه كان مسؤولا عن مقتل عاكف."

كانت اللحظة المناسبة لكي أتحدث.

"ألهذا السبب أمرت بطعن الرجل لكي تأخذ بثأرك منه؟"

نظر إليّ من جديد.

"لا، أنا لم آمر أحدا بالطعن. بالطبع لا أنكر فرحي بمقتل الرجل. حتى أنني سعدت جدا بطعنه كما تحدثتم بذلك. لأنه ليس من الرجال الذين يُحزَن على موتهم. فالحياة تكون جميلة جدا بدون أبناء الزّنا هؤلاء."

من المحتمل أيضا أن عليا كان مؤيدا لهذه الكلمات إلى ما لا نهاية، لكنه وبخ سيبسي بُغية تضييق الدنيا عليه.

"لا تتحدث بسوء، أجب فقط عما نسألك عنه."

هز سيسي كتفيه الواسعين.

"ها نحن نجيب يا رجل."

صاح علي: "لا لم تجب، فمنذ الصباح وأنت تتحدث بكلام لا صحة له. وفي الأمس أيضا كنت تكذب، والآن أيضا تكذب."

كان مستمرا في الحفاظ على هدوئه المتين الذي كان مثل الجبال الجليدية.

"إن كنت أكذب فأثبت لي ذلك وألقني في السجن. لكنك لن تستطيع أن تفعل ذلك لأنه ليس لي علاقة بهذا الأمر بتاتا."

تناولت صورة كاميرا المراقبة ووضعتها أمام عينيه.

"إذن، ماذا كان يفعل رجالك في منزل حجابي؟"

فتح عينيه ذات اللون الرمادي مذهولا مما رأى تماما مثل سركان.

"نعم، لقد التقطت كاميرا المراقبة اثنين من رجالك الدواهي. هناك صورة قبل ارتكابهم للجريمة وصورة أخرى بعد ارتكابها... ألا تراهم كيف يسيران متبخترين؟"

بقي مذهولا لا يعرف ماذا سيقول، لكن حاله هذه لم تدم طويلا، فقد كان صاحب تجربة في التحقيق.

"لا أعرف سبب ذهابهما إلى ذاك الموضع، لكن إن أردتما سأسألهما وسأخبركما بالأمر." ثم طبع تلك الابتسامة القذرة على وجهه النمرود. "يبدو أنهما لم يخبراكما بشيء."

تقدّم علي الذي كان غاضبا خطوتين إلى الأمام ووقف بجانبه، كانت عيناه تشتعلان نيرانا، وكانت قبضة يده مشدودة. فقال بصوت مليء بالكره. "أنت مخطئ، لقد قالا كل شيء. ذكرا سبب ذهابهما إلى هناك،

واعترفا بقتلهما حجابي قبل أن يتفوه بشيء، ولهذا السبب لم يعثرا على الشيء الذي كانا يبحثان عنه."

لم تكن لدي أيّ فكرة عمّا كان يتحدث به علي، لكن لا بد أنه كان يسير في الطريق الصحيح ما دام أن تلك الابتسامة القذرة قد اختفت من وجه إسماعيل. وعليه فقد سأل رئيس المافيا بتوتر.

"وما هو الشيء الذي كانا يبحثان عنه؟"

كان علي يحدّق في وجه الرجل.

"أنت من سيتحدث، عن ماذا كنتم تبحثون في بيت حجابي؟"

تهرب سيبسي بنظراته.

"لا شيء، فربما قام سركان وعرده بواجبهما تماما كما هو الحال في الجامع. ذهبا إلى بيت الرجل لتخويفه. ولا أعتقد أنهما قتلاه. هدّداه بالكلام فقط بغية الانتقام لعاكف ولو بمقدار نبضة."

وحينما أنهى كلامه نظر إليّ. كان يرغب في معرفة ردّي. لم تكن لدي أيّ نية بقطع الطريق التي سلكها علي، لهذا بقيت صامتا، فنظر سيبسي إلى مساعدي من جديد. حينها طبع علي تلك الابتسامة الماكرة على شفتيه ليبدأ الهجوم.

"هذه حقيقة الأمر."

كان عجيبا، فرفيقنا العصبيّ لم يفقد السيطرة على نفسه ولم يضرب السيبسي على وجهه.

"هذا ليس كاملا يا إسماعيل الحلو!" قالها وهو يقترب خطوة. "أنا وأنت أيضا نعرف جيدا أن هذا ليس كاملا." توقف للحظات ثم قال مكررا: "إسماعيل الحلو!" نظر إليّ وقال: "أليس هذا اللقب جميلا يا سيدي؟"

وصل المشاكس إلى ما يريده، والأهم من ذلك أنه كان يعرف أمورا مهمة عن رئيس العصابة القبيح.

قلت مشاركا في اللعبة: "إنه لقب مستساغ، وبالطبع لا أدري كيف سيكون أثره في حياتك، لكنّه لقبٌ له وقْعٌ غنائي جميل."

بدا يسودّ وجه إسماعيل المحمر.

واصل علي تعليقه: "لا تقلقوا من هذا يا سيدي، فهو معتاد على هذا اللقب في حياته،" نظر إليه باستحقار وتابع. "أليس كذلك يا حلو؟ أهكذا كان حجابي يناديك؟"

كان وجه إسماعيل الواسع متوترا، وعيناه ذات اللون الرمادي تنظران بحدة.

"ماذا، ما الذي تقوله يا رجل؟"

تراجع علي للوراء مستهترا.

"لا، الغضب ممنوع يا حلو، انظر، فقد كنت قبل قليل تجلس بهدوء. أين ذهبت تلك الابتسامة اللطيفة؟ هل حقا كنت تبتسم أمام حجابي بهذه الحلاوة."

توتر إسماعيل كثيرا إلى درجة خفت أن يطير منقضا على علي. لكنه لم يفعلها، واكتفى بأخذ نفس عميق.

"لم أفهم ما تقوله أبدا."

قال بصوت له مغزى: "فهمت، فهمت، والآن اعترف لنا. فالكره المدفون في أعماقك تجاه حجابي ليس لما فعله بعاكف، وإنما لما فعله بك."

لا بدّ أنّ مساعدي توصل إلى معلومات مهمة. فما قاله لم يكن تخمينا أبدا.

"وماذا في إمكان شخص مثل عديم الشرف حجابي أن يفعل بي؟

فقوته تكفيه للاعتداء على الأطفال فقط."

لأول مرة ينظر علي إليه نظرة إشفاق وكأنه كان يتألم عليه.

ذكّره قائلا: "وأنت أيضا كنت طفلا في الماضي، فأنت أيضا سكنت في إحدى المساكن التي كان يديرها حجابي."

توتر رئيس المافيا الذي صار يتنفس بغضب.

"أنا لم أُقِم في المساكن قط،" قالها متظاهرا بعدم الاكتراث. "فقد نشأت في بيت جدّي في مدينة يوزقات."

بدا تعبير حزين على وجه علي.

"أنا أتحدث لك عن أمر قد مضى عليه خمسة وعشرون عاما يا إسماعيل! لا تنكر، فلا فائدة من ذلك."

كان متخبطا، ويبدو أنه كان على وشك فقدان سمعته.

"أنا لا أنكر. اسأل الجميع. وأبناء عمومتي ما زالوا على قيد الحياة..."

"لا داعي لذلك، فقد كتبها حجابي في يومياته."

بلغ السيل الزبى وما عاد لإسماعيل أن يحتمل أكثر، فقد حاول النهوض على قدميه إلا أن عليا أمسك كتفه بيديه اللتين كانتا مثل الفولاذ وأجلسه في مكانه.

"حذار يا إسماعيل، لا تفعل ذلك يا أخي، لا تجعلني أضربك. فهذا لن يفيدك بشيء."

ومع أن جسده كان مثل العملاق إلا أنه لم يقاوم أبدا وجلس على كرسيه من جديد.

قال بصوت ضعيف: "لا تفتر إذن، فأنا لا علم لي بيوميات حجابي ولا بما كان يكتبه."

قال علي: "لا أفتري،" كان صوته مخنوقا كمن يتألم. "أنت تعرف كل

شيء يا إسماعيل، تعرف أن عديم الشرف ذاك قد اعتدى عليك مثلما اعتدى على الأطفال الآخرين، وتعلم أيضا أن هذا مدوّن في يومياته. ومن المحتمل أن عاكف صويقان قد بيّن لك ذلك. فأنت لم ترسل رجالك إلى بيت حجابي من أجل الانتقام لعاكف، وإنما من أجل العثور على الدفتر الأسود."

سألت دون أن أدري.

"الدفتر الأسود؟"

"نعم سيدي، فهذا المنحرف الذي يدعى بحجابي، كتب في يومياته ما لم يجسر عاكف على كتابته. فقد دون في دفتر أسود كل البشاعات التي فعلها بالأطفال بتفاصيلها الدقيقة. دفتر كبير أعده بشكل خاص لهذا الأمر. جلّده باللون الأسود، وصفحاته أيضا سوداء وكُتب عليها بقلم مذهّب أبيض. فقد كتب بجُرأة في هذا الدفتر كل ما فعله بالأطفال وكل ما فُعِلَ به."

حسنا، لكن كيف عرف علي كل هذا؟ بالطبع لم أسأله أمام إسماعيل عن ذلك، وبالنسبة إلى علي فقد كان مستمرا في كلامه.

"ولسوء الحظ فقد كتب اسمك أيضا أخ إسماعيل. نعم، ومن خلال ذلك عرفت أنه كان يناديك بالحلو... لا تؤاخذني على سخريتي لكننا نحن الآن في غرفة التحقيق وليس لك الحق في الكذب علينا."

عاد إسماعيل إلى اللجوء إليّ بعد أن خلّص كتفيه من يدي علي.

"ليس لدي أي علم بما قاله مساعدكم يا سيدي. فأنا لا أعرف الدفتر الأسود ولا غيره. وإن كان هناك دفتر فهو من افتعال حجابي المنحرف..."

لم يغضب علي مرة أخرى وكان ينظر إلى إسماعيل بألم.

"يجب أن تواجه هذا يا أسد. فالشجاعة تلزمك بذلك. وليس عليك من

حرج فيما صادفته في ذلك السكن. كذلك الأمر ينطبق على عاكف وعلى الأطفال الآخرين."

لكن إسماعيل لم يكن يملك الشجاعة التي تجعله يتواجه مع هذه الحقيقة البشعة، تحدث بشكل قطعي وهو يغلق عينيه.

"لم يحدث لي شيء في ذلك السكن. وذلك الديوث الذي حاول تدنيسي قد مات. فلماذا تطيلون في كلامكم؟ لا أنا ولا رجالي لهم علاقة بالجريمة. والآن أريد محاميا، ولن أتكلم بشيء قبل أن يأتي."

28

"إن الطفولة مخيفة جدا إذا كنت بدون أمك وأبيك."

"كنا جميعا نبحث عن هذا."

كان علي يشير إلى دفتر ذي جلد أسود على الطاولة. كان يبدو مطمئنا، وإن كان حزينا نوعا ما إلا أنه كان ينظر بعينيه العسليتين بحزم. جلس على الأريكة التي كانت في الطرف الأيمن أمام طاولتي، أمّا زينب فقد كانت في الجهة المقابلة له تماما، كان علي يتحدث وهو ينظر إليّ أكثر.

"نعم سيدي، سركان وعرده جاءا إلى البيت من أجل هذا، لكن هذين الغبيين لم يتمكنا من العثور عليه، مع أنه كان أمام أعينهما، حيث أخفاه حجابي داخل مدفأة الحديد. حتى ولو عثرا عليه فإنهما لن يتركا حجابي على قيد الحياة بالطبع. وكما قلت قبل قليل في غرفة التحقيق، إسماعيل كان واحدا من الأطفال الذين تعرضوا للاغتصاب في السكن. ومن المستحيل أن يأذن لحجابي بالبقاء على قيد الحياة. فبحسب ما ورد في كتابات المنحرف، أن إسماعيل بقي تحت قبضته إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره. لم يكن هو فقط، وإنما أيضا عاكف الذي قُتل على يد القط الأعمى وآخرين." تلعثم، وأخذ نفسا عميقا ثم تابع. "تحرّش بي أيضا."

توقف لحظة، وبدا أن عينيه تنظران إلى فضاء فارغ. تقطّعت عليه ألمًا، وقلت في نفسي يا ليتني ما كنت قاسيا معه إلى هذا الحد. ثم بعد ذلك

خطر إلى ذهني ذلك الاحتمال السيء، ماذا يا ترى، هل كان هذا اعترافا؟ كنت أنتظر ما الذي سيقوله مساعدي بخوف وقلق أيضا، زينب أيضا كانت مثلي تماما، تنتظر بقلق كبير إلى فم محبوبها. طال الصمت في الغرفة، فلا علي أكمل كلامه ولا أنا أو زينب استطعنا سؤاله. ولحسن الحظ واصل علي الحديث من جديد.

"الوحدة شيء رهيب يا سيدي. إن الطفولة مخيفة جدا إذا كنت دون أمك وأبيك. تراك ترغب في أن يهتمّ بك أحد، ترغب في أن يحبّك أحد، ترغب في أن يقدّرك أحد. وبالطبع ليست عندك تجربة لمعرفة السبب في تقدير ذلك الإنسان لك. ليست عندك تجربة لمعرفة ما يدور من قذارة خلف تلك العيون الضاحكة والكلمات اللطيفة واللمسات الرحيمة. إذا عاملك أحد بلطف فإنه يكسب قلبك فورا. وخاصة إذا كان هذا الشخص مديرا للسكن الذي تقيم فيه..." كان يتحدث بنبرة عتاب. "من الصعب أن تفهموا هذا. عزيزتي زينب، لا أنت ولا سيدي بمقدوركم أن تدركوا هذا الشعور. لكن عديم الشرف حجابي كان يدركه تماما. كان يعرف جيدا ما الذي يحتاجه الأطفال الوحيدون. اقترب منا جميعا على هذه الشاكلة بالطبع... شفقة بلا حدود، ورحمة لا نهاية لها. ونحن بدورنا اعتبرناه أبا بدلا من أبينا الراحل. بدلا من أبينا وأمّنا أيضا... ومعظمنا بالطبع لا يعرف كيف تكون طبيعة الشعور بوجود الأم والأب، ومع ذلك فقد شعرنا بذلك. فقد كنا نعجب أشد الإعجاب باهتمام مدير السكن الذي كان شامخا بأعيننا. كّل طفل كان يعتقد في نفسه أنه الأقرب له. يعتقد أن حبّه له بسبب ذكائه وإبداعاته. كذلك لأن القلب المجروح والمتألم هو الأكثر احتياجا له... فحينما تكونوا مثل ذلك فإنكم تظنون أن الجميع سيحبكم، وأن الجميع سيرأف بكم."

صمت من جديد، وطفرت منه دمعتان.

قلت بأسلوب رقيق: "أنت لست مجبرا على الحديث في هذا يا علي. فللجميع أسرار تخصّهم."

بدا على وجه الشاب ألم عميق.

"أنا مُجبَر على الحديث يا سيدي، ليس من أجل تطهير نفسي وإنما من أجل أن أتواجه معه. ومن أجل أن تفهماني أيضا."

لاحظت أن زينب أيضا كانت ترمق علي بقلقٍ ما عاد في مقدورها أن تخفيه. فهي أيضا كانت مثلي تخاف أن يكون القاتل عليا.

"أنا أيضا أحببت المدير أمير مثل بقية الأطفال الآخرين. لم يكن يستعمل اسم حجابي، فقد كنا نعرف أنه الأب أمير. وكان يقول للجميع إن اسمه أمير. ولهذا السبب يا عزيزتي زينب حينما تحدثت عن مدير سكن اسمه حجابي لم أعرف أن المقصود هو ذاك الشخص المنحرف الذي أعرفه."

أردت أن أخلّص الحوار قليلا من جو الاعتراف القاسي.

"حسنا، ألم تتعرف على حجابي وأنت تطارد رجال سيبسي أمام المسجد؟"

رمشت عيناه ببراءة.

"لم أره جيدا، لأني ركزت كل انتباهي على الرجلين اللذين كانا في الخلف. ولا أعرف ماذا كنت أفعل لو أني علمت أن الرجلين كانا يطاردان المدير أمير."

"ومتى عرفت أن حجابي هو مدير السكن الذي أقمت فيه؟"

وأخيرا شاركت زينب في الحوار، لكن كانت الكلمات تنسكب من شفتيها ببطء شديد كما لو أن لسانها كان يتحرك بصعوبة جدا.

"عرفت في الجامع. حينما كان سيسي إسماعيل يعدد رذائل حجابي. كان الاسم مختلفا، لكن بدا لي أنه يتحدث عن مدير سكننا. ومع ذلك لم أتأكد، فسألت إسماعيل عن ما إذا كان له اسم آخر، وحينما أجابني أن له اسما آخر يدعى أمير وأنه كان يرغب بندائه بهذا الاسم أدركت أن المقصود هو مدير سكننا السافل."

ذكّرته قائلا: "علاوة على ذلك، سألته عما إذا كان في وجهه أثر جرح."

ابتسم علي لأول مرة.

"صحيح، سألت عن أثر جرح. وحينما علمت بوجوده تيقنت بشكل قطعي أن حجابي هو نفسه مدير سكننا أمير." بدت على وجهه ملامح النصر. "إن أثر الجرح في وجه ذلك الأحمق بسببي أنا. أنا أفتخر بهذا الشيء القليل ودائما أشعر بالسعادة لأني تركت في وجه ذلك المغتصب ختما لن ينساه. لكنه هو أيضا أخذ ثأره."

أنا وزينب كنا نفكر بقلق كيف أخذ حجابي ثأره، لكن علي ابتسم بهدوء.

"المهم، لا أريد تشتيت الموضوع. فقد كنت في الحادية عشرة من عمري وكنت أرى عديم الشرف هذا بمقام أبي. ذات مساء دعاني إلى غرفته. كانت لغتي التركية ضعيفة، وكتابتي سيئة. كان يتظاهر بأنه يعلمني. وبالطبع لم يكن يعلمني شيئا. لم أنس ذلك المساء قط. كان في أواخر شهر يناير، مساء بارد وثلجيّ، ومدفأة الحطب تقرقر في الداخل. فالمدفأة التي أخفى الدفتر فيها كانت في ذلك الزمن معه أيضًا. لكن كان الدفتر بين يديه. قال حينها لي: 'انظر يا علي، سأشتري لك واحدا مثله، وليكن لونه أبيض... أنا أكتب مدوناتي اليومية، كذلك أنت أيضا دوّن في ذلك الدفتر ما تصادفه وتعيشه في حياتك اليومية. وبهذا الشكل تتحسن كتابتك.' نعم هذا كل

ما في الأمر، ثم بعد ذلك نسي الدرس. وقال بعدها: 'تعال الآن لنذهب إلى تلك الطاولة'. كان على الطاولة أطباق تفاح، وبرتقال، وبندق، وفستق، ومشمش... لم يكن النبيذ موجودا. كذلك لم يكن يستعمل الكحول. فالكحول هي أم الرذائل في نظره. وحينما دخلت إلى الداخل لم أكن أعرف نيته أبدا، لكن وجهه لم يكن يخلو من ملامح قذرة كانت بارزة فيه. كان وميضا لم يسبق لي ملاحظته من قبل. أجلسني على الطاولة. أكرمني بالفاكهة وقشّر البرتقال لي بيديه. لا أنسى أبدا، فقد استعمل السكين بمهارة عالية حيث نزع قشر البرتقال من أول مرة. كنت مسحورا من هذا العرض الجميل. وكنت أقول في نفسي: 'يا ليته كان أبي، ويا ليت بيتنا كان هنا.' لم يستمر تفكيري بهذا طويلا، لأن أمير سحب كرسيه نحوي. مسح أولا شعر رأسي بيديه، فأعجبني ذلك. نعم أعجبني ذلك، أفلا يعجب المرء حُبّ والديه له؟ بالطبع كان دائما يفعل ذلك، كان يمسح على رؤوس الأطفال جميعهم، وينحني مقبّلًا خدودنا متظاهرا بالشفقة علينا. فعلها من جديد، فحينما اقترب كرسيه مني بشكل ملاصق لمقعدي، انحنى وقبلني على خدي، لكنه لم يتراجع. ألصق شفتيه بوجهي، ووضع يديه على فخذي."

صمت علي فجأة حينما رآني وزينب مذهولين مما نسمع. لكنه لم يطل وعاد من جديد.

"نعم، كان أمرا مخزيا وفاضحا... إن أردتما فلن أتحدث لكما بشيء، لكن يجب أن أتخلص من هذه اللحظة السيئة، يجب أن أنجو من هذا الكابوس الجاثم. لا أستطيع أن أتحدث إلا إليكما. ولا أطلب المساعدة إلا منكما. فلا قريب لي من بعدكما."

مدّت زينب التي كانت دموعها تنهمر بصمت يدها إلى علي وأمسكت

يده.

"بالطبع ستتحدث لنا فقط،" قالتها وهي تغص بالبكاء، ولأنها لم تستطع أن تُنْشِئ جملة جديدة فقد كرّرت الجملة السابقة مرارا. "بالطبع ستتحدث إلينا فقط... بالطبع ستتحدث إلينا فقط..."

أمسك علي يد محبوبته برفق، لكنه هو أيضا لم يستطع أن يتكلم. كان لا بد لأحد أن يتكلم. فقلت بصوت سلطوي نوعا ما وأنا أدفع ذلك الشعور الذي كان يزداد في قلبي: "نحن عائلة واحدة يا ولدي، بالطبع ستتحدث إلينا، وهل هناك أحد غيرنا لتتحدث معه؟"

ترك علي يد زينب.

بدأ الحديث من جديد بصوت متوتر. "كانت ليلة مرعبة، الحرارة في الغُرفة مُخيفة. لم يكن الفحم الذي بداخل المدفأة مشتعلا فحسب وإنما بدا أيضا أن كل شيء في الغرفة كان يشتعل نارا. كان الرجل يتصبب عرقا، واختلطت حبات العرق بلعابه السائل من فمه. لا أعرف، فربما لم يحدث هذا، لكنني هكذا أتذكر. كان هذا المنحرف الضال يتجرأ أكثر وأكثر في كل دقيقة وفي كل لحظة. كنت خجولا ومذهولا. ولم أكن أعرف كيف أحمي نفسي. كيف لي أن أواجه رجلا بالغا. قلت له فقط: 'توقف، توقف بابا أمير، لا تفعل ذلك' لكن صوتي كان ضعيفا جدا إلى درجة لم أكن متأكدا عندها ما إذا كان الرجل قد سمعه. مددت يدي بشكل عفوي إلى الملقط الحاد الذي كان موجودا لالتقاط الكستناء. لكن مدير السكن كان غارقا إلى درجة لم يشعر عندها بحركتي. فتناولت الملقط وضربت وجهه. صاح ألما: آه، آه. فتلطخ الطرف الأيسر من وجهه بالدم على الفور. كنت أنظر إليه وأنا مذهول. وضع يده على وجهه، فحينما رأى الدم صرخ خوفا. تهجم وهو يقول: 'ابن الحرام! ما الذي فعلته يا

ابن الزانية،' وقع الملقط مني، ولم أستطع أن أحمي نفسي. بدأ يضربني بيده بكل ما أوتي من قوة، فدخلت تحت الطاولة كي أحمي نفسي. لكنه كان غاضبا جدا فسحب الطاولة وبدأ يركلني برجله. فكنت أتقلب على الأرض يمينا وشمالا لكن بلا جدوى. فضربني على أنفي وكان هذا آخر شيء أتذكره، وبعدها كان ظلاما..." صمت علي مرة أخرى لأنه رأى زينب. كان وجه الفتاة مصفرا، وعيناها مفتوحتين بذهول، وشفتاها متباعدتين. بدا لنا أن هذه الحادثة لم تحدث قبل سنوات، بدا لنا أننا في تلك الليلة البائسة كنا جميعا في تلك الغرفة الخانقة التي كانت تشتعل بحرارة مدفأة الفحم، بدا لنا أن عليا قد تحرّش به أمام أعيننا وتعرض للضرب دون أن نحرك ساكنا.

قال محاولا أن يجد العزاء لنفسه: "لحسن الحظ ضربني على أنفي، فالكابوس انتهى في تلك اللحظة. وحينما فتحت عيني وجدت نفسي في المستوصف. كان جسدي يؤلمني من كل مكان لكنني لم أكن مكترثا بذلك، فقد كنت أعتقد أني دافعت عن شرفي. في تلك اللحظة رأيت بنطلوني الملطخ بالدم. ماذا؟ هل اغتصبني هذا المنحرف السافل يا ترى؟ بدأت موجة الخزي تهز بدني من جديد. ممرضة المستوصف نزعت ثيابي، ومسحت وجهي وعيني، وغسّلتني. ومن شدة خجلي لم أستطع سؤال السيدة عما جرى معي. كانت السيدة تتحسر ألما على حالي: 'آه يا ولدي آه، اللعنة على عديمي الشرف. كيف ضربوك دون أن يشفقوا عليك؟ حمدا لله أن المدير جاء في الوقت المناسب، فوجهه أيضا في وضع سيء.' وحينما سمعت هذه الكلمات علمت أن الرجل قد كذب عليها. أردت أن أعترض وأشرح لها كل ما جرى. لكن أنّى لهم أن يصدقوا ولدا صغيرا؟ وبينما كنت أفكر في هذا بقلق فُتح باب المستوصف ودخل منه مديرنا

المنحرف ووجه مغطى بالضمادة. نظر إلي وابتسم وكأنما لا علاقة له بما جرى معي، وقال وهو يقترب مني: 'آه يا ولدي، آه يا بني، هل أنت بخير؟ لا تخف بعد الآن، فقد هرب اللصوص، لا تخف فأنت الآن في مأمن.' فحينما قال ذلك أبكاني، لقد بكيت حينها بشدة. طلب المدير المنحرف من الممرضة إحضار حليب ساخن من أجل إبعادها عنا. وحينما خرجت السيدة عقد حاجبيه وأمسكني من كتفي. 'إن تحدثت لأحد سأقتلك. لن أتدخل بك بعد الآن، لكن فليبقى ما حدث سرا بيننا. هل اتفقنا؟' وحينما لم أجب هزني مرة أخرى قائلا: 'أنا أتحدث معك، هل اتفقنا؟' لم أستطع قول اتفقنا واكتفيت فقط بهز رأسي. ثم تابع مهددا. 'لا تنس، إن سمع أحد سأقتلك، سأدفنك، سأدفنك على حافة مجرى الماء الذي في الأسفل هناك. ولن يعرف أحد عنك.' خفت، ولم أستطع إخبار أحد. وعلى كل حال نُقلَ بعد ثلاثة شهور إلى مكان آخر، فتركنا وانصرف."

صمت من جديد، وأخذ نفسا عميقا جدا من الأعماق.

"لكن بقي في عقلي آنذاك ذلك الشك. هل فعل أمير بي شيئا سيئا بعد أن فقدت وعيي؟ لم أستطع التخلص من هذا الشك أبدا. وعاهدت نفسي أني سأجد هذا المنحرف أمير يوما ما وأدفّعه ثمن ما فعله بي. وفي الأمس حينما علمت أن الرجل الذي يُدعى حجابي هو أمير، عشت مشاعر معقدة. فها قد جاءت الفرصة التي طالما انتظرتها سنوات طوال. كان من السهل عليّ قتله، لكنني أدركت بعد ذلك مدى الخطأ الذي كنت سأرتكبه. فأنا لم أعد طفلا، أنا الآن رجل قانون، لم أرتكب جريمة، ويجب أن لا أرتكبها. لكنني لم أكن لأقبل أن يعيش عديم الشرف هذا الذي يدعى بأمير بعد كل ما فعله بي. ولهذا السبب أردت الحديث معه. كنت على الأقل سأضرب وجهه بتلك القذارة التي فعلها... وكنت أيضا

سأعلم منه ما جرى تماما في ذلك المساء.

كان لا بد لي من إزالة ذلك الشك الذي بدّد كياني سنوات. لهذا السبب ذهبت إلى منزل حجابي. من أجل التحدث، لكنني حينما دخلت المنزل وجدته مقتولا. شخص ما أباد مدير السكن المنحرف ونثر أثاث الغرفة يمينا وشمالا. ذهلت مما رأيته وعشت خيبة أمل كبيرة جدا. أحدهم أخذ ثأري من بين يدي. والأسوأ من ذلك أنه لن يكون بمقدوري بعد الآن معرفة ما جرى معي في ذلك المساء بتاتا، فكنت على وشك الخروج من المنزل فعلقت أنظاري بالأثاث المبعثر، والأدراج المفتوحة. فالقاتل أو القتلة كانوا يبحثون عن شيء. بدأت التفكير بغية الوصول إلى استنتاج لما رأيته. علمت أن رجال سيسي هم من ارتكبوا الجريمة لكن عن ماذا كانوا يبحثون؟ ولحسن الحظ تذكرت دفتر أمير الأسود. أكانوا يبحثون عنه يا ترى؟ كنت أعرف أن أمير كان يكتب فيه مدوناته اليومية، ومن المحتمل أن تلك الحقيقة التي أود معرفتها كانت مقيدة في تلك الدفتر. في هذه المرة، بدأت أنا بالبحث عن ذلك الدفتر داخل المنزل، فوجدته في زمن قصير. كان الدفتر مطويا في طبقات من النايلون داخل صندوق مخبّأ في مدفأة الحديد. فتحته وبدأت بقراءته هناك، فالرجل دوّن فيه كل أفعاله تقريبا. وبينما كنت على وشك الوصول إلى القسم الخاص بي، سمعت صافرات الشرطة فتوجّهت إلى النافذة ورأيت ابن الحرام إرجو. خرجت أمام الشقة، ونزلت إلى الطابق السُّفلي، وأخفيت الدفتر الأسود في خزانة ساعة الماء، وعدت إلى الشقة من جديد. لأنني كنت أعلم أن كاميرات المراقبة التقطتني وأنا داخل إلى العمارة. جاء إرجو بعد ذلك، ولم أخبره بالحقيقة، ثم جئتم أنتم وضغطتم أيضا، فلم أجد الشجاعة التي تمكنني من الحديث إليكم بكل ما جرى. بعد ذلك تعرفون ما حدث،

فقد خرجت من الشقة، ونزلت إلى الطابق السفليّ وأخذت الدفتر قبل خروجي من العمارة وأخفيته تحت قميصي. ذهبت إلى المنزل وقرأته. المدير أمير لم يلمسني! فحينما فقدت الوعي واختلط وجهي وأنفي بالدماء خاف كثيرا، فاستدعى الممرضة. لكنني لم أشعر بالراحة كثيرا حينما قرأت هذا. حتى وإن لم أتعرض للاغتصاب فإن ذلك السافل الحقير تحرش بي. يجب أن لا نكره شخصًا مقتولا، لكنني كلما قرأت الأسطر وعلمت بما فعله ذلك القذر بالأطفال الآخرين أصبحت أعتقد أن قتله كان معروفا أهديناه إياه. وفي وسط الدفتر صادفت اسما معروفا لنا. سيبسي إسماعيل. لقد كان حقا ينادي الطفل بإسماعيل الحلو. فقد تعرض رئيس المافيا، مثل عاكف صويقان الذي قتل على يد القط الأعمى، للاغتصاب من هذا الحقير. تعرض لذلك مرّات عدّة..."

أصبح علي يتكلم بأريحية؛ لا ندري، هل لأنه كان يعبّر عن ما بداخله أم لأنه تواجَه مع الحقيقة؟ لكن قاطعته زينب هذه المرة.

"لماذا؟ لماذا كتب كل أفعاله؟ إن رآها أحد فستكون كارثة."

بعثر علي بيده اليمنى شعره المتناثر.

"وأنا أيضا لم أعرف. فهذا الدفتر بالنسبة إلى هذا الرجل خطر كبير، وهو خير شاهد عليه."

"من أجل السنوات اللاحقة،" قُلتُ، "فحينما يصل إلى مرحلة يصبح عاجزا فيها عن اغتصاب الأطفال، سيعود في وقت لاحق إلى ما كتبه ليقرأه ويعيش الشعور نفسه. لقد ذكر أحد أطباء علم النفس أن ذلك يُسعدهم. على أيّ حال عزيزي علي، لقد ذهب كل شيء، ولا داعي للتفكير في هذا." ابتسمتُ. "هل تعرف أني اعتقدت لحظة أنك القاتل؟"

لمع ذلك الضوء الحاد في عينيه.

"كان من الممكن ذلك يا سيدي. كنت قريبا جدا من لحظة الجنون هذه. فبعد أن علمت أن حجابي هو ذلك المتحرش السافل استيقظَت في داخلي كراهية عظيمة. كان شعورا مدمّرًا للغاية. ولو جئت قبل رجال سيبسي لكان من المحتمل أن أقتل مدير السكن. ولحسن الحظ حينما دخلت الشقة كان ميتا."

قالت زينب: "لكن يجب علينا أن نثبت ذلك. فهل نحن متأكدون من أن القتلة هما سركان وعردة؟ فسركان مُصِرّ على إنكاره. وبالنسبة إلى إسماعيل فقد سمعتم أقواله. والأخطر من ذلك عدم وجود أي أثر لصراع على يديه."

كانت محقة، فلم يكن بين أيدينا دليل آخر غير تسجيلات كاميرا المراقبة، لكن جميع الإشارات كانت تشير إلى رجال سيبسي. فقبل قليل شعرت وأنا في غرفة التحقيق أن سيبسي وسركان لم يكونا صادقين في كلامهما. نعم، رجال سيبسي هم من قتلوا ذلك الرجل المنحرف الذي يدعى حجابي.

قلت بصوت مليء بالتفاؤل: "لا تتعجلي عزيزتي زينب، لم نقبض حتى هذه اللحظة على عرده."

29

"أنا أكتب خبره فقط."

كانت بوكت تنتظر في حديقة محل كزي للحلويات، ترتدي قميصا أنيقا لونه أخضر، وقد سرّحَت شعرها نحو الخلف تسريحة ذيل الحصان، وتجلس على طاولة قريبة من الرصيف فيما تشرب الصودا. وحينما رأتني ابتلعت سائل الصودا الذي كان في فمها على عجل، اضطربت قليلا وكادت أن تسعل. نهضت وهي تبتسم، ومدت يدها باحترام.

"مرحبا سيدي، أهلا وسهلا."

ضغطت على يدها، كان كفها يحمل برودة كأس الصودا.

"أهلا بكم سيدة بوكت، أرجو المعذرة على تأخري."

قالت بلطف: "وهل عشر دقائق تُعدّ تأخيرًا؟ هذا طبيعي جدا وسط حركة المرور في إسطنبول. الناس في هذا الحر جن جنونهم. فهناك شجار على كل إشارة حمراء..."

بينما كنت أجلس على الكرسي المقابل لها تحدثت بضجر.

"الحرارة سيئة جدا. أنت صحفية سيدة بوكت، حسب معرفتكم متى سيتحسن الجو؟"

أثنت عنقها بيأس.

"ذكر المختصون أن هذا الأسبوع سيبقى حارا هكذا... يبدو أنه سيطول كثيرا." اتجهت أنظارها إلى النادل. "ماذا تشربون؟"

قلت: "يبدو أن مذاق الصودا جميل. فأنا أيضا أريد واحدة منها."
وبمجرد انتهائي من طلبي رن هاتفي. أخرجت الهاتف من جيبي، كان على الشاشة اسم ذكائي. فقلت وأنا انهض من مكاني: "أعتذر سيدة بوكت، يجب أن أرد على هذا."

"بالطبع، وأنا في هذه الأثناء سأطلب صودا لكم."

حينما اقتربت من مدخل الحديقة فتحت الهاتف.

"ألو ذكائي، تفضل، أنا استمع إليك."

"يجب أن نلتقي يا نوزات."

"وما الذي حدث يا ذكائي؟"

"لست متأكدا، لكن يبدو أنني استطعت معرفة هوية القط الأعمى."

كان في صوته اضطراب.

"ومن هو؟"

لم يجب فورا.

"لا، لا فهذا ليس من المواضيع التي تقال في الهاتف. علاوة على ذلك أريد أن أستمع إلى رأيك."

يبدو أنه توصل إلى اكتشاف مهم، لكن بما أنه كان مترددا فهذا يدل على شكّه العميق.

"حسنا، إذن تعال إليّ لنلتقي في مركز الأمن."

قال: "اتفقنا، ذهبت زوجتي جليلة إلى السوق وبمجرد عودتها سأخرج." لكنه ما زال منفعلا. "إن كان مثلما توقعت فإن هذا الأمر قد انحل يا نوزات."

القبض على القط الأعمى أمر في غاية الأهمية بالنسبة إليه، ولم يعد يستطيع الجلوس في مكانه لاعتقاده أن هذا الأمر سيتحقق قريبا.

"إن أردت فلنتحدث في الهاتف."

"لا، يجب أن نلتقي وجها لوجه. سأكون بعد ساعة عندك."

وحينما عدت إلى الطاولة لاحظت أن بوكت كانت ترمقني بفضول.

"هل كان متعلقا بجريمة الأمس؟"

وضعت الهاتف في جيبي وجلست على الكرسي المقابل لها.

"لا، وإنما موضوع آخر. العمل لا ينتهي عندنا سيدة بوكت. على أيّ حال، جريمة الأمس ليست معقدة كثيرًا، فاليوم أو غدا سنمسك القاتل."

بدا أنها لم تصدّق.

"الجريمة ليس لها علاقة بالضابط علي، أليس كذلك؟"

طبعت ابتسامة ساخرة على شفتي واستندت للخلف بهدوء.

"مساعدي لا يرتكب جريمة. ومن اختلق هذه الأكذوبة فقد خدعكم بها."

أجابت بوكت بالأسلوب الساخر نفسه.

"وإن قلت لكم إن هذا الخبر قد حصلت عليه من شرطي مثلكم. علاوة على ذلك ضابط..."

"لم أفاجأ أبدا، حتى أنني أعرف هوية ذلك الشرطي جيدا. ومنبع المشكلة هو هنا في الأصل. فهناك تنافس بين رجال الشرطة. علاوة على هذا تدخّل بعض المسؤولين أيضًا..."

اعترضت بصوت مرح نوعا ما.

"لا، وهل نحن في الولايات المتحدة؟ إذن، فليشتبك رجال الشرطة المحليين مع الفدراليين..."

بقيت هادئا جدا.

"لا تتحدثي هكذا، فعندنا أيضا تحدث مثل هذه الاشتباكات. ولنقل إنها نزاع بين المكاتب. هناك جريمة على أرض الواقع ومن المفترض أن نحقق فيها نحن. ففي جريمة الأمس حشر شرطة النظام العام أنوفهم فيها. فقد ذهبوا على عجل إلى مسرح الجريمة. وحينما تقابلوا هناك مع علي نشب خلاف بينهم. كان الأصل أن لا يحدث أي خلاف. لكن ضابط شرطة النظام العام كان على خصومة قديمة مع علي. الأصل أن لا يكون ذلك، لكنه حدث. علت نقاشات بينهما، ثم تدخلت بينهما وانتهى الأمر. يبدو أن كل من اتصل بكم كان يرغب في حدوث مشكلة. لهذا السبب تراهم يفترون على علي..."

نصبت عينيها في وجهي؛ هل كنت أقول لها الحقيقة أم أني أحاول التخلص منها؟

"يعني أنتم تقولون إن عليا بريء؟"

أجبت بشكل قاطع.

"بكل تأكيد، وأنا أضمن ذلك."

قالت وهي تمد يدها نحو الصودا: "فهمت،" وتابعت بصوت مقتنع.

"ما دام أنكم تقولون ذلك فهو كذلك."

أجبت مؤكدا.

"نعم إنّه كذلك."

وحينما كانت بوكت تأخذ من الصودا رشفة أخرى، أردت تغيير الموضوع.

"لنترك الآن هذه المواضيع التي لا طائل منها، ولنتحدث عن القط الأعمى. حقا ماذا تعرفون عنه؟"

وضعت كأس الصودا على الطاولة.

"من المحتمل أني لا أعرف أكثر منكم."

أثنيت عنقي كمن يعترف بهزيمته.

"في الحقيقة لا نملك معلومات كثيرة عنه. مضت خمس سنوات دون أن نُثبت هوية القط الأعمى. لا نعرف إلا المعلومات المتعلقة بالجرائم التي ارتكبها. وأنتم أيضا تعرفون طقوس هذا الرجل، طلقة واحدة في مؤخرة الرأس، وأجساد ملقاة في الأماكن الخاصة بالأطفال، وقطعة قماش حمراء لعقد العيون، وقطع أذن المقتول وأخذها، علاوة على هذا تلك الألعاب..."

رمقتني بعيون متسائلة.

"بهذا القدر فقط؟ هل حقا ليس بين أيديكم أي معلومة مهمة؟"

لم أستطع التحدث إليها عن الحافلة ذات اللون الداكن.

"نعم، بهذا القدر فقط. هذا صحيح، ما سبب فضولكم بهذا الموضوع؟"

"إنّه الخبر الأوّل الذي أعددته. تحدثت فيه عن الجريمة الأولى التي ارتكبها القط الأعمى. في شهر يناير، لكنه كان مشمسا وكأنه يوم من الربيع. عُثر على الجسد في حديقة مدرسة أساسية في منطقة بشكتاش. ذهبت مع السيد متن إلى مكان الجريمة. السيد متن مصور قديم في الصحيفة. حينما رأيت الجسد عند باب المدرسة تعبت، لم أنظر إليه وأردت الذهاب. فقال السيد متن حينها: 'إن أردت العمل في هذا فيجب عليك أن تكوني أكثر شجاعة يا ابنتي، وإلا فلا خبز لك في مراسلات المحكمة'. حينما سمعت ذلك أجبرت نفسي على البقاء واقتربت من الجسد. كان هناك الضابط ذكائي يحقق في القضية. السيد متن يعرفه، فطلب منه السماح لي بالاقتراب من مسرح الجريمة. إنّ أكثر ما أثّر فيّ هو

قطعة القماش الحمراء التي كانت معقودة حول عيني القتيل. ظننته دما في البداية، ثم علمت أنها قطعة لربط العين. كذلك ظننت أن السلحفاة الخضراء التي كانت بين رجليه حقيقة. لكن السيد متن بيّن لي أنها لعبة. حتى أنني لم أعلم أن أذن المقتول مبتورة، وقد علمت ذلك حينما وقعت الجريمة الثالثة وأدركت أن القاتل يأخذ هدية مثل هذه من ضحاياه."

حينما أحضر النادل الصودا صمتت. فسألت وأنا أمد يدي إلى الزجاجة الباردة.

"أأنتم من ذهب إلى الجريمة الثانية؟"

"أنا ذهبت لكن بالتصادف. فقد وقعت بعد ثلاثة أيام من الجريمة الأولى. في الحقيقة كان لا بد أن يذهب السيد جاويت. ربما تعرفونه، فهو مراسل المحكمة منذ سنوات..."

بالطبع كنت أعرفه، ففي السنة التي بدأت فيها وظيفتي أصبح جاويت مراسلا صحفيا في المحكمة. كان من الكتّاب الساخرين. لم أر منه سوءا، وكنت أعطيه معلومات قدر الإمكان، هو أيضا كان يكتب أمورا جيدة بالنسبة إلينا. فليرحمه الله كان يلقب بالمهرج. فحينما كان شابا ذهب إلى ثلاجة موتى وقضى ليلة مع الجثث رغبة في كسب التحدي الذي كان بينه وبين رفاقه، ومن هنا اكتسب هذا اللقب.

قلت بحزن: "لقد مات قبل ستة شهور بنوبة قلبية، أليس كذلك؟"

قالت مصحّحة: "بسبب نزيف في الدماغ، فقد كان سمينا كما تعرفون. عانى ارتفاعًا في ضغط الدم، وهو مصاب بمرض السكري وأمراض أخرى. كان يشرب كثيرا لكنه كان إنسانا طيبا، إنّه أستاذي، وقد تعلّمت منه كثيرًا. على كل حال، رحمه الله، في ذلك اليوم كان السيد جاويت مريضا يرقد في فراشه. فقمت بالعمل بدلا منه. كنتُ قليلة

التجربة إلى درجة أعجز عندها عن كشف الرابط بين الجريمتين. فنبهني إلى ذلك السيد متن حينما قال: 'يبدو أن القاتل نفسه يا بوكت، انظري يا ابنتي، فعيون هذا القتيل أيضا معقودة بقطعة قماش حمراء. علاوة على ذلك ترك إلى جانبه لعبة قطار.' ومنذ ذلك الحين بدأت أدرك أن هذه الجريمة ليست من الحوادث العادية أبدا. اقتربت فورا من السيد ذكائي وسألته: 'أيمكن أن يكون مرتكب الجريمتين قاتل متسلسل؟' أجاب بالنفي: 'يا ابنتي، من أين أتيت بهذا؟ هناك مجرم مجنون يقتل الناس وهذا كل ما في الأمر، فلا قاتل متسلسل هناك ولا غيره.' لكنه هو أيضا لم يكن متأكدا من صحة كلامه. بعد ذلك عاد القاتل وارتكب جريمته الثالثة في السابع من شهر يناير. كان هناك تشابه في الجرائم الثلاثة. الشرطة في أنحاء إسطنبول كلها في حالة استنفار، فقد كانوا يتخوفون من وقوع الجريمة الرابعة بعد يومين، لكنها لم تقع. توقفت الجرائم؛ ولم يلوث القاتل يده بالدماء مرة أخرى لا في اليوم الثامن ولا في العاشر، ولا في الثاني عشر. اعتقدنا أنه توقف، وأتوقع أن ذكائي أيضا كان يفكر مثلنا. تحدثت مع ذكائي في اليوم العشرين من شهر يناير. كان يبدو مطمئنا وواثقا من قدرته على الإمساك بالقاتل، حيث كان يقول: 'سنمسك بهذا المجنون في نهاية المطاف.' لكنه لم يستطع. وبعد مرور شهر خرج القاتل في اليوم الثاني من شهر فبراير للميدان من جديد. نعم، فقد وضعنا له لقبا: القط الأعمى. كانت الجثة هذه المرة متروكة في متنزّه في حي كوم قايي. كانت الطقوس موجودة بأكملها ولم يترك مجالا واحدا للتردد فيها. لن أنس أبدا تلك النظرات الغريبة التي كانت في وجه الضابط ذكائي. لم تكن نظرات صياد طموح يجري خلف صيده المستعصي عليه، وإنما كانت نظرات تبحث عن مخرج من لعبة الشطرنج التي يواجه

فيها شخصا ذكيا ومنافسا له. في نظراته فضول كبير، وغضب عميق، وجزء من الذهول، لكن لا وجود للخوف فيها. حتى أن وجهه المدوّر بدا بهذا الانفعال شابا من جديد. وبالطبع لم يكن في هذه الجريمة، كما كان حال الجرائم الثلاثة التي وقعت في شهر يناير أيضا، لا دليل، ولا شاهد، ولا إشارة. بعد ظهر ذلك اليوم وبينما كنت أكتب ذلك الخبر كتبت ملاحظة أقول فيها: 'أخاف أن تستمر الجرائم.' لكنني لم أكن أتوقع أن تحدث بهذه السرعة أبدا. ففي اليوم التالي عُثر على جسد آخر في متحف الأطفال الكائن في بوستانجي. فالقط الأعمى لم يكن يشبع. سمعت الضابط ذكائي يقول بصوت منخفض عند رأس الجثة: 'حسنا، حسنا، اقتل لنرى إلى متى ستبقى كذلك. فكلما أكثرت من القتل ازدادت أخطاؤك.' كان يتمتم بينه وبين نفسه، لكنه في الحقيقة كان يتحدث مع ذلك القاتل المتسلسل الذي لا يعرف عنه أدنى معلومة. ومن المحتمل أنه لم يكن يتكلم عبثا. كان يأمل بناء على تجاربه السابقة أن يترك القاتل خلفه إشارة تدل عليه. لكن لم يحدث مثلما كان يرجو. فالقط الأعمى استمر في القتل، حيث عثر على جسد آخر، كان موجودا أمام دار حماية الطفل في أيوان سراي. وفي هذه الجريمة أيضا لم يكن هناك أي دليل."

حقا كان من الممكن أن تفيدنا هذه الصحفية المتجولة في عملنا، سألتها بحماس:

"أأنتم فقط من أصبح يذهب إلى جرائم القط الأعمى؟"

أخذت رشفة من الصودا وأجابت وهي تبتسم بلطف.

"ذهبت أنا إلى جميع الجنايات التي ارتكبت. فقد قدم لي السيد جاويت تضحية تاركا هذا الأمر لي. فقال لي: 'هذه حادثة كبيرة يا ابنتي. ستأخذين خبرا كثيرا من هذه القضية. أنا لن أعمل في هذه القضية، لكن حذار أن

تلوثيها بالغائط.' كما تعلمون، فقد كان لسانه سيئا قليلا رحمه الله."

"قليلًا؟ ما الذي تقولينه سيدة بوكت؟ فالرجل لم يكن يتكلم إلا بسفالة. لكن لا أخفي عليكم فقد كان يليق بلسانه... حسنا، ألم تتحدثي مع جاويت عن هذا القاتل؟ ماذا كان يقول عنه؟"

لم تتعب الشابة ذهنها كثيرا.

"نعم، كنا نتحدث في بعض الأحيان. لكن لم نكن نتكلم عن هوية القاتل وإنما كان يعلمني كيفية وجوب الاقتراب من الخبَر كصحفيّة في هذه القضية. كان يحذرني قائلا: 'لا تتحركي كثيرا، فهناك مجنون متعلّم يلعب لعبة القتل المتسلسل. لا تتقدمي كثيرا، فربما يعتدي عليك أنت أيضا.' بالطبع لم آخذ بتحذيره كثيرا. حتى أنني كنت أتمنى بداخلي أن يتصل بي القط الأعمى بأي شكل. وبالطبع لم يفعل ذلك."

كان لدي الفضول لمعرفة أفكار بوكت عن موضوع القط الأعمى؛ فربما تكون أفكارها مفيدة لكونها صحفية مهتمة بهذا الخبر منذ سنوات.

"هل في اعتقادكم أنه كذلك؟ هل القط الأعمى مجنون متعلم يحتذي بالقتلة المتسلسلين؟"

أجابت على الفور.

"لا، في اعتقادي أنه شخص قد تألم حقا. شخص تعرض حقا إلى التحرّش أو الاغتصاب مرّات عدّة أيضا. أمّا تصرفه الذكي فربما له سبب آخر. لا أعرف عنه، لكن قتله اثني عشر شخصا بدم بارد دون أن يُظهر ندما على ذلك يشير إلى كره عميق في داخله. كره لا يعرف النهاية رغم برود الجرح. لا بد أن القط الأعمى عاش واقعة مدمرة. فهذه ليست جرائم محاكاة لأحد. ولهذا السبب لم تطفئ الجرائم الثلاثة التي ارتكبها في شهر يناير النار المشتعلة في صدره. فواصل سفك الدماء في شهر فبراير. ببرودة

كبيرة، وبدقة متناهية، وبمهارة عالية. ودون أن يترك خلفه أي إشارة."

قلت مشتكيا: "ما زال حتى هذه اللحظة لا يترك أثرا أو دليلا خلفه. حسنا، هل كنتم تتحدثون عن طقوس القاتل؟ لماذا يترك الجثث في أماكن معينة؟ ورابطة العين الحمراء، والألعاب، والأذن المقطوعة وغيرها..."

"كنا نتحدث بالطبع، والأهم من ذلك أننا توصلنا إلى نتيجة. إلى عدد. وفي الأصح إلى عدد مهم بالنسبة إلى القط الأعمى. فقد أثبتنا أن مجموع الأيام التي ارتكب فيها القط الأعمى جرائمه في شهر يناير وشهر فبراير تساوي العدد 12. وذلك على النحو الآتي؛ فقد قتل في اليوم الأول من شهر يناير، واليوم الرابع، واليوم السابع، وقتل في اليوم الثاني من شهر فبراير، واليوم الثالث، واليوم السابع. جمعنا الأيام التي ارتكبت فيها الجرائم في كلا الشهرين فحصلنا على المجموع 12. تحدثت للضابط ذكائي عن العدد 12. فقال لي: 'لا وجود لشيء كهذا. ولا داعي أن تسعدوا القاتل بمثل هذه الأرقام الغامضة. فهو في النهاية قاتل معتد لا أكثر.' لكن لم يكن كهذا، والضابط ذكائي كان الأعرف في ذلك. لم أطل كلامي معه وفي الوقت نفسه لم أكتب هذه المعلومة في صحيفتي."

كانت تتحدث وكأنها فقدت الاهتمام، أردت معرفة حقيقة الأمر.

"لكن في النهاية أنت صحفية يا سيدة بوكت، ولا بد أنك بقيت مستمرة في مطاردة الخبر."

لمعت عيناها الصغيرتان.

"بالطبع بقيت مستمرة. وبدأت بالقراءة عن القتلة المتسلسلين. فقرأت بنهم تقارير مكتب التحقيقات الفيدرالي، وقصص حياة القتلة المتسلسلين، والروايات وغيرها. فعقدت مقارنة بين القط الأعمى وبين

القتلة المتسلسلين الذين قرأت عنهم، ووازنت بين جرائمهم وبين جرائم صاحبنا هذا. فتوصلت إلى بعض النتائج. فمن المحتمل أن القط الأعمى شخص تعرض للاغتصاب ولهذا السبب يختار ضحاياه من المنحرفين. وبالنسبة إلى اللعبة التي يتركها إلى جانب القتيل فإنها تشير إلى طفولته التي تعرض فيها إلى الاغتصاب. ولا بد أن هناك سببا لتغطية العيون. فربما تعرض القط الأعمى للاغتصاب وهو يلعب. لكنني لا أعرف السبب من قطعه آذان الأشخاص الذين يقتلهم. علاوة على ذلك، لم أتمكن من حل لغز العدد 12. وبالطبع فقد كان القط الأعمى يواصل معرضه الفني. ففي شهر مارس عاد للميدان من جديد. فقتل ثلاثة أشخاص من جديد، وتركنا من جديد مع الرقم 12. حيث ارتكب جرائمه في اليوم الأول من مارس والثالث والثامن، فحينما نجمعها يكون الناتج 12 من جديد. نحن كصحفيين لم نتمكن من الوصول إلى أي معلومة إذا استثنينا العدد 12. اعتقدت في البداية أن الضابط ذكائي يخفي عنا معلومات، لكني أدركت بعدها أنه لا يملك أي إشارة. انتظرنا شهر أبريل بفضول وقلق، حيث كنا نعتقد أن القط الأعمى سيرتكب جرائمه من جديد، لكنه لم يفعلها. فلم يسفك الدماء لا في شهر أبريل ولا في شهر مايو. كنت مندهشة مثل الضابط ذكائي. ما الذي حدث حتى جعل القط الأعمى يعيد السيف إلى غمده يا ترى؟ لكن هذا لم يطل كثيرا. ففي شهر يونيو من عام 2012 عاد قاتلنا إلى جرائمه مجددا. فقد قتل في اليوم الثاني والرابع والسادس من نفس الشهر. بمهارة كبيرة ودون أن يترك خلفه أي أثر يقود إليه. حينما نجمع الشهور الأربعة التي حدث فيها القتل فإن الناتج يكون 12 من جديد. نعم، فقد جرى القتل في الشهر الأول والثاني والثالث والسادس. والمجموع هو 12 كما ترون. حينما لاحظت ذلك علمت أن القط الأعمى

لن يرتكب جريمة أخرى؛ لأنه أكمل العدد 12. أخبرت رأيي هذا الضابطَ ذكائي. فقال: 'لا أعرف يا بوكت، ربما تكونين محقّة، لكني حقا لا أعرف. 'لكنني كنت على حق. فالقط الأعمى بعد أن قتل 12 شخصا متحرشا لم يسفك الدماء أبدا بعد اليوم السادس من شهر يونيو عام 2012..."

صمتت، كانت تنظر بعينين مليئتين بالأسئلة. وأنا من تكلمت بدلا منها.

"بقي ساكنا لغاية شهر يونيو من هذه السنة!"

انحنت نحوي على الطاولة وكأنها ستفصح لي سرا، لكنها كررت كلماتي فقط.

"بقي ساكنا لغاية شهر يونيو من هذه السنة!" صمتنا ننظر إلى بعضنا. "لكنها كانت سخافة يا سيدي. حقا كانت سخافة. فالجريمتان الأخيرتان لا تتفقان مع حسابات القط الأعمى. وأنا برأيي أن القط الأعمى أنهى عمله في عام 2012 يعني بلغة محلّلي مكتب التحقيقات الفيدرالي، أنهى نتاجه الفني. وكي نتأكد من ذلك لابد لنا من أن ندرك أهمية العدد 12. صحيح أننا لم ندرك ذلك لكن جميع الجنايات التي ارتكبت في عام 2012 تؤكد على العدد 12. لكن مقتل شخصين في الشهر السادس في عام 2017 يفسد هذه الطقوس..."

كانت تشير إلى موضوع ناقشناه سابقا.

"ألا ترون أنكم اتخذتم قرارا مبكرا سيدة بوكت؟ فالرجل قتل شخصين، فربما يخطط في هذه السنة لقتل 17 شخصا."

تفاجأت لكن ذلك لم يدم طويلا.

"لا أظن ذلك يا سيدي، أنا أرى أن العدد 12 عدد مهم بالنسبة إلى القط الأعمى؛ والعدد 17 لا معنى له. لو كان سيقتل فإنه سيقتل

في اليوم السادس من هذا الشهر كما فعل قبل خمس سنوات." كانت كمن تتحدث مع نفسها. "لا، القط الأعمى لا يتخلى عن طقوسه. القاتل المتسلسل لا يمكن أن يتخلى عن توقيعه الخاص. وليس من المنطق أن نفكر عكس ذلك."

لم أضف شيئا فوق كلامها، وانتقلت إلى الاحتمال الآخر.

"لنفترض أنكم محقون سيدة بوكت، لنفترض أن القاتل ليس القط الأعمى، من هو إذن؟"

أطلقت قهقهة كانت قوية جدا حتى أن بعض من كان يجلس في الحديقة صار ينظر إلينا. لكنها لم تعبأ بذلك.

"ومن أين أعرف يا سيدي؟ أنا نقلت إليكم النتائج التي توصلت إليها من خلال القضية التي كنت أتابعها." أشارت بيدها اليمنى إلى أذنها. "كلمات المرحوم جاويت حلق في أذني. أنا صحفية فقط. وليس من اختصاصي العثور على القاتل، فهذا اختصاصكم. أنا أكتب خبره فقط. ها صحيح، حينما قلت خبرا تذكرت شيئا، أتمنى أن تكون بين أيديكم معلومات مهمة. لا، لا أريدها الآن، لكني سأكون سعيدة جدا إن أخبرتموني بها أولا حينما يأتي وقتها."

30

"الحب هو أعظم كنز في العالم"

"إسطنبول مدينة الجرائم يا نوزات" هذا التثبيت يعود إلى زميلي المتقاعد ذكائي. حقا في كل يوم يقتل أشخاص في هذه المدينة، لكن تسلسل مثل هذه الحوادث العجيبة بهذا الشكل ليست من الأمور التي يمكن حدوثها كثيرا. ففي الأيام الأربعة الأخيرة استمرت الأحداث الاستثنائية بتزايد دون انقطاع تماما مثل هذه الحرارة التي أحرقتنا برطوبتها العالية. دخلت إلى حديقة المركز الأمني وأنا أفكر في ذلك. وبينما كنت أوقف سيارتي المخضرمة تحت شجرة البرقوق العجوز رأيت عرده. لم يكن يرتدي بذلة سوداء، وإنما قميصا رماديا يغرق ظهره في العرق، وبنطالًا أزرق، وحذاء أبيض. كان يسير متبخترا بخطوات ثابتة بين شرطيّين بزيهما الرسمي. كان من الواجب أن نقدّر سيسي إسماعيل، لتدريبه رجاله جيدا على مثل هذه المواقف. نزلت من سيارتي المخضرمة وجريت خلفهم. وبينما كنت أحاول اللحاق بهم دخلت في أنفي رائحة ياسمين جميلة لا أدري من أي شرفة بيت هبّت. لكنني لم أكترث، فذهني كان مشغولا بالمشتبه به بقتل حجابي ولم تكن لدي حينها تلك الروح للاهتمام بالروائح الجميلة. تمكنت من اللحاق بالشرطيين وعرده على سلم المركز الأمني.

هتفت من خلفهم: "دقيقة، دقيقة، انتظروا دقيقة!"

ثلاثتهم توقفوا فجأة، وثلاثتهم نظروا إلى الخلف فورا، وثلاثتهم أيضا عرفوني فورا.

"تفضلوا سيدي،" قالها الشرطي ذو الوجه المليء بالبثور الذي كان على يمين عرده. "ماذا تأمرنا؟"

وبدلا من الإجابة على سؤال الشرطي اقتربت بخطوات سريعة من عرده.

قلت وأنا أنظر إلى عينيه: "وأخيرا وقعت في الفخ يا عرده. أين كنت مختبئا؟ هيا تحدث."

ابتسم بكل وقاحة.

"كنت في بيت محبوبتي يا سيدي." أشار برأسه إلى رجلي الشرطة. "إن لم تصدقني فاسألهما. أخذاني من بيت محبوبتي في حي عطا شهر."

أكد الشرطي ذو الوجه المليء بالبثور كلامه.

"أخذناه من بيت فتاة اسمها نسل خان سيدي. كانت تقول إنها خطيبته."

قلت: "حسنا،" ثم نظرت إلى المشتبه به. "مدّ يديك يا عرده." لم أتأكد ما إذا كان فعلا لم يفهم أو كان يتظاهر بعدم الفهم. أشرت إلى ذراعيه وكررت من جديد. "هيا، مدّ يديك."

تمتم بذهول.

"ماذا؟ ماذا تقولون يا سيدي؟"

في هذه المرة كررت بصوت قاس.

"اكشف عن ساعديك، اكشف، ارفعا أنتما كُمَّي هذا القميص."

بينما كان عرده ينظر بذهول، بدأ الشرطيان بكشف القميص عن ساعديه. كان ما نبحث عنه هناك. الجزء الداخلي من ذراعَي المشتبه به

مصاب بالخدوش التي بدا أنها كانت بالأظافر. ها هذا هو الدليل الذي من شأنه إزالة كل الشكوك عن وزر علي. أخذت نفسا من الأعماق. حتى وإن كنت أصدّق مساعدي علي، فإن الشكوك لم تكن لتفارق عقلي. آثار هذا الجرح أنقذتني من تلك الشبهة اللعينة. نظرت إلى عرده نظرة مفادها الآن وقعت بين يدي.

بدأ الأحمق بالدفاع عن نفسه. "ماذا؟ ما الذي جرى؟ في هذا الصباح تعاركت مع شخص في موقف السيارات. اسألوا إن كنتم لا تصدقوني. موقف السيارات المجاور لمقهى مرمرة في عطا شهر. انقضّ عليّ ثلاثة أشخاص فجأة."

"هل تقصد بموقف السيارات المكان الذي يشغله سيبسي إسماعيل؟" واصلت كلامي دون أن أسمح له بالاعتراض. "لا تتعب فكّيك أبدا يا عرده. غدا صباحا سيذوب الثلج ونرى ما تحته. فالآن هناك فحوصات البصمة الوراثية." أشرت إلى الجرح الذي كان على ساعديه. "بقايا جلدك بقيت بين أظافر حجابي الذي قتلته." ضحكت بصمت. "على كل حال، أنت أنكر ذلك في التحقيق. وبهذا الشكل ستأخذ حكمك كاملا دون تخفيض في المحكمة."

رأيت هزيمته لأول مرة في عينيه السوداوين الكبيرتين. لكنه لم يستسلم.

قاوم قائلا: "أنتم مخطئون يا سيدي، أنا لم أقتل أحدا."

لم أطل في كلامي. ونظرت إلى الشرطي ذي الوجه المليء بالبثور.

"حسنا يا رفاق، خذا هذا إلى توقيف الشّرطة."

ارتعب عرده من ثقتي بنفسي.

بدأ يتضرع قائلا: "والله لم أقتل يا سيدي، على ماذا أحلف لكم كي

تصدقوني، والله لم أقتل."

بدأت بصعود الدرج دون اكتراث. وبينما كنت أدخل من الباب ظل يصرخ من خلفي.

"أنتم مخطئون يا سيدي، والله لم أقتله، فلتكن أمي زانية إن قتلته."

داخل المبنى كان باردًا أكثر من خارجه، ارتحت قليلا. دخلت أولا إلى مكتب زينب، لم تكن موجودة، طاولتها فارغة، وحينما خرجت إلى الممر التقيت بمساعدي. كان يبدو متعبا.

"لقد ذهبت زينب إلى مكان الجريمة يا سيدي. لكي تفحص اللومينول في حمام حجابي في زيتن بورنو. لا بد أن يكون القتلة قد غسلوا أياديهم ووجوههم هناك... إذ كيف استطاعوا التخلص من آثار هذا الدم الكثير؟ وقد رأينا في كاميرات المراقبة بعض البقع على ألبسة المشتبه بهما، سنقوم بفحصها... لم نعثر على البذلة التي كان سركان يلبسها في الأمس. ربما أحرقوها..."

كان يبدو متعبا رغم أنه قدم معلومات مفصلة دلّت على تعمقه في العمل.

"قريبا ستظهر الحقيقة عزيزي علي، لقد أمسكنا بالرجل الآخر."

لمعت عيناه

"عرده؟"

"أحضروه قبل قليل إلى المركز. علاوة على ذلك ذراعاه مصابتان بالخدوش. إنها براعة حجابي. وغدا ستخبرنا زينب بالحقيقة."

بدا على وجهه الاطمئنان.

"هذا يعني أن عُقَد الجريمة بدأت تنحل..."

قلت وأنا أضع يدي على كتفه. "هذا الأمر سينتهي. ويجب أن نركز

بعد الآن على القط الأعمى."

فرح علي لكنه لم يتخلص من نفسيته المتعبة. هل كان هناك أمر آخر يقلق عليا يا ترى؟

قلت له: "ما الذي حدث يا علي؟ ما الذي حل بك؟"

بدأ بالإنكار.

"لا، لا شيء يا سيدي. أنا بخير."

لم يكن بخير، فغضبت نوعا ما.

"ما الذي تفعله يا علي؟" كان صوتي عاليا، لكنني لم أعبأ. "دعك من أعمالك المبهمة وحركاتك الغامضة. نفسيتك متعبة، لا بد أن... هيا اشرح ما الذي جرى؟"

"اتصلت بي اليوم صحيفتان مختلفتان. يسألون ما إذا كانت لي علاقة بمقتل حجابي أو لا..."

هل كانت بوكت تعمل من خلفي يا ترى؟

"من الذي اتصل؟ هل عرفت أسماءهم؟"

"رجل اسمه رأفت اتصل بي من جريدة الحرية، وآخر اسمه إرول من جريدة ملّيّة... أحدهم أخبرهما أنني من قتلت حجابي. وأنتم تعرفون من يكون بالطبع..."

لقد ظننت سوءا في بوكت.

"فليكن من يكن، نحن واثقون من أنفسنا. لا تنشغل بهؤلاء بعد اليوم. فغدا ستخرج نظيفا."

تنفس بغضب.

"نعم سأخرج نظيفا لكن الشيطان يوسوس لي بالذهاب إلى إرجو..."

"إياك أن تفعلها! ستفسد كل شيء بيدك. انتهى هذا العمل يا علي،

عد إلى رشدك. لا تلوث يدك يارجو. أنا سأتولى أمره. انسَ هذا الموضوع بعد الآن."

أخذ نفسا عميقا بقلق. كانت كلماتي تحاول تهدئته.

"هناك موضوع آخر يا سيدي."

قلت في نفسي أتمنى أن يكون خيرا إن شاء الله، يبدو أن المفاجئات عند علي لم تنتهي اليوم بعد.

"وما هو؟"

تهرّب بنظراته، ونظر إلى الشرطيين اللذين كانا قادمين من نهاية الممر باتجاهنا.

"هل يمكن أن أتحدث معكم في مكتبكم؟"

اشتعل فضولي.

قلت وأنا أتوجه إلى مكتبي: "بالطبع يمكن، إذن، هيا لنذهب."

كان داخل مكتبي شبيها بالفرن. فاحتجنا من جديد إلى المكيف المزعج رغم كُرهي له. والغريب في الأمر أن عليا الذي كان في السابق يشكو من الحرارة لم يكترث اليوم أبدا بها. فالمسألة التي كانت تدور في ذهنه أنسته هذه الحرارة الخانقة. جلس على الكنبة التي كانت في الجهة اليسرى من طاولتي، انتظر جلوسي وهو يعلك بشفته السفلى. خلعت جاكيتي وعلقته ثم جلست مقابله.

"نعم، تحدث، ما تلك المسألة؟"

أغلق فمه لا إراديا بيده اليمنى؛ أعتقد أنه كان يفكر كيف يبدأ.

"زينب." قالها في النهاية. "برأيكم كيف واجهت زينب ما شرحته هذا اليوم؟"

اطمأن قلبي، لا أخفي عليكم فما زال في إحدى زوايا عقلي احتمال

بأن يكون علي هو من قتل حجابي.

رددت عليه قائلا: "سامحك الله يا علي، أهذا هو همك؟"

سيطر على وجهه الوسيم قلق لا يطاق.

"هل أساءت زينب فهمي يا ترى؟"

آه يا ولدي، لقد انشغل عقله من جديد بمواضيع لا فائدة منها.

"ولماذا ستسيء فهمك يا علي؟! فأنت تحدثت بشكل صريح للغاية. وما دام أنه لم يبق في ذهني علامة استفهام فكذلك عندها لم يبق أيضا."

لم تكن كلماتي كافية بالنسبة إليه.

"لا أعرف يا سيدي، لكن ما هي ردة فعل النساء لمثل هذه الحوادث؟"

"وماذا ستكون ردة فعلها عزيزي علي؟! الفتاة تعشقك، ستبقى تحبك رغم كل شيء. ومن المحتمل أنها ستحبك أكثر من السابق..."

ابتسم ابتسامة باهتة.

"هي هكذا فعلت، فحينما ذهبت إلى مكتبها عانقتني بطريقة لم تفعلها سابقا. يعني عانقتني بـ..." لم يتمكن من العثور على كلمة مناسبة، فساعدته.

"بإشفاق، بإشفاق كبير..."

قال بسرور: "نعم، علاوة على كونها صديقة، علاوة على كونها محبوبة، كانت مثل..." لم يتمكن من العثور على الكلمة المناسبة من جديد. فذكّرته مجددا.

"مثل أم..."

غمغم بصوت حزين.

"لا بد أنها كانت مثل أم... لم أر أمّي، فمن أين لي أن أدرك ذلك الشعور يا سيدي؟"

تبللت عيناي، ولولا وجود الطاولة بيننا لنهضت وحضنت هذا المشاكس. "افهم يا علي، اعلم أن هذه الفتاة تحبك،" اكتفيت بقول هذا، ومع ذلك تابعت: "النساء، وأقصد اللواتي يعشقن بصدق، لا يعنيهن قوة الرجل. المرأة التي تحبك يا علي هي تحبك لأنك لمست مكانا في قلبها. وإن فعلت هذا دون أن تدري فإنها تحبّك أكثر. لأن هذا يُظهر مدى صدقك. زينب أيضا تحبك على هذه الشاكلة. لأنك أنت أيضا أثّرت فيها دون أن تدرك ذلك."

احمرّ وجهه.

قال المشاكس بحياء: "هي أيضا أثّرت فيّ يا سيدي، يعني كان الأمر من الطرفين."

"هذا هو الجمال بعينه... عثرتما على بعضكما. اعرف قيمة هذا يا ولدي. الحب هو أعظم كنز في العالم، فإن لم تظهر الإخلاص اللازم فسوف يتبدّد ويزول مثل السراب. لهذا السبب لا تنشغل بمواضيع تافهة لا معنى..."

رنّ هاتفي من جديد؛ كان المتصل ذكائي.

"أعتذر عزيزي علي، انتظر حتى أرد على هذا الهاتف." لمستُ الهاتف كي أُجيب. "ألو ذكائي، هل أتيت؟"

لم يكن صوت زميلي المتقاعد ذكائي، وإنما كان صوت امرأة تبكي.

"ألو نوزات... سيد نوزات، قتلوه... لقد قتلوه"

سمعت صوت المرأة هذه من قبل لكنني لم أعرفه في الوهلة الأولى.

"لم أفهم يا سيدة، من قُتل ومن قَتل؟"

"لقد مات يا نوزات، لقد قتلوه."

بدا كأن المرأة لم تسمع ما قلته، وبدأت بالصراخ.

حاولت التهدئة.

"من فضلكم اهدأوا يا سيدة. لطفا، تحدثوا بالتفصيل. من أنتم؟"

لكن المرأة المسكينة لم تهدأ

"هذا أنا يا نوزات، أنا جليلة... لقد قتلوا ذكائي..."

في البداية لم أفهم.

سألت قائلا: "ماذا؟ ماذا تقولين؟" في تلك اللحظة استوعب ذهني الحقيقة المؤلمة. "ذكائي؟ هل قتلوا ذكائي؟" قلت بذهول دون أن أنتظر الجواب الذي أصبحت أعرفه: "كيف حدث هذا كيف؟! كيف حدث ونحن تحدثنا في الهاتف قبل ساعة؟! كان سيأتي إليّ."

قالت جليلة: "لا أدري لا أدري، فحينما جئت إلى المنزل وجدته ملطخا بالدماء. يا الله، يا الله ما هذه المصائب التي نزلت بنا..."

لم تستطع أن تتكلم المرأة المسكينة أكثر من ذلك.

قلت لها: "حسنا، حسنا سيدة جليلة، سآتي فورا..." ثم أغلقت الهاتف.

وعدت إلى علي الذي كان يرمقني بذهول.

"ذكائي، لقد قتلوا رفيقنا ذكائي."

31

"ما الرسالة يا سيدي؟"

كان جسد ذكائي الذي أصبح لا حياة فيه ملقى على ظهره في حديقة منزله المتواضع، تحت الزهور الصيفية ذات اللون الزهري التي تحول لونها إلى الأحمر بفعل ضوء المصابيح. مزّقتْ الطلقةُ التي دخلت من ذقنه الجزءَ السفلي من وجهه. كانت عينه اليُسرى بنفسجية اللون، وصلت الدماء التي انفجرت من حاجبه إلى أطراف شفتيه، وجفّت هناك. بحيرة الدم التي تجمعت حول رأسه تأتي من خلف رأسه. مزّقت الطلقة جمجمة رأسه وخرجت منها. جميع الموتى لهم وضع مُحزن، لكن موت ذكائي كان أكثر مأساوية. لقد خسر، ومن المحتمل أنه أصبح في النهاية ضحية لتلك القضية الوحيدة التي لم يستطع حلها، حقا لقد مات بسبب قضية نذر حياته لحلّها في السنوات الأخيرة دون أن يسأم، متحديا الصعاب... لكن أكان يستحق ذلك؟ لم أكن متأكّدًا من هذا، لكنني كنت متأكدا من موضوع آخر وهو أنني لو كنت مكانه لفعلت الأمر نفسه. فكل شرطي مخلص يسير في هذا الطريق. اتجهت أنظاري إلى جثة ذكائي. لو كان حيا لكنت متأكدا من قوله هكذا: "ماذا تفعل يا نوزات؟ أهو وقت عاطفتك الآن؟ ربما يكون الميت صديقا لنا لكن هناك وظيفة لا بد من القيام بها." استجمعت نفسي وبدأت بفحص جسد صديقي.

كان حاجبه المنفجر والكدمات التي في وجهه تشير إلى أنه قاوم القط

الأعمى بعكس الضحايا الآخرين، ومع الأسف لا يمكن القول إنه كان ناجحا. ونستنتج من هذا أن القط الأعمى رجل قوي. كان ذكائي صاحب قلب جسور، فحتى وإن لم يكن شابا لكنه من الرجال الذين لا يخافون بتاتا. فإن كان القاتل قد تغلّب عليه بسهولة فهذا يدل على أنه رجل يعرف العراك جيدا. وبالطبع لم يكن سبب موت ذكائي الضربات القاسية التي تلقاها على وجهه.

أشرت إلى الأرض وأنا أنظر إلى علي الذي كان يدور حول جسد ذكائي بلا قرار.

"هيا لنبحث حوله عن الطلقة."

بينما ركع مساعدي الذي قال: "حاضر،" أنا أيضا انحنيت وبدأت بفحص التراب. بحثنا الصغير الذي استمر دقائق معدودة لم يتوصل إلى أي نتيجة على أرض الواقع.

قلت مستنتجا من هذا البحث: "لا بد أن السلاح الذي يستعمله القط الأعمى مسجل لدينا، وإلا لما أخذ معه ظرف الطلقة ونواتها."

"القط الأعمى؟ هل القط الأعمى من قتل السيد ذكائي؟"

قلت: "هو القاتل بالتأكيد."

لكنه لم يقتنع بهذا الاحتمال رغم أنني كنت واثقا من كلامي.

"حسنا، لكن لا توجد حول عينَي الضابط ذكائي قطعة قماش حمراء، ولم يترك بجانبه لعبة، ولم تقطع أذنه..."

قلت مقاطعا: "لأن ذكائي لم يكن متحرشا بالأطفال، والقط الأعمى في الأصل لم يقتله لهذا السبب. فذكائي تمكّن من تحديد هوية القاتل، لهذا السبب قام القاتل المتسلسل بسفك دمه خوفا من القبض عليه وليس من أجل إشباع نفسه."

ثار فضوله.

قال بصوت أجش: "هل تمكن الضابط ذكائي من معرفة هوية القط الأعمى؟"

لم يكن هناك من معنى لإخفاء الحقيقة.

"نعم عرفه، لكنه لم يكن متأكدا، وأكد ذلك بموته. لقد كان يعرف القط الأعمى بالتأكيد ولهذا السبب قتل."

بدا أن ذهول علي قد انتهى غير أنّه عاد من جديد.

"وأنتم تتحدثون مع السيدة جليلة على الهاتف ذكرتم أن الضابط ذكائي سيزوركم. هل كان سيخبركم بهوية القاتل؟" حينما بقيت صامتا واصل الكلام مع نفسه. "يا سلام! هذا يعني أنه عرف القطّ الأعمى؟" كان ينظر بغبطة. "ربما مات وهو سعيد يا سيدي. لأنه حلّ أيضا القضية الأخيرة التي فشل فيها." رقّت عيناه. "نعم، مات وهو سعيد بالتأكيد. لأنه تمكن من تثبيت هوية القط الأعمى..." لا بد أنه أدرك الوضع فاستجمع نفسه فورا. " حسنا، ونحن كيف سنعرف القط الأعمى؟"

فتحت يدي إلى الجانبين بيأس.

"هذا ما أفكر فيه منذ قليل. أعتقد أننا لن نعرفه."

تحرك بغضب، وبعثر شعره بيده. لم يكن يرضى بتفويت هذه الفرصة التي اقتربنا منها كثيرا.

"ربما كتب ذلك في مكان ما. ربما في حاسوبه أو ما شابه. أو ربما ذكره لأحد."

تحدثت وأنا أشعر بالندم على تفويتي هذه الفرصة.

"مع الأسف لم يخبر أحدا عزيزي علي. لأنه كان سيخبرني أنا في البداية. ليتني أصررت عليه إخباري من خلال الهاتف. لكنه لم يرغب في

الكلام. ولا أعتقد أن له جهاز حاسوب. فذكائي شرطي من الطراز القديم. ومع ذلك، لنسأل السيدة جليلة، ولنبحث في المنزل. لا أعتقد لكن ربما نعثر على دفتر ملاحظات في مكان ما. والأهم من ذلك تثبيت الأشخاص الذين تحدث معهم منذ الأمس. اتصل بمن، والتقى من... فربما نصل من خلال ذلك إلى إشارة."

قاطع حديثي ذلك الصوت المعروف الذي كان يتردّد في الحديقة الصغيرة.

"وا أسفاه! لقد قتلوا ذكائي. هذا يعني أننا نحن من سيفحص جسده."

حينما أدرت رأسي رأيت شفيق الذي كان يرتدي لباسه وفي يده حقيبته. هذا الضابط صاحب الدم البارد الذي طالما كان يفحص بدقة متناهية أماكن الجرائم التي يقتل فيها أناس لم يعرفهم حتى هذا اليوم، اهتز من الأعماق أمام هذه الجريمة وبقي مذهولا عند مدخل باب الحديقة. وحينما رآنا ساء وضعه. نسي عمله وسبب قدومه واقترب وهو يجر قدميه نحونا.

"هل حقًّا أن الخبر صحيح؟ هل حقًّا قتلوا سيّدي ذكائي!"

كان يتوقع مني أن أحضنه وأن أقدم له كلمات تواسيه، كان في إمكاني فعل ذلك، لكن تصرفي هذا لن يحسّن من وضعه شيئا. بل العكس تماما، سيجعله شارد الذهن أكثر، فلن يفحص مكان الجريمة ولن يدوّن أي ملاحظة.

قلت له بصوت سلطوي: "حسنا، حسنا أخي، كن هادئا قليلا. نحن الآن على رأس عملنا. وأنا أيضا حزين جدا، لكن لا بد من القيام بعملنا أولا، ولدينا وقت طويل للعزاء."

اهتز كما لو أنه أكل لطمة على وجهه. نظر إلى وجهي بعتاب. كيف

استطعت أن أكون بلا قلب إلى هذه الدرجة؟ ومع ذلك لم أهتم بهذا.

"هيا عزيزي شفيق، هيا يا أخي الجميل، انظر، إنهم ينتظرونك. هيا أصدر أوامرك لكي يشرعوا في عملهم."

لقد نظر بعتب، وحزن كثيرا لكنه انحنى.

"أمركم سيدي،" قالها بصوت مجروح. "أمركم، سنبدأ بالعمل فورا."

نظرت إلى علي، كان هو الآخر أيضا في حالة ذهول، كيف يمكن أن يكون هذا النقيب الذي طالما أحبه قاسيا إلى هذا الحد؟ وبالطبع، لم أكن في وضع يسمح لي بتقديم التبريرات له.

"هيا، لندخل البيت ونبحث فيه."

تبعني علي دون أن يعترض. كان البيت مكونا من غرفة نوم، وغرفتَي جلوس؛ إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، وصالون. بحثتُ في غرفتَي الجلوس، وبحث علي فيما تبقى من البيت. كان كما قلت، لم يكن عنده جهاز حاسوب ولا ما شابهه، لكن الغريب في الأمر أنه لم يكن عنده لا دفتر ملاحظات ولا أي إشارة تُمكن الإفادة منها. عدم وجود ولو ملاحظة واحدة لذكائي الذي كان يطارد القطّ الأعمى منذ خمس سنوات ليس أمرا عاديا أبدا. أنا متأكد، مثل تأكدي من اسمي، أن ذكائي لديه ملف مثل ملفّه الموجود في المركز الأمني. علاوة على هذا، يحتوي ذلك الملف على معلومات ووثائق أكثر مما لدينا. لكن أين الملف؟ ربما أخذه القاتل. بعد أن قتل ذكائي أخذ من البيت كل ما يتعلق به وذهب. كان معرفة ذلك سهلا، فلو نسأل السيدة جليلة لأخبرتنا بذلك. عِلمًا أنني سأسألها بعد قليل. نَقَلها أقاربُها إلى أحد بيوت الجيران لإصابتها بانهيار عصبي. وحينما أنهيتُ فحص المكتبة الصغيرة التي كانت في غرفة الجلوس ظهر علي أمام الباب.

"لا شيء سيدي، لم أجد في الأماكن التي بحثت فيها أي وثيقة تتعلق بقضية القط الأعمى ولا بغيرها."

توجّهت نحو مساعدي.

"وهنا لا يوجد أيضا عزيزي علي، تعال نلقي نظرة على الباب الخارجي. سنرى ما إذا تعرض للخلع."

لا القفل مكسور ولا الباب مخلوع. لا بد أن القاتل طرق الباب ودخل البيت. ثم بعدها قتل ذكائي.

قال علي: "أليس ذلك غريبًا؟ فإن كان الضابط ذكائي قد تثبّت من هوية القط الأعمى فإن هذا يعني أنه كان يعرفه. إذن، لماذا سمح له بدخول البيت؟!"

كان مُحقًّا من الأرض إلى السماء، فقلت: "ربما كان مخطئا في تحديد هوية القط الأعمى،" لكن هذا الرأي لم يكن منطقيا، فقلت مصحّحا: "إن كان ذكائي مخطئا حقا فإنه ليس هناك من سبب ليقوم القاتل بقتله."

انتقل علي إلى احتمال آخر.

"ربما كان ذكائي واثقا من نفسه. فكان يعتقد أن القط الأعمى لن يضره أبدا."

هززت رأسي.

"لا أعتقد ذلك، فذكائي ليس مغفلا إلى هذه الدرجة."

دافع علي عن رأيه بإصرار.

"الأمر ليس له علاقة بالغفلة يا سيدي. الضابط ذكائي كان يشبّه هذه القضية بلعبة. لعبه لها قواعدها الخاصة بها. والقط الأعمى شخصيا هو من وضع هذه القواعد. فإن كان ذكائي يعتقد أن القط الأعمى لا يمكن

أن ينتهك قواعده... بالطبع أنتم تعرفون المرحوم أكثر مني."

الحقيقة أننا لم نكن مقرّبين من بعضنا إلى ذلك الحد.

"لا أستطيع معرفة هذا كلّه يا علي،" قلتها دون الخوض في التفاصيل.

"لكنني متأكّد أن ذكائي لا يمكن أن يثق بقاتل متسلسل. فهو لن يسلم نفسه لقاتل متسلسل مهما كان الأمر." توقّفت، ثم قلت "خطر إلى ذهني احتمال آخر. ربما كان الرجل لا يعرف أن ذكائي قد تثبّت منه. يعني أقصد أن ذكائي كان يعرف هوية القط الأعمى، لكن القاتل المتسلسل لم يكن يدرك ذلك. فربما جاء إلى البيت من أجل غاية أخرى... فشرعا في الحديث. فتكلم ذكائي بطريقة غير مباشرة أو ربما فقد ذكائي السيطرة على نفسه وقالها صراحة في وجهه. فقتله القط الأعمى على إثرها."

انكمش وجه علي بانفعال.

"إذن، القط الأعمى شخص من معارف ذكائي. شخص قريب من ذكائي إلى درجة يستطيع زيارته إلى بيته... وربما شخص نعرفه نحن أيضا."

لم يكن هذا مدهشا أبدا.

"ولهذا السبب لا بد لنا أن نعرف بمن التقى ومع من تحدث منذ الأمس وحتى لحظة مقتله. إن استطعنا تثبيت ذلك فإننا سنجد القاتل."

32

"كان نائما هناك تحت تلك الزهور التي أحبها كثيرا."

كانت جليلة تجلس في بيت جار لهم بين امرأتين مسنّتين على أريكة بلون الشامبانيا في الصالون الأشبه بحديقة وردية. حول الطاولة الخلفية جلست ثلاث فتيات يتهامسن عن الجريمة. السيدة جليلة ارتدت حجابا أسود، وتحوّلت عيناها العميقتان إلى طبقين من الدماء. وأصبح كتفاها منهارين، وبدت هزيلة كأنها ستغوص في الأرض. لا بد أنها تناولت مهدّئًا، فما عادت تبكي وإن كانت أحيانا تتنهّد ألمًا. كانت النساء من حولها تضع عطر الكالونيا على يديها ووجهها حتى تعود إلى وعيها. وحينما رأتني هذه المرأة المسكينة فاضت عيناها من جديد...

تحركت وهي تقول: "آه يا سيد نوزات آه! ما هذا الأمر؟ بقيت في حياتي واضعة يدي على قلبي خوفا من أن يحدث فيه أمر قبل أن يتقاعد. بقيت خائفة من أن يأتي خبر سيء عنه في أي لحظة، بقيت خائفة من أن يقتله أحد، لكن حينما تقاعد شعرت بالراحة، وظننت أن الأمر انتهى. ظننت أننا سنصبح عائلة بسيطة مثل العائلات الأخرى، وظننت أن زوجي سيبقى أمام عيني وأننا سنعيش في أمن وأمان. انظر، أترى المصيبة التي حلّت بنا؟! عجزنا عن حمايته حتى وهو متقاعد."

كانت تكرر المخاوف التي قالتها لي كزيده قبل سنوات. لطالما قالت لي زوجتي المرحومة: "إني خائفة يا نوزات، أخاف أن يدق أحدهم الباب

ويسمعني خبر موتك." لكن هذا لم يحدث، على العكس، فقد سمعت أنا خبر وفاتها وابنتي معا. أحسست بدوار. ولحسن الحظ أسرعت إحدى الفتيات بإحضار كرسي لي، فتخلصت من هذا الوضع الذي مررت به وجلست أمام الأرملة.

"لقد حزنتُ كثيرا سيدة جليلة. أنتم تعرفون أني كنت أحبّ ذكائي. حقًّا لقد حزنت كثيرا. لكن لا حيلة في اليد! ماذا نقول؟ أهو قدر أم سوء حظ؟ حقا يبقى الإنسان عاجزا أمام الموت."

أساءت فهم كلماتي، فعقدت حاجبيها الأشقرين.

صاحت قائلة: "لا قدر ولا حظ سيء. لقد قتلوا ذكائي يا نوزات. سفكوا دم زوجي ونحن هنا." نظرت إليّ بعتاب. "ستعثرون على القاتل، أليس كذلك؟ دم ذكائي لن يذهب هدرا..."

في الحقيقة سعدت بغضبها، فهي تخلصت من وضعها المنهار حتى ولو بقدر قليل.

"بكل تأكيد،" قلتها بصوت واثق. "سنعثر على القاتل قطعًا. أنا شخصيا سأتولى هذه القضية. وهذا وعدي لكم. سأسعى إلى ضرب ذلك الحقير بأقصى العقوبات." ثم أضفتُ معبّرًا عن تفهمي الموقف، "في الحقيقة كنت سأتكلم معكم في هذا الموضوع. يعني كنت أريد أن أسألكم بعض الأسئلة، لكن إن كنتم متعبين فلاحقا..."

قاطعتني بوقار.

"لا، لنتحدث الآن يا سيد نوزات. أنا زوجة شرطي، وزوجي أصبح شهيدا، لا بد أن أكون متماسكة، وأنا متأكدة أن ذكائي أيضا يريدني هكذا."

ومع أنها تصرّفت بشجاعة فإنني تحدثت باتّزان.

"من الجيّد أن نتحدث الآن لكن إن كنتِ غير مستعدّة فغدًا أيضا..."
تكلّمتُ بلغة زاهد أصبح متقبّلًا حظّه العاثر.

"غدا لن أكون أفضل يا سيد نوزات، من فضلكم، اسألوا ما شئتم. لنتحدث الآن."

نظرت إلى المرأتين اللتين كانتا تنظران إلينا بفضول، فأدركت جليلة الأمر.

قالت للمرأة التي كانت ترتدي حجابا بنفسجيا: "هل من الممكن أن تخرجوا من هنا يا نورية؟ فحضرة النقيب يريد التحدث معي وحدي"
كررت بصوت لطيف.

"نعم، أريد التحدث مع السيدة جليلة وحدها إن أمكن ذلك."

قامت المرأتان فورا وأشارتا إلى الفتيات الثلاث بالخروج سريعا من الصالون أيضا.

سألتها: "هل تريدين كوبا من الماء أو شيئا آخر؟"

بدأت تغضب، وأجابت بتوتر.

"لا، لا أريد سيد نوزات، تفضلوا، اسألوا أسئلتكم."

نظرت إلى المرأة المسكينة مرة أخرى وتفحصتها جيدا. بدت مُتعبة بشكل عجيب. كان السعي للعثور على القاتل يجعلها تجد العزاء لنفسها قليلا.

"هل أنتم من عثر عليه؟ يعني، الضابط ذكائي؟" لم أستطع التلفظ بكلمة مقتول. "أقصد في الحديقة..."

فهمت المرأة المسكينة، وأجابت قبل أن أواجه مزيدًا من الصعوبة في الكلام.

"أنا من وجده. نزلت إلى السوق، في أوسكودار.. وحينما عدت إلى

المنزل طرقت الباب، لم يفتح. دخلت إلى الداخل بالمفتاح. ناديت، لم يجب. اعتقدت أنه خرج. أدخلتُ ما كنت أحمله إلى المطبخ، وذهبت إلى الحديقة. حينها رأيت ذكائي." بدأ صوتها يرتجف. "كان نائما هناك تحت تلك الزهور التي أحبَّها كثيرا."

كانت على وشك أن تفقد نفسها وتبدأ بالبكاء، لكنني لم أعطها فرصة حينما انتقلت إلى السؤال الثاني.

"هل كان له عدو؟ هل هدّده أحد؟"

فقدت عاطفتها، وبدأت تفكر بجد.

"بحسب ما أعرف ليس هناك من أحد. ولا أدري ما إذا كان بإمكانه أن يصرح لي بوجود أحد من هذا القبيل. كان كتوما جدا في عمله. لا يمكن أن يتحدث بشيء له علاقة بمهنته. أحيانا كانت تدور في ذهنه مسائل تنسيه حتى الطعام. وحينما كنت أسأله كان يقول لي: 'ليس مهما، سأحلها قريبا.' لكن تعرفون يا سيد نوزات، أن الشرطة لا يمكنهم أن يكونوا بعيدين عن المصائب. ذكائي أيضا كان هكذا، الله أعلم بعدد القتلة والأشخاص الذين ألقى بهم في السجون. فإن كان الفاعل واحدا منهم..."

إن من فعل هذه الفعلة واحد لم يستطع أن يقبض عليه ويلقيه في السجن، وبالطبع لم أقل ذلك للمرأة.

"هل هناك أشخاص تنازع معهم مؤخرا؟ هل هناك أشخاص لم يتفاهم معهم؟"

أصبحت عيناها الزرقاوان خاليتين من أي مغزى.

"لا يوجد، فذكائي شخص ملائكيّ. كان الجميع؛ كبيرا وصغيرا، جارًا وقريبًا، يحبه كثيرا. لم يكسر خاطر أحد في هذا الحيّ بتاتا." لم تتحمل

وبدأت بالبكاء. "خاصة الأطفال... كان يحب الأطفال كثيرا." لم تطل وصمتت، وغطّت فمها بطرف وشاحها وبدأت تبكي في صمت. ثم استعادت نفسها، وجفّفت دموعها بطرف وشاحها من جديد. "لا، لم نتنازع مع أحد، حتى أننا لم نتناقش مع أي أحد أبدا في هذا الحي. فلا عدوّ لنا ولا طالب ثأر أيضا..."

كانت تتنهد وعيناها تفيضان دموعا أكثر فأكثر.

قلت مكررا: "إن أردتم نتكلم لاحقا."

قالت بغضب: "لا، لا" ثم استعادت نفسها. "لنتحدث الآن. يجب القبض على ذلك الحقير في أسرع وقت."

انحنيت نحو أرملة زميلي المرحوم.

"إذن، من فضلكم أنصتوا إليّ جيّدًا سيّدة جليلة. هل كان السيد ذكائي منشغلا بقضية ما؟ هل تحدث معكم عن قضية لم يتمكن من حلها؟"

احتارت.

"وكيف يمكن له أن يستمر في عمله وهو في الأصل متقاعد..." تشوّش ذهنها. "ماذا تقصد؟ هل تقصد أنه بقي يعمل كشرطي؟"

المرأة المسكينة كانت جاهلة بما يدور حولها. فذكائي بعد تقاعده بقي مستمرا على منهجه الذي كان معتادا عليه وهو في عمله.

غير أن جليلة بدأت تجيب عن سؤالها أولا بأول. "في الحقيقة كنت شاكا في أمر ما." بدأت بالاعتراف. "لا، لا أريد أن أحمل وزره. لكن أعتقد أنه كان يخفي عنّي أمرًا ما. وخاصة أنه في الآونة الأخيرة صار يذهب كثيرًا إلى المرفأ..."

"أيّ مرفأ؟"

"ألم يأخذكم إلى هناك؟"

"إلى أين سيأخذنا؟"

"إلى صيد السمك،" أجابت وهي تبتسم بحزن. "كان لذكائي قارب صغير. على ساحل صالاجاق. كان يذهب إلى هناك في أوقات فراغه. يذهب في الأسبوع مرة واحدة. وأحيانا مرتين. كان يذهب لصيد السمك ويركب قاربه باتجاه قينالي أدا... لكن في هذا الأسبوع كان يذهب كل يوم تقريبا. ذهب أيضا في اليوم الذي جئتم فيه. نعم، ذهب مباشرة عقب ذهابكم، مع أنه ذكر لي أنه سيبقى في المنزل. هذا يعني أنه كان لديه عمل سرّي... هل كان يحقّق في قضية قديمة يا ترى؟ ألهذا السبب قُتل؟"

لا معنى من معرفتها الحقيقة، لأنها كانت ستحزن أكثر.

"لا نعرف،" قلتها متظاهرا الصّدق. "أنا أبحث عن سبب للجريمة. لأنني لا أرى في البيت أي أثر لعملية سرقة. لم يُسرَق من المنزل أي شيء ثمين، أليس كذلك؟"

"لا، لا ليست سرقة... لم يُسرق من البيت أي شيء. حتى أن راتبه التقاعدي كان ما زال في مكانه في جرار الخزانة التي في غرفة النوم..."

جاء الدور إلى السؤال المهم الذي كان يدور في ذهني.

"هل كان لديه أصدقاء أو رفاق يزورونه باستمرار؟"

"لم يكن يلتقي بأحد كثيرا." فاضت عيناها من جديد، وبدأ حنكها السفلي يرتجف. "كان ذكائي عاشقا لمهنته. كان دائما منشغلا بمهنته وبتلك الورود التي زرعها في الحديقة. وكما تعرفون ليس لدينا ولد. فركز حياته كلها على مهنته. وبالطبع هناك ألبر يأتي إلينا، كنّا نراه كطفل لنا."

هذه المعلومة قد تكون مهمة جدا.

"من هو ألبر؟"

بدت مذهولة.

"ألا تعرفونه؟ كان المساعد القديم لذكائي؟ الضابط ألبر سيبر."

عن من كانت تتحدث؟

"هل هو من شعبة الجرائم؟"

"لم يعد كذلك،" قالتها بحزن وهي تهز رأسها. "استقال من عمله قبل أربع سنين. والآن أنشأ شركة أمن. إنه إنسان طيّب جدا. يأتي إلينا كل أسبوع. يسألنا ما إذا كنّا بحاجة لشيء ما. إنه يرانا كعائلته. يقول لي: أمي، ولذكائي: أبي. كنا سنذهب بعد خمسة عشر يومًا لخطبة فتاة له، إلى مدينة إزمير.. ولا أدري ما الذي سيحدث الآن"

راحت تبكي من جديد. لم أستطع قول: لا تحزني، فهذه الأمور كلها ستمضي، وهذا الألم سينقضي. لم أقدّم المواساة لها مُطلقًا. لم أستطع فعل ذلك، لم يطاوعني قلبي على ذلك، لم أستطع الكذب على هذه المرأة القوية التي ستحمل في قلبها حتى نهاية عمرها هذا الحداد الشبيه بجرح مفتوح لا ينغلق أبدا.

33

"اقتحم القط الأعمى المكان يا سيدي."

إن سألوني من أين تريد النظر إلى إسطنبول فسأجيب دون تردّد من صلاجاق. لأنها المكان الأفضل لرؤية المدينة بمشهدها الرائع. وخاصة إن كان الوقت ليلا، حيث أن الليل يطمس الخطوط القاسية لتلك المباني البشعة التي حطمت قلب هذه المدينة القديمة... كانت هذه الأفكار تدور في رأسي وأنا قادم إلى صالاجاق للبحث عن قارب المرحوم ذكائي. هذا القارب المسمى "القانون لي" كان لا بد أن يكون في حانة الصيادين التي كانت على بعد بضع مئات من الأمتار من مرسى حرم. حينما ذكرت السيدة جليلة اسم القارب هززت رأسي وقلت في نفسي ""آه يا ذكائي آه، ليتك أعطيتنا نحن المعلومات بدلا من كتمانها في قارب القانون لي." لو فعل ذلك لكان من المحتمل أن يكون على قيد الحياة فيما القط الأعمى داخل السجن.

عندما اقتربنا من ثكنة الرئيس شعبان الذي كان يشغل حانة الصيادين ارتطمت بأنفي رائحة يانسون ثقيلة. وقعت عيني على صندوق برتقال مقلوب يحمل فوقه طبقا من البصل المليء بسلطة الطماطم، وإلى جانبه كأسا نبيذ، وقطعة خبز كبيرة. وعلى الجانب الآخر هناك شوّاية صغيرة فوقها أسماك لم تُقلى بعد. وبينما كنت أظن أن لا أحد في المكان سمعت أحدهم يصرخ قائلا: "أنهيتَ شرب الزجاجة يا أحمق. ثم تأتي وتكذب أمامي دون خجل."

"والله لم أشربها يا أخي شعبان..." كان الصوت هذا ضعيفا لكنه يحمل نبرة عصيان. "أنت من شربها في المساء... نعم، أنت شربتها كلها، ألا تذكُر؟ أنت دائما تفعل هذا. تشرب ثم تغضب مني..."

"لا تكذب أيها الأحمق!"

"فلتكن أمي خالعة إن شربتها... لماذا لا تصدقني؟"

"أين عقلك يا حقير، أين المنطق يا قوّاد. هل بإمكاني أن أنهي وحدي شُربَ لِتر عرق؟!"

اقتحمت الثكنة، لم يكن لخوفي من أن يطول حوارهما، وإنما لخوفي من أن ينقلب هذا الحوار الكلامي إلى عِراك. رأيتُ هناك شخصين واقفين؛ أحدهما قصير والآخر طويل. وحينما أدركاني نظرا نحو الباب.

"من أنت يا هذا؟" سأل ذلك الرجل القصير. "كان من الواجب طرق الباب أولا."

علمت من نبرة صوته أن هذا الرجل النحيف هو الرئيس شعبان. ذلك الرجل الذي كان يوبخ الآخر قبل قليل. وحينما بقيت صامتا سار نحوي.

"أتحدث معك يا هذا. لمَ دخلتم بلا سلام ولا تحية، أفي زريبة نحن؟!"

سبقني علي في الرد بشكل جميل.

"كن مؤدبا يا حقير. نحن شرطة، شرطة..." ثم نظر إلى شعبان من رأسه إلى أسفله. "ماذا تفعلان هنا؟"

ابتلع الرجل الملقب بالرئيس ريقه حينما سمع كلمة شرطة.

"قل ذلك منذ البداية سيدي... وما أدرانا أنكم شرطة؟!... كنت أتحدث هنا مع صديقي بياده..."

ابتسم بياده وهو ينظر بعينيه الداكنتين إلى وجهي.

"والله يا سيدي، كنا نتسلى مع بعضنا هنا..."

قلت بأسلوب جدي: "أأنت من يدير هذا المكان؟ أأنت من يعتني بحانة الصيادين هذه كاملة؟"

استجمع شعبان نفسه حينما أدرك من نبرة صوتي أني أعلى رتبة من علي.

"نعم سيدي، هنا في هذا المكان قوارب الصيادين. كذلك هناك قوارب لبعض الفضوليين. ونحن هنا نحرسها بعيوننا وبأيدينا قدر الإمكان..."

"تحرسانها بعد أن تضيعا وقتا طويلا في شرب العرق..." قالها علي موبّخًا. "لن تستطيعا أن تحميا حتى نفسَيكما بعد أن تشربا عرقًا بذاك القدر.."

ابتسم الرئيس بقذارة.

"وماذا نفعل يا أخي؟"

"قل سيدي يا حقير،" هكذا حذره مساعدي. "قل سيدي علي."

لم يستجمع شعبان نفسه من جديد.

"يعني يا عزيزي علي، أعتذر، أقصد يا سيدي علي... نحن هنا دوما أربعًا وعشرين ساعة، لا نفارق المكان. الوقت هنا لا يمضي ونحن بقوانا العقلية. البحر ينظر إلينا ونحن ننظر إلى البحر. وأحيانا من باب التغيير ننظر إلى برج الفتاة بالطبع. هذا فقط. حسنا هذا شيء في غاية الجمال، لكن الإنسان يسأم يا سيدي... علاوة على هذا فنحن بحاجة إلى زيت وقود لأذهاننا كي نستطيع أن نبني خيالاتنا. وما عسانا نفعل؟ فنحن أيضا لا بد لنا من تنشيط عقولنا..."

كان يتكلم بصدق، فابتسمت بصمت.

"يبدو أنك نشطّت عقلك أكثر من اللازم يا شعبان، فها أنت لا تتذكر

أنك أنهيت شرب الزجاجة..."

أغلق عينيه المحمرتين ثم فتحهما، أثنى عنقه وبدا أنه شعر بالخجل.

"أحيانا يحدث هذا يا حضرة الملازم."

تدخّل علي قائلا: "ليس ملازما يا أحمق، إنه نقيب، يجب أن تقول سيدي النقيب..."

انحنى الرئيس بأدب.

"لا تؤاخذني يا سيدي. نحن أناس جاهلون، فما أدرانا بالمقامات والرتب؟ على كل حال، في مساء الأمس أيضا كان ذهني مشوّشا." رمق صديقه الآخر بشك. "مع أني لست متأكدا من إنهائي شرب الزجاجة وحدي..." ضرب بيده بياده. "حقا، هل شربتها أنا كلها؟"

تألّم بياده قليلا من ضربة يده. وتأوّه قائلا: "آه، والله أنت شربتها يا شعبان..."

"كفى، كفى، اصمتا!" قالها علي متدخّلا بينهما. "نحن نبحث عن قارب اسمه القانون لي."

لم يدرك ما قاله.

"ما هو الذي لي يا سيدي؟"

صاح مساعدي مجددا: "اصحى يا أحمق، نحن يا ابني نقول لك القانون لي. أم أنك لا تسمع أيضا؟!"

استيقظ شعبان من غفلته حينما أكل توبيخا من علي.

"لا يوجد قارب بهذا الاسم هنا يا سيدي،" ثم نظر بغضب إلى صديقه الطويل من جديد. "هل عندنا قارب بهذا الاسم؟!"

تحدثتُ فورا دون أن أسمح لبياده بالثرثرة.

"قارب ذكائي يا ابني، قارب حضرة النقيب. أليس هنا؟"

سطعت عيناه المرتبكتان في ابتهاج كبير.

"قولوا ذلك منذ البداية يا سيدي... أنتم تتحدثون عن قارب السيد ذكائي." تلعثم. "اسمها القانون لي" ثم ضرب بياده مرة أخرى وهو يقول: "لم لا تحفظ هذه الأسماء؟" لكن الرجل الطويل لم يتأثر كثيرا بالضربة هذه المرة لأنه تنحّى جانبا.

"وكيف لي حفظها يا شعبان؟ فحتى الحروف لا أستطيع حفظها."

ترك الانشغال بيياده وعاد إليّ من جديد. ابتسم وهو يحرك رأسه الصغير ذا الشعر الخفيف...

"نعم سيدي، القارب هنا، في الأمام، من الجهة اليمنى."

أشرت برأسي إلى الخارج.

"حسنا إذن، هيا لنذهب"

سأل بقلق وكأنه الآن تذكر.

"أين النقيب ذكائي؟"

لو بقي الأمر لي لما أخبرتهما لكن علي فجّر الخبر بينهما.

"مات، قُتل هذا المساء في منزله..."

انهار شعبان الذي كان يبدو رجلا معتادا على مثل هذه الأمور بعد سماعه الخبر.

"كيف حدث هذا؟ لا، أنتم مخطئون. في الأمس كان هنا. المقتول شخص آخر.." وحينما بقينا صامتين هز رأسه. "أحقا ذلك؟ هل فعلا هو السيد ذكائي؟ هل فعلا مات الرجل المسكين؟"

بالنسبة إلينا، كانت المعلومة التي ذكرها أهم بكثير من ردة فعله.

سألت: "ماذا كان يفعل ذكائي هنا في الأمس؟ أجاء لصيد السمك؟"

استطاع التكلم بعد أن ابتلع ريقه مرتين بشكل متتابع.

"هذا، أقصد أنه كعادته دوما... جاء إلى قاربه. اقتربت منه وأكرمته من السمك والخبز. ثم أعطيته العرق لكنه لم يشرب..." تنهّد كما لو أنه كان يبكي. "واحسرتاه، لقد مات السيد ذكائي." ثم ضرب بيده بياده من جديد. "هل سمعت يا أحمق؟ لقد ذهب الرجل الذي كان مثل الجبل..." ثم نصب عينيه في وجهي. "من؟ من هو عديم الشرف الذي فعل هذه الرذيلة؟ لا بد أنهم مجموعة من الأشخاص، فلو كان شخصا أو شخصين لما استطاعوا. أليس كذلك يا سيدي؟ لقد نصبوا له فخا، أليس كذلك؟"

أجبت على سؤاله بسؤال.

"هل كان يأتي هنا باستمرار؟"

انشغل بالتذكر.

"كان يأتي. لا أعرف، لكنه كان يأتي ثلاث مرات على الأقل في الأسبوع الواحد..."

"هل كان يدخل البحر؟"

هز يده اليمنى في الفضاء بشكل خفيف.

"ليس كثيرا... كان يخرج قليلا... يأتي إلى قاربه وينزوي فيه. له في جوف القارب غرفة صغيرة يدخلها ولا يخرج منها."

"ما هذه الغرفة؟ هل دخلتها؟"

"وكيف لي أن أدخلها يا سيدي؟ أستغفر الله، فقد كانت مقدسة مثل الكعبة، لا يُدخل أحدا هناك أبدا. مرّة، جاء وفي يده أكياس، فجئت معه إلى القارب بغية مساعدته في حملها. فأوقفني هناك وقال: 'شكرا يا رئيس أنا سأتولى أمرها بعد ذلك"

"ألم يكن له صديق أبدا؟ ألم يكن يحضر أحدا معه؟"

"كان يأتي وحيدا باستمرار، لم يكن له صديق. جاء مرّة رفقةَ زوجته. فقط..."

"أيضا هناك الرجل الطويل يا رئيس،" قالها بيادة. "تذكّر معي، لقد جاء في الأسبوع الماضي..."

ضربه الرئيس شعبان على مؤخرة رأسه.

"أحسنت،" قالها بسعادة. "لقد تذكّرت جيدا. نعم في الأسبوع الماضي جاء مع شخص آخر يومين متتاليين. وخرجا في أحدهما لصيد السمك. لا أدري ماذا كان اسمه، أهو ألبر أو أران؟"

كان الحوار يسير بشكل جيد.

أجبت فورا: "أهو ألبر؟ شرطي قديم؟"

رفع سبّابة يده اليمنى بحماس.

"نعم، نعم سيدي، ألبر. كان مساعد النقيب ذكائي. ما عدا ذلك فقد كان دوما وحيدا. رحمه الله، كان رجلا كريما. أليس كذلك يا بياده؟"

اهتز بياده كما لو أنه استيقظ من نومه.

"والله كان كذلك، أدخله الله الجنة. فقد كان يحضر لنا ما يحضره لنفسه. عطايا، شاي، عرق وكل ما يخطر ببالكم." فاضت عيناه. "هل تتذكر يا شعبان؟ لقد أحضر لنا في الشتاء الماضي حلوى. بقينا نشرب معها العرق شهرا كاملا..."

ليس لدينا وقت للاستماع إلى حوار هذين الثملين.

قلت: "هيا لنذهب ونرى ما بتلك الغرفة المقدسة."

خرجنا من الثكنة الممتلئة بالهراء إلى الهواء النظيف. كان المكان مغطى بدخان كثيف.

"احترقَت يا أحمق احترقَت،" قالها شعبان موبخا صديقه مرة أخرى.

"اجمعها بسرعة اجمعها."

جمع المسكين بياده الأسماك عن الشواية بيديه اللتين احترقتا من النار، ثم سرنا مواصلين طريقنا. كان الجو حارا وخانقا. لم يكن هناك أي نسيم على ساحل البحر. وبينما كنا نسير فوق الخرسانة التي كانت تشتعل حرارة كان شعبان مستمرا في الحديث.

"في الحقيقة جاء ذكائي هذا الأسبوع كثيرا إلى هذا المكان." حاول أن يتذكر. "كان كل يوم هنا تقريبا. كان يأتي إلى هنا وفي يده حقيبته السوداء ويبقى في قاربه حتى المساء..."

سبقني علي بسؤاله.

"هل تعرف ما في داخل الحقيبة؟ هل رأيت ما تحويه؟"

فتح شعبان يديه الكبيرتين اللتين لا تقاسان بحجم جسمه الهزيل.

"لا يا سيدي علي، وكيف أراها؟ كان ذكائي، رحمه الله، رجلا كتومًا، لا يُعطي وجها لأحد أكثر من اللازم. هناك مسافة بيننا باستمرار... وهذا ما كان يجب أن يكون. كان رجلا طيبا، ويعرف جيِّدا ما الذي يتحدث به مع الآخرين." صمت، ضيّق عينيه وبحث في الظلام. أشار برأسه إلى الأمام نحو القارب المطلي باللون الأبيض. "ها هو هناك..."

حينما اقتربنا ظهر أمام أعيننا اسم "القانون لي" مكتوبا على الجزء السفلي من القارب. نزل أولا شعبان إلى القارب، ثم نزلنا نحن من بعده. وبعد أن نزلنا من السلم بضع خطوات إلى الأسفل صرخ قائلا: "آه! أبناء الزانية! لقد دخل لص إلى هذا المكان... والله يا سيدي... هل ترى؟ آه! يا أبناء الحرام! لقد نهبوا المكان..."

دفع علي بيده اليمنى شعبان جانبا، ونزلنا بسرعة إلى جوف القارب. كان أول ما وقعت عليه عيني هو قُفل الغرفة المخلوع. وحينما دخلنا إلى

الداخل كانت هناك مفاجأة أدهى تنتظرنا. حوائط الغرفة مغطاة بالصور وقصاصات الصحف. كلها متعلقة بالجرائم التي ارتكبها القط الأعمى. وعلى الأرض حقيبة سوداء مفتوحة وفارغة. التقت عيناي بعيني علي.

أعلم علي بما هو معلوم قائلا: "اقتحم القط الأعمى المكان يا سيدي، وأخذ كل وثيقة مهمة."

34

"رنين الهاتف في هذه الساعة لا يبشر بخير أبدا."

"جئنا يا سيّدي."

فتحت عيني على كلمات علي. فحينما غادرنا حانة الصيادين التي كانت في صالاجاق وجئنا إلى باب سيارتي المخضرمة أحسست بدوار خفيف، فأعطيت المفتاح لعلي. "قُد السيارة أنت، وأنا سأنام قليلا،". منذ ليلة الأمس وأنا دون نوم. كنت في الماضي أعمل أياما دون أن يهتز رمشي، لكنني كبرت. المنطق يقضي بأن أذهب إلى المنزل لأسترخي، لكن بعد أن أجرينا البحث في قارب "القانون لي" لم أرغب في وضع رأسي على الوسادة قبل أن أتحدث مع زينب التي كانت تتفحص بيت ذكائي. ومع أني غفوت في السيارة مدة نصف ساعة إلا أنني شعرت بالراحة أكثر حين نزولي منها. فتحت ذراعي متمطيا مثل الأطفال في حديقة المركز الأمني. وحينما أنزلت ذراعي رأيت عليا الذي كان يرمقني وهو يبتسم بسخرية.

"لم تضحك هكذا؟ هل صدر مني شخير؟"

كان مستمرا في ابتسامته الصامتة.

"ماذا؟ أكان الشخير كثيرا؟"

"لا يا سيدي. حتى وإن صدر منكم شخير فأين المشكلة؟ أنتم في ليلة الأمس بقيتم دون نوم من أجلي."

"ليتك أيقظتني يا ابني."

"والله يا سيدي، لم أنزعج على الإطلاق" قالها بإخلاص.

جرى ما جرى، بدأت في السّير نحو السلّم، وكان مساعدي إلى جانبي. ومن جديد حل في الهواء الحار رائحة الياسمين تلك. هذه المرّة كانت أكثر كثافة وأشدّ رائحة وأرفع جمالًا. نظرت إلى ما حولي من الأبنية كأني سأرى تلك الزهور. وبالتأكيد لم أر منظرا غير المناظر القبيحة لشرفات المنازل المطفأة أنوارها. في تلك الأثناء علقت أنظاري بالهلال الصغير الذي كان ضوؤه خافتا كما لو أنه يخجل من الظهور في السماء، فيما النجوم من حوله مشعّة جدا حتى أن الهلال المسكين وصل إلى مرحلة فقد عندها جماله. ناهيك عن أنه كان يبدو باهتا أكثر مما هو عليه بفعل الضباب الذي كان منتشرا في الجوّ الرطب.

تشتّتت أفكاري بكلمات علي حينما قال: "إلى النجوم تنظر يا سيدي؟".

هو أيضا حوّل أنظاره إلى السماء مثلي. "ما أكثرها، أليس كذلك؟"

الصراحة أعجبني هذا الإحساس عند رفيقنا المشاكس.

"نعم، ما أجملها! وما ألمعها! هل تعرف النجوم يا علي؟ هل تميز بينها؟"

هز كتفيه.

"في الحقيقة لا أدري،" قالها ثم توقف لحظة، وأشار بإصبع السبابة إلى مكان في السماء. "أعرف ذلك النجم اللامع فقط. هل ترونه؟"

كان يحدق في نجمة بحجم الحصاة.

"ما ذلك؟ أهو النجم القطبي؟"

"لا، الزهرة..."

رمقت مساعدي بإعجاب.

"يا للروعة! أنت تعرف أجمل نجمة يا علي. إله العشق والجمال..."

همس بخجل.

"وفي نفس الوقت هو نجم زينب..."

وكأنه كان يقول كيف يمكن أن تجهل هذا.

"برج زينب هو الميزان يا سيدي. ونجم برج الميزان الزهرة."

"يا سلام عليك يا علي،" قلتها مقدّرًا ما قاله، "عندك تطوّر كبير يا ولدي..."

همس وهو ينظر حوله كأنه يتخوّف من أن يراه أحد.

"في الحقيقة أنا لا أحب الحديث عن البروج يا سيدي. لكنني تعلمتها من أجل زينب..."

وضعت يدي على كتفه برفق.

"لقد فعلت ما هو جيد يا علي... إنه يليق بتلك الفتاة. زينب كنز حقيقي. كنز قيمته عالية لا يقاس لا بالذهب ولا بالمال."

وجدنا ذلك الكنز الحقيقي تعمل في غرفتها. كانت أمام جهاز الحاسب تلمس لوحة مفاتيحه وكأنها لم تكن الفتاة التي كانت دون نوم منذ البارحة. كانت منغمسة في عملها إلى درجة لم تشعر عندها بدخولنا.

"مساء الخير عزيزتي زينب."

نظرت وهي مرتعدة. ثم في نفس اللحظة رسمت على شفتيها ابتسامة لطيفة. بالطبع لم تكن هذه الابتسامة من أجلي وإنما كانت من أجل الوسيم الذي كان بجانبي.

"مساء الخير سيدي النقيب،" قالتها وعيناها في وجه علي. "وأنا أيضا كنت أنتظركما."

كان صوتها مليئًا بالإثارة، ووجها مضاء.

"خيرا، ماذا هناك؟" قلتها وأنا أقترب من جهاز حاسبها. "هل وجدتِ

شيئا في منزل ذكائي؟"

تظلل وجهها فجأة.

"لا، ليس في المنزل، لكن هذا الرجل الذي يسمى ألبر.. الشخص الذي يزور منزل سيدي النقيب ذكائي..."

كنت أتوقع هذا، لكنها لم تبدي أي انفعال.

"الضابط المتقاعد ألبر سيبر" قلتها مكررا. "ماذا يوجد بشأنه؟"

"كان مساعد السيد ذكائي. قبل خمس سنوات... يعني عام 2012 فترة ارتكاب القط الأعمى جرائمه. كانا في تلك السنة يحققان معا في هذه القضية." صمتت، وبدأت ترمقني وكأنها كانت تنتظر أثر كلماتها فيّ. أجاب علي بدلا مني.

"يعني؟"

اعتدلت في جلستها على الكرسي.

"يعني أقصد أن ألبر هذا يعرف كل التفاصيل عن قاتلنا المتسلسل. فهو ذو تجربة ويملك معلومات بقدر ما يملك المرحوم سيدنا حول موضوع القط الأعمى. علاوة على هذا، فقد استقال من عمله بعد سنة من هذه الجرائم، يعني في عام 2013. لكنه لم يقطع اتصاله بذكائي أبدا، على العكس تماما فقد اقترب منه أكثر مما كان عليه في السابق. كان يزوره مرة كلّ أسبوع تقريبا."

توترت حينما رأتني أنظر بغير اكتراث.

"الاتصال بينهما واضح، أليس كذلك؟ ربما يكون ألبر هو القط الأعمى نفسه."

لم يكن احتمالا بعيدا، لكن هناك أسئلة كثيرة لا بد من الإجابة عنها.

"إن ما بين أيدينا مجرّد توقّع،" قلت ذلك بهدوء. "وأقوالك هذه ليست

كافية للاشتباه به."

كانت تدرك ذلك، ومع ذلك لم تنثني عن ذكر رأيها مجددا.

"لكن، ألم نقل سابقا إن القط الأعمى قد يكون واحدا منا؟ ألم نتحدث حول معرفته الجيدة بأسلوب عمل الشرطة، وأن هذا السبب هو الذي جعله ماهرا لا يترك خلفه أي أثر يقودنا إليه؟ نحن هنا نتحدث عن الرجل الثاني الذي يعرف هذه القضية بحذافيرها يا سيدي. علاوة على هذا، نتحدث عن رجل استقال من عمله حينما انتهت الجرائم..."

حينما رأت أننا غير مقتنعين برأيها عادت إلى جهاز حاسوبها. ولمست لوحة المفاتيح، فظهر على الشاشة رجل عيناه داكنتان، وحاجباه كثيفان، وشعره أشقر. مظهره أنيق.

استمرت في كلامها وهي تنظر إلى شاشة الجهاز قائلة: "هذا هو ألبر سيبر. هذا الرجل هو سيد فنون الدفاع عن النفس. ليس مجرد كلام وإنما هو حقا كذلك. يحمل الحزام الأسود في التايكواندو بدرجة 8 دان، وسيصل قريبًا إلى درجة 9 دان. شخصية كاريزمية مؤثرة في من حولها ومتصالحة مع الجميع. وبعد استقالته من عمله أنشأ شركة أمن. ينظّم الأعمال الأمنية في بعض المستشفيات والفنادق. ناجح للغاية. وهو الشخص الوحيد الذي في إمكانه دخول منزل ذكائي دون حسيب أو رقيب. لا أعرف عنكم لكن أرى أن هذا الرجل هو القط الأعمى."

كانت تفكر جيدا لكنها كانت عجولة في قراراتها، عجولة جدا في قراراتها. في الحقيقة لم يكن هذا أسلوب زينب، لكنها كانت متعبة، وربما حدوث الجرائم بشكل متعاقب جعلها تفقد أعصابها بحيث أصبحت عاجزة عن تقييم الحوادث بالشكل الصحيح. كانت تريد الوصول إلى القاتل المتسلسل منذ أوّل إشارة تظهر أمامها، تريد حلّ هذه القضية

المعقدة بأسرع ما يمكن.

سأل علي سؤالا منطقيا للغاية. "هل نعرف حياة الرجل الخاصة؟ هل لدينا معلومات عن طفولته؟"

أدركت زينب النقطة التي يريد مساعدي الوصول إليها.

"لم يعِش في سكن الأطفال، إن كنت تريد معرفة هذا بالطبع. بل نشأ بين عائلته في مدينة يالوا. كان والده راشد بك جرّاحا في مستشفى يالوا الحكومي."

سحبت كرسيا وجلستُ أمامها. أمّا علي فقد استمرّ في الوقوف على قدميه.

"حسنا أصدقائي، فليبدأ عملنا غدًا أوّل ما يبدأ بالحديث مع ألبر. لنرى ما الذي سيحصل. آه، صحيح، عزيزتي زينب، هل حصلت على عينات من البصمة الوراثية لعرده؟"

بدأ انفعال باحثتنا يهدأ.

"نعم سيدي، غدا سنحصل على النتائج، لكن أرى أن عرده هو من قتل حجابي. ومن المحتمل أنه قام بطعنه. فقد قمت بإجراء فحص اللومينول في شقته في زيتن بورنو، كان حوض المغسلة قريبا من اللون الأخضر. ووجدت في القاع بقع دماء. فمن المحتمل أنهم غسلوا أيديهم هناك، ونظفوا أيضا ألبستهم. ولهذا السبب ما زلنا نحتفظ عندنا بسيبسي إسماعيل ورجاله. فلو أنكم تخبرون المدعي العام بآخر التطورات..."

دلّكتُ يدي في سرور.

"على الأقل سنحلّ هذه القضية. وبهذا الشكل سنتمكن من العودة إلى القط الأعمى من جديد."

تحركت زينب في كرسيّها بانفعال كالطفل.

"هذا ما كنت سأقوله. جاءت تقارير التشريح لعاكف صويقان وفريد سلجيم. أقصد الجريمتين اللتين ارتكبهما القط الأعمى." نظرت إلى جهاز الحاسوب، ولمست لوحة المفاتيح. ظهر على الشاشة تقرير. "ها هو هنا. فقد أعطي لكل واحد منهما قبل موته علاج. اسم العلاج ميواكريوم. وهو خاص بالأعصاب والعضلات. ووظيفته ترخية أطرافها... يستخدم عادة أثناء التخدير."

اضطررت إلى تنبيه زينب قائلا: "عزيزتي زينب، أرجوك، اشرحي لنا بطريقة نفهمها."

"أعتذر يا سيدي. يعني إذا أعطيت جرعة كبيرة من علاج الميواكريوم لشخص ما فإنه يصاب بالشلل. وإن زدْتَ الجرعة فإنه يموت. يعني، يقوم القط الأعمى أوّلًا بخطف الضحايا، ثم يخدّرهم بهذا العلاج، ثم يقتلهم. في الحقيقة هذا أمر رهيب. فالقُربان يكون مُدركًا لكل ما يجري لكنه لا يستطيع الحركة أبدا. يحسّ بكل شيء ويدرك ماذا يحلّ به."

قطّب علي وجهه وبدا أن روحه احترقت من هذا الكلام.

"يعني حينما تُقطع أذنه فإنّه يشعر بالألم نفسه كما هو..."

"بالضبط، لكنه لا يقاوم أبدا. ثم بعد ذلك يقوم القط الأعمى بحمل ضحيته إلى مكان الجريمة. فيربط عينيها بقطعة قماش حمراء، ويترك إلى جانبها لعبة، ثم يطلق عليها النار في مؤخرة رأسها."

بقي ذهني عالقا بجزئية أخرى.

"ما دام أن القط الأعمى قادر على تحديد مقادير جرع العلاج مثل الميواكريوم فهذا يعني أنه يعرف الطب جيدا."

هبّ وهْجٌ حاد من عيني زينب الكستنائيّتين.

"هذا ما كنت أقوله يا سيدي، والده رشيد بك كان جراحا في مستشفى يالوا الحكومي. يعني لم يكن بعيدا عن الطب وخاصة علاجات التخدير. ولهذا السبب لا بد من التركيز أكثر على ألبر. انتبهوا، سترون أن هذا الرجل له علاقة بهذه الجرائم."

لم يكن هناك أي معنى من الاستمرار في الحديث في هذا الموضوع حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل.

"سنعرف ذلك عزيزتي زينب" قلتها بصوت ساكن من جديد. "كما قلت سنطرق غدا باب ألبر. وسنرى ما الذي سيقوله. وإن أردت تعال أنت أيضا، حتى تصلي إلى تصوّر أكثر وضوحًا."

وأخيرا وصلنا إلى طريق واحدة.

"سأكون سعيدة جدا يا سيّدي. لكن أنتم من سيسأل وأنا سأكتفي بمشاهدة الرجل. أرغب في رؤية ردّة فعله."

آه، وأخيرا حان وقت الذهاب إلى البيت، حان وقت الاستراحة. وحينما نهضت من مكاني قال علي الذي ما زال واقفا وهو يشير إلى ساعة الحائط: "هل تعرفون أن الساعة أصبحت الواحدة والنصف الآن؟ الآن دخلنا في 6 يونيو."

أنا وزينب نظرنا إلى بعضنا ولسان حالنا يقول وماذا يعني ذلك؟

"يبدو أنكم نسيتم، إن كان القط الأعمى ملتزما بطقوسه فإنه لا بد أن يرتكب اليوم جريمته الثالثة."

كان ما قاله موضوعا مهما. وتذكرت حينها كلمات ذكائي المسكين حينما قال: "يجب انتظار قتل القط الأعمى لأحدهم، وتركه الضحية في مكان، وانتظار تطبيقه روتينه الخاص. فربما حينها قد يترك ثغرة." ولسوء الحظ كانت هذه الحقيقة. فربما لم يكن لدينا حل غير أن ننتظر

خطأ القط الأعمى أثناء ارتكابه الجريمة في هذه الدقائق في إسطنبول فيترك لنا دليلا أو إشارة تقودنا إليه.

"أعتقد أنك مخطئ عزيزي علي، فالقط الأعمى في الأصل ارتكب جريمته الثالثة." كان صاحب هذه العبارة زينب. وأضافت. "فقد قتل السيد ذكائي..."

هذا هو التناقض الذي كشف مدى تعقيد سلسلة الجرائم. فإن كان قاتل عاكف صويقان وفريد سلجيم هو القط الأعمى، فإنه يكون بذلك قد أتمّ جرائمه الثلاثة. لكن علي اعترض على ذلك.

"حسنا، لكن التواريخ ليست متفقة يا زينب. فإن كانت هناك طقوس خاصة فإن قاتلنا المتسلسل لا بد له أن يقتل في اليوم السادس من هذا الشهر. أليس كذلك؟ فقد قتل عاكف صويقان في اليوم الثاني وفريد سلجيم في اليوم الرابع، وحينما نجمعها فإنها تساوي ستة، ولهذا لا بد أن يقتل في اليوم السادس حتى يصبح مجموعها العدد 12. أما سيدي ذكائي فقد قُتل في اليوم الخامس والمجموع هو 11..."

حضرت زينب جوابها.

"لكن عزيزي علي، ارتكب جريمته الأولى عام 2012 في اليوم الأول من شهر يناير. أما بعد مرور خمس سنوات فقد كانت جريمته الأولى في اليوم الثاني من يونيو. يعني أن القط الأعمى في الأصل خالف طقوسه. فربما يريد أن يسلك طريقا جديدة. ولننتظر قليلا لنرى ماذا سيجري."

هذا الحوار لو بقي سيظل مستمرا حتى الصباح، علما أن لدينا في اليوم التالي ملف جريمة يجب حله. حاولت النهوض من جديد وقلت لهم: "هيا يا رفاق لنذهب وننم قليلا." وما إن أنهيت كلامي وإذ بهاتفي يرن. كان كلاهما يرمقني بقلق. فرنين الهاتف في هذه الساعة لا يبشّر

بخير أبدا. كان على الشاشة اسم أكرم وهو شرطي من شرطة الجوالة.

"ألو، خيرا يا أكرم؟"

"ليس خيرا يا سيدي، هناك جسد آخر..."

"أين؟"

"الجسد في فريكوي. في مدينة ألعاب صغيرة."

35

"هل يعقل أن يجمع قاتل متسلسل معلومات أفضل منا؟!"

كانت مدينة الألعاب التي ذكرها أكرم عبارة عن مكان متواضع للتسلية واللعب، يأتيه الناس في ليالي الصيف الطويلة ليرفهوا عن أطفالهم وأولادهم، في هذا المكان دولاب دوّار، وأراجيح، ومعرض لإطلاق النار بالبنادق. كانت الأنوار مطفأة كما هو الحال في معظم المدينة، كلّ شيء ساكنا إذا استثنينا بالطبع الكراسي المتطايرة في الدولاب الدّوار. عشرات الكراسي المعدنية تدور مثل مروحة ضخمة في ظلام الليل. كلها فارغة باستثناء كرسي واحد. في ذلك الكرسي رجلٌ، شعره طويل ويتطاير في الهواء. كان مرعبا. في تلك اللحظة شعرت بالبرودة. كانت تهب على وجهي نسائم لطيفة من الكراسي التي كانت تدور، لكن مع تلك النسائم القوية ارتطمت بأنفي رائحة في غاية القذارة.

"مساء الخير يا سيدي."

حينما أنزلت عيني رأيت أكرم الذي كان يحمل جهاز لاسلكي ووجهه في غاية الذهول.

"مساء الخير يا أكرم، ما هذا؟!"

أشار بجهاز اللاسلكي إلى الكراسي التي كانت تدور في الهواء.

"لقد ربطوا القتيل بواحدة منها."

قالت زينب: "رأينا ذلك. لكن لماذا لا توقفون هذه الآلة؟!"

ابتسم أكرم ابتسامة باهتة وكأنه هو المسؤول شخصيا عن وجود القتيل هناك.

"سيدتي زينب، سنوقفها لكننا لم نعثر على الرجل. فالمسؤول عن هذا المكان أغلق المكان وذهب. أرسلت جهازًا قبل قليل، سيجده ويحضره الآن."

عينا علي لم تفارقا الجسد.

فغمغم قائلا: "حقا إن القط الأعمى هذا رجل عجيب، الرجل يعمل بدقة. انظروا إلى هذه الدقة وكأنه يُعدّ شريط فلم ينقصه موسيقى."

زينب أيضا كانت تحدق في الضحية.

قالت: "لست متأكدة أنّ هذا من عمل القط الأعمى، فلا أحد يستطيع أن يرتكب جريمتين في عشر ساعات. وأنتم تعرفون هذا جيدا. وخاصة مثل هذه الجرائم المنظمة وهذه التحضيرات المتسقة. لا، لا أحد يستطيع أن يرتكب جريمتين في وقت قصير دون أن يترك خلفه أثرا يقود إليه. فإن كان القط الأعمى هو من قتل السيد ذكائي فإن هذه الجريمة ارتكبها آخرون بكل تأكيد، ولا خيار غير هذا."

كانت قراءة بسيطة لكنها حقيقية جدا، غير أن عليا لم يؤيد هذا الرأي.

"حسنا، وإن كان هناك أتباع للقط الأعمى؟ ألم نقل هذا من قبل؟ وربما قام بهذه الجريمة أناس يحتذون به. وعليه فإننا إذا أخذنا بوجود المقلدين له، فإن هذا يعني أنه هو من قام بقتل ذكائي، والمقلدون قاموا بقتل الشخص الذي في الأعلى."

"القط الأعمى يعمل وحيدا عزيزي علي."

قال رفيقنا العنيد مصححا الكلام: "كان يعمل وحيدا. كان ذلك قبل خمس سنوات عزيزتي زينب. لكن ربما غير رأيه."

ذلك ممكن، حيث كان من المحتمل أن هدفه قتل الرجل الذي يدور في الأعلى. وبهذا الشكل يكون قد أنهى نشاطاته لهذا الشهر. وربما قتله قبل أيام، وفي هذه الليلة أراد أن يتركه في هذا المكان، فشعر أن ذكائي قد عرفه، فاضطر لقتل نقيبنا المتقاعد. لكن لماذا فعلها اليوم؟ كان في إمكانه أن يقتله بعد أيام. فإن كان لا يتجسّس على هواتفنا فإنه من المستحيل أن يعرف باتصال ذكائي بي. هذا وبالطبع إن لم يقل ذكائي في وجهه أنت القط الأعمى. لا، ذكائي لا يمكن أن يفعل هذا. فمهما غضب فإنه يبقى متمالكا نفسه. وللعلم فإن رأي علي لم يكن منطقيا أبدا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فنحن حتى هذه اللحظة لم نتمكن من الوصول إلى أي معلومة تمكننا من الوقوف على الحقيقة.

ولهذا السبب أردت الابتعاد عن ذكر الآراء لهما، لقناعتي أنها لن توصلنا إلى أي نتيجة. تقدمت بضع خطوات. وهدفي هو رؤية وجه المقتول الذي كان يدور. لكن الظلام القاتم ودوران رأسه باستمرار منعاني من الرؤية الحقيقية. عدت إلى أكرم الذي كان يقف خلفي على بعد خطوة واحدة.

"هل هناك شاهد أو غيره؟ أو هل هناك دليل؟"

أجاب بيأس في الظلام.

"لا يا سيدي، كالعادة لا شاهد ولا غيره. في الحقيقة لا بد من وجود حارس في مثل هذه الأماكن، لكننا لم نره أيضا..." سمع صوتا، نظر إلى الباب الحديدي للمتنزّه. "وها هو جهاد قد عاد. يبدو أنه عثر على المسؤول."

رأيت أولا جهاد، ثم رأيت إلى جانبه رجلا متوسط القامة يعرج، كان

أصلعا. لا بد أنه كان يوبخه منذ العثور عليه. لم أسمع إلا كلماته الأخيرة فقط.

"كيف تذهب من هنا يا أخي؟ هل يمكن أن تكون عديم المسؤولية إلى هذا الحد؟ قتلوا الرجل في مكانك، وركّبوه في الدولاب الدائر. وأنت غارق في نومك لا علم لك بالدنيا وما فيها."

حاول الرجل المسكين أن يدافع بصوت خجول كما لو أنه قبض عليه متلبسا.

"أنتم محقون يا سيدي، لكن ليس لي علاقة بهذا القضية أبدا. وأنا في العادة لا أترك المتنزّه خاليا أبدا. ذهبت وتركت خلفي موسى الوغد. يبدو أنه ذهب وغادر المكان عديم الشرف. ثم يأتي ويكذب عليّ بادعائه البقاء هنا حتى الصباح. هذا كله بسبب سفالة موسى..."

تدخل جهاد فورا حينما رآني.

"تحدث بأدب، لم هذا الكلام البذيء الذي تتفوه به؟ نحن هنا نحقق تحقيقا رسميا."

ابتلع الرجل -الذي كان وجهه محمرا مثل رأسه العاري- ريقه مرتين بتتابع.

قال: "لا تؤاخذني يا سيدي." وضع جهاد إصبع السبابة ليده اليمنى على شفتيه وقال: "كفى، اصمت، لا تتكلم إلا حينما نسألك." ثم نظر إليّ وقال: "أحضرت حسام يا سيدي، إنه صاحب هذا المكان..."

توقف حسام أمامي وهو على أهبة الاستعداد للكلام.

"أقسم بالله العظيم يا سيدي أن لا علاقة لي بهذا الأمر كله."

أشرت بيدي إلى الكراسي التي كانت تدور.

"حسنا حسنا حسام، سنتكلم. لكن أوقف هذه الآلة أولا. فورا

وبسرعة..."

نظر صاحب المتنزّه لحظة إلى الأعلى ثم قال وهو يغطي عينيه بيده: "هل هو ميت، هل هو ميت ذلك الرجل؟ أنا لا أحتمل النّظر إلى الجثث."

أجاب جهاد بقسوة. "لا تنظر إذن، هيا تعال اذهب أمامي وأوقف هذه الآلة."

"حاضر يا سيدي، الآن سآتي. " ابتعد عن الكراسي الطائرة مسرعا دون أن يكترث بالعرج الذي كان في رجله اليمنى. وفعلا بعد لحظات خف ذلك الصوت، وانقطعت هبوب النسائم، وخفتت سرعة الكراسي ثم توقفت بعدها تماما.

وحينما اقتربتُ من القتيل ارتطمَت بأنفي رائحة الجسد التي تطحن الإنسان طحنا في هذه الحرارة المرتفعة. لا شك أن الرجل قُتل قبل أيّام، وكان موضوعا في مكان ليس باردا جدا. اقتربتُ وأنا أضع يدي على أنفي. كانت عيناه معقودتين بقطعة قماش حمراء، ونصف أذنه اليمنى مفقودة. من الصعب رؤية التعبير في وجهه بسبب الطلقة التي دخلت من مؤخرة رأسه وخرجت بعد أن مزقت حنكه السفلي. نعم، قُتل بطلقة واحدة من مؤخرة رأسه كما هو الحال مع الضحايا الآخرين. كان قميصه الكتان ملطخا بالدم من الأمام والخلف، وفي يده مسدّس بدا حقيقيًّا في الظلام القاتم، لكنني حينما اقتربت أدركت أنه مجرد لعبة. فقد كان سلاحا أسود موثوقا في يده بخيط أسود. كانت اللعبة مجرّد مسدس ماء بلاستيك... الطقوس كلها في مكانها. كانت الجريمة عبارة عن جسد ملقى في مكان عائد للأطفال، هذا الجسد مقتول صاحبه بطلقة واحدة في الرأس، وعيناه معقودتان بقطعة قماش حمراء، ونصف أذنه اليمنى مبتورة، وفي يده لعبة. فإن حسبنا ذكائي من بين هذه الجرائم فإن مجموع

الجنايات التي ارتكبها القط الأعمى أصبح يساوي 16. في الحقيقة كانت كل هذه الإشارات تشير إلى القاتل المتسلسل الذي نطارده منذ زمن.

أخرجت زينب التي كانت تتفحص الرجل بدقة متناهية محفظة جلد من جيب بنطاله الجينز الخلفيّ. أخذت هويته الشخصية بأصابعها الطويلة التي كانت داخل قفازات بلاستيكية، وقربتها من عينيها وبدأت تقرأ بصوت عال.

"قانصو صارماشيق... إسطنبول، تشكمه كوي..."

مد أكرم يده إلى هاتفه.

"سأتولى فورا معرفة المعلومات العامة عنه... اسمه قانصو صارماشيق، أليس كذلك؟"

قالت زينب التي كانت مستمرة في البحث في المحفظة: "نعم، مواليد 1970، أعزب،" وفجأة توقفت ورفعت رأسها وقالت: "الرجل كان طبيبا يا سيدي. كان طبيب جراحة..." لقد ذهلت من ذلك. "طبيب جراحة،" قالتها مكررة. "لقد قتلوا طبيبا..."

لم أعرف سبب اندهاشها.

"لا أعرف أن هناك وظيفة خاصة للمتحرشين بالأطفال عزيزتي زينب. فهذا المرض يوقع في شركه أي إنسان بغض النظر عن مهنته. مهما كان وضعه الاقتصادي ومهما علت مراتبه العلمية..."

أخرجت باحثتنا التي عادت لبحثها من جديد بطاقة عمل من محفظته.

"إنه يعمل في مستشفى سراب. ذلك المستشفى الذي يقع في لونت. أخذت أبي قبل شهر إلى هناك. إنه مستشفى جيد جدا."

اعترض علي في هذه المرة.

"وما علاقة هذا بمستوى المستشفى يا زينب، فمن أين لهم أن يعلموا أن الرجل شخص متحرش بالأطفال؟! أعلى جبينه مكتوب ذلك؟!"

"بالطبع هكذا، بالطبع..." نظرت إلى الجسد وكأن الجواب كان مكتوبا هناك. "لا أدري، لكن هذه الحادثة أثارت دهشتي قليلا."

"ليس عليه قيود حول تحرشه بالأطفال،" قالها أكرم وكأنه كان يساند زينب في رأيها. "دخل السجن مرتين. دخل بتهم صغيرة، لكنه لم يتّهم بالتحرش مطلقا."

أردت التأكد.

"هل اطلعت على الشخص الذي اسمه قانصو صارماشيق، مواليد 1970، إسطنبول، جكمه كوي؟"

"نعم يا سيدي، لكنني سأتأكد مرة أخرى،" عاد أكرم إلى هاتفه من جديد. "اسمه قانصو صارماشيق، اسم والده مختار، واسم والدته جنان، أليس كذلك يا سيدتي زينب؟"

ألقت زينب نظرة على الهوية الشخصية التي كانت في يدها.

"نعم صحيح،" قالت مؤكدة كلامه. "هو بنفسه..."

أكد أكرم على النتيجة التي وصل إليها.

"لا، لا علاقة له بالتحرش الجنسي أبدا."

لم يكترث علي بكلمات أكرم مطلقا.

"من المحتمل أن هذا الحقير لم يمسك به. ولم لا؟! فهل تم الإمساك بجميع المتحرشين جنسيا يا ترى؟! ولهذا ربما حكم القط الأعمى عليه بالموت قبل أن نمسك به نحن الشرطة."

استغربت زينب.

"ما الذي تقوله يا علي؟ هل يعقل أن يجمع قاتل متسلسل معلومات

أفضل منا؟!"

رد مساعدي بذلك الأسلوب القاسي الذي أعرفه جيدا.

"ما دام أننا لم نستطع أن نقبض على الرجل منذ خمس سنوات فإن هذا يعني أنه أفضل منا بكل تأكيد. ولم لا يكون أفضل منا في موضوع جمع المعلومات؟ وأين الغرابة إذا كان هذا الرجل يعرف منطقة صيده أكثر منا؟!"

36

"لدي معلومات مفصلة عن كل حادثة وعن كل جريمة."

ثم بعد ذلك سمعت الجرس. وبسبب النعاس الشديد، ظننت أن الباب يُقرَع، فنهضت عن السرير وسرت بضع خطوات. كلما ابتعدت عن السرير كان الصوت يتضاءل، فأدركت حينها أن الجرس كان يأتي من الهاتف الذي تركته بجانب سريري. توجهت نحو الهاتف وأنا أنظر مبتسما إلى صور ابنتي وزوجتي التي كانت على الحائط. ظهر في الشاشة رقم لا أعرفه أبدا. فتحت.

"ألو، تفضلوا."

أجاب رجل بصوت رقيق.

"أأنتم النقيب نوزات؟"

"نعم، ومن أنتم؟"

"مرحبا سيدي،" قالها في هذه المرة بصوت أكثر صدقا. "أنا ألبر، ألبر سيبر. تحدثت السيدة جليلة لكم عني، كنت مساعد النقيب ذكائي..."

إنه الرجل الذي كانت تصرّ زينب على أنه القط الأعمى. وتصرفه هذا تصرف المجرمين الواثقين من أنفسهم بالضبط.

"تفضلوا سيد ألبر، أنا أسمعكم."

"رحم الله فقيدنا،" كان صوته حزينًا. "أنا حزين جدا على سيدي ذكائي، إنه لم يكن سيدي فحسب، وإنما بمثابة أبي أيضا. وهذا ليس

مجرد كلام، وإنما حقا كان الأقرب إليّ في حياتي كلها، كنا نعمل معا."

"كنتما تعملان معا في الماضي،" قلتها معدلا كلامه. "أعتقد أنكم استقلتم من وظيفتكم. وذكائي تقاعد بالطبع."

صمت لحظة، لا بد أن حديثي بنبرة باردة جعله يشعر بالريبة. لم يطل صمته.

"هناك مواضيع لا بد أن تعرفوها. ولا بد لنا أن نتكلم. أرجوكم لا تظنوا بي سوءا. أنا حصلت على رقم هاتفكم من الأم جليلة. قاتل ذكائي يجب أن لا يبقى بلا عقاب. أستطيع مساعدتكم في العثور على القاتل."

لم يستطع المواصلة أكثر، كان متأثرا، وربما كان يبكي. فتركته وشأنه.

"يعني، أقصد أن بالإمكان أن تنهوا العمل الذي لم يستطع ذكائي إنهاءه."

أصبحت المحادثة تثير الاهتمام أكثر.

"أي عمل؟"

"القبض على القط الأعمى الذي هو سبب كل هذه الجرائم..."

كان يتحدث بغضب، أراد بذلك إظهار حقده عليه.

"أتعرفون شيئا عنه؟"

"هناك أشياء كثيرة، لكنني لا أستطيع حلّها وحدي. قبل خمس سنوات من اليوم عملت مع سيدي ذكائي في السنة التي قتل فيها القط الأعمى 12 شخصا. فأنا لدي معلومات مفصلة عن كل حادثة وعن كل جريمة."

"لكنكم في تلك السنة، يعني في عام 2013 استقلتم من عملكم."

لم يتلعثم هذه المرة.

"سأشرح ذلك. لا أريد إضاعة الوقت، هل بإمكانكم المجيء إليّ. مكاني في شارع الوطن، خلف المركز الأمني مباشرة. اسم شركتي درع الأمن.

وبالطبع سترون لوحتنا. تفضلوا اشربوا القهوة وسنتكلم حول هذه المواضيع وجها لوجه. لكن إن أردتم بشكل رسمي فأنا سآتي إلى شعبة الجنايات على الفور."

كنت أريد رؤية ألبر في مكانه، فالمشتبه بهم حينما يكونون في أماكنهم الآمنة يصرّحون بأقوال أكثر.

"اتفقنا سيّد ألبر، سأكون بعد ساعة هناك."

بعد إغلاقي الهاتف اتجهت أنظاري إلى الساعة، إنها الحادية عشرة تقريبًا. هذا يعني أني غرقت في سبات عميق. وما دام أن رفيقَيّ لم يتصلا بي فهذا يعني أنهما أيضا ليسا مختلفين عنّي. اتصلت بعلي قبل أن أذهب للاستحمام، فأجاب بعد الرنّة الثانية.

"صباح الخير سيدي،" قالها بصوت ديناميكي. "ماذا تأمرون سيدي؟"

قلت في نفسي أحسنت يا علي، هذا يعني أنه استيقظ مبكرا. نعم صحيح، فأنا عجوز وليس بالضرورة أن يكون الجميع مثلي. تركت التحسّر على نفسي جانبا وعُدت إلى مساعدي.

"صباح الخير عزيزي علي، ماذا تفعل؟"

"أنا في صالاجاق، عند قارب النقيب ذكائي. أنتظر قدوم الضابط الشفيق وفريقه."

ومن أين جاء هذا الأمر الآن؟

"لماذا؟"

"لأنهم لم يستطيعوا أن يتفحصوا القارب ليلة البارحة بسبب عدم قدرتهم على تأسيس نظام الإضاءة بالشكل المناسب، لذلك سيأتون بعد قليل. وأنا أيضا سأكون معهم. لكن إن كان هناك أمر منكم فأنا..."

"لا عزيزي علي أنت أيضا ابقَ هناك. أين زينب؟"

"ذهبت في الصباح إلى الطبيب الشرعي. ستأخذ التقرير الطبي الذي يفحص العلاقة بين القطع الجلدية التي كانت في أظافر مدير السكن وبين الحمض النووي لعرده. سأتصل بها إن أردتم."

"شكرا جزيلا، أنا سأتصل، ابقَ أنت في صالاجاق. ولا تنس أن تعيّن شخصين ثابتين أمام القارب ليبقيا هناك ليل نهار فنحن أيضا يجب أن نتفحصه من جديد."

"أمركم سيدي."

في صوته نبرة عتاب، وبتعبير آخر، أدرك أنني منشغل بأمر آخر أكثر أهمية. لكن من المستحيل أن نكون جميعا في مكان واحد. لمست لوحة الهاتف من جديد واتصلت بباحثتنا، لكنها لم تجب. ذهبت للاستحمام، كان لا بد لي أن أتخلص من هذه الرطوبة التي باتت مثل جلد ثان على جسدي في أسرع ما يمكن. تركت نفسي تحت الماء. لم أهتز أبدا، فالجو كان حارقا جدا إلى درجة كان الماء عندها مثل الدم الفاتر. ومع ذلك فقد كان التخلص من تلك الرطوبة شيئا جميلا. حلقت، ولبست. ثم حضرت لنفسي خبزا محمرًّا بالزبدة، وأعددت شايا من شاي الميدالية، وأملأت بطني وأنا واقف على قدمي. وحينما خرجت من المنزل رن هاتفي. كان المتصل باحثتنا الجميلة.

"مرحبا عزيزتي زينب، ما الأخبار؟"

"الأخبار طيبة يا سيدي،" كان صوتها مرحا. "تعرفون أنني كنت أشتبه بوجود قطع جلدية بين أظافر حجابي. كنت محقّة، فقد تعارك مع أحدهما. فنتائج الحمض النووي كانت متسقة مع عرده. وبالطبع سركان شريك في الجريمة. ولا ننسى سيسي وهو المسبب الرئيسي. أما السبب فهو معلوم. في الحقيقة كان مُحقًّا، لكن لو قام كلّ واحد

بالانتقام لنفسه بيده فإن... على كل حال، ستأخذ العدالة مجراها الصحيح. وإسماعيل سينال جزاءه."

لم أرغب في إزعاجها، لكنني لم أستطع الوقوف ساكتا دون إخبارها بالنتيجة التي سنواجهها.

"سينال كل من عرده وسركان جزاءه، لكن إسماعيل سيتملص منها من جديد. فرجاله لن يسلموه بهذه السهولة. لكن هذه المسألة ليست مشكلة، فهذه أيضا نتيجة."

نجاة إسماعيل لم يؤثر فيها على الإطلاق.

"لكن الأهم من ذلك هو براءة علي... لم أعترف لكم من قبل أبدا لكنني كنت أحيانا أؤمن أن قاتل حجابي هو علي. وأنتم تعرفون أن علي قد يفعلها. الحمد لله، لم يفعلها، وحينما حصلت على النتائج فرحت أكثر."

"إذن، لك جائزة، بعد نصف ساعة كوني في أقصراي. سنتحدث مع ألبر. هو في شركته المسماة درع الأمن، مكانها خلف المركز الأمني. الرجل ينتظرنا هناك."

"لا تقلقوا، سأجد المكان من خلال الإنترنت،" قالتها بحماس. "الآن سأتجه فورا إلى هناك."

أغلقت الهاتف وخرجت من البيت. ضربت وجهي تلك الأشعة الساطعة، ضيّقت عينيّ واتجهت نحو سيارتي المخضرمة. وحينما فتحت الباب علقت أنظاري بالكلب بختيار الذي كان يتظلّل تحت شجرة الأكاسيا. كان ذلك الحيوان المسكين يحاول النوم وجسده على الخرسانة الحارقة، وعيناه مغلقتان، ولسانه في الخارج.

ناديت قائلا: "ماذا تفعل يا بختيار؟ أأنت بخير يا ولدي؟"

فتح عينيه، ورفع رأسه لحظة وسلم عليّ بصوت غريب بين النباح والعواء، ثم عاد للنوم من جديد. ركبت سيارتي المخضرمة ثم شغّلتها، وصرت أتصبب عرقا وأنا لم أفارق المكان بعد.

كانت لوحة "درع الأمن" هي أوّل ما تراه العين في مدخل الشارع. تلك اللوحة الكبيرة واحدة من اللوحات القذرة التي تلوّث شوارع إسطنبول. جعلوا الشعار عليها شبيها بشعار المركز الأمني. لوحة زرقاء وعليها نجوم حمراء وصفراء. وحينما كنت أوقف سيارتي أمام تلك اللوحة الكبيرة رأيت زينب. كانت منتصبة أمام المدخل، تتفحص المبنى وعيناها مليئتان بالأسئلة كما لو أن أمامها مشتبهًا به.

وحينما قلت: "مرحبا عزيزتي زينب،" نظرت إليّ وعلى شفتيها ابتسامة متعبة. "لمَ تنظرين هكذا؟"

أشارت بيدها إلى الإعلانات المحيطة بالمدخل.

"هل هناك حقوق مثل هذه لهؤلاء الناس؟" كان يظهر في إحدى الإعانات رجل من شركة درع الأمن يحمي طفلة صغيرة. كان إعلانا تركيبيا منتحلا من إعلاناتنا التعريفية التي يستعملها مركزنا الأمني في ذكرى تأسيسه السنوية.

"لا يحقّ ذلك،" قلت مؤيّدًا باحثتنا. "يبدو أن أحدًا لم يحذره."

تجهّم وجهها الجميل.

"علاوة على ذلك يفعلون هذا أمام المركز الأمني... ومن يدري، فربما يعرف أناسا يساندونه من الأعلى."

وقبل أن تنهي زينب كلامها، ظهر من الباب أمام أعيننا ألبر الذي رأينا صورته البارحة على جهاز الحاسوب. بدا شابًّا أكثر مما ظهر في الصورة، أكثر لطافة وأكثر حيوية. وكان هناك رجلان جهمان أطول منه على

الأقل بمقدار رأسين يقفان خلفه كالظل. ابتسم ألبر وهو يسير على قدميه القويتين.

"أهلا وسهلا سيدي."

مد يده، ومن العيب أن تُرَدّ فارغة، فمددت يدي.

"أهلا وسهلا سيّد ألبر..." أشرت برأسي إلى الإعلان. "أرى أنكم تقلّدون المؤسسة الأمنية تماما."

بدأ ينظر إلى الإعلان كما لو أنّه يراه أوّل مرّة.

"أحقا ذلك؟ والله لم ألاحظ ذلك!" تجهم وجهه. "في الحقيقة أنا لا أحب شركة الإعلانات هذه أبدا. فكل أعمالهم سرقة في سرقة. يسرقون من هناك ويلصقون هنا، ثم يخدعوننا بزعمهم أنها من إبداعاتهم. لا تقلقوا، سأنبههم اليوم، وسنغيرها كلها." إغلاق الموضوع أعطاه راحة مكّنته من النظر إلى زينب. "لا بد أنكم الضابط زينب، أليس كذلك؟"

رمق ألبر زينب بعينيه وهو يمد يده نحوها، فمدت يدها بصعوبة كي لا تبدو سيئة. "نعم أنا،" قالتها بأسلوب بارد. "نعم أنا لكنني أرى أنكم تستخدمون شعار مؤسسة الأمن أيضا."

نظر مرة أخرى بذهول إلى الشعار، لكن لم يكتف، فاقترب منه أكثر.

"آه، والله حقا كذلك، ما الذي يفعله هؤلاء الناس يا ترى؟! سأطرد مصممي الإعلانات من هنا دون تردد." أشار إلى المبنى بأدب. "تفضلوا، تفضلوا لندخل، بقيتم على أقدامكم واقفين أمام المبنى."

كان الإمساك بالقط الأعمى أهم بكثير من حفظ الحقوق الخاصة بمؤسسات الدولة الآن، لذلك توجّهنا نحو الباب الذي أشار إليه ألبر. والعملاقان اللذان كانا خلفه تعقّبانا أيضا.

سألت أثناء سيرنا "ما هي خدمات الحماية التي تقدمونها؟ أفي المصانع،

والشركات، والملاهي تعملون؟"

أبطأ خطواته.

"كنا نعمل في الملاهي الليلية. والآن أصبحنا نعمل بشكل أكبر في القطاع الصحّي. نؤمّن الحماية للمستشفيات الخاصة. كذلك في حفلات الموسيقى وعروض الأزياء لكن ليس دائما."

وبينما كان يتحدث جئنا إلى زاوية ثم دخلنا بعدها إلى صالون عريض. كانت هناك عبارة "تحت كل لمسة هناك دليل!" تزيّن الحائط الأبيض، مكتوبة بحروف بُنيّة، فحينما قرأتها زينب تعجبت قائلة "ألهذه الدرجة؟!" كانت محقّة في تعجبها، فهذه الجملة نفسها مكتوبة على حائط المختبرات البحثية للمؤسسة الأمنية الخاصة بالدولة. كان ألبر مدركا لذلك هذه المرة.

"بهذا الشكل أنا أحسّ نفسي داخل منزلي."

لا أعتقد أنه كان يحسّ ذلك، كان يريد أن يظهر قربه من المؤسسة الأمنية. سواء لرجاله أو لزبائنه. لكن كان لا بد من الصبر. أشرت بعيني إلى باحثتنا طالبا منها الهدوء. فهمَت ابنتنا الأمر وأبدت تفهّمها بنظرات عينيها. كنا نسير إلى نهاية الممر متجهين نحو الباب المغطى بالأوراق الصفراء الداكنة.

37

"ذئب وحشي بمفرده."

حين دخلنا مكتب الضابط المتقاعد وقفتُ وزينب على الباب مذهولين. لم يكن مكتبا عاديا وإنما كان شبيها بغرفة ملك في فندق خمس نجوم. كان الجو داخلها لطيفا؛ لا باردا ولا ساخنا. بحثت عيناي عن آلة شبيهة بالمكيف داخل المكتب، لكنها كانت مخفية باحتراف كبير إلى درجة لم أستطع عندها العثور عليها. الأثاث البني والأحمر، وعلى الأرض سجادة إيرانية من الحرير فيها الكثير من اللون الأحمر، وعلى الجدران مجموعة من الأسلحة القديمة معروضة في أطر عميقة. وإلى جانب النافذة الضيقة الطويلة المطلّة على الجدار الخلفي للمركز الأمني طاولة خشبية عريضة عليها جهاز حاسوب كبير، وخلفها مقعد من الجلد لونه بني. أما على الجدار الخلفي للمكتب فقد كانت فيها صورة عملاقة للجيش العثماني، وعلى الحائط الجانبي أيضا صورة لمصطفى كمال أتاتورك مؤطّرة بإطار ذهبيّ... باختصار، كانت الجدران مزخرفة بأشكال تُرضي جميع الزبائن على اختلاف أذواقهم. أشار ألبر إلى مقعدين من الجلد البُنّي أمام الطاولة.

"من فضلكم اجلسوا سيدي... سيدتي زينب، وأنتم أيضا تفضلوا بالجلوس. من فضلكم، ارتاحوا كما لو أنكم في منزلكم الخاص. ماذا تشربون؟ ماذا أقدم لكم؟"

قلت وأنا أجلس على المقعد: "شكرا، أنا مرتاح بهذا الشكل،" لكن عيناي بقيتا تحدّقان في أجزاء الغرفة وتفاصيلها. أشرت إلى مسدس ماوزر كان شائعا في العصر العثماني. "يبدو أنكم تحبون الأسلحة."

نظر إلى المسدس بعد أن جلس خلف الطاولة على المقعد الواسع المريح أكثر من مقاعدنا. "لا تخبروا أحدا، أنا في الحقيقة لا أحبها يا سيدي. المهندس المعماري الداخلي ذكر أن المكان سيصبح أفضل بمثل هذه الزخارف. ومع أن هذه الزخارف كلّفتنا مالا إلا أنها في الحقيقة تترك أثرا إيجابيا في نفوس عملائنا." ثم نظر إلى زينب التي كانت تحدّق في أجزاء الغرفة ولسان حالها يقول لم أحبك لا أنت ولا هذه الغرفة. "وأنتم، ماذا تشربون سيدتي زينب؟"

"شكرا جزيلا، لا أريد شيئا."

تعكّر مزاج ألبر.

"لكن هذا لا يجوز، اشربوا قهوة مُرّة على الأقل. أنا أفرح جدا حينما أكرم زملائي السابقين في مكاني، أحس نفسي وكأني أعود إلى الأيّام الماضية. من فضلكم أريد أن أقدّم لكم أي شيء سواء كان باردا أو ساخنا."

رأت زينب أن أسلوب ألبر لم يكن صادقا.

"شكرا جزيلا سيد ألبر. في إمكانكم أن تكرموا زملاءكم السابقين بتقديم القهوة، لكنكم لن تستطيعوا أن تشعروا بشعور الشرطيّ من جديد."

بدت علامات الزُّهد على وجهه ألبر الذي عاش أياما جميلة من قبل.

"أنتم محقّون سيدتي زينب بهذه الوخزة." فقدَ صوته تلك النشوة المصطنعة. "لكنني تأثرت جدا بقضية القط الأعمى. لم نستطع القبض على الرجل... وحقيقة الأمر أن هذا الرجل غلبنا تماما. بسببه فقدتُ

ثقتي بوظيفتي. ولهذا السبب سيّدي ذكائي..." فاضت عيناه. "لا تؤاخذوني، لا أستطيع قول المرحوم، لم أعتد بعد على موته. نعم، لقد كان الأب ذكائي دائما محطّ إعجابي. فهو لم يتوان قط، ولم يتراجع بتاتا. تقاعد ومع ذلك بقي يتعقب ذلك القاتل حتى الرمق الأخير. ومع الأسف هذا الإصرار كان سببا في موته."

"هل تعتقد أنّ من قتل ذكائي هو القط الأعمى؟"

نظر وهو يبتسم بسخرية.

"يا حضرة النقيب، أنا وأنتم نعلم جيدا أن من قتله هو القط الأعمى."

لم تستطع زينب الصمت أكثر مع أنها جاءت لمراقبة الحوار فقط، فقد اشتركت في النقاش منذ السؤال الأول.

"ومن أين تعرفون؟ هل في يدكم وثيقة أو دليل؟"

اتكأ على مقعده المريح بكل طمأنينة.

"لا داعي لوثيقة أو دليل على هذ الأمر. فلا عدوّ آخر للأب ذكائي أبدا. فهذا القاتل المتسلسل هو الشخص الوحيد الذي انشغل به ذكائي. ويبدو أنه توصل إلى معلومة مهمة عن القط الأعمى، فأدرك الرجل ذلك و..."

ما دام أنه بدأ بطرح بطاقاته فلا بد من أن نلعب نحن أيضا بشكل صريح.

"وما تلك المعلومة؟" سألت متدخلا بينهما. "من فضلكم هلّا شرحتم يا سيد ألبر؟"

بدا أنه متضايق.

"يا حضرة النقيب، لا داعي لكلمة سيد بيننا، حتى وإن كنت شرطيا في السابق. أنا مستعد أن أبذل كل ما بوسعي في سبيل القبض على ذلك الرجل المنحط المدعوّ القط الأعمى. ولذلك لا داعي أن نتحادث بيننا

بلغة رسمية مثل نحن، وأنتم، وما شابه ذلك. على كل حال، كان الأب ذكائي يحتفظ بملف خاص بالقط الأعمى. أنا أعرف أن ما كان يفعله مخالف للقانون، لكنه لم يغلق ملف القضية حتى بعد أن تقاعد من عمله. والأصح أنه لم يستطع أن يغلق الملف، لأن هذا القاتل المتسلسل كان الهاجس الأكبر في حياته."

بدأ يلف ويدور في كلامه.

"نعرف أنه لم يغلق الملف يا ألبر، لأنه قال ذلك لي بنفسه لكننا لا نعرف مكان ذلك الملف."

بدا مذهولا.

"الملف في الخزانة التي في القارب. أقصد بقارب الأب ذكائي الكائن في صالاجاق. أنتم ليلة البارحة ذهبتم إلى هناك، ألم تجدوه؟"

سألت قبل أن أنسى.

"وكيف عرفت بذهابنا إلى القارب؟"

أجاب فورا دون تردد.

"السيدة جليلة قالت لي ذلك. اتصلت بي البارحة في منتصف الليل، كنت في الطائرة. وحينما نزلت اتصلتُ بها وسمعت الخبر المفجع منها."

سألت زينب كي تشعره بشكل خاص عدم ثقتنا به.

"من أين كانت الطائرة قادمة؟"

لم يظهر أي تغيير لا في وجه ألبر ولا في تصرفاته.

"طائرة إسطنبول... في الساعة 20:20 قدمت من إزمير. ذهبت قبلها بيوم إلى خطيبتي، وبقيت ليلة عندها، وعدت البارحة في تلك الطائرة."

ابتسم ابتسامة باردة. "نعم، وإن أردتم سأتحدث بشكل صريح أكثر، كنت في سيارة خطيبتي شنيز وقت حدوث الجريمة، حيث كنت ذاهبا إلى

مطار عدنان مندريس. فإن أردتم خذوا رقم هاتفها وتكلموا معها، فقبل إقلاعي ببضع ساعات أيضا تناولنا الطعام سوية مع أبيها وأمها وأختها في مطعم دنيز الكائن في قوردون. بإمكانكم الحديث معهم أيضًا." كان يتحدث من الأعماق. "لا تظنوا أني مؤاخذكم، لكن هذا مضيعة للوقت. في الحقيقة نحن أمام قاتل خطير، قاتل ذكي ومبدع للغاية."

"في رأيك ما الذي يجب فعله؟"

شعر بالراحة حينما سألته.

"إن وجدتم الملف..." حينما أدرك من وجهي الجواب بالنفي رفع صوته. "ماذا يعني؟ هل ذهب القط الأعمى إلى القارب أيضا؟"

بدا خائفا.

"لا نعرف ما إذا كان القط الأعمى،" أجبت ذلك بهدوء. "لكنهم قاموا بالبحث في القارب. ولم نعثر لا على ملف ولا على شيء غيره."

همس بصوت يائس.

"هذا ما كان يحدث دائما، فالقط الأعمى كان دوما يسبقنا. هذا يعني أن هذا القاتل الحقير أعد ملفا عن الأب ذكائي. ملف يجمع حياته بكامل تفاصيلها وبكل ما يملكه من قارب أو غيره... في الحقيقة هذا منطقي. لماذا لم نفكر فيه قط؟"

لا أدري ما إذا كان يلعب بنا أو أنه كان حقا صادقا في أقواله.

ألقت زينب حجرا في الماء الراكد قائلة: "ربما أيضا أعدّ ملفا بشأنكم، فهو بكل تأكيد يعرف أنكم كنتم تعملون إلى جانب السيد ذكائي."

عبرت وجهة سحابة شبيهة بالقلق.

"من المحتمل ذلك لكنني لا أعتقد أنه يراني شخصا خطيرا عليه. فهو بكل تأكيد يعرف باستقالتي من عملي. وبالطبع لم أفكر يوما أنه

سيعتدي على الأب ذكائي. لكن لا بد أنه توصل إلى معلومة مهمة عنه. لكن المشكلة هي أنه كيف عرف القط الأعمى ذلك؟"

كانت زينب مستمرة بإلقاء الملح على الجرح.

"ألم يكن لديكم علم بتوصل السيد ذكائي إلى معلومة مهمة؟ سنوات وأنتم تعملون سوية، فضلا عن استمرار قربكم منه إلى اليوم."

"لا علم لي سيدة زينب، الأب ذكائي كتوم جدا. ولا يتكلم مع أحد بأسراره."

"ألم تفكروا يوما بسؤاله؟" سألت زينب ذلك مستمرة بالتحقيق بدقة. "فأنتم كنتم تعلمون أنه كان مستمرا في تعقب القط الأعمى."

حزن وكأنه تذكر ذكرى لطيفة.

"بالطبع كنت أعرف لكنني لم أجرؤ على سؤاله. فقد كان يكره أن يتدخل في شؤونه أحد. وأيضا حينما استقلت من عملي غضب مني ولم يتكلم معي مدة من الزمن. ولو لم تتدخل الأم جليلة لما تحدث معي أبدا. في الحقيقة لم يكن لدي فضول كبير في قضية القط الأعمى. وبالطبع توقف هو أيضا عن القتل. اعتقدتُ أن القضية قد أغلقت. لكنه بدأ بالقتل من جديد..."

"هل تقصد مقتل ذكائي؟"

حك بيده اليمنى حافة أنفه المقوس.

"لا يا سيدي، فقد قتل قبله شخصين. قطعة القماش الحمراء، والألعاب المتروكة في أماكن الجريمة، والآذان اليمنى المبتورة... فأجهزة التلفاز تصرخ بها دوما ودائما. وهناك صحفية اسمها بوكت تعمل في صحيفة الوطن. كانت في زماننا مهتمة بهذه القضية كما هي اليوم أيضا، ولها اليوم زاوية في الصحيفة." صمت، ورمقني حتى يفهمني. "أم أني

مُخطئ؟ أليس القط الأعمى مرتكب الجرائم؟"

لم يكن هناك من داع لأن أتحدث إليه بما أعرفه.

"ما زال التحقيق جاريا، لم نصل إلى جواب قطعي حتى الآن."

انزعج، وعقد حاجبيه السميكين.

"أنتم لا تثقون بي، أليس كذلك؟" تجهّم متظاهرا بالحزن. "تركت مهنتي بسبب القط الأعمى. وأنا لست رجلا يوثق به كثيرا في هذا الموضوع. لكنني أود أن أقول لكم أمرا، إن كان القط الأعمى قتل 12 شخصا فإنه لا بد أن يرتكب جريمته الثالثة. نعم، ففي عام 2012 قتل ثلاثة أشخاص في شهر يونيو. في اليوم الثاني والرابع والسادس. وبالطبع قتل هذا الشهر في اليوم الثاني والرابع شخصين من المتحرشين بالأطفال، واليوم لا بد له أن يقتل شخصا آخر، لا بد أن تكون قبل منتصف الليل..."

أجابت زينب وهي مستمرة بأسلوبها.

"لقد قتل الشخص الثالث، فالضحية كانت سيدي ذكائي."

تعكر مزاجه.

"لا سيدتي زينب، لا أعتقد ذلك أبدا."

"كيف؟ ألم تقل قبل قليل إن ذلك القاتل المتسلسل هو من قتل السيد ذكائي..."

تحرك من مكانه منزعجا بسبب سوء التفاهم.

"أنا لم أقصد هذا. فالقط الأعمى لم يكن يفكر أبدا بقتل السيد ذكائي. فالرجل خطّط لقتل ثلاثة أشخاص في هذا الشهر، كما هو الحال قبل خمس سنوات. فأدرك بعدها أن السيد ذكائي خطر عليه فأزاله من طريقه."

والآن حان وقت تدخلي في الكلام.

"لقد قتل البارحة شخصا آخر. فالقط الأعمى أخذ بثأره الدموي لهذا الشهر. وبهذا الشكل فإن المجموع أصبح 4 أشخاص إذا احتسبنا السيد ذكائي. الغريب في الأمر أن الفترة الزمنية بين مقتل السيد ذكائي والجناية الأخيرة لم تزد عن عشر ساعات. كيف يمكن لإنسان أن يعمل هذا كله بمفرده؟"

ارتبك ألبر أيضا.

"هذا يعني أنه قتل شخصا آخر. تماما مثلما توقعت."

"لم تجيبوا على سؤالي. كيف يمكن لإنسان أن يرتكب جريمتين خلال 10 ساعات دون أن يترك خلفه أي أثر يقود إليه؟!"

اعتقدَ أني أتهمه فردّ قائلا: "لا أعرف يا سيدي، لكن إن كنتم تعتقدون أن القط الأعمى لا يعمل بمفرده فإني لا أؤيدكم في هذا بتاتا. ففي عام 2012 وفي الجرائم 12 كلها لم نحس أبدا أن هناك أكثر من شخص يقوم بها. لقد تناقشنا كثيرا حول هذا الموضوع في ذلك الوقت. الأب ذكائي يرى أن القط الأعمى ذئب وحشي يعمل بمفرده، ويتحرك وحيدا بلا رفيق. لكنه ذئب ذكي، وماكر، وبلا شفقة. لا بد أن تكونوا منتبهين جيدا، وإلا فإن هذا الحقير سيهرب من جديد..." انحنى للأمام، ووضع يديه على الطاولة. "في الحقيقة استقالتي من وظيفتي بقيت غصة في حلقي. فربما لو ساعدت الأب ذكائي لقبضنا على ذلك القاتل المتسلسل منذ أمد بعيد. أحس أني مسؤول عن مقتله. ولهذا السبب أريد مساعدتكم في هذه القضية. أنا مستعد لفعل أي شيء في سبيل القبض على ذلك المنحط. أنا مستعد للمخاطرة بكافة أشكالها."

رآني غير مكترث.

"وكيف لك أن تساعدنا؟"

بدا على وجهه بريق مليء بالتفاؤل.

"أستطيع إعطاءكم نسخة من الملف الخاص بالقط الأعمى."

ها هي المفاجأة الحقيقية.

"أهناك نسخة من ذلك الملف؟"

لمعت عيناه الداكنتان بالنصر.

"بكل تأكيد موجود، فالأب ذكائي لا يمكن أن يجعل أعماله عرضة للخطر. فقد كان يعرف القط الأعمى جيدا. وكان يعرف أن القط الأعمى سيُلحق به الضرر حال شعوره بالخطر. فقد نبهني قائلا: 'إن لحقني شيء ما، قم بإعطاء هذه النسخة للشرطة.'" ثمّ نهض، وأزال الإطار الذي يحمل صورة الجيش العثماني. فظهرت أمام أعيننا خزانة داخل الحائط. ثم نظر إلينا وهو يغمز بحركة لطيفة. "ها هي النسخة الاحتياطية." فتح الخزانة وأخرج منها ملفا كبيرا. ثم وضعه على الطاولة وقال: "هنا تجدون كل ما يتعلق بالقضية من تفاصيل."

38

"لعبة لهو سخيفة لأغنياء أسخف..."

كان من الممكن أن يكون السادس من يونيو نقطة انكسار في التحقيق بشأن القط الأعمى. فقد كان هناك انحراف واضح في أسلوب القط الأعمى سواء كان هذا الانحراف بشكل إجباري أو بشكل آخر لا نعرف سببه. هذه الجزئية كانت مهمة جدا في مجرى التحقيق الذي لم يتقدم ولو مثقال ذرة على مدى خمس سنوات. حتى وإن كنت لا أدرك ما الذي يجري تماما، إلا أن حدسي المهني كان يعتقد أن القاتل أو القتلة قد وقعوا هذه المرة في خطأ كبير. فكان الأهم من ذلك هو البحث في سبيل الوصول إلى الحقيقة. وضعت الملفات التي أعطانا إياها ألبر في صندوق السيارة، وأرسلت زينب إلى صالاجاق. حتى وإن كنت أثق بفريق معاينة مسرح الجريمة إلا أنني كنت أعلم جيدا أن هذه الفتاة أكثر دقة في البحث والتمحيص. وبعد أن أرسلت باحثتنا اتصلت بعلي، وطلبت منه القدوم إلى مستشفى سراب في حي لونت الذي كان يعمل فيه طبيب الجراحة قانصو صارماشيق المقتول ليلة الأمس. سُعِد المشاكس جدا بهذا الخبر.

"سآتي فورا سيدي."

وبالطبع لم يأت فورا، فاقتنصتُ الفرصة وجلست في كافتيريا المستشفى وطلبت قهوة تركية سادة. فوجئت حينما جاء النادل الأشقر وفي يده صينية فيها قهوة رغوتها كثيرة. لم أستطع التأكد، فشربت أول

رشفة وأنا أعتقد في نفسي أن طعمها سيء. يا للدهشة! طعمها أيضا كان في محله. فبدأت في شرب قهوتي، وقبل إنهائي الرشفة الأخيرة منها رنّ هاتفي، كان المتصل هي الصحفيّة بوكت.

"رحم الله فقيدكم سيد نوزات،" قالتها بصوت حزين. "فقدنا سيدنا ذكائي."

"البقية في حياتكم سيدة بوكت، مع الأسف هذا ما حدث..."

"ذهبنا إلى شيلة، كان هناك عرس لابنة عمي. ولم أعلم بالخبر إلا قبل قليل. حزنت كثيرا، لقد كان إنسانا طيبا جدا." تلعثمت. "كان شرطيا طيبا جدا، شرطيا من الصعب العثور على مثيل له. من؟ من الذي قتله برأيك؟ هل هناك أحد مشتبه به؟"

"مع الأسف لا يوجد. نشتبه بالقط الأعمى. أنتم ما رأيكم؟ هل يمكن أن يكون هو الفاعل؟"

"ولمَ يفعلها؟! إن هذا خارج عن منهجه. لكن إن كان هناك ما يهدّده فلا أدري ما إذا كان يفعلها." بدأ صوتها يخشن. "أم أن السيد ذكائي توصّل إلى معلومة مهمة بشأن القط الأعمى... فإن عرف هوية القط الأعمى أو عرف أن القط الأعمى شخص..."

كانت تلقي الدلاء فارغة وتريد إخراجها مملوءة. لكنني لم أفتح لها مجالا.

"ليس في وسعنا أن نعرف هذا. لكن القط الأعمى ارتكب البارحة جريمة أخرى."

"ماذا؟ هل حقًّا ما تقولون؟ يا للدهشة! انظروا ماذا حدث؟! ذهبنا إلى عرس وعدنا وكل شيء انقلب رأسا على عقب. أين حدثت الجريمة؟ لا تقولوا، لا تقولوا، أنا سأعرف لاحقا. لكن هل هناك أثر أو دليل؟!"

"لا، كالعادة لا يوجد أي دليل أبدا."

حلّ صمت من جديد، وهذه المرّة كان الصمت أطول بكثير.

"في الحقيقة هذا غير منطقي،" قالتها بصوت متوتر. "جريمتان متعاقبتان من شخص واحد. خلال 24 ساعة أيضا..."

"بل إنه ليس بهذا القدر، وإنما خلال 10 ساعات كحد أقصى..."

قالت في ذهول: "عشر ساعات؟ والله يا سيدي هذا العمل لا يتسق مع منهج القط الأعمى، لكنني كما قلت، إنْ شعر بتهديد ما... لا، حتى وإن شعر بالتهديد فإنّه لن يرتكب الجريمة الأخرى. ألهذه الدرجة قتلُ الإنسان سهل؟! علاوة على هذا لا يترك خلفه أي أثر يقود إليه! لا، أعتقد أن هذه الجريمة كانت بفعل آخرين. وأرى أن لا يُغَضّ الطرف عن هذا الاحتمال أبدا"

كانت تفكر جيدا، أدركت حينها أن بوكت أيضا لم تصرّح لي بكل ما تعرفه.

"نحن في الأصل لم نغض الطرف يا سيدة بوكت. كل ما أرجوه منكم أن تتحدثوا إليّ بأي جزئية ترد إلى أذهانكم. فذكائي كان صديقنا المشترك، والعثور على قاتله دَيْنٌ في رقابنا جميعا."

أنا أعترف أن هدفي كان التأثير فيها والاطّلاع على ما تخفيه عنّا، ومعرفة ما إذا كان سيفيدنا في التحقيق أم لا.

اكتفت بقول: "بكل تأكيد يا سيد نوزات، فأي معلومة حتى وإن كانت صغيرة سأتحدث بها إليكم أوّلا."

وأنا أغلق هاتفي رأيت رفيقنا المتنمّر. وأقول متنمّرًا لأنه بمشيته يبدو قبضايًا أكثر منه شرطيًا. قلت في نفسي وأنا أشرب الرشفة الأخيرة من قهوتي: آه يا علي آه، ثم نهضت من مكاني. وحينما رآني لمع وجهه.

"مرحبا سيدي."

لم أحتمل فابتسمت.

"ما الأخبار يا علي؟ هل عثر فريق مسرح الجريمة على شيء؟"

زالت الابتسامة فورا وبدأ بالحديث بصفته شرطيًّا على رأس عمله.

"كان شفيق يتحدث عن تراب أحمر. وجده في قاع القارب. نفس التراب كان موجودا أيضا بجانب جثة السيد ذكائي. فمن المحتمل أن هذا التراب سقط من حذاء القاتل..."

لم أكترث، ففي كل مكان تراب أحمر.

"ثم ماذا..."

أثنى رقبته.

"أخذوا البصمات وما شابهها أيضا، لكن لا نعرف ماذا سيحدث."

لم تكن هناك معلومة تثير الاهتمام. لمست بيدي كتف مساعدي.

"هيا عزيزي علي، لنذهب ونتكلم مع مدير المستشفى."

لم يكن التحدث مع السيد صالح أمرا سهلا. انتظرناه مدة نصف ساعة، ثم دخل بعدها وهو يتأفف. كان شعره متساقطا تماما، وعيناه البنيّتان الفاتحتان تبدوان كبيرتين من خلال النظارة ذات الإطار الأسود التي كانت مثبّتة على أنفه الدقيق. عرفنا بأنفسنا، فسلّم علينا بعجلة.

"أرجوكم اعذروني،" قالها وهو يجلس على مقعده. "العمل في المستشفيات الخاصة لا ينتهي مطلقا. والله إن فيها من الكدح أكثر مما هو موجود في فنادق الخمسة نجوم."

وبمجرد أن جلس على مقعده تناول القلم الذي كان داخل دفتر المواعيد ووضعه في المقلمة، ودفع فأرة الحاسوب للأمام. ثم بعد ذلك شبك يديه وقال: "لقد مات قانصو..." لم يكن لديه أي فضول بما

سنقوله. "رحمه الله، كان شابا طيبا." تنهّد. "لكنني حذّرته مرارا وتكرارا. طالما قلت له: يا ابني دعك من هذه الأعمال. لكنه لم يستمع إليّ..."

سألته رغبة في سحب المعلومات منه.

"أي الأعمال طلبتم منه تركها؟ هل كان قانصو خارجا عن القانون؟"

استجمع نفسه على الأريكة التي كان عليها.

"لا أعرف ما إذا كان خارجا عن القانون ام لا. كان يلعب لعبة الرّهان... بالطبع جميع اللاعبين من الطبقة الغنية هم كذلك. فهؤلاء يلعبون من خلال التحدي فيما بينهم حول قضايا مهمة في العالم. والتحدي يكون بالمال طبعا. وبكل تأكيد بالمال الكثير..."

سأل علي: "أهي ألعاب كرة قدم؟ كأس العالم مثلا؟"

رفع مدير المستشفى حاجبيه الأبيضين.

"وهذه أيضا موجودة، لكن التحدّي لا يكون حول الرياضة فحسب، وإنما يكون أيضا حول الاقتصاد، والسياسة، والصحة وغيرها من المواضيع العديدة. فعلى سبيل المثال، كم سيبقى الأسد في الحكم؟ من سينجح في انتخابات ألمانيا؟ كيف ستجري أرقام التضخم في تركيا؟ هل سيؤدي القمر الاصطناعي المتجه نحو المريخ مهمته كاملة؟ وبكل تأكيد أيضا سيدخلون في تحد حول من سيكسب الكأس لهذه السنة. باختصار، أي موضوع يخطر إلى أذهانكم... وبالطبع لا يتحدون بمال قليل وإنما بعشرة آلاف دولار كحد أدنى..."

لم أتمالك نفسي وسألته كما لو أنه كان شاهدا على كل هذه الحوادث.

"ومن أين تعرفون؟"

وقعت من شفتيه ابتسامة خجولة.

"أخذني قانصو مرّة إلى جانبه. دخلت في تحدّ حول نتائج انتخابات

الولايات المتحدة الأمريكية. ادّعيت حينها فوز هيلاري كلنتون لكن ترامب هو من فاز بالرئاسة، فخسرت حينها عشرة آلاف دولار. بالطبع، قبل ذلك، زوجتي أكلت رأسي لأيام من أجل الذهاب للمشاركة في هذه اللعبة، لكنني أعلنت توبتي." وحينما رآنا نبتسم بدأ يتحدث بحماس أكثر. "وماذا أفعل يا سيدي؟ فأنا لست غنيًّا مثلهم. قانصو كذلك لم يكن غنيا... ولهذا السبب كنت اقول له دعك من هذه الأعمال. لكنه لم يستمع إلي..."

سأل علي بفضول.

"من يقوم بتنظيم هذه الأعمال؟"

"ليس هناك من أحد. يتواصلون عبر الإنترنت. ثم يجتمعون في بيت واحد منهم أو في مكتبه. بيوتهم ومنازلهم مثل القصور. يأكلون ويشربون ويتحدثون في كل المواضيع. وجميعهم رجال. وقواعد هذه اللعبة تتضمن عدم إدخال النساء فيها. فهم يقتدون بنوادي الرجال الإنجليزية."

"مَن هناك فيها؟"

هزّ مدير المستشفى رأسه بعزم.

"لا أعرف أحدا منهم يا سيد علي. كما قلت لكم شاركت معهم مرّة واحدة فخسرت ولم أعد إليهم أبدا."

كان يكذب، لكن لو ضغطنا عليه أكثر لامتنع عن الكلام بتاتا.

سألت سؤالا عاما. "هل يمكن أن يشترك الجميع؟ بمعنى لو أردت المشاركة هل يمكنني الدخول بينهم؟"

"لا يا سيد نوزات، لكنكم تستطيعون الدخول بعد حصولكم على توصية من شخص لعب هذه اللعبة مرات عدّة. والهدف ليس كسب المال فحسب وإنما اللعب من أجل التسلية. ثم بعد ذلك يقيّمون لعبتهم.

علاوة على ذلك يُفصح الفائزون عن كيفية توقعهم لنتائج اللعبة. هؤلاء جميعهم متعلّمون. لكن الهدف الرئيسي هو التخلص من متاعب الحياة. نعم يجتمعون في مكان واحد لكن مع إحساس كامل بالحماس والإثارة. لكن هذه الألعاب قد تحمل نتائج مأساوية لأمثالنا ممن يعيشون على الرواتب فقط... نعم أنا أقصد قانصو. فها هو قد انتحر كما رأيتم..."

سألت بذهول.

"من الذي قال إنه انتحر؟"

"السيدة نورتان. مساعدتي." نظر إلى وجهي رغبةً في معرفة الحقيقة. "ألم ينتحر؟ أم، أم أنه قُتل؟" فهم فورا من نظراتنا. "لكن لماذا؟ من الذي قتله؟" فكّر لحظات. "كان عليه دَيْن. بكل تأكيد، استدان من المرابين. وحينما لم يستطع تسديد المال الذي استدانه... لم يبق عنده شيء. حتى أن العمارة التي ورثها عن أبيه فقدها في لعبة التحدي. كان دائما يقترض، وكان دوما يدخل السجن... ولهذا السبب طلبنا مغادرته من المستشفى."

كلّما تحدثنا أكثر توصّلنا إلى معلومات جديدة.

"ألم يكن يعمل معكم مؤخرا؟"

تجعّد وجهه كما لو أنه كان يشعر بتأنيب الضمير.

"اضطررنا إلى فصله من العمل قبل سنة. طالما كنت أدافع عنه لكنه استغلّني. حتى أنه كان يقترض مني، ومع ذلك كنت أكتب رسائل توصية بشأنه. لكن هذا لم يكن مفيدا. فقد شاع ذكره ولم تعد المستشفيات تثق فيه. يا للخسارة، لقد كان جرّاحًا جيّدًا."

كان مدير المستشفى يشرح لنا حكاية أخرى مخالفة تماما. لعبة لهو سخيفة لأغنياء أسخف. لكن هذا لم يكن له علاقة بالتحرش الجنسي

بالأطفال.

"هناك مشكلة مهمة يا سيد صالح،" قلتها بصوت جدي. "من فضلكم لا تخفوا عنا ما تعرفونه حول هذا الموضوع..."

"هل تقصدون مسألة الحجز؟ لم نكن نرغب بفعل هذا، لكننا اضطررنا للحجز على سيارته..."

"لا، لا. وإنما هناك موضوع آخر أكثر سرية. هل كانت هناك تصرفات قبيحة لدى قانصو؟"

اهتز كما لو أنه سمع شيئا عجيبا.

"ماذا تقصدون؟"

"متحرش بالأطفال،" فجّرها علي في وجهه. "نحن نقصد اعتداءه الجنسي على الأطفال الصغار."

"مستحيل، مستحيل، قطعًا مستحيل، قد يكون قانصو شخصا بلا إرادة قوية، لكنه من المستحيل أن يكون متحرشا بالأطفال... لقد كان إنسانا صالحا. لا يقترب أبدا من هذه الأمور..."

سأل علي بعنف. "كيف يمكن أن تكونوا متأكدين إلى هذه الدرجة؟ فإن كان هذا الرجل يخفي هذا الأمر عنكم..."

تمالك مدير المستشفى نفسه بهدوء، وبدأ الحديث بكل صبر.

"لا يمكن أن يخفيه عنا يا سيد علي، فهو لم يكن كذلك. وأنا مستعد أن أدخل في تحدّ حول نظافته من التحرش." أدرك أن جملته كانت محطّ سخرية. "أقصد أني كفيل له..." كان سيستمر في كلامه لكن فُتح باب مكتبه. فقد ترك مدير المستشفى كلامه ونهض فورا على قدميه.

"أهلا وسهلا سيد حياتي، تفضلوا."

كان السيد حياتي يرتدي ألبسة من الكتان الأخضر الفاتح، وقميصا

أبيض. متوسّط القامة وجسمه عضليّ. لا بدّ أنه في الخمسين من عمره. كان يُعَدّ وسيما بلون شعره الذي كان شبيها بلون شعر الأسد، وببشرته السمراء، وبعينيه الزرقاوين الداكنتين. اقترب المدير من السيد حياتي بخطوات سريعة. وانحنى أمام هذا الرجل الذي يصغره بعشر سنوات وسلّم عليه. لم يكترث حياتي به كثيرا، وكان ينظر إلينا وعيناه مليئتان بالأسئلة. فبدأ المدير الحديث على الفور.

"هذا النقيب نوزات من شُعبة الجرائم، وهذا الشاب هو الضابط علي." ثم نظر إلى حياتي بعينين حزينتين. "لقد سمعتم الخبر المؤلم بكل تأكيد، خبر موت قانصو. فقد ذهب ضحية. فمن يرغب بقتله يا ترى؟"

"هناك أناس كثيرون،" قالها الرجل وفي صوته خشخشة كما لو أنه يخرج من أنفه. "كانت للرجل علاقات عجيبة جدا،" قالها وهو يقترب نحونا. سلّم وهو ينحني بشكل خفيف. "أهلا وسهلا سيد نوزات، أنا حياتي، مؤسّس مستشفيات سراب... حياتي دارجان..." لا أنا ولا علي نهضنا له، فلم ينزعج مطلقا من هذا، وأخرج من جيبه بطاقة ومدها نحونا. تناول علي البطاقة، نظر إليها ووضعها في جيبه دون اكتراث. لم ينزعج حياتي هذه المرة أيضا، واستمرّ في مواصلة الكلام بكل لطف.

"كنت أعرف قانصو جيّدًا، أستطيع مساعدتكم." وأشار برأسه إلى الباب قبل أن نجيبه بشيء. "إن أردتم فلنذهب إلى مكتبي، سنتكلم هناك بشكل أفضل."

39

"يجب أن نُخْفِي اسم سراب."

"حكاية قانصو حزينة جدا. هي تماما حكاية انهيار.."

هذا ما قاله السيّد حياتي بحزن فيما يجلس إلى طاولته المصنوعة من خشب الورد ويداه مستندتان على حافة الأريكة ذات اللون البوردو، وخلفه صورة عملاقة لمستشفى سراب. اتجهت أنظاري إلى الزاوية الشمالية من جهة صاحب المستشفى. كانت هناك صورٌ لطفلة صغيرة تبلغ من العمر ثمانية أعوام أو تسعة، مرتّبة بانتظام داخل لوحة. صور عديدة في مختلف أعمارها منذ الميلاد إلى الرّضاعة، ومن حملها في الأحضان إلى سيرها على الأقدام، ومن المرحلة التأسيسيّة إلى الأساسيّة، ومن حملها الدفتر والقلم بيدها إلى حملها الحقيبة على ظهرها. حينما نظرت إلى الصور لم أتذكر ابنتي أيسون، وإنما تذكرت دون سبب الطفلة عزز، تلك الطفلة السورية. أحسست بألم مرير، وتقطّعتُ حُزنًا، فحاولتُ التخلّص من هذه الآلام التي جرحت قلبي، ومن الأفكار المعقدة التي شوّشت ذهني وبدأت بالاستماع إلى السيّد حياتي من جديد.

"كان قانصو جرّاحًا ماهرًا... وأنا أيضا طبيب جرّاح، لكنني لم أستطع أبدا أن أكون ماهرًا مثله يومًا ما. كانت عيناه حادتين، وأعصابه هادئة جدا، ولم أرَ يديه ترتجفان يوما حتى في أخطر العمليات الجراحية. كان يحرّك يديه بخفّة، وكان كل ما يمسكه من أدوات جراحية تبدو كأنها

أجزاء من ذراعه يتحكّم بها بكل أريحية أثناء العمليات. يقرأ أكثر منا، ويتعقّب كل ما يتعلق بالجراحة من كتب ومقالات منشورة في مختلف أنحاء العالم. لكن انظروا، في النهاية، جاء هذا الموت الرهيب وأخذ من بين أيدينا هذه الموهبة الرائعة."

لم ينته من مدح الرجل الذي طرده قبل فترة من عمله، فأردت معرفة الحقيقة من خلال الدخول في التفاصيل بدلا من السؤال مباشرة.

"هل تخرجتم في نفس الجامعة؟"

"لا، أنا أنهيت دراستي في كليّة تشبا، أما هو ففي جراح باشا. لكن أسسنا سوية مستشفيات سراب قبل عشر سنوات... رهنَ عمارته في ذلك الوقت. كان شريكا من بين أربعة شركاء. ثم انفصل عنّا شريكان فبقينا وحدنا." بدا أنه يتذكر ذكرى جميلة وهو يبتسم ابتسامة مريرة. "في ذلك الزمان كان عقله في مكانه، وكنا نعمل معا، كتفا إلى كتف. كان صاحب قلب نظيف للغاية." تحولت عيناه فجأة إلى الطرف الأيسر منه وعلقت أنظاره بالصورة ذات الإطار الفضي. كانت الفتاة نفسها تنظر إلينا وهي تبتسم. "سراب، اسم ابنتي. فقدناها قبل خمس عشرة سنة. كانت في العاشرة من عمرها. وافتتحنا أول مستشفياتنا بعد وفاتها بخمس سنوات. أطلق قانصو اسم ابنتي على المستشفى الذي أسّسناه، عِلمًا أنني لم أقترح هذا الاسم. قال: 'يجب علينا أن نُحيي اسم سراب. لم نستطع أن نحميها، فلنخلّد اسمها على الأقل.' كان كريما جدا إلى درجة لم أستطع معها التفوه بشيء."

فاضت عينا حياتي. لا أعتقد أن هذا سيكون مفيدا في مجرى التحقيق، لكنني لم أستطع البقاء صامتا أمام شخص فقد ابنته وهي في ريعان طفولتها.

"حزنت لذلك. كيف رحلت ابنتكم عن الحياة؟"

ازداد الاضطراب في نظراته.

"لنقل: كان هناك قصور في القلب يا سيد نوزات... حكاية طويلة، أنا فتحت هذا الموضوع حتى أبيّن لكم مدى طيبة قلب السيّد حياتي. بالطبع كان هذا قبل أن يُبتلى بالقمار."

أراد علي الوقوف على الموضوع جيدا.

"ليس قمارا، وإنما لعبة تحدّ، الهدف منها التسلية. هذا ما قاله مدير المستشفى قبل قليل."

ضحك بغضب.

"هكذا هو السيد صالح. إن لعبة التحدّي التي تحدّث عنها هي لعبة القمار بعينها. معظمهم يلعب من أجل التسلية. وحظْر لعب القمار في دولتنا هو السبب الرئيسي في ألعابهم هذه. واللاعبون جميعهم تقريبا أناس من الطبقة العليا. فلو انتشر خبرهم إعلاميا فإنهم سيفقدون اعتبارهم. لذلك أطلقوا عليها لعبة التحدي. فهم يلعبون القمار حول القضايا الحديثة في مختلف أنحاء العالم. المبالغ المدفوعة بالنسبة إلى كثير منهم لا تساوي شيئا مهما، لكن يبدو أنها كانت بالنسبة إلى قانصو كثيرة جدا..."

لقد بدا السيد حياتي رجلا مثاليا بنظراته النقية، وجبهته المليئة بالتجاعيد الآنيّة، وفكّه الواسع. ومع ذلك لم أستطع السكوت دون أن أسأل.

"هل شاركتم في هذه الألعاب؟"

عقد حاجبيه، واتّسع منخرا أنفه قليلًا.

"انظروا سيد نوزات، أنا فقدت ابنتي التي كان عمرها عشر سنوات.

والآن لدي توأمان من البنات في السادسة من العمر. لا بد أن يشعر الإنسان بالمسؤولية. وليس لدي وقت للانشغال بهذه الترهات. طلب مني قانصو الذهاب إلى هناك، لكنني لم أذهب ولو مرّة واحدة. والآن أصبحت أدرك مدى صحة قراري."

لم يعجَب علي بهذا الرجل كثيرا.

"أنتم تتحدثون بهذا الشكل، لكنكم نسيتم أن قانصو قد ترك المستشفى لكم. انظروا، فأنتم الآن أصبحتم تملكون هذه المستشفيات الكثيرة وحدكم. أليس كذلك؟ وبالطبع، يبدو أن لديكم مستشفيات عديدة."

لم ينزعج حياتي مطلقا، حتى أن عينيه لمعتا بالفخر.

"لدينا تسع مستشفيات. وهي ليست في المدن الكبيرة فحسب، فبعضها في شانلي عرفة، وكيليس. وبالنسبة إلى قانصو فإني بذلت كل ما في وسعي في سبيل تخليصه، ودفعت له أكثر مما يستحقه."

وخزه علي بشكل صريح. "أفي إبعاده عن عمله فعلتم ذلك؟! ألقيتم الرجل في الشارع!"

تجهّم وجهه الوسيم أوّل مرة، ونجح مساعدي أخيرا في استفزازه.

"كنت مجبورا. فمحامي ذلك الشخص المرابي أردا الحجز على المستشفى. فهو لم يقتنع أبدا أن قانصو لم يعد شريكا معي في المستشفى. كان يقول: 'أنتم كاذبون، أنتم تفعلون هذا كي تتهربوا من دفع الديون التي عليكم.' على كل حال، المحكمة حلت هذه المشكلة."

وأخيرا تحدث عن شخص يمكننا الحديث حوله.

"ومن هو ذلك الشخص المرابي؟ هل تعرفونه؟"

أرجع شعره الذي يشبه شعر الأسد إلى الخلف بقلق.

"أعرفه بالطبع يا سيد نوزات، التقينا ثلاث مرات. اسمه صاتيلميش، نعم صاتيلميش كوندوغدو... ويلقّب بذي الوجه الأحمر. لأن وجهه حقا يشتعل احمرارًا. لقد كان مصابا بارتفاع ضغط الدم. رجل بحجم الجبل. يدير مركزا للتدليك في منطقة عثمان بيك." غمز عينه بطريقة لها مغزى. "لا أريد حمل وِزر أحد، لكن الجنس موضوع أساسي في ذلك المركز. يعني بعبارة أخرى بيت دعارة..."

بينما كان علي يسجّل اسم ذلك المرابي، سأل: "هل كانت ديون قانصو لصاتيلميش هذا كثيرة؟ ما رأيكم؟ هل يمكن أن يكون صاتيلميش هو القاتل؟"

بقيت يده على فكه مدة قبل أن يجيب.

"نعم يدين له، لكنني لا أعرف مقدارها. وبالطبع قام صاتيلميش بتهديد قانصو عدّة مرات سابقا. حتى أنني كنت في إحداها موجودا. كان المطلوب منه تسديد مليوني ليرة تركية. في الحقيقة كانت خمسمئة ألف ليرة، لكنها زادت إلى ذلك المقدار حينما تخلّف عن الدفع في موعدها المحدد. قال له مرّة: 'إن لم تحضرها غدا سأقبض روحك' قال ذلك بهدوء تام وهو يحدّق في وجهه. لكن العجيب في الأمر هو أن قانصو لم يخف منه بتاتا. وبالطبع اضطر المستشفى لدفع هذه القيمة، يعني كان الدفع من جيبي."

اعترض مساعدي فورا.

"ولم كانت من جيبكم؟! ألم يكن قانصو شريكا في هذا المستشفى؟"

رمق عليا بنظرات حادة.

"لقد فقد حقه في المستشفى منذ زمن طويل. قام بنقل جميع حصصه لي. وأعطيته بدلا من ذلك مبلغا كبيرا. كل ما أخذته وكل ما

أعطيته مثبّت في السجلّات يا سيد علي. ليس لقانصو في ذمتي أي حق مالي، على العكس في ذمته ما يتوجب دفعه لي."

بقي علي مستمرا في وخز الرجل.

"ألهذا السبب طردتموه من العمل؟ لأنه لم يستطع تسديد ديونه."

بقي صاحب المستشفى محافظا على هدوئه.

"لا، ليس بسبب الديون، وإنما لأنه كان يسبب الضرر للمستشفى. فقد شاع خبر إفلاسي حتى في الجرائد. وكان هناك حجز على كل ما يملكه شريكي السابق. يعني سفالة ما بعدها سفالة."

كرر مساعدي كلامه وكأنه لم يسمع هذه الكلمات أبدا.

"هل كانت ديونه كثيرة لكم؟"

لمعت عينا حياتي، وأرجع رأسه للوراء بشكل خفيف وهو يستند بساعده الأيمن على الطاولة.

"كانت لي ديون، لكنني مسحتها كلها. ليس من أجل خاطره وإنما لعدم وجود مال يمتلكه كي يدفعه. وماذا بوسعي أن أفعل غير هذا؟! فقد فعلت هذا بنيّة الصّدَقة."

إذا أردت أن تعرف إنسانا على حقيقته فقُم بإغضابه، لأن قناع الأناقة سيسقط عن وجهه على الفور. وهذا ما حدث عند حياتي، فكلما كان علي يستفزه، كانت رائحته تفوح قذارة. لذلك انتقل علي الذي كان يدرك في ذاته أنه يتّجه نحو الهدف بخطوات ثابتة إلى سؤال جديد.

"وكم كانت هذه الصّدَقة يا ترى؟"

بدت على شفتي حياتي ابتسامة كبرياء.

"مبلغ باهظ جدا لن تتمكنوا من رؤيته في مكان واحد طوال حياتكم."

كان علي متعطشا للرد على أمثال هؤلاء المتنمردين.

"يعني مبلغ باهظ جدا إلى درجة الرغبة في قتل أحد في سبيله؟ نعم هكذا، فإن كنا سنضع صاتيلميش ذا الوجه الأحمر بسبب مستحقاته في قائمة المشتبه بهم فإنه لا بد من وضع اسمكم على رأس تلك القائمة أيضا."

عجز السيد حياتي عن الرد. أما مساعدي فقد أسند ساعده على الطاولة تماما مثل حياتي واتهمه بصراحة.

"نعم صحيح، فربما تكونون أنتم من قتل قانصو أو ربما أنتم من أمر بقتله!"

ظننت أنه سيغضب كثيرا، ظننت أنه سيخرج من جحره، لكنه لم يفعل ذلك. لا بد أنه أدرك لعبة مساعدي الصغيرة. ابتلع غضبه الشديد الذي كان يرتفع من حنجرته إلى آخر حلقه.

"آه عزيزي علي، آه!" قالها وهو يتظاهر بالتودد. "لو أننا قتلنا شخصا على كل مال فقدناه لكان يتوجب أن نفتتح مقبرة كبرى." ثم أطلق ضحكة كاذبة. "بعيدا عن المزاح، أنا طبيب، ومهما كان الأمر فإن المال مهما بلغت قيمته فلن يساوي حياة إنسان. وخاصة إذا كان قلبي مدينًا يومًا ما لهذا الإنسان." بدا أنه يشعر بالراحة. "لكن إن أردتم أستطيع أن أثبت لكم أين كنت البارحة طوال اليوم؟"

"لسنا متأكدين من حدوث الجريمة البارحة،" قلتها كي يعلم أني أقف إلى جانب علي. "يجب أن نحقّق في شأنكم. أنا متأكد من براءتكم، لكن يجب علينا تطبيق هذا الروتين. وفي نفس الوقت نحن في حاجة إلى مساعدتكم. إن كنتم تشتبهون في أحد فأخبرونا من فضلكم. يعني هل تشكّون في شخص آخر غير صاتيلميش ذي الوجه الأحمر؟"

حكّ جبينه كما لو أنني سألته سؤالا صعبا.

"لا أريد التكلم عن شخص ميت لكن..." سكت، وتهرب بنظراته. "لا، لا أريد الحديث في موضوع لست متأكدا منه."

"يجب أن تتحدثوا،" قلتها بصوت بارد. "وإلا فإنكم ستتحملون مسؤولية ضميركم..."

توتر.

"لست متأكدا، لكن ليس من الصحيح الحديث عن شخص لم يعد يستطيع الدفاع عن نفسه."

"هل كانت عنده تصرفات غريبة؟" قلتها رغبة في تشجيعه على الكلام.

"تصرفات لا يمكن أن نقبل بها بتاتا."

ضيق عينيه.

"وما هي التصرفات التي لا يمكن أن نقبل بها؟!"

لم أرغب بالتصريح مباشرة.

"هل كان يحب الأطفال مثلا؟ هل كان يمضي معهم أوقاتا؟"

بدت عيناه حالمتين.

"أجل، وكان يحبّ الأطفال الذين يعرفهم أكثر. نعم، الجميع يحب الأطفال، لكن قانصو كان يحبهم وينقذ حياتهم أيضا. أنا لا أتكلم بالمعنى المجازي، وإنما أتكلم بالمعنى الحقيقي، فهو حقا كان ينقذ حياتهم. أتحدث لكم عن عمليات نقل الأعضاء. أتحدث لكم عن إعطاءه الناس حياة ثانية. نعم، جميعنا يحب الأطفال، لكن قانصو كان يعطيهم حياة جديدة. فقد كان ينقذ حياة الناس..."

نظر إلى الطفلة التي كانت داخل الإطار الفضي من جديد.

"كنت أستطيع ترك سراب بين يديه الماهرتين دون أي تردد. لا يا سادة، لم يكن قانصو شخصا سيئا." توقف، تذكر السؤال. "لماذا

تسألون عن علاقة قانصو بالأطفال؟"

لم يطل مساعدي بالكلام.

"لأننا نشتبه بأن يكون قانصو شخصا متحرشا بالأطفال."

اهتز حياتي، وأرجع رأسه للوراء.

"متحرش بالأطفال؟"

أردت تلطيف الجو.

"نحن نعتقد أن هذا هو سبب موت قانصو."

"متحرش بالأطفال..." قالها من جديد. "هذا مبالغ فيه. أنا لم أعرّف به على هذه الشاكلة يا سيد نوزات..."

"كيف تعرّفونه إذا؟"

"زير نساء، غاو لهن مثلا... كان معجبا بالفتيات الشابات. هذا ما أستطيع قوله. لكن لا أظن أبدا أنه كان متحرشا بالأطفال. كان لا يبني علاقات مع أي فتاة يزيد عمرها عن العشرين. وسمعته كثيرا وهو يفتخر بذلك. حتى أنني رأيته بأم عيني يخرج مع فتيات يبلغن من العمر ثمانية عشر، لكن لا أظن أنه كان متحرشا بالأطفال." توقف. "لكن إن أخفى عني هذا الخُلُقَ المستفزّ فذاك أمر آخر..."

40

"كلّما كثُرَ مالك ازداد خوفك عزيزي علي."

تشوّش ذهننا تماما ونحن نخرج من مستشفى سراب. قانصو صارماشيق هو القربان الوحيد الذي لا يتّسق مع منهج القط الأعمى حتى هذه اللحظة إذا استثنينا النقيب ذكائي بالطبع. وإذا أضفنا تواريخ الضحايا الثلاثة لهذه السنة فإننا نرى أن القط الأعمى بدأ بالخروج عن منهجه. لكن عليا كان له رأي آخر.

"في رأيي أن قانصو صارماشيق أخفى نفسه جيدا."

لم أشغل سيارتي المخضرمة بعد. وكلانا فتح الباب من جهته على أمل دخول الهواء إلى داخل السيارة قليلا، لكن الحرارة التي في الخارج لم تكن مختلفة أبدا عن الحرارة في داخلها. قال علي مواصلا كلامه. "أليس كذلك يا سيدي؟ ومن في مقدوره أن يغتصب طفلا أمام الناس؟! الرجل في الأصل طبيب. وهو صاحب وظيفة لها اعتبار. ويبدو أنه عظيم في عيون الجميع. ويجب أن لا نغض الطرف عن أقوال السيّد حياتي وذلك حينما قال إن قانصو رجل مولع بالفتيات الشابات، وله علاقات مع فتيات في الثامنة عشرة. يعني ليس من المستبعد أن تكون له علاقات مع فتيات في أقلّ من ذاك العمر بأربع سنوات أو حتى خمسة..."

شغلت سيارتي وضغطت على دواسة البنزين، وبينما كانت سيارتي المخضرمة متجهة نحو الأمام قلت: "ربما عزيزي علي، لكن إن كان قانصو

قد أخفى نفسه جيدا فكيف يمكن للقط الأعمى أن يكتشف أمره؟ هل يعملان في المستشفى نفسه يا ترى؟"

أجاب فورا دون أن يتعب نفسه حتى في التفكير.

"ولم لا يا سيدي؟ فقد وُجد في دم الضحيتين الأخيرتين علاج تخدير. كان اسمه على ما أعتقد ميواكريوم. قالت ذلك زينب..." بدأ هاتفه يرن. "أعتذر سيدي." وحينما نظر إلى هاتفه ابتسم. "انظر، حينما ذكرت اسم زينب اتصلت بي." لمس شاشة الهاتف. "ألو زينب؟ ماذا؟ حقا ذلك؟ هل أنت في بومونتي؟ دقيقة، دقيقة!" نظر إليّ. "زينب ذاهبة الآن إلى منزل المقتول... أقصد منزل قانصو..."

كان هذا في وقته المناسب.

"رائع! ونحن أيضا ذاهبان إليه. دعها ترسل لنا موقع المنزل، وسنلتقي هناك."

بقي مساعدي طوال الطريق يصف الاحتمالات الواحدة تلو الأخرى حول المكان الذي من الممكن أن يكون القط الأعمى قد التقى فيه بالمقتول قانصو إلى أن وصلنا بومونتي. لم أعترض على أي احتمال منها لأنها كلها تصلح أن تكون حقيقية، ولم أقبل واحدة منها أيضا لأنها جميعها تحتاج إلى دليل.

تقع شقة قانصو صارماشيق في إحدى ناطحات السحاب المصطفة جنبا إلى جنب في بومونتي. هذا الحي الذي كان يوما ما مليئا بأشجار الجوز التي كانت تشكل قصْرًا بعلوّها، أصبح الآن مزرعة من ناطحات السحاب القبيحة. والعجيب في هذا الأمر هو إنفاق أطنان من الأموال على هذه البنايات العجيبة المكونة من الطّوب، والمسامير، وأكوام البلاستيك. هذا التصرّف وحده يثبت أن هذا المخلوق الذي يُدعى إنسانًا ليس مخلوقا

ذكيا بالقدر الكافي. وحينما نزلت من سيارتي المخضرمة أحسست بهبوب الرياح. كانت تنفخ لهبا لكنها قد تحضر مطرا فتبرد المدينة.

قال علي متفائلا: "قد تمطر، ونتخلص من هذا الجو الحار."

وبينما كنت على وشك أن أقول: سيكون ذلك جيدا، وقعت عيني على حافلة صغيرة من نوع فورد كانت تحت شجرتين طويلتين من أشجار الماغنوليا التي نجت من الانقراض في هذا المكان المليء بالعمارات المستفزة. كانت الحافلة واقفة في مكان بعيد عن السيارات الأخرى وكأنها قد أخفيت عن قصد تحت تلكما الشجرتين. توجهت تلقائيا إلى الحافلة. وكلما اقتربت منها كان الخط الذي على جانبها يبدأ في الجلاء أكثر. قرأت أوّلًا كلمة "درع" ثم بعد ذلك اخترت الكلمة التي بجانبها، "الأمن". كانت عبارة "درع الأمن" مكتوبة بحروف لونها فاتح على غطاء محرك السيارة ذات اللون الداكن. علاوة على هذا كان هناك شعار المؤسسة الأمنية مكتوبا.

سأل علي. "ما الذي جرى يا سيدي؟ ما ذلك؟"

"من الجيد أن ننظر إلى تلك الحافلة عن قرب."

لحق مساعدي بي مباعدا بين خطواته.

"هل تعتقدون أنها حافلة القاتل؟"

لاحظت أن يده اليمنى تحرّكت نحو السلاح الذي كان على خصره.

"لا أعتقد. لأن عليه اسم الشركة التي يشغلها ألبر؛ المساعد القديم للمرحوم ذكائي. فربما يعملون هنا كموظفي أمن لهذا المبنى..."

شكّ علي في الأمر.

"وإن كانوا يستعملون هذه الحافلة؟"

"يا علي، هل مِن قاتلٍ في الدنيا يستعمل حافلة عليها اسم شركة

واضحًا وضوح الشمس؟!"

ومع أني قلت ذلك إلا أنني لم أستطع منع نفسي من التقدم أكثر نحو الحافلة. لم تكن سوداء وإنما رماديّة داكنة. اقتربنا بهدوء نحو أبوابها. حاول علي فتح باب السائق لكنه كان مغلقا. جرّب الأبواب الأخرى فكانت كذلك أيضا. قمنا بجولة حول الحافلة. وأخذنا رقمها، لكننا لم نستطع الوصول إلى سر هذه السيارة الرمادية الشبيهة بصندوق مغلق. توجهنا بعدها إلى مدخل المبنى دون الوصول إلى نتيجة. كان على الباب موظفان من شركة الأمن هذه؛ شعرهما ملمّع بالجل بشكل عجيب، أخرج مساعدي هويته الأمنية ووضعها أمام أنف صاحب الوجه المقوس، ثم سأله. "هل الحافلة التي في الخارج لكم؟ حافلة فورد الموجودة تحت الأشجار..."

أجاب صاحب الوجه المقوس دون أن ينظر إلى المكان الذي أشار إليه علي أبدا.

"صحيح يا سيدي، هذه حافلتنا. هل من مشكلة؟"

سأل مساعدي سؤالا آخر بدلا من أن يجيب على سؤال ذلك الرجل.

"هل هي هنا باستمرار؟"

"أحيانا هنا وأحيانا تذهب إلى أماكن أخرى. نحن أيضا نتولى الأمن في بعض المستشفيات. لدينا حافلتان غيرها أيضا. ماذا جرى، هل هناك مخالفة على هذه الحافلة؟"

لم يكن هناك أي معنى من هذا الكلام.

"لا، لا" قلتها مُنهيًا هذا الحوار. "هيا عزيزي علي، لنلحق بذلك المصعد."

استطعنا اللحاق بباب المصعد الذي كان قادمًا من الأعلى قبل أن يغلق. لم يكن أحد غيرنا في الداخل. وحينما وصل هذا الوعاء الحديث

إلى الطابق الثامن عشر فُتح بابه، فظهرت أمامنا فتاتان طويلتان، ولطيفتان، وبشرتهما سمراء. ولو لم نسمع كلماتهما لما أدركنا أنهما متحوّلين جنسيًّا! حيث قال الشخص ذو الشعر القصير بعد أن رمق علي من رأسه إلى قدمه بسخرية: "آه، هل تصعدون إلى الأعلى؟ نحن هنا منذ دقائق في انتظار المصعد."

أجاب علي. "أصبح هذا المصعد في ذمتنا. يجب أن نصعد إلى الأعلى بشكل سريع. نحن شرطة ولدينا عمل رسمي..."

صرخ ذو الشعر القصير قائلا: "وما هو عملك يا ولد؟ أقول لك نحن هنا مزروعان منذ دقائق،" لكن الشخص الآخر الذي كان يضع عدسات زرقاء، ورموشا مركّبة، جذبه من ذراعه وأسكته قائلا بكل أدب: "بالطبع يا سيدي، ما دام أنكم في عمل رسمي فلتتفضلوا..."

تابعنا الصعود من جديد إلى أن وصلنا الطابق الثاني والثلاثين. كانت شقة قانصو في نهاية الممر المغطى بالرخام الرمادي، أما جدرانه فقد كانت مليئة برسوم لا روح فيها. عبرنا ثمانية أبواب بعضها يقابل بعضًا إلى أن وصلنا الباب التاسع.

همس علي قائلا: "سيدي، الباب مفتوح."

حقا كان الباب الخشبي المطلي باللون المشمشي مفتوحا قليلا. قال مساعدي بقلق: "زينب، زينب في الداخل."

مددنا يدينا نحو أسلحتنا. ذهبت إلى الجهة اليمنى من الباب، وذهب مساعدي إلى الجهة اليُسرى، وتنصّتنا لحظات. لكن لم يكن في الشقة أي صوت أو طقطقة، لم يكن فيها أي علامة لحياة أبدا. ومع ذلك بقينا في مكاننا مدة من الزمن. ورغم تجاربي الكثيرة على مدى السنوات الماضية إلا أنني لم أستطع منع نفسي من الخوف. نظرت إلى علي، كان هو الآخر

متوتّرًا أكثر من أي وقت مضى، كان يبدو قلقا كثيرا. لمست ذراعه. وأشرت إليه أن يتمالك نفسه ثم أومأت إليه بأننا سندخل بهدوء، وسأكون أنا في المقدمة وهو في الخلف. لكنه اعترض فورا، وحينما هززت رأسي بعزم رضي بأوامري. دفعت الباب وفتحته ببطء شديد. حاولت رؤية الداخل من فجوة الباب. لكن كان ذلك مستحيلًا. لأنني لم أر إلا مساحة صغيرة من المكان الذي أنظر منه، كما أن الشقة كانت مظلمة.

حملت سلاحي بيدي وتسللت بهدوء إلى الداخل. بينما كانت عيناي تحاولان الاعتياد على الظلام أصختُ جيّدًا محاولا الاستماع إلى أي صوت يمكن أن يأتي من الداخل، لكن لا، فقد كانت الشقة هادئة جدا كالمقابر حتى أنّي كنت أسمع أنفاس علي الواقف في الخلف. لم نسمع أي صوت ونحن نعبر الردهة إلى الممر القصير المؤدي إلى الصالة. وحينما وصلت إلى مدخل الصالة جاء علي إلى جانبي. دخلنا معا في اللحظة نفسها. في تلك اللحظة رأيت زينب؛ كانت متمددة بكامل جسمها عند أرجل طاولة الحاسوب. رأى علي أيضا حبيبته زينب، اشتعل خوفا على الفور لكنه تمالك نفسه، ولم يصدر أي صوت. فربما يكون المعتدي في إحدى الغرف الداخلية. اقتربتُ نحو زينب بهدوء لكن بخطوات سريعة. بقي مساعدي في الخلف يحميني. انحنيت ولمست عنقها، كانت فاقدة وعيها لكنها لم تكن تبدو في وضع سيّئ. نهضت، وأشرت إلى علي الذي كان يرمق بقلق بوجوب التحقق من الغرف الداخلية. نفّذ أوامري دون تردّد، تسلّلنا إلى غرفة النوم، لم يكن أحد في الداخل، تحققنا من الغرفة الصغيرة، والمطبخ، والحمام، لم نجد شيئا، كانت الشقة فارغة. عدنا إلى جانب زينب بسرعة؛ حمل علي رأسها إلى حضنه.

"زينب، حبيبتي زينب،" ناداها وهو يلمس بيده اليمنى وجهها. "زينب،

زينب..."

تحركت رموشها السوداء أولا، ثم فتحت عينيها. وحينما رأت عليا ابتسمت، ثم رأتني فتجهم وجهها.

سألت قائلة: "ما الذي جرى؟ ما الذي حدث لي؟" ثم بدأت تحاول النهوض بعجلة.

"تمهلي، تمهلي عزيزتي زينب. حينما جئنا إلى المنزل وجدناك على هذه الشاكلة. هل اعتدى عليك أحد؟"

بينما كانت تحاول التذكر جلست على الأرض ويدها اليمنى في كف علي.

"نعم، نعم سيدي... دخلت إلى الداخل." نظرت إلى طاولة جهاز الحاسوب. "وجدت في الجرار صورا..." عقدت حاجبيها. "صورًا إباحيّة ملتقطة مع الأطفال، صورًا مثيرة للاشمئزاز، وسيئة جدا وفي غاية القرف... وبينما كنت أنظر إليها أحسست بسماع صوت، نظرت خلفي وإذ بشخص يقترب مني واضعا يده على فمي. كان يرتدي قفازات بلاستيكية، يداه كانتا كبيرتين، منعني من التنفس. حاولت المقاومة، لكنه كان قويا جدا. ففقدت الوعي..."

سأل علي بغضب. "وهل رأيت وجهه؟ هل استطعت أن تعرفيه؟"

"لا، لم أر شيئا، بتاتا. كما قلت لكم هو شخص قوي جدا، وفي يديه قفازات. قفازات رقيقة وبلاستيكية من النوع الذي نستعمله نحن." تحوّلت بنظراتها إلى مدخل الصالة. "كان ساكنا جدا، ولا أعرف كيف استطاع الدخول. ربما لديه مفاتيح، وربما خلع الباب..." أخذت نفسا عميقا. ثم نظرت إلينا وهي تبتسم. "لا تقلقوا، أنا بخير." ثم حاولت النهوض وهي تستند بيديها إلى الأرض.

نبّهتها قائلا: "ابقي جالسة قليلا إن أردت يا زينب، بل استلق قليلا على تلك الأريكة. لنتصل بالإسعاف ونذهب إلى المستشفى. لا سمح الله وقدّر، فقد تكون هناك صدمة في الرأس أو شيء من هذا القبيل..."

جمعت بيدها شعرها المتناثر.

"شكرا جزيلا سيدي لكنني أنا بخير. حقا أنا بخير. والشخص المعتدي لم يرغب في إلحاق الضرر بي كثيرا. فلو أراد لكان قتلني. فقد أمسكني في غفلة منّي." بدت على وجهها ابتسامة مريحة وهي تمد يدها نحو علي، فقام رفيقنا روميو صاحب القلب الرؤوف بإمساكها على الفور. مسكت زينب يده وهي تنهض، ثم رتّبت نفسها وذهبت إلى جهاز الحاسوب فورا وكأنها لم تكن الفتاة التي تعرضت للاعتداء قبل قليل. "ها هي هنا الصور الإباحية."

صرح رفيقنا السرسري بحكمه على الفور.

"لقد قلت لكم يا سيدي، هذا المنحرف أيضا شخص متحرش بالأطفال."

لم أرغب في النقاش معه، فبدأت النظر إلى الصالة. كانت مفروشة بشكل مبالغ فيه، أرائك ذات لون أصفر فاتح، وأريكة كبيرة أيضا باللون نفسه، وأيضا تلك الطاولة التي عليها جهاز الحاسوب، ولوحات بنية كثيرة كانت على الجدران ذات اللون العسلي. قالت زينب التي ألقت نظرة على اللوحات مُعربة عن رأيها: "يبدو أن الرجل يحب التجوال، فقد أملأ جوانب منزله برسومات الطرق."

في تلك الأثناء لاحظت الطرق المرسومة في اللوحات. طرق مختلفة عن بعضها، ملونة بدرجات مختلفة من اللون الأزرق. ممر يعبر من بين الجبال، جسر معلق فوق نهر عريض، وطرق مرصوفة بالحصى تمتد

من بين المنازل إلى ساحة كبيرة، وطريق مكونة من الحجر الأسود ملتوية داخل الغابة مثل الأفعى، ينتهي إلى طريق إسفلتي من فضة يمتد في الصحاري المترامية الأطراف وصولا إلى الشمس.

قال علي: "ربما كان يريد الهروب، انظري زينب فهناك ألم في جميع الرسومات، وفي نفس الوقت أمل خفي. لا بد أن المقتول كان يعيش حياة لا يريدها. فقد كان يرغب في الابتعاد، كان يرغب في الهروب، ولهذا السبب اختار رسومات الطرق."

اعترضت فورا.

"وهل قانصو من رسم اللوحات؟"

أجابت باحثتنا مؤيدة له. "أظن ذلك،" ثم أشارت برأسها إلى الباب الشمالي. "فقد جعل تلك الغرفة الصغيرة ورشة للرسم. فهناك اللوحات، والأوراق، والأقلام. وهناك أيضا طريق مرسومة لم تكتمل بعد. طائرة تسبح في السماء فوق طريق مجهولة..."

ربما كان ذلك، وربما أيضا رسمها لأنه يحب الطرق فقط. كان من الممكن أن نتكلم حول شخصية المقتول لاحقا، فكل ما كنت أريده هو العثور على أدلّة قطعيّة. وبينما كنت متوجها نحو الصور التي كانت على الطاولة حذرتني زينب.

"حقا إنها مستفزة يا سيدي... يوجد أطفال صغار، أطفال صغار.. إن الإنسان يخجل من إنسانيته..."

ابتسمت ابتسامة باردة.

"هناك أمور كثير تجعلنا نخجل من إنسانيتنا حتى ولو لم تكن هذه الصور يا ابنتي..."

بدا على وجهها إفادة لم أرها من قبل.

"لكن هذه من الأمور التي لا تطاق..."

توقعت أنني سأرى مشاهد بشعة، لكنني لم أكن أتوقع أن تكون بشعة بهذا القدر. رؤية الصورة الأولى كانت كافية أن تهزّني من الأعماق. حقا إن الإنسان مخلوق قذر. من المخجل حقا أن تكون من الفصيل نفسه الذي يفعل بالأطفال كل هذه الأمور. لم أستطع مواصلة النظر أكثر بعد الصورة الثالثة...

"ليتحقق فريق مسرح الجريمة من هذه الصور ويرسل لنا تقريرا. أريد معرفة ما إذا كان قانصو صارميشيق موجودا في هذه الصور."

قالت زينب بيأس: "لا يا سيدي، لقد رأيتها كلها،" ابتلعت ريقها، تبللت عيناها. "كان لا بد من رؤيتها... اضطررت إلى تفحّصها." أخذت نفسا عميقا، ثم أغلقت عينيها وفتحتهما وكأنها تريد التخلص من كابوس. "المقتول ليس موجودا في الصور." اتجهت بأنظارها إلى جهاز الحاسوب. "لكن ربما يكون موجودا في الفيديوهات..."

كرر علي قائلا: "لقد قلت من قبل يا سيدي، الرجل أخفى نفسه جيدا... فهذا الرجل أيضا قام بعمل رسومات للطرق تماما مثل دفاتر عاكف صويقان الفارغة. وذلك لكي يهرب من نفسه..."

أضافت زينب مداخلة لم أكن أتوقعها أبدا.

"لا تتحدث بهذا الشكل عزيزي علي، فنحن لا نعرف من وضع هذه الصور. وربما وضعها هذا الشخص الذي اعتدى عليّ اليوم. ألا يمكن ذلك؟ ولو دققنا جهاز حاسوبه لربما توصلنا إلى نتائج أكثر دقة. ويجب أن نبعث القرص الصلب إلى مختبر الأدلة الجنائية لفحصه."

لم أكن أعرف عما كانت تتحدث عنه بشكل تام، لكنني كنت متأكدا أن ما قالته سيفيد في مجرى التحقيق.

"إذن، لنرسل هذا الشيء إلى مختبر الأدلة الجنائية..."

وحينما أنهيت كلامي رأيت صندوقا أخضر صغيرا إلى جانب لوحة المفاتيح. كان صندوقا لبطاقات الأعمال. تناولته وأفرغت ما بداخله على الطاولة. وبينما كنت أقلب بطاقات الأعمال، رأيت بطاقة بيضاء مكتوبا عليها بحروف مذهبة اسم صاتيلميش كون دوغدو. وتحت اسمه كان رقم هاتفه وعنوانه مكتوبا. نظرت إلى خلف البطاقة فوجدت فيها خطا سيئا كان مكتوبا بخط اليد، "جئت إلى البيت ولم أجدك، ما الذي سيحصل بالنسبة إلى العمليّة؟" علي أيضا الذي كان منتصبا عند كتفي رأى هذه البطاقة.

دخل في الموضوع قائلا: "أليس هذا هو الرجل المرابي يا سيدي؟ وماذا ننتظر؟ هيا لنسحبه إلى المركز."

طرأت لي فكرة أفضل، لذلك لم أتسرع في قراري.

"هذا سهل عزيزي علي. أنت اذهب أوّلًا إلى موظّفَي شركة الأمن اللذَين في الأسفل وخذ منهما مشاهد الفيديو لكاميرا المراقبة، حتى نعرف الشخص المعتدي على زينب."

نفذ أوامري فورا كعادته.

"أمركم سيدي."

وبينما كان علي متوجها نحو الباب ذهبت إلى الغرفة الأخرى وأخرجت هاتفي. اتصلت بجانتي جمال.

الصحيح أن جانتي كان رجلا قويا، قبضايا من الطراز القديم. يدّعي أنه أصبح عاجزا عن فعل شيء لكن الصحيح أنه رجل له هيبة ما بعدها هيبة، وكلمته ما زالت مسموعة وخاصة بين من هم أمثاله من الطراز القديم الذين كانوا ينقادون لقوانينه. لكن البلطجية المُحدِثين يظنون

أن عهد هذا الرجل ومن هم أمثاله قد انقضى وأن السيادة الآن أصبحت لهم. لكن أرى أنهم مخطئون جدا. فبعض الشباب حاولوا العراك معه لكنه أشبعهم ضربا وأجدع أنوفهم. في الحقيقة استمرار حكم جانتي في عالم الجرائم كان مفيدا لي في عملي. فكنت أحصل منه على معلومات لا أجدها لا في ملفات الشرطة ولا في المخبر الأمني. الآن أيضا وجب الاتصال به. وبعد الرنة الثانية أجاب جانتي جمال بصوت متعب لكن فيه تودّد.

"مرحبا نوزات... كيف حالك؟"

"مرحبا أخ جمال، الحمد لله بخير، أنت كيف حالك؟"

"ندعو لك بالصحة والعافية، أنا مرضت قليلا..."

"بالشفاء العاجل، أرجو أن لا يكون خطيرا..."

ضحك بهدوء.

"بروستات يا نوزات. عفوا، فعند البول تحدث بعض المشاكل. إن الشيخوخة أمر سيء..."

"توقف يا جمال، عن أي شيخوخة تتحدث، إنك ما زلت في ريعان شبابك."

"شكرا لك، لكن هذا مجرد كلام" أخذ نفسا عميقا. "أسوأ الخيانات أن يبيعك جسدك. ومهما فعلت فإنه سيفعل بك هذه القذارة في النهاية. فلا مهرب من هذه الحقيقة. والأجمل هو الموت في الوقت المناسب، قبل أن تحتاج أحدا. وليس هناك من معنى أبدا لمواجهة الدنيا..." صمت ثم قال: "يا رجل، لقد أوجعت رأسك بهمومي. تفضل عزيزي نوزات، ماذا تأمر؟"

"أستغفر الله، ليس أمرا، وإنما هو طلب. كنت سأسأل عن شخص اسمه صاتيلميش كوندوغدو. شخص مراب..."

قال بضجر: "صاتيلميش ذو الوجه الأحمر، ما به؟ ما الذي فعله؟"

"هناك قضية قتل. اسمه وارد فيها. أريد الحديث معه. سيتهرب من الكلام في المركز. لكن لو أنك دعوته فنتجاذب معه أطراف الحديث..."

لم يطل أبدا.

"حسنا، تعال إلى مقهانا في المساء. ستجد صاتيلميش هناك."

فوجئت بتحدثه بهذه الثقة.

"لو أنك تسأل عنه أولا، فربما لن تجده."

"سأجده، سأجده، لا تقلق أبدا. أنت تعال إلى هازّوبولو ودعك من الباقي. مع السلامة..."

41

"ربما خاف..."

"لا بد أن تأتوا هنا يا سيدي،" كانت زينب تنادي من الصالة. "هنا أيضا موجود من ذلك التراب."

كان في صوتها انفعال، فخرجت بسرعة من غرفة النوم التي كنت أبحث فيها. كانت راكعة في الصالة على ركبتيها تحدق في الأرضيّة. وحينما رأتني كررت قائلة وهي تشير بأصابعها الطويلة الرقيقة إلى نقطة على الأرض: "هنا أيضا من ذلك التراب يا سيدي... وهو التراب نفسه الذي عثرنا عليه اليوم في قارب السيد ذكائي..."

لم يكن لدي علم بهذا الموضوع.

"أي تراب عزيزتي زينب؟"

اعتدلت واقفة.

"صحيح، نحن لم نخبرك بهذا الموضوع. فريق معاينة مسرح الجريمة عثر في حديقة منزل النقيب ذكائي على بعض التُّراب الأحمر، كان بجانبه تماما... التراب نفسه وجدناه في قاربه هذا الصباح..."

تذكرت، علي أخبرني به من قبل، لكنني لم أكترث حينها.

"التراب نفسه في الأماكن الثلاثة..." قالتها زينب مواصلة كلامها. "إذًا الشخص الذي اعتدى عليّ قبل قليل، من المحتمل أنه الشخص نفسه الذي قتل النقيب ذكائي."

شعرت بقشعريرة هزت كياني.

"هل تعتقدين أنه القط الأعمى؟ يعني هل كان القاتل المتسلسل الذي نبحث عنه موجودا هنا؟"

بحثت بعينيها في الصالة وكأنها سترى الرجل.

"أعتقد ذلك... فإن كان هو قاتل ذكائي فإن الشخص الذي اعتدى عليّ هو القط الأعمى."

"ألهذه الدرجة يتصرف بلا تدبّر؟ يبدو أن الرجل يضع خططه وهو في الطريق. فهل يعقل أن يأتي اليوم إلى منزل شخص قتله في الأمس؟"

عقدت حاجبيها.

"ربما خاف، وربما أراد رؤية منزل الضحية. فهو في النهاية إنسان يا سيدي. فمن المحتمل أنه تصرف دون تفكير."

ربما، لكنني لم أقتنع بكلمات زينب. ركعت على ركبتي لرؤية التراب. كان هناك فوق الأرضية ذات اللون البني؛ قِطَع تراب صغيرة جدا، قطع حمراء ولامعة.

سألت متوقعا: "إنها مطلية، أليس كذلك؟ فاللون الأحمر يبدو لامعا كثيرا."

"هكذا يبدو يا سيدي، لا بد أن نفحصها. لا بد أنها في منزله أو في مكان عمله. وربما في مكان عام يسير فيه..."

"بكل تأكيد" قلتها مؤيدا. "لنأخذ عيّنة من هذا التراب ونفحصها فورا. كيف صُنع، وأين يباع؟ أرجو أن يكون ترابا ثمينا لأن زبائنه سيكونون حينها قليلين. وسنتمكن حينها من التحقيق بشكل أفضل." وبينما كنت متوجها إلى مخرج الصالة قالت زينب وهي تشير إلى صحيفة الحرية التي كانت في الطرف الأيمن من الطاولة: "وهذه الصحيفة أيضا يا سيدي،

تاريخها قبل ثلاثة أيام. لم تدخل إلى المنزل بعدها أي صحيفة جديدة، علما أن هناك صحفا لخمسة أيام سابقة لهذه الصحيفة. انظروا إنها هناك في خزانة الكتب. فمن المحتمل أن المقتول كان مجيئه الأخير إلى البيت قبل ثلاثة أيام."

نظرت باهتمام إلى وجهها.

"هل تعتقدين أن الطبيب الجراح تعرض للاختطاف وهو في الخارج؟"

"هكذا يبدو، ففي المطبخ أيضا لا يوجد أي طعام حديث."

"هذا منطقي،" قلتها مؤيدا. "لأن الجسد أيضا كانت تفوح منه رائحة. سنعرف هذا لاحقا بعد نتائج التشريح، لكنني لا أعتقد أن قانصو صارماشيق قُتل في مكان الجريمة."

كان في الإمكان أن نتكلم كثيرا حول هذه الجزئية، لكن لا فائدة من هذا في الوقت الحالي.

"استمرّي في التحقيق عزيزتي زينب." أشرت برأسي إلى مخرج الصالة. "وأنا سأفحص الباب الخارجي لأرى كيف دخل الرجل إلى هنا."

وحينما عبرت الردهة كان الباب الحديدي منتصبا أمامي بكامله. لا يمكن لأحد أن يخلع هذا الباب القوي ويعبر منه، وحينما اقتربت منه لاحظت أن القفل تعرّض للعبث.

"نعم، الرجل خلع القفل يا سيدي."

وحينما أدرت رأسي رأيت المشاكس علي واقفا أمامي وفي يده قُرص مضغوط.

"فحصت الباب وأنا خارج من هنا، لا بد أن هذا الرجل ماهر في فتح الأبواب..." وحينما رأى أنظاري عالقة في القرص الذي في يده بدت على وجهه ابتسامة عريضة. فقام بهزّ القُرص المضغوط كما لو أنّه حقّق انتصارا.

"مقاطع الفيديو العائدة إلى الرّجل هنا. سنقبض عليه."

ها هو الخبر الرائع، لكنني لم أستطع السكوت دون أن أسأل.

"حسنا، وقانصو؟ أليس هناك من فيديو يُظهر خطفه من هنا؟"

تعكّر صفو علي.

"لا يوجد، آخر ظهور له قبل ثلاثة أيام فقط وهو خارج من العمارة، بعدها لم يعُد إلى العمارة أبدا."

إذن، سنكتفي بالأدلة التي بين أيدينا.

"هيا لندخل،" قلتها بعجلة. "لنرى من هو هذا الرجل؟"

بدا على وجه زينب الذهول حينما رأتنا عائدين بانفعال إلى الصالون.

هزّ مساعدي القُرص المضغوط الذي كان في يده من جديد.

"الرجل الذي اعتدى عليك هنا."

انتقل انفعالنا فورًا إلى زينب، فقامت بفتح جهاز الحاسوب فورا وجلست على الكرسي الذي كان أمام الطاولة. تناولت القرص من علي ووضعته في مكانه، ثم لمست لوحة الجهاز. ظهرت على الشاشة مقاطع مشوّشة، ثم اتضحت بعد ذلك.

"هذه من كاميرا الحديقة،" قالها مساعدي موضحا. "انظروا سيأتي الرجل الآن."

توقّف تاكسي داخل مجال الرؤية للكاميرا، ونزل منها رجل يرتدي ملابس مخصصة لعمال النظافة. كان طويل القامة، وصاحب جسم متسق، لكننا لم نستطع رؤية وجهه بسبب قبعته.

"الآن سيقترب يا سيدي. سنراه بشكل أوضح، لننتظر قليلا."

لاحظت وجود حقيبة في يد الشخص المشتبه به وهو يقترب من المبنى. نعم، كان يبدو تماما مثل عامل نظافة. لا يثير الشك أبدا وهو

متوجه نحو المدخل.

قال علي موضحا: "ذكر هذا الرجل لموظفي الأمن أنه قادم من شركة النظافة. وبيّن أنه جاء من أجل اختبار عمال النظافة. لم يشك الموظفون فيه أبدا، لأنه في كل شهر يأتي شخص للقيام بهذه المهمة..."

سألت زينب السؤال الذي كان يدور في ذهني.

"وهل الشخص نفسه كان يأتي في المرات السابقة؟"

هز علي كتفه.

"لا يعرفون. من المفترض أنهم هنا للأمن، لكن هيهات ذلك، فعقولهم لا تدرك شيئا."

سألت بأمل.

"ألم يلاحظوا أي شيء؟"

"لم يلاحظوا! قلت لكم يا سيدي هؤلاء حمقى. عُذرًا لكن حتى لو سرقتَ من مؤخراتهم لما عرفوا. والأسوأ من ذلك أنهم تركوا الشخص المشتبه به وحيدا. ولا بد أنه جاء في تلك اللحظة إلى هنا..." فجأة انحنى علي، وأشار بإصبعه إلى مكان في الشاشة. "انظروا، انظروا يا سيدي، وجه الرجل يتضح هنا."

حقا كان ذلك صحيحا، فالمشتبه به كان يقترب من الكاميرا أكثر وهو متوجه نحو الدرج المؤدّي إلى الباب.

قلت فورا: "أوقفيه، أوقفي هذا."

انقادت زينب لأوامري فورا. وأخيرا بدا وجه الرجل أمامنا. لكنه كان يخفي تفاصيل وجهه بالقبعة التي كان مكتوبا عليها من فوق جبينه "الفيروزية للنظافة"، وبنظاراته السميكة ذات الإطار الأسود، وبعيونه الزرقاء التي كانت تتفحص المكان بذكاء، وبلحيته الحمراء التي تخفي

معالم وجهه الدقيقة بتغطيتها لفكيه الواسعين. اقتربت من الشاشة. كانت الجودة سيئة، لكنني عرفت من تلك النظرات الباهتة أنه كان يستعمل عدسات تركيب. بكل تأكيد سيقوم المدققون باللازم حول هذا المقطع لكن بحكم خبرتي السابقة أقول وبكل أريحية إن الوصول إلى نتيجة من خلال هذا المقطع أشبه بمحاولة إدخال الجمل في سم الخياط. في تلك اللحظة أدركت مرة أخرى أن هذا الشخص يعرف منهج عملنا جيّدًا. لذلك كان لا بد لنا من تفاصيل أخرى حول هذا الرّجل.

"حسنا عزيزي علي، ألم يقل موظفو المبنى عنه شيئا؟ ألم يتحدثوا عن تفاصيل جسمه؟"

"تحدثوا يا سيدي، فحسب ما يظهر في مقطع الفيديو أنه رجل رياضي طوله مترٌ وثمانون سنتيمترًا. يحب الكلام الملغز كثيرا، ولم يتوقف عن المزاح. قالوا عنه أيضا: 'هناك غرابة في صوته. كان يتحدث بصعوبة وكأنما في فمه لقمة. رجل واثق جدا في نفسه. لا يمكن أن يثير الشك أو الاشتباه.›"

"يبدو أنهم لم يذكروا معلومة تفيدنا في التحقيق."

قال علي الذي لاحظ تعتّم وجهي: "ألا تكفي هذه المشاهد؟ ألا يمكن أن نحصل على نتيجة من هنا؟"

زينب لم تكن يائسة مثلي.

"إذا ربطناها بالأدلة الأخرى التي عثرنا عليها فربما نصل إلى نتيجة. المهم أن نصل إلى أدلة ومعلومات جديدة." ثم نظرت إليّ بعينيها المتساءلتين عن سبب تشاؤمي. "مجيء القط الأعمى إلى هنا متغاضيا المخاطر يشير إلى وقوعه في ضيق. إنه خائف، إنه خائف لسبب لا نعرفه حتى الآن. وكلما خاف زادت أخطاؤه. الآن لدينا دليلان ملموسان، حتى

وإن كانا غير واضحين؛ وهما مقطع الفيديو والتراب الأحمر..."

كانت على حق فيما تقوله. حسنا، لمَ أنا متشائم بهذا القدر؟ لا بدّ أني تأثّرت من موت ذكائي أكثر مما كنت أتوقعه. والسيء في الأمر أن هذا يؤثر سلبا على رفيقي، لا بد من استجماع نفسي.

فسألتها: "لماذا خاف برأيك؟ لماذا يقوم القط الأعمى بتصرفات لم يقم بها سابقا؟"

تجهمت قليلا كعادتها دوما حينما تكون عاجزة.

"من الصعب معرفة ذلك سيدي. لا أستطيع أن أعرف ذلك من خلال الأدلة التي بين أيدينا. لكن ما دام أنه خاطر بالمجيء إلى هنا..."

"ليس بالمجيء إلى هنا فقط،" قالها علي مشاركا في الحوار. "بل وأيضا قام بمخاطرة كبيرة عندما قتل سيدي ذكائي. وأرى أن نقطة الانهيار تكمن هنا. لماذا خالف القط الأعمى طقوسه وقتل شرطيًّا؟ لا بد لنا أولا من معرفة جواب هذا السؤال."

قلت في نفسي أحسنتم يا رفاق، إنكم تفكرون جيدا. فهذا يدل على أنني إذا تقاعدت سأشعر بالراحة لأن خلفي أبطال سينهضون بالمهمّة.

أجابت زينب. "جواب السؤال بسيط، السيد ذكائي توصل إلى معلومة مهمة متعلقة بالقط الأعمى. وربما أيضا عرف هويته."

تذكرت الملف الذي أعطاه لنا ألبر من شركة درع الأمن.

"ربما حدث هذا. يجب أن تحققي في الملفات التي حصلنا عليها من ألبر. وهي ملفات السيد ذكائي حول القط الأعمى. لكن أريد تحقيقا دقيقا وليس تحقيقا عابرا. فمن المحتمل أن ذكائي لم يكتب بصراحة، لأنه هو أيضا لم يكن متأكدا. لكن لا بد أن داخل تلك الملفات معلومات تقود إلى القط الأعمى. لذلك لا بد أن تخصّصي جُلّ وقتك لهذا الموضوع بعد أن

يُفحَص التراب الأحمر، وتُرسَم صورة روبوت للرجل المعتدي عليك."

بدت على وجه باحثتنا ابتسامة رائعة.

"لن يستمر طويلا يا سيدي، غدا بحلول المساء سنأخذ النتيجة..."

"جميل،" قلتها وأنا أفرك يدي. "إذن، بعد حل هذه الأمور ركّزي على ذلك الملف. وسأشترك في العمل معك إن لزم الأمر..."

"نحن سنحل الأمر يا سيدي،" قالها علي موجدا وظيفة له. "لا تقلقوا أبدا، لن نغض الطرف عن أي جزئية أبدا."

لو لم أكن أعرفهما جيدا لما كنت أصدق أن هذين العاشقين سيعملان طوال الليل على هذه الملفات التي تتكون من الجنايات الدموية دون أن يلمسا بعضهما. إنهما علي وزينب، يعرفان جيدا حدودهما، ويعرفان جيدا كيف يتمالكان نفسَيهما. وبالطبع، ما الضرر لو كان هناك بعد العمل أو أثناءه بعض اللمسات الخاطفة أو القبلات الصغيرة؟

"حسنا علي، اعملا معا في الليل، لكن ابحث لي بعد ذلك عن سيارة التاكسي التي جاء بها ذلك الرجل. اسأل سائقها عن المكان الذي أقلّه منه؛ من أين أخذه؟ وفي ماذا تحادثا حينما كانا داخل السيارة؟ فربما يعطينا السائق جزئية مهمة. من فضلكما أريد سماع الأخبار الجيدة. أنا سأذهب للحديث مع ذلك الرجل الملقب بذي الوجه الأحمر. سنرى ما الذي سيتحدث به عن المقتول."

42

"لماذا كانت العملية في كوسوفو، لماذا لم تكن في تركيا؟"

حينما جئت إلى شارع الاستقلال كان الظلام على وشك الهبوط. أوقفت سيارتي المخضرمة في موقف تبه باشي، ودخلت من جانب القنصلية البريطانية إلى الممر المؤدي إلى هازّوبولو. كان الناس المستاؤون من الحرارة يحاولون التخفيف عن أنفسهم بشربهم أشربة باردة على الطاولات المنتشرة في ساحات الممر التي تحولت إلى مقاهٍ مفتوحة في الهواء الطلق. في الواقع لو كانت هناك نسائم قليلة لتوصّل هؤلاء الناس إلى أهدافهم دون تعب وذلك لأن مجرى الرياح في العادة يكون هنا قويا. لكن الزبائن اكتفوا بهذه الراحة الكاذبة الناتجة عن الهواء الساخن الذي كانت تنفخه المراوح الكبيرة التي وضعها أصحاب المقاهي أمام محلاتهم.

كان جانتي جمال، الذي يرتدي بذلة ذات لون أزرق ليلي غير مكترث بالحرارة العالية، جالسًا في مكانه المعتاد يدخّن الأرجيلة. وفي الجهة المقابلة له شخص جهم. حينما رأيت وجهه الأحمر أدركت أنه صاتيلميش كوندوغدو. وبالطبع، جانتي كعادته نفّذ وعده بإحضار الرجل إلى المكان. لم يرياني بعد، كان المرابي ذو الوجه الأحمر يتكلم بقلق وهو يلعب بيديه. جانتي كان لطيفا كعادته يستمع بهدوء، وأحيانا يلقي إلى المتحدث نظرات خاطفة من فوق الدخان الذي يبثه في الهواء. أخرج جانتي خرطوم الأرجيلة من فمه وتكلم بضع جمل لم أستطع سماعها، لكنني كنت أراه

وهو يتحدث في اتّزان وهدوء. في تلك اللحظة التقت أعيننا. بدت على شفتيه ابتسامة كشفت أسنانه المتناثرة. ترك الخرطوم ونهض. نهض صاتيلمش أيضا معه حينما أدرك قدومي.

مد جانتي يده وهو يقول: "أهلا وسهلا نوزات، منذ زمن لم نلتق يا رجل."

شددتُ على كفّه.

"نعم صحيح، لكنني لو لم اتصل بك لما فكرت بي أبدا."

بدا احمرار خفيف على وجهه المليء بالتجاعيد.

"هل يُعقل هذا؟ أنت رجل مشغول دوما، ولا أريد إزعاجك. فأنت دوما في ذهننا..." اتجهت أنظاره إلى صاحب الوجه الأحمر. "وهذا رفيقنا..."

أكملت قائلا: "لا بد أنه صاتيلميش كوندوغدو. مرحبا صاتيلميش، كيف حالك؟"

وضع يده اليمنى بأدب على صدره وانحنى قليلا إلى الأمام.

"ندعو لكم بالصحّة والعافية سيدي. ناداني أخي جمال فجئت. تفضّلوا أنا تحت إمرتكم."

نظر إليه جانتي ولسان حاله يقول: لمَ هذا العجلة؟!

"توقف يا صاتيلميش، دع ضيفنا يأخذ نفسا، فليرتح قليلا أولا."

بدا وجه صاتيلمش هذه المرة أحمر كالكبد.

"لا تؤاخذني أخي جمال، أنا أردت شيئا، أردت أن..."

شعر جانتي بالملل.

"حسنا، حسنا تحدث لاحقا عن رغباتك يا صاتيلميش." ثم اتجهت أنظاره الودودة إليّ. "اجلس هنا نوزات. لا يوجد هنا مكان بارد حتى أقول

لك اجلس فيه... على كل حال هذا المكان جيد، حتى وإن لم تكن فيه نسائم باردة إلا أنه لن يكون حارا." ضحك. "هل أنا وحدي أحس بهذه الحرارة يا ترى؟! حقا لقد أنهكتنا هذه الأجواء جميعا."

سحبت الكرسي قبل أن يتكلم كثيرا.

"هنا يبدو جيدا..."

انتظر جلوسي، ثم تحدث بسرور.

"سأطلب قهوة لك. وهنا تبغ تنبك أيضا وهو حقا تبغ حقيقي وليس من هذا التبغ الذي يستعمله الشباب مع التفاح وما شابه."

نعم كان جانتي واحدا من الرجال القدماء الذين ما زالوا يستعملون تبغ تنبك.

"شكرا يا جمال، أنا أيضا لم أعتد على الأرجيلة التي يستعملها الشباب. لكن أرجوك أن تعفيني اليوم منها، فالجو حقًّا حار جدا."

انزعج من عدم قيامه بالضيافة كما ينبغي.

"لكنك ستشرب قهوة..."

أبديت ابتسامة ودودة تُظهر شكري له.

"سأشرب بكل تأكيد، إن لم أشربها الآن فمتى سأشرب قهوة مذهلة كهذه؟ لكن بالله عليك أريد أوّلًا ماء باردا..."

أشار بيده إلى النادل الذي كان في الداخل. لا أدري كيف حصل لكن النادل فهم فورا أن المطلوب قهوة سادة وماء باردًا. كان صاتيلميش جالسا ويداه على ركبتيه، وبدا في جلسته أنه أكثر الناس براءة على وجه الأرض.

دخلت في الموضوع قائلا: "ربما سمعتم يا صاتيلميش أن قانصو، قانصو صارماشيق قد مات..."

ارتفع حاجباه المتصلان نحو جبينه الواسع، وانخفض فكه.

"ماذا؟ قانصو؟ هل مات رفيقنا الجراح؟"

"لقد قُتل،" قلتها وأنا أنظر من بين رموشه المتناثرة إلى عينيه السوداوين. "وجدنا جسده البارحة، في مدينة للألعاب."

صُعق وجهه الأحمر.

"م... من؟ من قتله؟"

"نحن نحاول معرفته يا صاتيلميش. كيف كانت العلاقة بينكما مؤخرا؟"

بدأ بالدفاع فورا.

"كانت جيدة، جيدة جدا. كنت أحب السيد قانصو كثيرا، هو أيضا كان يحبني. حتى أنه كان سيقوم بعملية نقل كلية لابن أخي أوغوزجان. لم نجد أحدا يتبرع لنا بكلية، لكنه هو من استطاع أن يجد واحدة لنا. كان سيقوم بعملية النقل بعد ثلاثة أيام." سكت، ووضع يده اليمنى على فمه كما لو أنه الآن أدرك الحادثة. "يا للحسرة، لقد مات قانصو..." عيناه السوداوان تتحرّكان بقلق. "إذن، من سيقوم بعملية نقل الكلى لأوغوزجان؟!"

تذكرت أن هذا هو الشخص الذي كتب خلف بطاقة الأعمال عن موضوع العملية، كان من المفيد أن نثيره لكن ليس الآن.

"كنت تقرضه مالا بفائدة. وهو مدين لك."

تجهم وجهه القبيح.

"أي مال؟ وأي فائدة؟ أنا تركت هذه الأعمال منذ زمن طويل."

ضحك جانتي بهدوء.

"صاتيلميش! لا تنكر ذلك عبثا. ليس لنوزات علاقة بعملك، وإنما

له علاقة بالجنايات فقط. تحدث بالحقيقة وهذا كاف. وهذا هو الأفضل لك. هيا، هيا تحدث."

بدا أنه يعتذر.

"الحياة صعبة، ونحن نقتات بهذا الشكل يا سيدي."

"أنا لست معنيا بعملك،" قلتها كي أشجعه على الكلام. "لست معنيا لا بالأعمال المالية ولا بأعمال الدعارة. وكما قال جمال تحدث بالحقيقة وهذا كاف بالنسبة إلينا. فإن لم تكن لك علاقة بمقتل قانصو فإنني لن أقترب منك... لكن إن كانت هناك علاقة..."

تحرك عن الكرسي وكأنه يقفز.

"لا، لا، أقسم بالله وبكتابه أنني لم أقترب منه. ولمَ أقتله؟ إنه الشخص الذي كان سيقوم بعملية الابن الوحيد لأخي... هل يعقل أن أقتله؟"

قاطع كلامه جانتي الذي بدأ يتأفف منزعجا.

"لا تطل يا صاتيلميش، هيا ادخل في الموضوع مباشرة... هل كان لك دين عليه؟"

حزن المرابي، لكنه لم يتردد في جواب السؤال أبدا.

"كان هناك دين، لكنه دفعه. منذ ثلاث سنوات وهو على هذه الشاكلة، يقترض مني مالا ثم يعيده لاحقا بأكمله دون نقصان."

سألت متعجبا. "دون نقصان؟! هل أنت متأكد أنه غير مدين لك الآن أبدا؟"

حرك كتفيه بقلق.

"بقي مقدار قليل هذه المرة. حوالي خمسين ألف ليرة... كان سيقوم بعملية نقل الكلى بدلا من هذا المال. قلت لكم قبل قليل عملية نقل كلى

لابن أخي أوغزخان..."

وحينما ذكر موضوع الكلى مرة أخرى تذكرت فخار؛ ذلك الطفل السوري الذي مات غرقا. فكليتَيه أيضا نُقلتا... بدأت الأمور تختلط في ذهني، فعدت للتركيز للبحث عن السبب المحتمل للجريمة.

"بحسب ما أعرفه أن قانصو اقترض منك مالا كثيرا..."

"كما قلت لكم أخذ، لكنه دفعها كلها... بقي فقط الخمسون ألف هذه..."

تكراره مثل الببغاء جعلني أشعر بالاستياء.

"فهمت هذا. لكن ما هو مجموع ديونه منك؟ منذ ثلاث سنوات..."

ضيق عينيه، وحك جبينه.

"والله ربما أخذ أربعة ملايين أو خمسة،" لم يكن متأكدا، فذكر من عقله عددا جديدا. "وربما ستة أو سبعة..."

"مال كثير! ماذا كان يفعل بهذه الأموال؟"

اتجهت أنظاره إلى جانتي من جديد، لكنه حينما أدرك عدم وجود مساعدة من القبضاي القديم قال: "وماذا سيفعل بها؟ كان يلعب بها لعبة التحدي." كان يتحدث بتشاؤم وكأنه لم يكن يوافقه عليها. "إنها نوع من القمار. إنها لعبة الأغنياء. مال كثير يدور فوق الطاولة. يلعبون متحدين بعضهم حول قضايا لم تحصل بعد، مفترضين أن هذا ليس قمارا. مثلا، من سيفوز في انتخابات تلك الدولة الفلانية؟ هل سيعود رواد الفضاء سالمين إلى أماكنهم؟ من سيكون المدرب الوطني للمنتخب؟ يلعبون هذا وكل ما يمكن أن يخطر إلى أذهانكم."

تحدث جانتي بغضب.

"أهؤلاء حمقى؟"

"ليسوا حمقى وإنما مقامرون." قالها صاتيلمش موضحا. "القمار ممنوع كما تعلمون، لذلك أوجدوا هؤلاء أشياء مثل هذه. الوضع هنا مزر بالنسبة إليهم، لكنهم حينما يخرجون إلى البلاد الأخرى يتنفسون حريتهم على الطاولات الخضراء. رفيقنا الجراح كان يربح أموالا طائلة. هل تعرفون رجل الأعمال ذلك؟ ذلك الرجل الذي يظهر في الإعلانات. قانصو اشترك مع هؤلاء من خلاله. فهم لا يأخذون أي أحد إلى جانبهم. فالمشترك لا بد أن يكون من جماعتهم، ولا بد أن يكون أمينا وماله كثير. طبيبنا الجراح قام بعملية نقل كلى لابنة ذلك الرجل. فقام هذا الرجل بإدخال قانصو إلى هذا النادي. بالنسبة إليّ أرى أن ما فعله هو أمر سيّئ، لكن قانصو لم يشكُ من هذا بتاتا." لمع في عينيه ضوء ماكر. "والحقيقة كنت أنا أيضا سعيدا بذلك، فقد كسبتُ مالًا كثيرًا بفضلهم..." وحينما أدرك أنه تجاوز حدوده استجمع نفسه من جديد. "أرجو أن لا يكون مقتله بسبب لعبة التحدي هذه." صمت. "لا، فليس من بين هؤلاء الأغنياء من يقتل. لِمَ يخاطرون بأنفسهم؟ عِلمًا أن قانصو رجل في غاية اللطافة. أعرفه منذ سنوات، لم أره متخاصما مع أحد أبدا..."

"ولا مع أحد؟" سألته رغبة في الوقوف جيدا على الموضوع. "ألم يكن يتكلم عن أي أحد بسوء؟ ألم يشك يوما من أحد ما؟"

"لم يكن يتكلم عن أحد بسوء. وأنا لم أكن أعرف الناس الذين يعرفهم. حتى أنني لم أذهب مرة واحدة إلى المستشفى الذي كان يعمل فيه. كنا نلتقي خارج المستشفى من أجل عملية أوغوزجان. فقد قام بفحص ابن أخي في مكان آخر وليس في المستشفى."

كان هذا أمرا عجيبا.

"ولماذا؟ ألم يكن مفترضا أن يجريها في مستشفاه الخاص؟"

"لا، قال لي لنجر العملية في كوسوفو. فالمستشفيات هناك أفضل... لكن هذا لم يحدث."

مسألة وجود مستشفى أفضل في كوسوفو كانت غريبة لكن من المحتمل ذلك، فلم يكن لدي أي علم بموضوع نقل الأعضاء. لذلك رغبت في التركيز على علاقات الطبيب الجراح بدلا من الثرثرة في موضوع لا أفهم فيه.

"هل كانت له حبيبة؟"

بدت على وجهه الواسع تلك النظرة الغامزة التي اعتدت رؤيتها عند الرجال.

"حبيبة؟ قولوا حبيبات وصديقات يا سيدي، كانت حوله العديد من الفتيات. كان غاويا بشكل عجيب، حوله نساء متزوجات، ونساء على وشك الزواج، وصبايا..."

سألت أول سؤال خطر إلى ذهني.

"تقول نساء متزوجات، هل يمكن أن يكون القاتل زوج واحد من تلك النساء؟ هل تحدث لك عن قضية مثل هذه؟"

توقفت عيناه السوداوان في وجهي لحظة.

"لا، لم يتحدث. فالنساء اللواتي يرافقنه من ذوات الطبقة العليا. وأرى أن أزواجهن على علم بعهرهن. لا يا سيدي، ليس من بين أولئك الرجال الديّوثين مَن له الشجاعة الكافية لقتل أحد في سبيل الشرف."

"أنا أرى أن تحت هذا الأمر مالا،" قالها جانتي مشاركا في الحوار من جديد. "ركزنا في حديثنا على دين المقتول لكن إن كان الأمر عكس ذلك؟" حينما رآنا ننصت إليه باهتمام هزّ الخرطوم في يده اليمنى بشكل خفيف. "ربما ربح في إحدى الليالي مالا كثيرا، لنفترض أنه يشكّل ثروة

كُبرى." ضيّق عينيه. "فربما قتلوا صديقك الجراح حتى لا يريح هذه الثروة."

شعر صاحب الوجه الأحمر لحظة واحدة بالاقتناع بهذا الرأي لكنه سرعان ما أبعده من رأسه.

"مستحيل أخي جمال، فالأشخاص الذين يلعبون معه لعبة التحدي لا يمكن أن يرتكبوا جريمة في سبيل المال. قد يكون المال الذي يخسرونه بالنسبة إلينا ثروة كبرى لكنه بالنسبة إليهم مال زائد."

"وإذا كانوا في ضائقة مالية وعلى وشك الإفلاس؟" قالها جانتي مصرًّا على رأيه. "فالإنسان يفعل كل شيء حينما ينحصر في الزاوية."

أرجع رأسه للوراء.

"لا، هؤلاء الرجال أغنياء جدا. وهم أغنياء بحق وليس مجرد كلام. فهم ليسوا مستعدين أن يرتكبوا جريمة من أجل مال."

كان هناك موضوع آخر يدور في ذهني.

"أنت قلت إن قانصو سدد كل ديونه لك، حسنا، من أين أحضر لك ملايين الليرات؟"

فتح يديه جانبا.

"وما أدراني يا سيدي، فربما اكتسبها في لعبة التحدي. المهم بالنسب إلي أنه دفع ديونه. وكما يقال: كُل العنبَ ولا تسأل عن حديقته..."

"ألم تتساءل يوما عن مصدر ماله؟ نعم أعطاك كل مستحقاتك، لكن ألم تخف أن تكون أمواله هذه نتيجة أعمال خارجة عن القانون؟"

ابتسم بخبث.

"لدي الآن حكاية يا سيدي وهي كالتالي. سأل أحدهم صديقه: 'يا رفْقي، هل والدتك عاهرة؟' لم ينزعج رفْقي من السؤال أبدًا، بل سأله

متعجبا. 'ومن أين جئت بهذا الكلام يا سلامي؟!' فأجاب سلامي. ' أمي رأت والدتك في بيت الدعارة.' فلم ينزعج رفقي هذه المرة أيضا لكنه أجاب هكذا. 'يا ابني، حسنا أمي عاهرة، لكن ماذا نقول عن أمك؟! ماذا تفعل امرأة شريفة في بيت الدعارة؟' ونحن أيضا على الشاكلة نفسها يا سيدي، لا نكسب المال بطرق شريفة حتى نسأل الطبيب الجراح عن مصدر أمواله..." هز كتفه. "والله لا أعرف من أين عثر على تلك الأموال. ربما اكتسبها من لعبة التحدي..."

بدأ الحوار يتعقد، فسألت بوضوح.

"في رأيك من قتل قانصو؟ لا بد أن له خصومًا، أو أشخاصًا تنازع معهم. فهو لم يكن من أولياء الله يا رجل!"

"حاشا أن يكون ذلك، بالطبع لم يكن كذلك..." بدا أن وجهه القبيح أصبح مضاء. "انتظر، انتظر لقد تذكرت... هناك واقعة حدثت قبل بضعة أسابيع... جاء قانصو إلى مركزنا الخاص بالتدليك. كان أحيانا يأتي إليه. وحينما دخل قرع الباب. فتحنا فدخلت منه امرأة سوداء. اقتحمت المرأة المكان قبل أن تعطينا فرصة لإيقافها. فتوجّهت فورا نحو الطبيب الجراح قائلة له: 'أين ابني؟ ماذا فعلت بابني؟ ألم يكفك أخذ كلية ولدي؟ أنت قاتل، قاتل طماع' وبقيت تمطره بوابل من الشتائم إلى أن أخرجناها من المكان... صار وجه الدكتور حينها أبيض مثل الجير. سألته بالطبع. 'ما الأمر يا دكتور، من هذه المرأة؟' أجاب حينها قائلا: 'متسولة. متسولة مجنونة. طلبت مني مالا في الطريق، لم أعطها، فوضعتني في رأسها وتعقبتني إلى هنا.' صدقته بالطبع. فلمَ يكذب دكتور عظيم مثله؟! والآن حينما سألتم تذكرت هذه الواقعة فأحببت نقلها لكم."

يبدو أنني توصّلت إلى مفتاح مهم.

"هل تحدثت المرأة معه بشأن الاغتصاب؟ أقصد بشأن تعرض ولدها للاغتصاب..."

فتح المرابي عينيه بذهول.

"وما علاقة هذا بالأمر يا سيدي؟ أي اغتصاب؟ لا، لم تتحدث عن شيء مثل هذا." تثاقلت نظراته. "لا، لم يكن قانصو إنسانا مثل ذلك، لقد أنقذ حياة أطفال كثيرين... لا، لا يوجد شيء من هذا القبيل. من الذي يقول ذلك؟ إنهم يفترون على الرجل... كانت النساء تدور حوله. فهل يعقل أن يكون منحرفا؟"

بقيت مصرًا على الموضوع نفسه رغم اعتراض صاتيلمش.

"ألم يكن ممكنا إخفاء ذلك عنك؟ هل كنت دوما بجانبه؟"

"بالطبع لم أكن بجانبه دوما لكنني أعرفه من نظراته. لا تنظروا إلي وأنا على هذه الشاكلة وأخي جمال يعرف ذلك بالطبع، فنحن خرّيجو جامعات. دخلنا السجون أيضا، ورقدنا في المستشفيات... أعتذر منكم، واختلطنا بأبناء الحرام، والزناة والمرضى النفسيين، وبمجرد النظر إلى الشخص نعرف أصله وفصله. لا يا سيدي، لا يمكن أن يكون طبيبنا منحرفا. إن قلتم عنه إنه مقامر أقبل ذلك، إن قلتم عنه إنه رجل بلا إرادة أقبل ذلك أيضا، لكن لا يمكن لأحد أن يقنعني أن قانصو رجل يغتصب الأطفال. فأنا أرسلت معه ابن أخي إلى خارج الوطن...

إلى كوسوفو... كان يعامله هناك كما لو أنه ابنه الحقيقي..."

حان الآن الحديث في موضوع نقل الأعضاء.

"هل تقصد نقل الكلى؟ هل تقصد عملية نقل الكلى لابن أخيك؟"

أجاب بعفوية.

"نعم سيدي، من أجل العملية. لكنها لم تُجرَ. فقد ظهرت بعض

العوائق في اللحظات الأخيرة، وعادوا فورا بعد أسبوع."

"لماذا كانت العملية في كوسوفو، لماذا لم تكن في تركيا؟"

قطّب وجهه.

"القوانين غير مناسبة في تركيا. تنتظر الكلية لشهور، وزارة الصحة تعرقل... كان قانصو يعرف هذه الأمور جيدا. كان يقول لنا: 'لا تقلقوا، أنا سأحل الأمر.'" أخذ نفسا عميقا. "لا ندري كيف سنقوم بهذا العمل بعد الآن ما دام أن قانصو قد فارق الحياة!"

43

"وجدنا فاعلها وبقي مسبّبوها."

صادفت أكرم أمام مكتبي. كان متوترا جدا كعادته. يداه ورجلاه تتحركان مثل صغير طائر النورس الذي ما زال يتعلم الطيران. نشيط، مخلص، ودقيق، وهو الشرطي الثاني الذي أثق به بعد علي، لكن ليته يترك هذا التوتر الذي لا داعي له...

"ماذا هناك يا أكرم؟ ما الذي جرى يا ابني؟"

"كنت أنتظرك يا سيدي،" قالها وهو يلتقط أنفاسه. أشار بعينيه القلقتين إلى مكان في أسفل طابق المبنى. "يريد المشتبه به التحدث معكم."

لم أستطع فهم ما يقوله.

"سيبسي إسماعيل، رئيس المافيا..."

ما الذي سيتكلم عنه يا ترى؟ ذكرت زينب أن الحمض النووي الخاص بعردة يتفق مع قطع الجلد التي عثر عليها بين أظافر مدير السكن حجابي. وحينما رأى أكرم عينيّ المتساءلتَين بدأ بالتوضيح من جديد.

"يبدو أنه سيعترف بذنبه يا سيدي."

لم أكن أعتقد أنه سيعترف بجريمته، وسينسل من جريمته انسلال الشعرة من العجين. وبالطبع لم نكن نملك أدلة تمكننا من اعتقاله. وكان سيبسي يعرف هذا جيدا، لذلك استغربت أن يطلب التحدث معي.

"حسنا، أحضره لنرى ما الذي سيقوله."

ذهب أكرم وفرحة عارمة في نفسه كأن رئيس المافيا هذا سيُفشي بأعظم سر في الكون. دخلت من الباب، وقطعت بضع خطوات نحو الطاولة، أحسست بدوار. جلست على الكرسي الذي تمزّق جلده، ووضعت ساعدي على الطاولة، أحسست بمرور ألم في ركبتي. تعبت، أغلقت عيني وبقيت هكذا. ثم بعدها أحسست بتلك الرطوبة العالية، فقد كان ظهري يتفصّد عرقًا. في تلك اللحظة بدا أمام عيني في ذلك الظلام القاتم صورة طفلة. لا، لم تكن أيسون ولا عزز. طفلة لم أعرفها قط. لا، لم تكن طفلة، وإنما كان طفلا؛ عيناه معقودتان بقطعة قماش حمراء، يسير متحسسا بيديه الغرفة. كان حيًّا، وقريبا جدا مني إلى درجة أحسست عندها بأنفاسه على وجهي. تحركت شفاهي من تلقاء نفسها: "القط الأعمى!" فتحت عيني فورا وانا في حالة هرع، وبالطبع لم يكن هناك أحد غيري في الغرفة. وأخيرا بدأت أرى الكوابيس في وضح النهار. في تلك اللحظة رن هاتفي. كان المتصل أفكانيا، فتحت.

"مساء الخير يا روحي!"

"مساء الخير عزيزي نوزات، كيف حالك؟"

شعرت بالحياة حينما سمعت صوتها.

"بخير عزيزتي أفكانيا، بخير، أنت كيف حالك؟"

"وأنا أيضا بخير" قالتها محاولة إضفاء نبرة مرحة على صوتها، لكنها لم تكن بخير. أدركت أنها لم تكن بخير منذ أن قالت مساء الخير، لكنني لم أشأ التدخل فيها. "دعوت مدني،" قالتها مواصلة كلامها. "سأتحدث معه هذا المساء بشأن عزز." تلعثمت. "ما رأيك؟ هل أنا متسرعة في قراري؟ اعتقدت أن هذا الأمر سيكون جيدا وخاصة بعد موت فخار، فبذلك سنكون قد أنقذنا حياة طفل على الأقل. وأنا أفكر في الحديث

مع مدني بهذه الشاكلة. أليس كذلك؟ نحن سنكون بذلك قد أنقذنا حياة عزز. وإن أرادوا فأنا سأكون مستعدة لتقديم المساعدات المادية لهم... سواء له أو لزوجته... لكن كن أنت بجانبي من فضلك... ليس عندك عمل هذا المساء، أليس كذلك؟ هيّا قم وتعال. فوجودك على الطاولة وأنا أتحدث مصدر قوة لي."

كنت منهارا، وذهني ما زال مشغولا بالقط الأعمى، وكنت بعد قليل سأتحدث مع هذا الأحمق الذي يظن نفسه رئيس مافيا، لكن لم يكن في إمكاني أن أترك أفكانيا وحيدة بهذا الشكل فجأة.

"حسنا، سآتي، لدي عمل صغير، سأنهيه وأكون بجانبك."

نبهتني قائلة وصوتها محمّل بالحلاوة: "لا تتأخر، سأعد لك ساجاناكي. أنت تحبه كثيرا. إحسان أوستا جلب بلح البحر من صاري ير."

بدا أن قلقها تبدّد قليلا، فرحت، وأنا في الأصل أردت التخلص من هذا المزاج الفظيع.

"لن أتأخر، لا تقلقي، أنت ستعدين الساجاناكي فكيف لي أن أتأخر؟!"

وحينما أغلقت الهاتف فُتح الباب. دخل إلى غرفتي أولا سيبسي إسماعيل ودخل من خلفه مباشرة أكرم. ابتسم إسماعيل، لكن كان هناك لمعان كاذب يظلّل وجهه الذي كان يحاول فيه إخفاء موجة الخجل. أشرت إلى المقعد الموجود أمام طاولتي متظاهرا عدم إدراكي وضعه.

"تعال يا إسماعيل تعال، اجلس هنا أمامي."

قبل أن يجلس في المكان الذي أشرت إليه وضع يده اليمنى على صدره.

"شكرا سيدي، شكرا."

جلس على المقعد حسب الأصول، علامات الذل على وجهه الأبلق بدت أكثر وضوحًا من علامات الاحترام. عيناه تبحثان عن مكان للاختباء.

"هيا تحدث يا إسماعيل، ما المشكلة؟"

اتجهت أنظاره القلقة إلى أكرم. لم يكن يرغب في التحدث أمام شخص آخر. كان الأصل عدم تلبية رغبته، لكن صوتا في الأعماق طلب مني تلبيتها. فانقدت لذلك الصوت.

"شكرا جزيلا يا ابني،" قلتها لأكرم الذي كان ينتظر ما سيقوله سيبسي بفضول. "سأناديك حينما ينتهي عملنا."

كانت خيبة الأمل واضحة في وجهه، لكنّه انقاد لتعليماتي بالطبع.

"حاضر سيدي."

وحينما خرج أكرم اتجهتُ بأنظاري إلى وجه إسماعيل الذي كان يتصبّب عرقا. بدأت في الحديث فورا.

"نعم إسماعيل، اشرح لنا، ما الذي تريده؟"

وضع ساعده الأيمن على الطاولة وكأنه يرغب في التقرّب مني.

"الآن يا سيدي، لا تسيئوا فهمي، جئت لأطلب منكم شيئا..." مسح قذاله المتعرّق بضجر. "وقلت طلبا مع أنه في الأساس سيكون أمرا مفيدا لكم."

بقيت أتفحّص الولد الكبير أمامي بنظرات ساخرة دون أن أنبس بكلمة.

"يعني أودّ أن أقول لو أن رجالي، وأقصد هنا عرده وسركان اعترفا بذنبهما، دون أن تواجه أي صعوبة معهما، وأنتم أيضا لو أنكم لا تفشون بسرّي مع ذلك الرجل المنحرف للجرائد وغيرها..."

اتّضح الأمر، سيبسي لم يكن يرغب في أن يعرف أحد بتعرضه للاغتصاب وهو في صغره. لأنه لو سمع أحد بهذا فإن ذلك يعني حلول نهايته على وجه الأرض. وسيسخر منه الناس بمناداتهم له: إسماعيل

الحلو، كما سخر منه علي بالطبع. حقا ستصبح قيمته كقيمة الحذاء. سألته وأنا أستند للخلف بهدوء.

"وهل سيعترفان بمن طلب منهم القتل؟ هل سيذكران الاسم الذي طلب منهم تمزيق حجابي؟"

هبّت رياح باردة كالثلج في مكتبي الشبيه بنار جهنم. بدت عيناه حادّتين كالسكين لكن هذا لم يطل.

"يا سيدي، كلاهما سيعترف بالجريمة دون التغاضي عن أي جزئية، سيتحدثان بكل ما فعلاه بالتفصيل الممل. ألا يكفيكم هذا؟"

كان صوته عاليا قليلا.

قاطعته قائلا: "لا يكفي، فالمذنب الرئيسي أنت، وسركان وعرده ضحيتان أيضا مثل حجابي الذي قتلاه."

أرجع رأسه الكبير للوراء وهو غاضب.

"وهل حجابي ضحية؟ ذلك المنحرف وعديم الشرف كان هاتكا للعرض. هل تعرفون عدد الأطفال الذين دمر حياتهم؟ أستغفر الله، أستغفر الله... قولوا ما شئتم يا سيدي، لكن نحن قدمنا للإنسانية خيرا بقتلنا ذاك الحقير المعتدي... الله أعلم بعدد الأشخاص الذين أنقذنا حياتهم وعرضهم وشرفهم. انظروا إلى عاكف الذي كان أطهر الناس وأنقاهم، فقد أصبح منحرفا بسبب ذلك الوغد الحقير، ثم بعدها مات وذهب. يجب أن تمنحوني ميدالية لأني قتلت شخصا مثل حجابي، لكن أنتم الآن تحاولون إلقائي في السجن..."

خطر إلى ذهني القط الأعمى. فالقط الأعمى كان يتصرف بطريقة أكثر ذكاء من طريقة رئيس المافيا الغوغائي. يصطاد المتحرشين بالأطفال بطريقة أكثر تعقيدا وبمهارة عالية... علاوة على ذلك، بطريقة تثير

الإعجاب في النفوس. يمكن تقييم هذا العمل الوحشي على أساس أنه خدمة للإنسانية من هذه الناحية، لكنه من ناحية أخرى لم يكن ينهي المشكلة من جذورها. لا بد أن سيبسي تشجع حينما رآني صامتا، فأضاف قائلا: "أليس كذلك يا سيدي؟ فعلنا نوعا من الخدمة العامة. نحن فعلنا ما لم تفعلوه أنتم، عاقبنا حقيرا واحدا من الحقراء القذرين على وجه الأرض."

ربما كان محقا فيما يقول لكن هذا لم يكن موضوعنا.

"هناك جريمة ارتكبت يا سيبسي،" قلتها مقاطعا حديثه. "ووظيفتي العثور على فاعلها ومسبّبها. وجدنا فاعلها وبقي مسببوها." هززت رأسي وأنا أحدق في وجهه دون شيء غيره. "في الأصل عرفنا مسبّب هذه الجريمة لكننا لا نستطيع إثبات ذلك لعدم اعتراف الفاعلين. نعم أستطيع إخراجك للمدعي العام لكنك ستخرج حُرًّا طليقا. يعني ستنسل من فعلتك كعادتك دوما بإلقائها على غيرك. لكن الدفتر الذي بين يدي علي سنستعمله كدليل في المحكمة. ذلك الدفتر الذي دوّن فيه مدير السكن ذكرياته. وحسب ما قال علي، إن ذلك المدير المنحرف قد شرح في دفتره كل ما فعله بالأطفال الذين اعتدى عليهم مع ذكر أسماءهم." أخذت نفسا من الأعماق. "نعم إسماعيل، للأسف الشديد كتب أيضا كل ما فعله بك بالتفصيل."

احمر وجهه المتعرق، وتهرّب بنظراته.

"كل شيء في الدفتر،" قلتها مواصلا كلامي. "وهذا الدفتر سيكون واحدا من الأدلة في هذه القضية. يعني لا أستطيع إخفاء هذه الحقيقة حتى لو أردت ذلك. فهذا خارج عن القانون، وتضليل للأدلة. لا، لا أستطيع فعلها..."

رفع رأسه، كان في وضع منهار جدا إلى درجة أوشكت فيها أن أشفق على هذا القاتل الدموي الذي قتل العديد من الناس الذين لا نعرف عددهم، لكني تحدثت وأنا أحاول القضاء على الشفقة التي استيقظت في داخلي.

"لا نجاة من هذا العمل يا إسماعيل. يجب أن تتواجه مع ماضيك."

ابتلع ريقه.

"أنا لا أخاف من أي شيء يا سيدي..." لم يستطع النظر إلى وجهي، أحنى رأسه للأمام. "لا أخاف من أي شيء، لا من الموت، ولا من المرض، ولا من الحبس... لكن العمل هذا قذر جدا. إنه دنس قبيح أسود لا أستطيع مواجهته." انهمرت من بين رموشه المتناثرة بضعة دمعات فوق وجهه الملتحي. "علاوة على هذا لا ذنب لي. لست منحرفا، كنت طفلا صغيرا، بلا أم، ولا أب، تركتنا الدولة مع هذا الحقير. حتى وإن لم أثق فيه فماذا كان بإمكاني أن أفعل؟! كنا صغارا نجهل ما يدور حولنا. عديم الشرف ذلك خدعنا جميعا..." مسح بظهر يده التي تشبه مخلب الدب دموعه المتدفقة على خديه. "لقد فعل بنا أمرا مشينا، فحتى لو مضت عليه سنوات كثيرة فإنك لن تستطيع أن تتخلص من هذه القذارة."

لم أحب سيسي إسماعيل من قبل قط، لم أعجب أبدا بمثله من الناس، لكن شعورا شبيها بالشفقة استيقظ في داخلي من جديد. قمعت هذا الشعور من جديد وفعلت بصفتي شرطيًّا ما يجب فعله.

"عندي لك عرض يا إسماعيل،" قلتها بصوت لا لون فيه ولا شعور. "ربما أستطيع أن أعقد اتفاقًا معك."

لمعت عيناه المبللتان بأمل.

"وكيف هذا الاتفاق؟"

أجبت بكل هدوء.

"إن اعترفت أنك المسبب لهذه الجريمة فسأتكلم لأجلك مع المدعي العام. تدخل السجن وتأخذ عقوبتك لكنك ستحفظ سمعتك."

بدا مطمئنا، لكنه كان يرغب بالتأكد.

"دخول السجن ليس هما يا سيدي، لكن لن يعرف أحد بما حل بي، أليس كذلك؟"

"إن قبل المدعي العام فإننا سنقوم بإخفاء القسم المتعلق بك في الدفتر. وبذلك لن ينعكس أي شيء عليك."

رمشت عيناه بقلق.

"وهل سيقبل المدعي العام؟"

فتحت ذراعي جانبا.

"لا أعرف، لكنني أعرف المدعي العام. إنسان متفهم، وأتمنى أن يستمع إلي. ومع ذلك فأنا لا أستطيع التعهد بأي شيء. لكن اعلم جيدا أنني سأبذل كل ما في وسعي في سبيل إقناع المدعي العام شرطَ أن يكون هذا الأمر ليس مخالفا للقانون."

"اتفقنا،" قالها وهو ينشق أنفه. "اتفقنا، أنا أثق بكم يا سيدي."

شبكت أصابع يدي على الطاولة.

"لكن يجب أن تعترف أولا أنك طلبت من عرده وسركان قتل حجابي إنجه."

"سأعترف،" قالها بصوت واثق من نفسه. "سأعترف فورا إن أردتم يا سيدي. سأعترف في أي مكان سواء أمامكم هنا أو أمام المدعي العام."

لم يتردد أبدا.

"حسنا سأعترف، وسأفعل كل ما تطلبون. لكن لا تفضحوني بين الناس."

44

"إن هذه ليست صيحات فرح وإنما هي صرخات ألم."

"غروب الشمس يشبه الدماء / يشبه الجريح المصاب / آه يا أسمري آه / كان يتحسّر بالآهات لأجل وردة / ذلك البلبل يشبهني / آه يا قلبي الغريب..." استقبلتني هذه الأغنية الرائعة، التي كانت تغنيها صفية أيلا، عند الباب الخشبي لحانة تاتاولا. تأخرت عن المجيء؛ لأن تسجيل أقوال سيبسي إسماعيل أخذ وقتا. لم أرغب في ترك هذا الأمر لأكرم، وكان خيرا ما فعلته، فربما لأول مرة يعترف سيبسي إسماعيل في حياته للشرطة بهذا القدر من الصدق. تحدث فقط عن سبب قتله حجابي إنجه، لكنه لم يتحدث عن تعرضه للاغتصاب أبدا. ذكر أنه أمر بقتل مدير السكن انتقاما لصديقه عاكف صويقان ولجميع الأطفال اليتامى الذين تعرضوا للاغتصاب. لم أرغب أنا أيضا بالضغط عليه. وبالطبع، فإن المدعي العام هو من سيتخذ قراره في هذا الموضوع. وبينما كنت أعبر ممر الحانة كان صوت صفية أيلا يعلو في مسامعي أكثر. "هبط الظلام في كل مكان / ليس العدو، وإنما الحبيب من فتح جروح القلب / آه يا قلبي الغريب." وحينما خرجت إلى الحديقة المضاءة بمصابيح الفلوريسنت رأيت جميع الطاولات ممتلئة، كانت الأقداح الأولى قد نفدت منذ وقت طويل، والرؤوس ثملة، واللهو قد أخذ نصابه. بحثت أنظاري بين الناس المنتشية عن أفكانيا. نظرت إلى جميع الطاولات وإلى جميع الكراسي لكنها لم تكن موجودة، كانت محبوبتي

الجميلة مختفية من المكان بأكمله. وبينما كنت سأدخل إلى الحانة ظننا مني أنها في المطبخ ظهر أمامي مسؤول النادلين بعينيه الباسمتين.

"مرحبا سيدي، أهلا وسهلا..."

"أهلا بك إحسان..."

أدرك فورا عمّن أبحث قبل أن أنبس بكلمة واحدة.

"ذهبت السيدة أفكانيا إلى فريكوي... إلى المكان الذي يتواجد فيه السوريون. ذهبت لرؤية عزز. يبدو أن الطفلة سقطت عن السلم."

شعرت بألم في داخلي.

"كيف سقطت؟ لا يوجد هناك أمر خطير، أليس كذلك؟"

اعتبر إحسان ردة فعلي مبالغًا فيها.

"لا، لا يا سيدي، انزلقت رجل الطفلة فوقعت. والسلم ليس عاليا كثيرا في الأصل. لكنكم تعرفون السيدة أفكانيا، فهي حسّاسة جدا في الأمور الصحيّة. فضلا عن حبها الشديد للطفلة أساسًا. فهي بمجرد سماعها الخبر اتصلت بالطبيب سوتير وأسرعت فورا إلى فريكوي."

أراحتني كلمات إحسان.

"هل أنت متأكد أن الفتاة بخير؟ فأفكانيا لا تقلق بهذه السهولة."

كان مسؤول النادلين هادئا إلى درجة يستطيع معها تخليص الإنسان من عذابه.

"والله يا سيدي، أنا أقول ما سمعته. وهو ليس موضوعا مهمًّا حسب ما فهمت."

"أأذهب أنا يا ترى؟"

كان ينظر ولسان حاله يقول: ولم أنت مُصِرٌّ بهذا القدر؟

"طلبت السيدة أفكانيا انتظاركم هنا، لكن الأمر يرجع إليكم. فربما

تأتي إلى هنا وأنتم ذاهبون، فتذهبون إلى هناك ثم تعودون فارغين. مكانكم جاهز، إن أردتم انتظروا السيدة أفكانيا هناك."

كان يشير إلى طاولتنا المعهودة عند الحوض المائي. أزعجني حديث رئيس النادلين بهذا الشكل وكنت على وشك أن أوبخ هذا الرجل المسكين، لكنني تذكرت فورا أنني كنت قبل يومين فقط في هذا المكان نفسه في دوّامة من الأفكار المختلفة. كنت قلقا من تبنّي أفكانيا الطفلة السورية. حتى وإن لم أصرح بما في داخلي إلا أنني شعرت في ذلك اليوم بأحاسيس غريبة. والآن أصبحت قلقا على عزز. يبدو الأمر غريبا، لكنني شعرت بالراحة لإحساسي بهذا الشعور نحو عزز. فقد بدأت أحبّها تمامًا مثل أفكانيا، وجعلتها مكان ابنتي أيسون. والأهم من ذلك عدم انزعاجي من هذا الأمر أبدا. علاوة على هذا فعلت كل ذلك دون إدراك. والآن لم يعد في مقدوري أن أقف هنا مكتوف الأيدي، كان لا بد لي من مساعدة عزز.

سألته قائلا: "متى ذهبت أفكانيا؟"

"ذهبت قبل ساعتين، وهي الآن على وشك المجيء..."

تحيّرتُ لحظة بما سأفعله، فبقيت واقفا هكذا وسط الحانة. نبهني إحسان الذي لاحظ وضعي الغريب بأدب.

"بقيتم واقفين، تعالوا معي إلى هناك إن أردتم، فالطاولة فارغة... وكما قلت لكم ليس هناك أي خطر على الطفلة..."

اتجهت أنظاري إلى المكان الذي أشار إليه إحسان. هناك طاولة لشخصين تحت شجرة الصنار التي نجلس تحتها دوما، وكرسيان، ومناديل بيضاء كالثلج، وأطباق فارغة، ومشربة ماء زجاجية، جميعها تنظر إلي كأنها تقول: هيا يا نوزات، كفاك تدلُّلًا." لكنني لم أكترث بندائها لي.

"فليكن ذلك يا إحسان،" قلتها وأنا أنظر إلى مسؤول النادلين. "وأنا أريد رؤية عزز، فربما أساعدها في أمر ما."

وقبل أن أعطي الرجل أي مجال للاعتراض، توجّهت فورا نحو الباب الذي دخلت منه قبل قليل. سرت بضع خطوات وإذ بي أصادف وجه أفكانيا الحزين. سلّمت عليّ بصوت مجروح.

"عزيزي نوزات... هل جئت؟"

أقلقتني نظرات محبوبتي الباهتة.

"كيف حال عزز؟ أهي بخير؟"

بدت على وجهها ملامح غريبة.

"آه، أنت قلق عليها..."

لم تتحدث بلهجة الاتهام لكنني انزعجت.

"بالطبع أنا قلق عليها، وأنا أيضا أحب تلك الطفلة..."

اتسعت ابتسامتها وبدت منتشرة في أنحاء وجهها وإن لم تختف البرودة من أنظارها.

"فرحت، من الجيد أنّك غيّرت رأيك."

بدأت بالإنكار.

"لم أغيّر رأيي، فأنا في الأساس كنت أفكر دائما بهذا الشكل."

لمست خدي بلطف.

"كنت أعرف أنك ستفكر على هذه الشاكلة عزيزي نوزات. والتردّد الذي وقعت فيه في البداية كان عاديا. لكنك أنت أيضا أدركت أنك تحبّها. وهذا هو الجميل في الأمر. لا تقلق عزز بخير،" أخرجت بأصابعها الجميلة صليبًا. "الشكر لله! ليس فيها أي مكروه. الأطفال كانوا يلعبون عند السلم فتدافعوا، وتدحرجت عزز عن السلم إلى الأرض. فحصها

الدكتور سويتر جيدا. هناك بعض الخدوش والرضوض فقط، وهذا كل ما في الأمر."

إذن، ماذا كانت المشكلة؟ أدركت من نظراتي ما يدور في ذهني فبدلا من أن توضح ذلك أمسكتني من ذراعي وسحبتني نحو الطاولة.

"تعال عزيزي نوزات، تعال لنجلس هناك." لكنها لم تحتمل، فبعد بضع خطوات قالت بصوت حزين: "مدني لم يقبل، لا يريد التخلي عن عزز."

وقفت، ونظرت إليها دون أن أنسلّ من يدها.

"لا يريد التخلي عنها؟ وكيف سيعتني بالطفلة؟"

همست وهي في حالة منهارة.

"لا أعرف، لكنه يقول سأعتني بها. إنه يقول: إن هذه الطفلة هي مسندنا الوحيد في هذه الحياة. ويقول أيضًا: فنحن فقدنا فخار، وإن فقدنا هذه الطفلة فستموت زوجتي." تركت ذراعي. وفتحت ذراعيها جانبا بيأس. "الرجل مُحقّ، فمثلما نحن ارتبطنا بعزز فهم أيضا مرتبطون بها. وما عسانا أن نفعل؟!"

تبدّا أمام عيني وجه مدني حينما كان في المشرحة. كانت على وجهه علامات اليأس، والذل، والحزن...

"إن أردت سأتكلم مع مدني، فربما أقنعه..."

تفاءلت، لكن ذلك لم يطُل، فقد مات الضوء في عينيها.

"لا أعتقد يا نوزات، فهو مُصِرٌّ على قراره، لأوّل مرّة أراه بهذه القسوة."

هذه المرّة مسكتها أنا من ذراعها، وسحبتها بهدوء نحو الطاولة.

"تعالي لنجلس هناك. اسمحي لي بأن أتكلم معهم أنا أيضا."

لم تقل شيئا قبل وصولنا إلى الطاولة. فقد حلّ بيننا صمت عميق.

في تلك اللحظة سمعت أصواتًا. كانت أصوات طيور الخطّاف التي تطير بسرعة فوق رؤوسنا في السماء ذات اللون الرمادي.

أدارت أفكانيا رأسها إلى الأعلى.

"إنها لا تغني يا نوزات،" قالتها فيما عيناها تتابعان طيور الخطّاف الجميلة. "إنها تنوح على أصدقائها الذين ماتوا." أنزلت رأسها وتابعت. "إن هذه ليست صيحات فرح، بل صرخات ألم. فطيور الخطّاف طيور مهاجرة كما تعرف. وهي سريعة جدا. يتعرض كثير منها أثناء الهجرة للعواصف فتموت قبل أن تصل. أما التي تنجو وتصل سماوات المناطق الدافئة فإنّها تتحسّر على أصدقائها الذين ماتوا، وتطلق صرخات غضب وألم كهذه."

سألت مبتسمًا: "حكاية جميلة، أين قرأتها؟"

لم ينقص الحزن من وجهها ذرّة واحدة.

"لم أقرأها، وإنما قصّها مدني. إنهم يشبّهون أنفسهم بطيور الخطّاف. قال لي: 'ونحن أيضا فقدنا أقاربنا أثناء الهجرة، لكننا لا نستطيع أن نكون مثل هذه الطيور للأسف. فنحن لا نستطيع أن ننوح على من فقدناهم كي لا نُزعج الناس.'"

زال التفاؤل من وجهي، ولم أتكلم بشيء بعدها إلى أن وصلنا الطاولة. وقبل أن نجلس على الكرسيين قالت أفكانيا: "هل سيقتنع برأيك؟"

سرحت، فغفلت.

"من؟"

"مدني، هل سيتخلى عن عزز لأجلنا؟"

لم أكن متأكدا، لم أكن متأكدا بتاتا، لكنني لم أرغب في هدم معنويات المرأة التي أحبها.

"لا أعرف، لكن لا ضرر من أن نجرّب. مدني يثق بي، فربما يقتنع."

عاد ضوء ذلك الأمل يشعّ من عينيها الخضراوين. تشجّعت إثر ذلك وغيّرت الموضوع.

"على كل حال، سنحل هذه المسألة، لكن حدّثيني عن عزز."

"عزز بخير، لكن هناك طفل آخر قد مات..." أخذت نفسا. "أحد الأطفال الذين يقيمون في مخيم اللاجئين في فريكوي. طفل مفقود منذ شهر، عثروا على جسده في صاري ير..."

"مثل فخار..."

"لكن هذا الطفل لم يمت غرقا، وإنما كلاب أراضي الغابات أخرجت جثته من التراب... دفنوا الطفل بالخفاء." حينما رأتني أستمع باهتمام واصلت كلامها. "سرقوا أعضاءه في الغالب..."

وبينما كانت أفكانيا تتحدث تذكّرتُ الكلمات التي قالها منير في المشرحة. "يا سيدي الوضع الآن كالتالي: هناك تجارة بأعضاء المهاجرين السوريين. تقوم بها شبكة دولية تخدع هؤلاء الناس، وقد أقاموا لكلّ عضو سوقًا خاصًا به. هذا المشروع كبير جدا." بدأت الأمور تتعقد في ذهني. هل كانت شكوك منير حول مدني في مكانها يا ترى؟! هل يعقل أن يكون هذا الرجل العجوز هو من باع كِليّة فخار؟! إن كان كذلك فهذا يعني أن حياة عزز في خطر.

"ما الذي حدث يا نوزات؟ ما الذي خطر إلى ذهنك؟"

لاحظت تشتت اهتمامي.

"لا، لا شيء. أنا حزين على حال هؤلاء الناس فقط."

صدّقَت كلماتي.

"حقًّا إنها مأساة كبيرة... هؤلاء الناس الضعفاء جدا يا نوزات مثل

قطعان الغزلان التي بقيت بين الذئاب الجائعة..."

هززت رأسي في يأس.

"ليتهم كانوا بين الذئاب. الأمر أسوأ من ذلك بكثير، الأمر كارثي جدا، فهؤلاء الناس الضعفاء وقعوا في أيدي القطعان المتوحشة التي تدّعي الإنسانية." كان ذهني عند الطفل الميت. "هل هم متأكدون من تعرّض أعضائه للسرقة؟ أقصد أعضاء الطفل الذي عثروا على جثّته."

أكدت أفكانيا، التي لم تدرك المغزى من انفعالي، الأمر بصوت لا طعم فيه.

"نعم، هذا ما قاله والد الطفل لمدني. فالأعضاء الداخلية للطفل غير موجودة حسب ما قاله... ما الأمر نوزات؟ لماذا تنظر هكذا؟"

"لا شيء، حزنت فقط..." قلتها متخلصا من الموضوع. "هيا لنجلس، على هذه الطاولة، هل سأبقى طوال الليل هكذا واقفا على قدمي؟!"

احمر وجهها.

"آه، حسنًا، هيا اجلس أنت على الطاولة، وأنا سأذهب إلى المطبخ لأحضر لك بعض الأطعمة..."

وحينما ابتعدت أفكانيا أخرجت هاتفي فورا واتصلت بمنير.

"مساء الخير سيدي،" قالها بعد الرنة الثانية. "تفضلوا أنا أسمعكم."

"مساء الخير منير، سمعت خبرا، هل هو صحيح؟ سمعت أن ولدا من أحد أبناء اللاجئين السوريين قد عثر عليه ميتا."

أجاب منير دون أن يتردّد لحظة واحدة.

"نعم صحيح سيدي."

"هل تعتقد بوجود جناية في الأمر؟"

"يمكن قول ذلك، فالطفل تعرض لعملية جراحية قبل شهر. وربما

فقد حياته أثناء العملية. جميع التفاصيل موجودة في التقرير الطبي. الأعضاء الداخلية للطفل مفقودة..."

تحدثت دون أن أتمالك نفسي.

"السّفلة، قتلة الأطفال، الحقراء..."

"نعم، أناس عديمو الرحمة لكن هناك غرابة في الأمر. كانت عملية الطفل قبل شهر تقريبا، وهذا يعني أن الطفل مفقود منذ ثلاثين يومًا على الأقل لكن عائلته لم تخبر الشرطة طوال هذه المدة عن فقدانه. والأغرب من هذا عدم رغبتهم الآن بتقديم شكوى..."

"حسنا، ماذا يقولون؟ هل تحدثت معهم؟"

"سأذهب بعد قليل إلى هناك..." كان صوته محملا بالشك. " آه صحيح، الرجل الذي جاء إلى المشرحة كان أيضا مقيما مع اللاجئين في فريكوي، أليس كذلك؟"

فهم أخيرا سبب اهتمامي بهذه القضية.

"نعم كذلك، مدني أيضا يقيم في المكان نفسه. هل هناك احتمال لوجود رابط بينهما؟"

لقد سمعت تنفسه بقلق في هذا الطرف من الهاتف.

"حتى وإن كان هناك رابط فإنهم لن يعترفوا يا سيدي، عملهم مخز. فالناس يبيعون أعضاء أطفالهم قطعة وراء قطعة في سبيل البقاء على قيد الحياة..."

كان واثقًا من نفسه إلى درجة شعرت عندها بالانزعاج.

"لا تقل هذا يا منير، لا يمكن لأحد أن يكون قاسيا إلى هذا الحد!"

ضحك بغضب.

"إن أردتم التأكّد فتعالوا إلى فريكوي، وانظروا بعيونكم ما الذي يدور

ويجري."

كانت الساعة وقتها 21:47.

"حسنا، لنلتقي هناك..."

بعد أن أغلقت هاتفي نظرت إلى السماء وحدقت من جديد في طيور الخطّاف التي تصرخ بأسماء رفاقها الذين ماتوا.

45

"أخذنا الموت بعين الاعتبار منذ أمد، لكن ما زال هناك طفلان آخران..."

كانت الساعة 23:42 أوقفتُ سيارتي المخضرمة في المساحة الفارغة أمام ملجأ السوريين في فريكوي. لم تسمح لي أفكانيا بالمغادرة مبكّرًا رغم إصراري الشديد على الذهاب.

"للتوّ جئت، إلى أين أنت ذاهب يا نوزات؟"

لو قلت لها إنّه يجب علي الذهاب لما قبلت، فشرحت لها الوضع دون الدخول في تفاصيله قدر الإمكان. سألَت وهي تفتح عينيها الخضراوَين بشكل واسع.

"كيف ذلك؟ هل يعني أنهم يبيعون أعضاء أطفالهم؟"

"الأمر غير معروف الآن، مجرد توقع فقط،" قلت ذلك محاولا تغيير الموضوع.

وبالطبع لم تتخل محبوبتي الذكية عن التحقق في الأمر.

"لو كان الأمر كذلك لبقيتَ عندي هنا،" وحينما بقيتُ واقفا في مكاني عاجزا عن الرد، أدركَت أن الأمر جدي، وسألت ووجها الجميل مليء بالدهشة. "عزز؟ هل سيفعلون بعزز هذا الأمر المشين؟"

حلّ بي ما كنت أخافه.

"توقفي، توقفي، لا تقلقي الآن. فنحن لا نعرف بعد ما الذي يجري

بالضبط. لهذا السبب أنا ذاهب إلى فريكوي. وحينما أعرف الأمر سأخبرك فورا."

لم يختف القلق من وجهها أبدا. تحدثت وكأنها تتضرع.

"يجب علينا أن نحمي عزز، يجب أن نخلّص تلك الطفلة على الأقل."

تناولت يدها ووضعتها داخل كفي، كانت مثل الثلج البارد رغم هذا الحر الذي لا يطاق.

"لا تقلقي حياتي، لن يضر أحد عزز. سنحميها، وهذا وعد لك."

رضيت حينها بذهابي بفعل هذه الجملة التي خلقت لديها تفاؤلا قليلا. وحينما كنت أحضن جسدها الذي يفوح برائحة عطر اللاوند طلبت مني أن أخبرها بما سيجري.

"من فضلك نوزات، أخبرني بكل ما ستعرفه، وإلا فإني سأموت من القلق."

لم أكن أعتقد أنّي سأتحدث لها بكل ما سأعرفه لأنني كنت متأكدا مثل تأكدي من اسمي أن ما سأسمعه سيجعلها قلقة أكثر. لكنني وعدت، ولا بد لي من الذهاب إلى فريكوي في أقرب وقت ومعرفة كل ما يجري ويدور.

نزلتُ من سيّارتي وانطلقت بخطوات سريعة إلى الاتجاه المقابل للتخلّص من رائحة البول المختلطة برطوبة الجو الخانق. اتّجهت نحو مدخل الملجأ وأظهرت هويتي للموظف الذي كان على وشك النوم على كرسيه أمام كوخ الحراسة. نهض الموظف السمين من مكانه على الفور.

"تفضلوا، تفضلوا سيدي، الضابط منير ينتظركم في الداخل أيضا."

مررت من ممر مظلم ينتهي إلى حديقة صغيرة. كان منير هنا وإلى جانبه شرطيان بزيهما الرسمي وشخص آخر رأسه تماما بلا شعر، اعتقدت أنه

أحد موظفي الملجأ، يشربون الشاي وهم جالسون على الأريكة تحت عريشة مُضاءة بمصابيح حمراء. وحينما رآني منير ترك كوب الشاي على الطاولة ونهض على الفور، وقام معه الأشخاص الآخرون أيضا.

"مرحبا سيدي،"

سلمت عليه بيدي.

"لا تؤاخذني منير، فقد تأخرت."

لمع بريق خجل في عينيه المظلّلتين، ثم انطفأ.

"لا يا سيدي، نحن أيضا جئنا قبل قليل. لم نستطع المجيء مبكرا، فأنتم تعرفون طبيعة الوظائف البيروقراطية..." اتجهت أنظاره إلى المبنى المضاءة أنواره. "لم ينزل جابر وزوجته بعد. وهما والدا الطفل... لكنهما سيأتيان الآن. تفضلوا، اجلسوا هنا." وبينما كنت أجلس بجانبه أشار إلى الرجل الأصلع. "هذا السيد مقصود، المسؤول هنا."

سلمت على مقصود بعينيّ. ابتسم بأدب.

"أهلا وسهلا سيدي..."

منير لم يعط الرجل فرصة للكلام أكثر منذ لك.

"هنا شاي رائع يا سيدي. آخر مرة شربت فيها مثل هذا الشاي المخدَّر كان على يد السيد روحي في مدينة شرناق التي كنت موظفا فيها."

في الحقيقة لم أشرب شايا بلون دم الأرنب وغيرها منذ زمن طويل، فشُرب أكثر من ثلاثة أكواب تجعلني أرِقًا لا أستطيع النوم. ومع ذلك همست في سرور.

"حسنا، لنشرب كوبا واحدا."

وبينما كان مقصود ينحني لإبريق الشاي الذي كان يغلي فوق الأسطوانة الصغيرة جانب الطاولة الخشبية، اتّجهت أنظاري إلى المبنى الذي يقيم

فيه اللاجئون. حالته حزينة هذا المبنى القبيح الذي كانت معظم نوافذه مُطفأة الأضواء.

سألت وأنا أنظر إلى منير. "كيف سنتفاهم مع العائلة؟ هل هناك مترجم؟"

أجاب مقصود بدلًا عنه بصوت رقيق فيما ينهض حاملًا الشاي المخدَّر.

"السيدة أيبر زوجة جابر، تركمانية، كانت مدرّسة في سوريا، وتتحدث لغتنا بطلاقة."

فرح منير بذلك، فقال: "هذا جيد، وإلا فإنه سيكون من الصعب التواصل معهم. نحن نعاني كثيرًا في مركز الشرطة. فمعظم السوريين لا يعرفون اللغة التركية، فنضطر للبحث عن شخص يعرف العربية. وأنتم تعرفون يا سيدي النقيب، الدولة لا ترصُد ميزانية لمثل هذه الأمور. فوالله نحن نتوسل هنا ونطلب من هناك في سبيل الوصول إلى مترجم. والأمر يصبح أكثر تعقيدا حينما تكون المسألة جنائية. وكما هو معلوم، بعض منهم يدّعي جهله باللغة التركية في سبيل إخفاء جرمه..."

ملأ مقصود أكثر من ثلث الكوب بالسائل الأحمر الغامق وسأل قبل أن تمتد يده الثانية إلى الإبريق ليكمل الجزء الفارغ من الكوب بالماء المغلي.

"وهل قتل برجس أيضا؟" بدأ بالتوضيح وعلى وجهه ابتسامة غبية.

"جميعنا نعرف أن الطفل كان مفقودا. فقد انقطعت أخباره لأيام..."

سأله منير. "كيف كان برجس؟ هل كنت تعرفه؟"

تحولت فجأة تلك الابتسامة الغبية إلى رأفة.

"لم أعرفه كثيرا لكني كنت أعرفه. والجميع يعرف برجس. طفل ملائكي. كان مصابا بمتلازمة داون. كان بشوشا ومُطيعًا." اتجهت

أنظاره لحظة إلى المبنى الذي يقيم فيه اللاجئون. "لا أريد حمل وزر أمه وأبيه لكني أرى أن لهما يدا في هذا الموضوع..."

سأل منير متظاهرا بالذهول مع أنه كان يتوقع هذا الأمر.

"كيف ذلك؟ هلّا تحدثت بشكل أوضح..."

كان صوته قاسيا وإن لم يرغب في ذلك، لكن مقصود الذي أفرغ بهدوء ماء الإبريق المغلي في كوب الشاي لم يكترث بأسلوب منير كثيرا. فقد أجاب دون أي عجلة، بعد أن وضع الإبريق الخاص بالماء على الغاز ومن فوقه الإبريق الخاص بالشاي.

"والله تدور هنا أمور عجيبة يا سيدي. لا نستطيع التدخل في ذلك لأن هذا ليس من مهمّاتنا، لكن حياة الناس هنا صعبة جدا. ليتكم ترون ما الذي يدور ويجري هنا. الناس هنا يجتهدون من أجل الوقوف على أقدامهم. بعضهم يتسول، وبعضهم يبيع شرفه، وبعضهم يبيع كِلى أطفاله..."

كان يتحدث بشكل عام، سألت من أجل أن يتحدث بشكل أوضح.

"كيف ذلك؟ أعائلة برجس من باعت كليتيه؟ من أين تعرفون هذا؟"

تلعثم مقصود.

"لم أر ذلك بعيني، ولم أكن حاضرا بينهم، لكنني كنت أرى سيارة BMW تأتي إلى هنا في بعض الأحيان. أخذوا برجس ووالده من هنا وذهبوا. بعد ذلك صار لديهم القليل من المال. كانا يقولان للسوريين الآخرين: 'هناك المزيد، وقريبا سنشتري بيتا ونتخلص من هذا المكان.' بالطبع أنا أقول ما كنت أسمعه فقط..."

في تلك الأثناء تناهت إلينا أصوات أقدام من الظلام. وحينما أدرت رأسي رأيت شخصين يقتربان منا. أصبح وجههما أكثر وضوحا عند

اقترابهما من الضوء. كان القادمان رجلا وامرأة. الرجل طويل القامة، وذو بشرة بيضاء، عينان داكنتان، وبدا أنه في الأربعينيّات من عمره؛ أمّا المرأة فكانت سمراء جميلة، جميلة جدا... حتى أن ذلك الحزن الشديد الذي أثقل كاهلها لم يفسد جمالها. كانت هناك نظرات قلق عميق في كل منهما. فما الذي يفعله هؤلاء هنا في هذا الوقت من الليل؟ نظر الرجل بعينيه الكبيرتين الدّاكنتين نحوي ثم نظر إلى منير ووضع يده اليمنى على صدره.

"السلام عليكم"

رد منير قائلا: "وعليكم السلام،" ثم أشار إلى الكراسي البلاستيكية. "تعالوا، اجلسوا هنا."

كان الرجل خجولا، وكأنه ينتظر الموافقة من أحد، فحينما جلست المرأة جلس بجانبها. سأل منير الرجل مباشرة وهو يحدق فيه.

"جابر... أأنت جابر؟"

"نعم،" قالها وهو يبتسم ابتسامة باهتة. "أنا جابر."

شاركت المرأة في الحوار دون أن يوجّه إليها أحد الكلام.

"أنا أيبر... زوجة جابر..."

طريقة نطقها مختلفة لكنها كانت تتكلم التركية بطلاقة. لاحظت حينها قوة المرأة من خلال صوتها، لم تكن قوة وإنما غضبا.

"حسنا،" قالها منير دون اكتراث، ثم نظر إلى جابر. "هل تعرف اللغة التركية؟"

ابتسم الرجل بخجل.

"لا، لكن أعرف قليلا..."

قالت أيبر: "أنا أعرف. أنتم اسألوا وأنا سأترجم."

لم تكن نبرة صوتها لطيفة أبدا، فقد بدت وكأنها تتحدى. خففت من غضب منير ومن انحراف الحوار عن مسربه.

فقلت مشاركا في الحوار: "أنا من شعبة الجنايات. جئنا هنا من أجل ولدكم، من أجل برجس... أنا حزين جدا، عظّم الله أجركم."

فاضت عيناها الواسعتان السوداوان لكنها تمالكت نفسها. وبدلا من أن تجيبني بشيء ترجمت كلماتي لزوجها. استمع جابر باهتمام، وهز رأسه للأمام، وقال بعض الكلمات باللغة العربية.

"زوجي يشكركم جدا،" قالتها وهي تنظر إلينا. "وما عسانا نفعل؟ قضاء وقدر."

"لكن هذه الحادثة لا تبدو أنها حادثة قضاء وقدر،" قالها منير بنبرة المتهم. "لقد أجري لولدكم عملية جراحية، أعضاؤه الداخلية مسروقة. ونحن نعتقد بوجود جريمة."

لم تذهل المرأة على الإطلاق، لكن الدموع انهمرت من عينيها، عادت إلى زوجها، وترجمت له ما قيل. جابر أيضا لم يندهش، وإنما تهرّب بنظراته فقط، وغطى الخجل وجهه تماما. واصل زميلي كلامه.

"برجس مفقود منذ شهر، لماذا لم تخبروا الشرطة؟"

حركت المرأة رموشها الطويلة بقلق، وقالت: "حتى وإن أخبرنا فما الذي سيحدث؟ هل هناك من أحد يعاملنا كبشر؟ من سيهتم بولدنا المفقود؟"

كان منير على وشك أن يخرج من جحره.

"ما معنى من سيهتم بولدنا المفقود؟! نحن سنهتم بولدكم. أنا لا أعرف سوريا، لكن أعرف أن هنا دولة، وأن فيها قانونًا، وأن فيها شرطة."

"الحديث بهذا الشكل سهل،" قالتها المرأة دون أن تخفي التمرد الذي

في صوتها. "وهل تعرفون ما الذي حل بنا من مصائب؟! هل تعرفون بماذا ضحينا في سبيل البقاء على قيد الحياة؟!"

"لكن لا تنكروا المعروف،" قالها السيد مقصود مشاركا في الحوار أيضا. "انظروا، فها هي الدولة قد فتحت حضنها لكم... تقيمون هنا، وتنامون وتأكلون..."

قدحت شرارة الغضب في عيني المرأة، نظرت إلى مقصود، ووصل الكلام بداخلها إلى حد الحلق، لكنها ابتلعته، كأنها دفنت ما كانت تودّ قوله في أعماق قلبها. أخذت نفسا عميقا.

"أنتم محقون،" قالتها بصوت مستسلم. "شكرا لكم، فهذه الدولة فتحت حضنها لنا. نعم لدينا مكان ننام فيه ونشرب. رضي الله عنكم. نحن ممتنون لكم."

صمتت بيأس وفي يقينها أن لا فائدة من هذا مهما فعلت ومهما قالت.

"كم طفلًا لديكم؟" سألتها بلطف. "هناك إخوة لبرجس، أليس كذلك؟"

وقعت في تردد، هل أجيب أم لا أجيب.

"ثلاثة..." قالتها أخيرا. "لدينا ثلاثة أطفال." بدأت بالبكاء فجأة، ذرفت دموعها مدة من الوقت بصمت. ثم مسحت دموعها بحجابها الأسود. "لا تؤاخذوني،" قالتها وهي تنشق. "أقصد أنه كان لدينا ثلاثة أطفال، الآن بقي اثنان. أحدهما طفل والآخر بنت، الآن أصبح لدينا طفلان."

حل صمت في المكان.

"لا أريد أن أزعجكم، لا تؤاخذوني، لكن لا بد أن نتحدث في هذا للأسف. هل كان برجس الولد الأكبر؟"

"نعم،" قالتها وهي تنشق أنفها. "كان أكبرهم، وأهدأهم، وأبرأهم... كان برجس مريضا، كان الأطباء يقولون إنه لن يعيش طويلا."

"ألهذا السبب بعتم ابنكم لمافيا الأعضاء البشرية؟!"

سقطت كلمات منير كالصاعقة وسط الصمت. لم تحتمل المرأة أكثر من ذلك فصاحت به: "نعم، نعم؟ وأنت ما أدراك بحالنا؟ ماذا تعرف أنت عن العيش مع ثلاثة أطفال في بلد أجنبي؟ تقف أمامي وعلى خصرك سلاح، وفي يدك الحكم. هيا، احكمنا الآن، هيا ألقنا في السجن. فما الفرق بين السجن وبين هذا المكان الذي نعيش فيه؟" ثم نظرت بغضب إلى مقصود. "نعم، شكرا جزيلا لأنكم استقبلتمونا. لكن، ألا ترون الفتيات اللواتي يخرجن إلى الدعارة كل ليلة من هنا؟ ألا ترون الأطفال الذاهبين للتسول كل صباح؟"

قال مقصود: "لطفا..."

أسكت الرجل قائلا: "لا تتدخلوا أنتم."

فقال: "لكن يا سيدي،" فنظرت إليه نظرة أبرد من الثلج، فتوقف عن الكلام. توقف منير أيضا الذي أدرك غضبي.

"يبدو أن أوضاعكم صعبة جدا حسب ما فهمت يا سيدة أيبر."

"صعبة؟ يا سيدي نحن في جهنم، نحن نعيش داخل جهنم..."

"لكن هذا مبالغ فيه،" قالها مقصود متدخلا من جديد.

"ليس مبالغا فيه أبدا، في رأيكم لماذا يخرج الناس إلى البحر بالقوارب المثقوبة؟ لماذا يخاطرون بأنفسهم وأطفالهم؟ هل كانوا سيأخذون الموت بعين الاعتبار لو كانوا سعداء هنا؟ لا تسيئوا فهمي، أنا لا أتهمكم، وليبعد الله المصائب عن الجميع، لكنني أنا أتحدث عن هذا،" توقفت ثم تابعت وهي تشعر بالذنب. "نعم، لقد بعنا برجس. نعم، بعناه بيدنا.

كانوا سيأخذون كليته ويعطونا مالا، مالا كثيرا جدا. كنا سنبني حياة جديدة بذلك المال. لكن هذا لم يحدث، فولدي لم يحتمل ومات أثناء العملية. لم يخبرونا بذلك، وعرفنا هذا بعد حين. نعم، نحن من قتله، لكن خفنا من إخبار الشرطة، فلدينا طفلان آخران. لا أكذب، فنحن أخذنا الموت بعين الاعتبار منذ أمد، لكن ما الذي سيحدث بالطفلين الآخرين؟" فاضت عيناها، لكنها واصلت كلامها عنادا. "نحن أرسلنا برجس للموت... وهل يرغب الإنسان بموت ولده؟! لكن ماذا في وسعنا أن نفعل؟! لا بارك الله فينا، لم يكن لدينا حل آخر..."

بينما كانت السيدة أيبر تتحدث كيف وضعت ولدها تحت السكين اتجهت أنظاري نحو منير. كان في وجهه كره عميق؛ يأس أيبر وصمت جابر المميت لم يؤثّران فيه ولو مثقال ذرة. مهما كان الأمر فليس هناك من سبب يستدعي تدمير حياة الطفل، ليس هناك من سبب يتطلب إرسال الطفل للموت. أردت أن أكون مكان منير لحظة واحدة. أنظر إلى الحياة بالأبيض والأسود. فالمجرمون هم مجرمون، والسيئون هم سيئون. أردت أن تكون لدي القدرة على معاقبة المجرمين وبكل قسوة بصرف النظر عن السبب الذي دعاهم إلى ذلك. أنا متأكد لو أننا جميعا فعلنا ذلك لكنا في حياة مشاكلها أقل. لكنني لم أستطع فعل ذلك؛ فتجاربي، ومعارفي، وضميري جعلتني أعتاد على التفكير بطريقة مختلفة. هنا في هذه المأساة لم أحزن على برجس فحسب، وإنما حزنت على العائلة بأجمعها. ومن جانب آخر كان هناك عمل لا بد من القيام به. فموت طفل ربما كان له علاقة بالملف الذي بين أيدينا. فإن تحقّق الاحتمال الذي ورد إلى ذهني فسيؤدي إلى فتح باب يقودنا إلى الحل في هذا القضية. ذلك الاحتمال هو احتمالية وجود رابط بين الطبيب الجراح قانصو صارماشيق وبين

الطفل السوري برجس الذي مات أثناء العملية. وأصبحت أؤمن أكثر بهذا الاحتمال عندما تحدثت السيدة أيبر. لكن لا بد أولا أن أعرف جواب هذا السؤال.

"أفهمكم جيدا،" هذا ما قلته بصوت محمّل بالشفقة. "أنا أُدرك ضعفكم. ثقوا تماما أننا سنمسك بمن أضروا بولدكم. وسنبذل بكل ما في وسعنا في سبيل تقديم المساعدة لكم. حسنا، هل هنا من أحد غيركم يبيع أعضاء أبنائه؟"

تثاقلت نظراتها بألم عضال لكنها احتفظت بهدوئها. فهي لم ترغب في الوشاية بأحد.

"لا بد أنكم سمعتم، ففي الأمس عُثر على طفل ميت. فخار، فخار ابن أخ مدني... فموت طفلين جعل الأمور مشوشة في أذهاننا. علاوة على هذا، ذكر السيد مدني أن هناك احتمالًا لتعرض طفله للقتل. فاحتمال أن مرتكبي هذه الجريمة هم مافيا الأعضاء البشرية." بدت ملامح الخوف على وجه المرأة الذي بدأ يتجعد قبل أوانه. "هل لديكم علم بهذا الموضوع؟"

بدا أن أيبر خائفة.

"كيف؟ ماذا تقصدون بالضبط؟"

"هل من المعقول أن مدني قد فعل مثلكم؟ هل من المحتمل أن قلّة حيلته جعلته يبيع أعضاء فخار؟ فربما تحدّثت زوجته لكم بشيء."

تردّدت، اعتقدتُ أنها ستتحدث، لكن جابر بدأ بالسعال في تلك اللحظة. نعم، فقد كان يشير إلى زوجته أن لا تتحدث بشيء. فتهرّبت أيبر فورا بنظراتها.

"لا أعرف، فأنا لا أعرف مدني وزوجته كثيرا."

كانت تكذب. وقد غضب منير بدلا مني.

"بالطبع لا تعرفون، لكنكم حينما تقعون في مصيبة تلومون الشرطة." أشار بإصبعه إلى المرأة وإلى جابر. "إذن، هيا جهزوا نفسَيكما، سنذهب إلى المركز الأمني، لا بد لنا من القيام بتحقيق رسمي."

46

"واحد، اثنان، ثلاثة، اختر الظلام!"

"واحد، اثنان، ثلاثة، لعبة القط الأعمى صعبة جدا
واحد، اثنان، ثلاثة، اعبر النور
واحد، اثنان، ثلاثة، اختر الظلام!"

كان الطفل يقف في منتصف الغرفة. شعاع الضوء المنبعث من النوافذ المقابلة تضيء قطعة القماش الحمراء التي كانت معقودة فوق عينيه. فتح ذراعيه جانبا، وبدأ يدور فوق الأرض الخشبية كما لو أنه فقد وعيه. كانت الأرضية الخشبية تحت أقدامه الصغيرة تصدر صريرا متناسقا مع الكلمات المتساقطة من شفتيه.

"واحد، اثنان، ثلاثة، لعبة القط الأعمى صعبة جدا
واحد، اثنان، ثلاثة، اعبر النور
واحد، اثنان، ثلاثة، اختر الظلام!
واحد، اثنان، ثلاثة، يميني ويساري، أمسكتك...
واحد، اثنان، ثلاثة، القط الأعمى انكشف."

توقف حينما أنهى هذه الكلمات، وبدأ بالإنصات داخل الغرفة. فجأة بدأت أسمع دقات قلب، كان هناك شخص آخر يتنفس بسرعة داخل الغرفة. ارتعبت، بحثت بعيني داخل الغرفة. لم يكن في الداخل أحد إلا أنا والطفل. لكن دقات القلب كانت تتزايد بكثرة. بينما كنت أنظر

بقلق إلى ما حولي كان الطفل ثابتا في مكانه ينصت إلى ما حوله بهدوء. لم يكن ينصت وإنما كان يشم أطرافه مثل حيوان مفترس. أدار رأسه فجأة، ونظر إليّ بعينيه من تحت قطعة القماش الحمراء. لم أكن أراه لكنني كنت أشعر بنظره إليّ. أحسست بانفعال عجيب، انفعال حدث قبل سنوات. حينها أدركت أني الشخص الذي يبحث عنه الطفل. تحول انفعالي إلى خوف، لا بد أن أهرب بأسرع وقت من هنا، لا بد أن أخرج من هذه الغرفة. لكنني لم أستطع التحرك من مكاني وكأن قدمي كانتا ملتصقتين بغراء. كنت واقفا في مكاني تماما، ولا بدّ لي من الاختباء في مكان ما. وبعد جهد جهيد استطعت تحريك قدميّ من مكانهما والرجوع خطوة واحدة نحو الوراء. في تلك اللحظة أصدرت الأرضية الخشبية صريرا حيث وطئت. فتح الطفل شفتيه، وأصبحت عيناه حادتين. أزال قطعة القماش عن عينيه وقفز نحوي فجأة.

"أمسكتك، القط الأعمى انكشف..."

استيقظت وأنا أطلق صرخات خوف كأن الذي أمامي لم يكن طفلًا، بل حيوانا مفترسا. شعرت بالخوف، واهتز جسمي بشعور ذلك الانفعال الغريب الذي أحسسته من قبل. عدت إلى سنوات مضت، وتذكرت تلك اللحظة التي تم إمساكي بها في لعبة القط الأعمى التي كنت ألعبها لأول مرة. بدأت في التفكير فيما إذا عشت إحساسا مثل هذا من قبل. هل حقا تمّ إمساكي في المرة الأولى التي لعبت فيها؟ أم أنها كانت حلما فقط؟ لم أستطع التأكد، لكنني اعتقد أنني عشت الشعور الذي يعيشه أي طفل حينما يمسَك به، وهذا الحلم ذكّرني بذلك الشعور القبيح من جديد. شعرت بالعطش، ولم يكن عطشا خفيفا وإنما في غاية الشدة. وبينما كنت أتناول مشربة الماء من جانب السرير التقت عيناي بعيني

ابنتي أيسون من جديد. لم تكن تنظر إليّ هذه المرة نظرة إجرام وإنما نظرة حب. "هذا يعني أنك كنت يوما من الأيام طفلا يا أبي!" أفرغت الماء الفاتر من المشربة في الكوب وأنا أبتسم ابتسامة ألم، ثم شربته على عجل، وبالطبع بقيت عطشانا. بقيت مدة على سريري وفي يدي الكوب الفارغ. كنت أحس بحِمْلٍ فوق كتفي، وكنت أشعر أن يديّ مقيدتان، وأن قدميّ مشدودتان بسلاسل من حديد. لم أكن أرغب في النهوض عن السرير مُطلقًا، بل البقاء ثابتا دون أي حركة. وحينما نمت فوق سريري أغلقت عيني فورا رغم هذه الحرارة الخانقة التي لم تنته بتاتا، ولولا هذا الحلم -أم يجب أن نقول كابوسا يا ترى -لنمت دون انقطاع. كان الضوء ينبعث من النافذة، لا بد أن الشمس ارتفعت كثيرا. مددت يدي نحو الهاتف الذي كان على جانب المشربة. كانت الساعة قريبة من 10:00. توترت، فقد كنت سأذهب إلى مكان ما، كنت سألتقي بأحدهم. انتفضت من مكاني ونزلت عن السرير، وقفت على قدمي، لكنني لم أتذكر إلى أين يجب الذهاب. هل كنت سألتقي بعلي أم بزينب يا ترى؟ لا، لم يكن هناك اتفاق بهذا الشأن بيننا. تذكرت فجأة، كنت سأذهب اليوم إلى منزل ذكائي الذي أوصى بدفنه إلى جانب والده ووالدته في مقبرة القرية في مدينة قسطموني. كنا سنشيع جثمانه اليوم ظهرا من منزله إلى قسطموني. لكن كان هناك موضوع آخر، كنت سأتصل بشخص ما. من كان يا ترى؟ حسنا، لقد تذكرت، كنت سأتصل بجانتي جمال. لقد فكرت في هذا وأنا عائد في الأمس من الملجأ في فريكوي إلى منزلي. كنت أود أن يتواجه المرابي ذو الوجه الأحمر مع السيدة أيبر. بحثت في هاتفي عن جانتي جمال، ولمست الشاشة. لقد كان القبضاي القديم مستيقظا مبكرا.

"ماذا هناك يا نوزات في هذا الوقت المبكر؟" سأل بقلق. "لا يوجد

هناك شيء سيء إن شاء الله؟"

"لا، لا يا جمال، هل بإمكانك إحضار صاتيلميش إلى المركز؟ لكن أريده الآن..."

"أهي متعلقة بمسألة الطبيب الجراح؟"

كان قلقا من أجل صديقه.

"نعم، لكن ليس هناك أي خطر على صديقك ذي الوجه الأحمر. أريد منه رؤية شخص ما."

"فهمت، سأجد صاتيلمش فورا."

شعر بالراحة، نعم شعرت بالراحة لأن مسألة إرضائي مقابل تدمير حياة صديقه لم تكن من قواعده وقوانينه. أغلقت الهاتف، ودخلت الحمام. لم يعجبني وجهي في المرآة أبدا. كانت هناك حلقات بنفسجية اللون أمام عيني، وكانت وجنتاي ذابلتين، وشفتي السفلى مترهلة. فتحت الحنفية وضربت وجهي بالماء الفاتر بشكل متتابع وكأن هذا سيغير من صورتي. لكن لم تكن هناك أي فائدة، فقد أدركت ذلك بعد أن مسحت وجهي بالمنشفة التي سقط منها وبرها، ونظرت إلى المرآة مرة أخرى. لم أستسلم، وبدأت بوضع الرّغوة على وجهي من أجل التخلص من شعر اللحية الذي كان يظلّله. وأعترف أن الوضع لم يتغير كثيرا بعد الحلاقة. لكن نفسيّتي باتت أفضل حينما استعملت محلول الحلاقة الذي أهدتني إياه أفكانيا. لبست فورا، وخرجت كي لا أفقد هذا الشعور. ملأت بطني في محل الفطائر الذي يعمل فيه سايم الطرابزوني. بدأ سايم، ومنذ اللقمة الأولى، يغتاب عريس ابنته دون توقف بتلك اللهجة الطرابزونية الجميلة.

"يا سيدي، عريس ابنتي سرسري بحت. لا يعمل أي شيء، يأتي كل شهر إلى هنا يأخذ مالا ويذهب. أقول له تعال هنا واعمل معنا. يقول لي

أنا خريج جامعة، ولا أستطيع العمل في محل الفطائر. يعني باختصار هو حيوان؛ أسنانه مغروزة في عنقي، ويمتص دمائي. لقد تحيرت بما سأفعله معه يا سيدي... يبدو أن يدي ستتلوث بدمائه..."

"وماذا تقول ابنتك في هذا الأمر؟"

"وماذا ستقول؟ فذاك العريس السرسري جميل مثل النساء. والله إنه هكذا، يجلس أمام المرآة أكثر من ابنتنا. أخذ عقل ابنتي، تقول دوما أحبه يا أبي، أنا سعيدة به. فهي لا تعرف أن ذاك الأحمق لن يكون رجلا. إنه كسول يا سيدي، ولن يستقيم أمره حتى لو أراد ذلك... سيبقى بلا أخلاق دون إرادته..."

وبعد أن شربت كوبين من الشاي تركت السيد سايم بهمومه التي لا تحل وركبت سيارتي المخضرمة. فربما وصل جانتي القلق إلى المركز قبلي. وحينما دخلت مكتبي لم أجد جانتي وإنما وجدت زينب تنتظرني. كان وجهها باهتا، خفت أن يكون من أثر الاعتداء الذي وقع عليها البارحة.

"كيف حالك عزيزتي زينب؟ هل أنت بخير؟"

تفتحت الزهور في وجهها على الفور.

"بخير يا سيدي، بخير جدا. نمت متأخرة، هذا كل ما في الأمر."

كان صوتها محملا بالانفعال، لا بد أنها توصلت قبلي في الأمس إلى بعض المعلومات. بدأت بالحديث ونحن نشرب قهوة الصباح.

"هناك ثلاثة مواضيع تحتاج إلى توضيح أكثر يا سيدي. أولها قطع التراب الحمراء..."

"التراب الذي وجدناه في منزل ذكائي وقاربه، وفي منزل الطبيب الجراح في الأمس أيضا..."

ابتسمت برضا لتذكّري ذلك.

"بالضبط، ذكرت سابقا أن هذا التراب قد يستعمل من أجل الزينة، وربما هي أجزاء من قطعة حجر. وبالفعل هي كذلك، نوع من الحجارة الخاصة مطليّة بالأحمر. ويستعمل في أماكن كثيرة. يستعمل مثلا زينة للحدائق، ويستعمل أيضا لرسم حدود مسارات المشي في الممرات..."

"الأمر شبيه بالسراب،" قلتها وأنا أتناول فنجان قهوتي. " يبدو أننا لن نصل إلى نتيجة من هذا الدليل..."

نظرت نظرة خجل لعدم انطباق فكرها مع رأيي.

"في الحقيقة هذا الأمر قد يفيدنا في الوصول إلى الموضوع بشكل أفضل،" ابتسمت ببراءة. "إن لم نعثر على قطع التراب الحمراء هذه في أماكن الجرائم الأخرى فإن هذا يعني أن قاتل ذكائي ليس هو الشخص الذي قتل قانصو صارماشيق."

كانت تتحدث عن موضوع في غاية الأهمية.

أضفت قائلا: "وقاتل ذكائي هو الشخص الذي اعتدى عليك... هذا يعني أن هناك قاتلين مختلفين، وهدفين مختلفين أيضا. القط الأعمى والآخرون..." كانت زينب تنظر بذهول دون أن تدري ماذا تقول. والحقيقة أنا أيضا لم أستطع معرفة ما سأقوله. أخذت رشفة أخرى من قهوتي، وتحدثت بما يدور في ذهني. "إذن، لا بد لنا من بدء البحث في أماكن الجرائم الأخرى."

استندت زينب للخلف بثقة.

"سيتولى شفيق وفريقه هذا الأمر اعتبارا من هذا الصباح. سنحصل على تقاريرهم مساء هذا اليوم."

سألت وأنا أضع الفنجان على طبقه.

"وهل علي معهم؟"

"لا، علي يتعقب سائق التاكسي. ذلك السائق الذي أحضر إلى المبنى الشخص الذي اعتدى عليّ في الأمس..."

وضعت يدي فوق الطاولة وأنا أشعر بالرضى الناتج من العمل مع الرفاق الذين يعرفون عملهم جيدا.

"وهل وضحت صورة الرجل؟"

بدا أن وجهها قد تعتم لأول مرة.

"كما تعرفون، كانت على رأسه قبعة، وفي عينيه عدستان مركبتان، وعلى وجهه لحية حمراء ملصقة. ومع ذلك يجتهد الرسامون للوصول إلى نتيجة، وسيصلون نهاية الأمر إلى شكل ما..." أخذت رشفة من قهوتها..."لكن الأمر العجيب كان في الجناية الأخيرة. فهناك أمر في غاية الغرابة يا سيدي. أفلام الاعتداء الجنسي على الاطفال التي وجدناها في جهاز قانصو صارماشيق كانت مرسلة إليه من خلال برامج الفيروس."

"ماذا يعني ذلك؟ هل يعني أن الرجل لم يشاهد تلك الأفلام البشعة؟!"

"هكذا يبدو. فتلك الأفلام أرسلت إليه قبل يومين حسب ما ظهر في تقرير مختبر الأدلة الجنائية. علما أن الرجل لم يأت إلى منزله منذ ثلاثة أيام..."

"حسنا، والصور التي وجدناها؟"

"من المحتمل أنها أيضا وضعت لاحقا يا سيدي."

كان في الأمر غموض.

"إن كان هكذا فيجب أن يظهر في كاميرات المراقبة. فإن ظهر في الكاميرات الشخص الذي اعتدى عليك في الأمس فإنه لا بد أن يظهر فيها أيضا الشخص الذي حضر إلى منزل قانصو..."

زينب أيضا كانت عاجزة عن فهم حقيقة هذا الأمر.

"أنتم محققون سيدي، ليس هناك من منطق أبدا. أو أن أحدهم مسح سجلات الكاميرا..."

قلت: "موظفو الأمن فقط في إمكانهم فعل ذلك. أقصد موظفي المبنى الذين يعملون في شركة ألبر. سأتصل بالرجل وأتحدث معه. يبدو أنه مستعدّ لتقديم المساعدة..."

كان ذهن زينب في مكان آخر.

"هناك أمر لم أفهمه بعد، لماذا يفعلون هذا يا سيدي؟ لماذا يحاولون إظهار أن تلك الأفلام القذرة والصور البشعة تعود إلى المقتول؟!"

ذكرتُ أوّل احتمال ورد إلى ذهني.

"بالطبع، من أجل إظهار المقتول على أنه مغتصب أطفال... فيبدو أن قانصو صارماشيق يختلف عن الضحايا الآخرين. ففي حين أن هناك كثير من الوثائق التي تشير إلى أن عاكف صويقان وفريد سلجيم كانا مغتصبي أطفال فإننا لا نجد هنا ولو معلومة واحدة تشير إلى أن قانصو صارماشيق كان مثلهما. حتى أن رفيقه السيد حياتي ذكر أن هذا الرجل كان يتعقب النساء، وكان يرافق الفتيات الشابات لكنه لم يره قط مع الأطفال."

ذكرت زينب أيضا أول احتمال ورد إلى ذهنها.

"ألا يمكن أن يكون الرجل قد أخفى نفسه جيدا؟"

"ذكر علي هذه الجملة بالضبط... ربما عزيزتي زينب، لكن المعلومات التي بين أيدينا تجبرنا على فصل قانصو صارماشيق عن الضحايا الآخرين."

سألت قبل أن أتناول فنجان قهوتي من جديد.

"هل تم تثبيت مرسلي الأفلام الجنسية؟"

تعتم وجهها.

"لم نستطع تثبيتهم سيدي، فقد تم الإرسال من مواقع مصطنعة، من إحدى المقاهي. لكنهم مستمرون في البحث، وكما تعلمون ذهبت البارحة بسرعة إلى مختبر الأدلة الجنائية. سلمهم الله لم يكسروا خاطري وبقوا يعملون حتى ساعات متأخرة من الليل... وللأسف الشديد لم نحصل على نتيجة."

وأنا أشرب القهوة كنت أعتقد أننا نسير في الطريق الصحيح. وكان هناك صوت في داخلي يقول إن القتيل الأخير لم يكن مغتصب أطفال. لكن وبكل تأكيد يده ملوثة بعمل مشين. فربما له علاقة بلعبة التحدي هذه، أو ربما له علاقة بموضوع نقل الأعضاء... فهمت زينب سكوتي خطأ.

"لا تؤاخذنا يا سيدي، الأعمال تسير ببطء شديد."

ابتسمت مقدّرًا الوضع.

"أعرف عزيزتي زينب، فهذا أمر طبيعي." وضعت الفنجان في الطبق. "ليس هناك ما يستدعي التوتر. وأنا أعتقد أننا سنتوصل إلى بعض الأدلة قريبا جدا. وفي النهاية سينفتح ممر أمامنا."

كانت تنظر كمن يريد الفهم.

"مجرد توقع عزيزتي زينب. لكن إن لم أكن مخطئا فسنرى الصورة بأكملها في وقت قريب."

لمعت عيناها الكستنائيّتان بسرور. شعرت أنه لا بد من التحذير.

"لا، لا تفرحي فورا، فليست لدي أي فكر حول هوية القتلة حتى وإن قدمنا تحليلا. لكن إن عرفنا أهدافهم فربما يكون من السهل العثور عليهم. فجريمة صارماشيق قانصو قد تقودنا إلى معرفة أهداف القتلة.

انظري، سأوضح على هذه الشاكلة..."

قاطع كلامي هاتف مكتبي الذي بدأ يرن فوق طاولتي. رفعت سماعة الهاتف. أخبروني أن جمال وصاتيلميش مع موظف الأمن عند الباب الخارجي. أمرت بإدخالهم وأغلقت الهاتف. ثم عدت إلى زينب. "على كل حال، حدثت تطورات عجيبة في مساء الأمس عزيزتي زينب. حينما يأتي علي سنجلس ونتكلم سوية. أنت من بعد الآن، كما قلت لك في الأمس، اهتمي فقط بملف القط الأعمى الذي أخذناه من ألبر. أرجوك، اتركي كل ما في يدك من أعمال، واجلسي في مكتبك ودققي ذلك الملف. لكن إياك أن تتغاضي ولو عن سطر واحد من سطور ذلك الملف. لا بد أن ذكائي توصل إلى معلومة بشأن القاتل، وإلا لما قتلوه. وربما تكون هذه المعلومة في الملف الذي حصلنا عليه من ألبر."

"حاضر سيدي،" قالتها وهي تشرب الرشفة الأخيرة من فنجان قهوتها. نهضت على قدميها، وتوجهت نحو الباب بابتسامة مشرقة. "سأبدأ فورا دراسة الملف."

"حسنا عزيزتي زينب، سنرى ذلك."

وبعد أن ذهبت باحثتنا دخل جانتي جمال ومن خلفه صاحب الوجه الأحمر. كان جمال يشعر بالراحة كما لو أنه في منزله، أمّا صاتيلميش فقد كان يرمق المكان بقلق ولسان حاله يقول: "يا ربي، ما أذا أعمل هنا." استقبلتهما بودّ قدر الإمكان، وقلت لهما كي يشعر صاتيلميش بالراحة: "أنتما هنا ضيفاي،" لكنني لم أستطع إزالة القلق من وجه صاتيلمش. ومع ذلك كان يبدو مطمئنا قليلا.

"ليتنا نحن من نستضيفكم يا سيدي،" قالها محاولا إنقاذ الموقف. "لكنت أحضرت لكم فطورا جميلا بهذا الشكل..."

لو تركته لبدأ بذكر أسماء الأطعمة التي سيضعها في الفطور.

"لكن لو كان الأمر كذلك لما استطعت إحضار الشخص الذي ستتعرف عليه."

تلعثم، وتجهم وجهه، أساء فهمي.

"هل ستعرضون عليّ رؤية جسد قانصو؟ لا، أنا أخاف، لا أستطيع الذهاب إلى المشرحة، لا أستطيع النظر إلى الميت."

أطلقت ضحكة دون أن أستطيع تمالك نفسي.

"لا يا صاتيلميش، ليس جسدا، وإنما امرأة. حتى أنها امرأة جميلة جدا..."

زادت حيرته.

"تلك المرأة التي جاءت إلى مركزكم الخاص بالتدليك..."

حاول التذكر.

"هل تقصد المرأة التي أمطرت المرحوم قانصو بوابل من الشتائم؟"

"لسنا متأكدين، لدينا امرأة من هذا القبيل، سأعرضها عليك... من أجل أن تعرف ما إذا كانت هي نفسها المرأة التي تعقبت قانصو إلى مركزكم؟"

أخذ نفسا عميقا.

"آه يا سيدي، قولوا ذلك منذ البداية كي أشعر بالراحة..."

سأل جانتي جمال بصوت ساخر بعد أن ترك الضحك من تحت شاربه.

"وهل ستعرف المرأة يا ترى؟"

استجمع نفسه على المقعد الذي يجلس عليه.

"عار عليك أخي جمال، إن كانت هي فسأعرفها فورا حال رؤيتي لها. فنحن لم نتقدم في السن بعدا!"

47

"باعوا كِلية فخار، أليس كذلك؟"

كانت أيبر التي ترتدي ثيابا داكنة مثلها، تقف وسط أربعة من الشرطيات المدنيات وعلى رؤوسهن حجاب أسود. لم يكن في ثيابها زخرفة، وقد قضت الليلة الماضية في غرفة النضارة، كان هناك قلق عميق باد على وجهها، لكنها بجمالها كانت الأبرز من بين النساء اللواتي حولها. لم أرغب بعرض المرأة السورية وحدها على صاتيلمش لخوفي من أن يخطئ في حقّها. وقد كان خيرا ما فعلت، فهو لم يستطع التأكد جيدا وهو يقف بيني وبين منير خلف الزجاج الذي كنا نراقب من خلاله النساء اللواتي في الغرفة ذات المرايا. فحينما رأى المرأة الأولى قال: "يبدو أنها هي. لا، لا، ليست هذه." وحينما مرت المرأة الثانية. "لا، ليست هذه أيضا." كانت المرأة الثالثة أيبر، فحينما رآها أثنى شفتيه دون أن يتفوه بشيء ونظر إلى المرأة الرابعة. "هذه المرأة طويلة، والمرأة التي جاءت إلينا كانت متوسطة القامة." وبينما كان سينظر إلى المرأة الخامسة توقف وأعاد النظر إلى أيبر وهو يقول: "ربما تكون تلك المرأة."

"هل أطلب منها الاقتراب أكثر؟"

ابتسم وهو مستغرق بالتفكير.

"نعم، سيكون ذلك أفضل يا سيدي."

تحدثت إلى الداخل من خلال الميكرفون.

"السيدة أيبر، هلا تقدمت خطوتين للأمام؟!"

زاد القلق في وجه المرأة، لكنها لم تنثني عن فعل ما طلبته منها. تقدمت خطوتين نحو الأمام، وأصبح الضوء الآن يضيء وجهها بأكمله. كان صاتيلمش يتفحص المرأة بدقة متناهية مثل الصائغ الذي يفحص الألماس. لم يستطع التأكد، فاقترب إلى أن بلغ أنفه الزجاج. ومع ذلك لم يستطع التأكد، فرجع للوراء قليلا.

"ربما تكون هذه المرأة..." لكنه لم يكن متأكدا. "لم أستطع رؤيتها كثيرا. فقد دخلت خلف قانصو وهي تصيح وتنادي ثم بعد ذلك طردناها." ضيق عينيه وتفحص المرأة مرة أخرى. "والله يا سيدي، إن تلك المرأة هي الوحيدة من بين هؤلاء النساء التي تشبه المرأة المجهولة التي جاءت إلى المكان. يعني هذا ما أظنه. ولو سألتني هل أنت متأكد أقول لك: لست متأكدا. أنا لا أريد أن أحمل وزر أحد..."

ألححت عليه من جديد.

"إن لم تر جيدا فسأدعها تقترب أكثر."

رأى ذلك عبثا.

"رأيتها، رأيت ما رأيته يا سيدي. فربما تكون تلك المرأة وربما لا تكون هي. ماذا سأقول لكم الآن؟!"

كان هذا كاف، فهذا يعني أن قانصو ليس هو من قام بعملية برجس ولد أيبر. أعترف أني مللت. لأنه لو تحقق هذا الاحتمال لاستطعنا معرفة الأمور التي أدت إلى موت برجس. علاوة على هذا، كان من المحتمل أن تفيدنا في حل قضية الجرائم المعقدة التي في حوزتنا. تدخّل منير الذي لاحظ تجهم وجهي.

"لندعو أيبر إلى هنا، فصحيح أن صاتيلميش لم يعرفها لكنها ربما

تعرفه."

في الحقيقة كان صوته خاليا من التفاؤل، فهو أيضا كان يعتقد أننا لن نصل إلى نتيجة من هذا اللقاء. لكن هل سنخسر شيئا؟ تناولت الميكرفون من جديد.

"أحضروا السيدة أيبر إلى هنا من فضلكم."

بعد بضع دقائق دخلت المرأة السورية ومعها شرطيتان مدنيتان إلى الغرفة التي كنا فيها. بدأت المرأة تحدق في الغرفة بقلق، وحينما رأت من خلال النافذة الكبيرة المكان الذي كانت فيه قبل قليل، أدركت أننا كنا نراقبها من هذا المكان منذ لحظة دخولها. تحول قلقها إلى خوف مفتوح. فلم أرغب في تفويت هذه اللحظة.

"لقد عرفكم السيد صاتيلميش،" قلتها مخادعا. " فقبل بضعة أسابيع دخلتم مركز التدليك. وهددتم فيه قانصو صارماشيق ذلك الطبيب الجراح..."

اتجهت المرأة بأنظارها المملوءة بالذعر إلى وجه صاتيلميش. واعتقدت في نفسي أن هذه المرأة ستوبخه شرّ توبيخ وتمطره بوابل من الشتائم، لكن كان هناك ما لم أتوقعه أبدا.

"نعم، ففي ذلك اليوم دخلتِ إلى مكاننا بالقوة." قالها صاتيلمش متهما إياها بصراحة. "لقد هددت طبيبنا..."

وقفت المرأة مذهولة دون أن تعرف ماذا تقول.

"يا سيدة أيبر، إن الشخص الذي هددتموه قد تعرض للقتل قبل بضعة أيام. ونحن لا نعرف هوية القاتل. فإن لم تتحدثوا لنا بالحقيقة فإنكم ستقعون في مصيبة كبرى..."

ارتخى كتفاها، وتجعد وجهها الجميل فجأة. قام منير حينها بحملته

الأخيرة.

"أنتم في الأصل مشتبه بكم بسبب ولدكم، فإن لم تتعاونوا معنا..."

لم تحتمل المرأة المسكينة أكثر من ذلك، وسقطت في مكانها. في الحقيقة كنت فرحا لوصولنا إلى نتيجة وأنا أنحني لمنع أيبر من السقوط وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالذنب لأننا كنا سببا في إيصال إنسان منهار جسدا وروحا إلى هذه الحال. لكن وجود مثل هذه العاطفة عند شرطي مبالغ فيها، فوبخت نفسي وأنا أقول بصمت: "قم بعملك يا نوزات!" وأمسكت المرأة من كتفيها.

فقلت لمنير: "ماء، كوب من الماء. ألا يوجد ماء هنا؟"

بينما كان منير متوجها إلى زجاجة الماء التي كانت في الخلف، قمت بهز المرأة بشكل خفيف.

"سيدة أيبر، سيدة أيبر، هل أنتم بخير؟"

لم تكن بخير، فوضعت الماء الذي أفرغته في يدي من الكوب الذي أحضره منير على عنقها وخديها. فتحت عينيها وهي تئن.

قلت لها: "استلقوا، استلقوا على الأرض..."

لم تفعل ما طلبتُ منها، بل جلست فجأة ونهضت على قدميها وهي تدفعني. وانتصبت واقفة أمام الزجاج الذي كنّا نراقب من خلاله قبل قليل كأنها كانت تتحدى.

"نعم، نعم،" قالتها وهي تفتح عينيها بشكل واسع. "أنا أعرف ذلك الحقير. لم أكن أعرف اسمه لكنني أعرف أنه الحقير الذي قام بعملية ابني برجس."

صحيح أنها نهضت على قدميها لكنها لم تكن تبدو بخير أبدا.

"حسنا، حسنا سيدة أيبر،" قلتها محاولا تهدئتها. "سنتحدث بكل

شيء، اجلسوا هنا..."

"لا، لن أجلس... أنا لم أقتل ذلك الحقير. لا أنا ولا زوجي أيضا.. نحن أناس عاجزون..."

"أعرف، فأنتم لم تقتلوا قانصو. لكنكم إن أعطيتمونا أي معلومة فإننا سنتمكن من الوصول إلى قاتليه. وبذلك سنتمكن من القبض على العصابة التي كانت سببا في موت ولدكم. تحدثوا لنا بالحقيقة ونحن سنساعدكم أيضا..."

صعق وجه المرأة كما لو أنني طلبت منها التحدث بشيء رهيب.

"لن يستطيع أحد مساعدتي. الشيطان وحده من يستطيع تقديم المساعدة لأم ترسل ابنها للموت."

بدأت بالبكاء من جديد. انحلت ركبتاها وسقطت أرضا مثل سقوط كيس فارغ وهي تذرف الدموع على خديها. لم تكن إفاقتها هذه المرة سهلة مثل الأولى. رتبنا الأرائك بعضها جانب بعض، ووضعنا المرأة عليها. بقيت دقائق على هذه الشاكلة. ثم فتحت عينيها، لم تستطع لحظة أن تدرك مكان وجودها. ثم بدأت تذرف الدموع على خديها من جديد. جلست وسحبت ركبتيها نحو بطنها وبدأت تبكي بحرقة كما لو أن فيها ألمًا. لم أتدخل أبدا وتركتها تفرغ ما في داخلها من ألم وغضب وشؤم. انقطعت دموعها أولا ثم هدأ انكماشها. نهضت وهي تجفف خديها بطرف حجابها الأسود الذي كان يتدلى من رأسها.

"سأتحدث، سأتحدث بكل شيء."

"اشربوا القليل من الماء قبل كل شيء..."

دفعت الكوب بيدها.

"لا، لا أريد، أنا بخير هكذا." تجولت بعينيها السوداوين في الغرفة.

"أين تريدون مني التحدث؟ هل ستكتبون ما سأقوله؟ هل ستكتبون؟"

لم تكن مكترثة على الإطلاق.

"تفضلوا هنا،" قلتها وأنا أشير إلى الكرسي الذي كان خلف الطاولة.

"يكفي أن تتحدثوا، الكاميرتان في الأعلى ستسجلان كل شيء..."

اتجهت تجرّ قدميها نحو الكرسي الذي أشرت إليه وهي منهارة، وجلست أنا أيضا أمامها. انتظرت قبل البدء بالكلام مجيء منير الذي أخرج صاتيلميش خارج الغرفة حينما فقدت السيدة أيبر وعيها في المرة الثانية.

"من أين أبدأ الحديث؟"

"هل أنتم متأكدون من عدم رغبتكم بأي شيء؟ فربما تريدون شايا أو عصيرا..."

عقدت حاجبيها ولسان حالها يقول: ما الذي تريده بالضبط؟

"لا، لا أريد أي شيء..."

لحسن الحظ لم يبق هناك أي حاجة للمماطلة، فقد فتح منير الباب ودخل منه.

"نعم، تفضلوا سيدة أيبر، نحن نسمعكم..."

بدأت الحديث بصوت خال من الروح والحياة وقد انهمرت من عينيها المبللتين دمعة على الطاولة.

"رأيت ذلك الحقير أول مرة في المستشفى..." لم تكن متأكدة. "أقصد مبنى وليس مستشفى..."

"هل تعرفون في أي حي يقع مكان المبنى؟"

كان السؤال من منير الذي يقف على قدميه خلف كرسيي.

"لا أعرف، لكن استمر الذهاب بالسيارة إلى هناك مدة نصف ساعة.

كان مبنى مغطى بالفسيفساء الأزرق. يبدو أنهم يستعملون المبنى بأكمله من أجل هذا العمل. المكان الذي دخلنا فيه كان عبارة عن شقة كبيرة. هناك كل ما يلزم للعمليات الجراحية، لكن إذا نظرت إليه من الخارج فمن المستحيل أن تعرف أنه مستشفى."

"من أخذكم إلى هناك؟"

رفعت نظرها عن الطاولة، وأجابت وهي تنظر في الفراغ.

"رجل له عينان جميلتان... خضراوان جذّابتان. كان صوته مؤثرا. يستعمل حنجرته الصوتية باحتراف. كان فنانا... لا يخطر إلى ذهنكم أي احتمال سيء في الوقت الذي ينظر فيه إليكم أو يتحدث معكم... كان يقول لنا: 'ستربحون مالا. ستكسبون مالا كثيرا. وستنقذون حياة طفليكم الآخرين... ‹" فاضت عيناها لكنها تمالكت نفسها. "أنا وزوجي جابر كنا معلّمَين في حلب. جئنا إلى تركيا ونحن نتأمل أننا سنعمل في مهنتنا. لكن هذا لم يحدث، فقد جاء كثير من المعلمين إلى هنا..." ألقت نظرة متعبة نحو منير. "حياتنا مثل الحكايات... حكايات تبعث الملل بالنسبة إليكم، لكنها في الأصل حكايات حياتنا المؤلمة..."

قاطعتها قائلا: "هل تعرفون اسم ذلك الرجل الذي قلتم عنه صاحب العيون الجميلة؟"

"كان اسمه ميرزا، هكذا كان يقول لنا. ومن المحتمل أنه ليس كذلك، فربما اختلقه ليكسب ثقتنا. وبالطبع فقد اختفى تماما بعد كل ما حدث..."

لم تستطع أن تذكر كلمة العملية التي كانت سبب موت ولدها بشكل صريح، لكن رفيقنا منير القاسي ذكر ذلك بدلا عنها.

"هل ذهبتم أثناء العملية إلى ذلك المبنى؟"

نشقت أيبر أنفها رغم أنها لم تكن تبكي.

"ذهبنا هناك من أجل التحاليل. قال ميرزا لنا: 'لا تقلقوا أبدا، نحن نطبق هنا أحدث التقنيات. وطبيبنا أفضل جراح على مستوى تركيا والشرق الأوسط'"

"هل كان يقصد قانصو؟"

أكدت قائلة: "نعم. كانت تلك اللحظة الأولى التي رأيته فيها." أخذت نفسا عميقا. "لقد تأملت كثيرا حينما رأيته. كان يبدو إنسانا مخلصا، نظرت إلى يديه، كانت لديه أصابع طويلة ورقيقة. اعتقدت أنه طبيب ماهر جدا. لم يكن اعتقادًا وإنما أقنعت نفسي بذلك. لقد عاملنا أفضل معاملة. أجلسني وجابر أمامه. وقال لنا: 'لقد فحصت برجس.' كان يذكر اسم ولدنا على لسانه أثناء تحدثه. أشعرني بالأمان فصدّقته. واعتقدت أنه لن يسمح بوقوع الضرر لابني. لكنه اختفى بعد ذلك، اختفى وضاع مع ميرزا ذلك الرجل الكاذب..."

سأل منير سؤالا في مكانه.

"كيف تعرفتم إلى ميرزا؟"

أجابت أيبر وهي تنظر إليّ لا إلى زميلي.

"لقد سألتموني في الأمس عن السيد مدني، نعم هو من عرفنا على ميرزا. لقد كذبت عليكم البارحة. فعلاقتنا مع مدني جيدة جدا، وقد جئنا معا من كيليس إلى إسطنبول."

قمت بخدعة أخرى وأنا أقمع بانفعالي الذي كان يزداد في داخلي.

"باعوا كلية ابن أخيه فخار، أليس كذلك؟"

بدا على وجهها علامة استغراب.

"ابن أخيه؟ فخار لا يقرب لمدني شيئًا، لم يكن من أقاربه. فقد صادفه

مدني في مخيم اللاجئين في غازي عنتب. مثل عزز بالطبع..."

سألت بذهول.

"عزز، أليست عزز ابنة أخيه؟!"

"لا، كما قلت لكم، صادفهما في مخيم اللاجئين. وأقارب كلا الطفلين ماتوا جميعا في سوريا. فأخذ مدني وزوجته الطفلين معهما..."

غمرتني موجة فرح عارمة، صار في إمكاني بعد الآن أخذ عزز من يدي مدني وبكل سهولة. لكن أدركت فجأة مدى قذارة تفكيري على هذه الشاكلة. أحسست نفسي أني شخص مستغل يستفيد من عجز الناس. لقد حلّ بي شعور بالخجل على إثر ذلك.

"فهمنا ذلك،" قالها منير مذكّرًا إياها بسؤالي. "لقد باعوا كلية فخار، أليس كذلك؟"

"صحيح، فقد تعرض فخار لعملية قبل ست شهور.. الطبيب نفسه أخذ كليته. لكن فخار لم يتعرض لأي مشكلة أثناء العملية..."

تمكنت من العودة للتحقيق.

"هل تستطيعون أن تعثروا لنا على المبنى الذي جرت فيه العملية؟"

"لا،" قالتها بيأس، "لا أستطيع ذلك، ذهبت مرة واحدة فقط. لم يأخذوني إلى العملية رغم رغبتي الشديدة في الحضور. فربما كانوا يعرفون منذ البداية أن ولدي الصغير لن يعود إلى الحياة بعد العملية."

سألت بإلحاح من أجل التخلص من عذاب الضمير الذي وقعت داخله.

"ألا يستطيع زوجكم السيد جابر العثور على المكان؟"

استجمعت المرأة المسكينة نفسها وقالت: "لن يستطيع، فهذا ليس ممكنا، لكن اسألوا مدني، فربما يعرف. لأنه ذهب إلى هناك بعد عملية

فخار. وهذا ما ذكرته زوجته زنّوب."

كانت أيبر تعطينا معلومات في غاية الأهمية، لكن منيرًا لم يكتف بذلك.

"ألا يوجد عندكم رقم هاتف لذلك الشخص المدعو بميرزا؟ كيف كنتم تتواصلون معه؟"

همست المرأة بصوت حزين.

"لا يوجد، كان يأتي أمام ملجئنا في فريكوي..."

"والموظفون في الملجأ، ألم يكن عندهم خبر بذلك؟"

هزت أيبر كتفيها.

"لا أدري، نحن لم نخبرهم بشيء. لكنهم كانوا يرون ميرزا. فهو لم يكن يلتقي بنا فحسب، وإنما أيضا كان يلتقي ببعض العائلات الأخرى."

عقد منير حاجبيه.

"ماذا يعني ذلك؟ هل هم أيضا كانوا على معرفة بكل ما يجري؟!"

بدا تعبير مؤلم على وجه أيبر.

قالت: "أنتم الشرطة يا سيدي، وأنتم من يجب أن تعرفوا ذلك."

48

"الثقة تضعف الإنسان."

صادفت جنازة ذكائي وأنا أدخل بسيارتي المخضرمة زقاق منزله في أوسكودار. جئت متأخرا، فقد غادر صديقي منزله دون أن أودعه. أخذت جلسة التحقيق مع أيبر وقتا أكثر مما كنت أتوقعه. غادرت المركز الأمني بعد أن أرسلت منيرًا إلى ملجأ السوريين في فريكوي. في الحقيقة كان لا بد لي من مرافقة منير إلى ذلك المكان، فالتحقيق مع مدني في مكانه سيكون ذا تأثير أبلغ، لكن كان لا بد من القيام بمهمتي الأخيرة تجاه ذكائي. ولسوء الحظ حرمتني أزمة السير في إسطنبول من توديع صديقي للمرة الأخيرة. اكتفيت بالسلام بإجلال على التابوت الذي كان خلف سيارة الجنازة التي مرت جواري. كان الزقاق ضيّقا جدا، فاضطررت للرجوع إلى أن وصلت أمام منزل رفيقي المرحوم. في تلك اللحظة رأيت المدعي العام. كان واقفا أمام الباب يدق الجرس. هو أيضا تأخر مثلي. وحينما رأيت المدعي العام الوسيم يدخل من الباب بعد أن فُتح له، أوقفتُ سيّارتي المخضرمة في الساحة الفارغة تحت شجرة الجوز العجوز التي كانت الشجرة الوحيدة في ذلك المكان وتوجّهت نحو المنزل.

فتحَت الباب ابنة جارهم التي صادفتها عند مجيئي في المرة السابقة.

"تفضلوا سيد نوزات... لكن السيدة جليلة أخذت مهدّئًا وهي الآن تستريح في الداخل..."

بقيت لحظة واقفا أمام الباب.

"أليس هناك أحد آخر من العائلة؟"

أشارت برأسها نحو الداخل.

"نقل الجنازة أخوه الصغير سنان وأولاده... والعم خلوصي في الداخل، هو من يقبل التعازي."

لم أكن أتذكر خلوصي، ولمَ أتذكره، فما الأهمية في ذلك؟! دخلت من الباب المفتوح. كان الرجال مجتمعين في الصالون، والنساء في الغرفة المجاورة. وحينما دخلت الصالون ارتطمت بأنفي رائحة كولونيا الليمون المتبخرة بكثافة. كانت النوافذ مفتوحة بأكملها، ومع ذلك لم يكن لها أي تأثير في الحرّ الظالم. حتى رائحة الكولونيا التي أعطيت للناس على أساس إنعاشهم، جعلت الجو في الصالون خانقا لا يطاق عندما اختلطت بعرق أجسادهم. وقعت عيني أولا على المدعي العام نادر، وعلى ألبر صاحب شركة درع الأمن اللذين كانا يجلسان بجانب رجل شعره ولحيته ذاتا لون رمادي. وحينما رآني الرجل المسنّ نهض على قدميه. حينها علمت أنه الأخ الأكبر لذكائي. فقد جاء من قبل إلى المركز الأمني لزيارة أخيه بضع مرات. اقتربت باحترام.

"البقية في حياتنا سيد نوزات. البقية في حياة الأحباب..." فاضت عيناه العسليتان اللتان تشبهان عيني ذكائي. "تعرفون أنه كان يحبكم كثيرا..."

"وأنا أيضا كنت أحبه كثيرا. كان صديقا طيبا جدا، وشرطيا ماهرا جدا..."

توقفت عيناه المتسائلتان في وجهي.

"كيف حدث هذا الأمر يا نوزات؟ كيف يعقل أن يحدث هذا في

سنوات تقاعده رغم أنه لم يتعرض لأي حادثة أثناء عمله..."

لم يستطع أن يتلفظ بكلمة القتل، وضع يده على فمه وبدأ بالبكاء.

"لطفا، من فضلكم اجلسوا سيد خلوصي،" قلتها وأنا أجلس الرجل الذي يصغرني على الأقل بعشر سنوات. في تلك اللحظة رأيت منديلا.

"تفضلوا، تفضلوا، خذوا هذا."

كان المنديل من المدعي العام نادر الذي أخرجه من جيب جاكيته الصيفيّ ذي اللون الأخضر. لكن الرجل المسن لم يأخذه واكتفى بنشق أنفه فقط.

"شكرا جزيلا حضرة المدعي، لا داعي لذلك، شكرا جزيلا." تلعثم، نظر إلى نادر أولا ثم نظر نحوي. "اعثروا على قاتله وهذا كاف. لا تسمحوا لعديم الشرف ذلك أن يجول ويدور. قوموا بواجبكم فقط."

بدأ صوته يرتفع.

"كن هادئا أخ خلوصي،" قالها ألبر محاولا تهدئته. "أنا متأكد أن رفاقي الشرطة يبذلون كل ما بوسعهم. فهذه الأمور تأخذ وقتا."

لم ينصت خلوصي.

"لا أعرف كيف حدث هذا! شرطي متقاعد يقتل في منزله في وسط أوسكودار دون أن يرى أحد ذلك أو يسمع، وعلاوة على هذا لا أحد يستطيع فعل شيء حيال ذلك!"

ربما لم يكن يتهمنا، لكن هذا الكلام لا بد أنه كان موجها لنا بصفتنا نمثل الدولة هنا. تحدث نادر على هذا النحو.

"لا أعرف كيف أستطيع تعزيتكم، لكن ثقوا تماما أننا سنقبض على القاتل أو القتلة..."

كان يتحدث بثقة، لكن هذا لم يكن له فائدة.

"لكنكم لم تجدوا أي أحد حتى هذه اللحظة."

كان المتحدث رجلا شابا، يشبه خلوصي، لا بد أنه ولده.

"لا بد أن الشخص الذي قتل عمي واحد من القتلة الذين قبض عليهم... هل البحث عنهم صعب جدا؟!"

تعالت الأصوات من الناس الذين كانوا هناك مؤيدين الشاب المتألم.

"أنا أفهمكم، فنحن بصفتنا من شعبة الجنايات نحقق في الأمر، وقد توصلنا إلى أدلة مهمة. لا تقلقوا، سنقبض على ذلك الحقير في أقرب وقت."

لكن كلماتي لم تهدّئ ذلك القريب الغاضب.

"لا،" قالها ذلك الشاب الثائر. "لا تسلموه للعدالة. لا تدعوه يأكل خبز الوطن في السجون بلا مقابل، اقتلوه وتخلصوا منه..."

كان الأصل عدم الذهول من هذا الشاب الذي تأثر بهذيان الناس كلهم مؤخرا في مسألة الاقتصاص العرفي، لكن نادر لم يتمالك نفسه.

"لا تقل ذلك يا أخي! الأمور لا تسير على هذه الشاكلة. يجب أن نوقف القاتل أمام المحكمة. حتى أن ذكائي نفسه لو كان هنا لما رغب بقتل القاتل وإنما لطالب بمحاكمته. والعدالة تتحقق بالقانون."

"وهل بقي قانون؟!" تساءل الشاب وهو يصيح. "يأتي مجرم يده ملوثة بالدماء يقتل عمي وسط بيته ثم تطلب مني أن أؤمن بالقانون، أليس كذلك؟"

"ما الذي تقوله يا فتى؟!" قالها ألبر متدخلا. "فالسيد نادر، وحضرة النقيب نوزات يجتهدان من أجل الإمساك بالقاتل. وكلامك بهذا الشكل عار عن الصحة."

لم يكن الفتى مكترثا لا بالسيد نادر ولا بحضرة النقيب.

"والله لا أعرف الصحيح من المعوج يا ألبر. لكن أقولها وبصراحة، إن لم يعثر الشرطة على القاتل بأسرع وقت سأعثر عليه وسأقتله بنفسي."

كأنه كان يهددنا. ولاحظت احمرار وجه نادر وتصلب شرايين جبينه.

"أنت تتحدث بشكل غير صحيح يا أخي،" نبهه بصوت مبهم. "لن تتحقق العدالة بقتل الناس..."

"لكنهم يقتلون، وأنتم تشاهدون ذلك. والآن تقفون أمامي وتعطوني دروسا قديمة عن العدالة..."

كان المدعي العام على وشك أن يفقد أعصابه فلمست كتفه.

"تعالوا سيد نادر،" قلتها بهدوء. "تعالوا لندخل إلى غرفة ذكائي. أريد أن أعرض عليكم بعض الأوراق."

تجهم وجه نادر فجأة ثم أدرك بعدها مغزى كلامي.

"حسنا يا حضرة النقيب، حسنا هيا لندخل."

"وهل آتي أنا أيضا؟" قالها ألبر محاولا المجيء. "فربما تحتاجون شيئا."

"لا، لا يا ألبر، شكرا جزيلا، سنتحدث في أمر يخص الوظيفة."

خرجنا من الصالون، كنت في المقدمة والمدعي العام في الخلف. دخلنا إلى غرفة فارغة. كانت على الجدار صورة زواج ذكائي من السيدة جليلة. كان زميلنا المرحوم ينظر إلينا من الصورة البيضاء والسوداء بجدية كبيرة. لم أستطع النظر أكثر.

"كنت سآتي إليكم سيد نادر، فنحن توصلنا إلى بعض المعلومات."

عقد حاجبيه بشكل خفيف.

"هل هي بشأن القط الأعمى؟"

هو أيضا لم يكن صبورا، فقد كان يريد حل سلسلة الجرائم هذه في أقرب وقت، وتقديم تقرير أمني لمؤسسته العامة، لكنني لم أكن عجولا.

لهذا السبب أردت عدم التحدث بمعلومات لم تكن قطعية بعد.

"في الحقيقة الوضع معقد قليلا."

لم يفهم، وبقيت عيناه ذات اللون البني الفاتح في وجهي.

"يعني،" قلتها مواصلا كلامي. "شخصية المقتول الأخير لا تتسق كثيرا مع الضحايا الأخرى الذين قتلوا على يد القط الأعمى. أنا أقصد بالطبيب الجراح المسمى بقانصو صارماشيق. لا يوجد أي دليل يشير إلى أن هذا الطبيب كان مغتصب أطفال. لم يأخذ أي حكم بسبب هذه التهمة المخزية. دعك من الحكم، بل إنه لم يتعرض لأي تهمة حول هذا الموضوع. حتى الذين يعرفونه ذكروا أنه من الاستحالة أن يكون هذا الطبيب مغتصب أطفال. لكننا نعتقد أن يده كانت ملوثة بأعمال قذرة..."

ازداد انتباهه أكثر.

"ما طبيعة هذه الأعمال القذرة؟"

"سرقة الأعضاء البشرية... بمعنى نقل الأعضاء البشرية من المهاجرين السورين إلى مرضى آخرين... علما أن الموضوع ما زال غامضا لكن هذا ما توصلنا إليه اليوم من خلال التحقيق. وقريبا سأعطيكم المعلومات بالتفصيل..."

مسح بيده اليمنى شعره المستقيم نحو الخلف.

"وكيف تعلقون على هذا الموضوع العجيب؟ ما رأيكم بهذا الأمر ما دام أن المقتول الأخير لم يكن متحرشا بالأطفال؟!"

أشرت إلى مقعدين مبطّنين برسومات الفراولة أمام النافذة.

"لنجلس هناك إن أردتم،" فعل ما طلبت منه، فجلست أنا أيضا في المقعد المقابل له. "ربما أخفى قانصو نفسه جيدا. فربما لم يمسك به

أبدا رغم اغتصابه لكثير من الأطفال الأبرياء..."

وضع يديه فوق مسند المقعد.

"إذن ومن أين يعلم القط الأعمى أن هذا الرجل مغتصب أطفال؟"

سأل سؤالا منطقيا.

"أنتم محقون، لأن احتمالية أن يكون الطبيب قانصو مغتصب أطفال ضعيفة جدا. وليس هناك من أي معنى لقيام القط الأعمى بقتله."

كان يحدق في وجهي دون انقطاع.

"حسنا، وموت ذكائي؟ شخصية زميلكم المرحوم لا تتفق أيضا مع الضحايا الآخرين الذين قتلوا على يد القط الأعمى. فلم قتله إذن؟!" توقف. "هذا بالطبع إن كان القاتل هو القط الأعمى."

"قاتل ذكائي القط الأعمى بكل تأكيد..."

بدا مذهولا.

"كيف تأكدتم من ذلك؟"

"توصل ذكائي إلى معلومة جديدة، وقد ذكر لي ذلك شخصيا. تحدث من خلال الهاتف وطلب على إثرها اللقاء معي، كان سيتحدث لي بكل شيء. لكنه قُتل... نعم، ذكائي لم يكن يشبه الضحايا الآخرين الذين قتلهم القط الأعمى. وبالطبع لم يقتل القط الأعمى النقيب ذكائي لأنه كان مغتصب أطفال وإنما قتله كي يحمي نفسه..."

تعقدت الأمور في ذهنه.

"حسنا، لكن كيف عرف القاتل أن ذكائي استطاع تحديد هويته؟!"

فتحت يدي جانبا.

"هذا ما لا نعرفه، فربما اتصل به ذكائي، وأخبره بالمعلومات دون أن

يكون مدركا لذلك... وربما تحدث للقاتل شخصيا كي يقرأ ردة فعله ويظهر على حقيقته... ومن المحتمل أن هذا هو السبب الذي دعاه إلى البيت."

"هذا يعني أن القاتل شخص من معارفه."

"يبدو ذلك. فربما تحدّث ذكائي للقط الأعمى بالمعلومات التي كان سيخبرني بها، فقام القط الأعمى حينها بقتل ذكائي كي يحمي نفسه."

لم يقتنع.

"ذكائي شرطي منذ سنوات، ألم يكن يتوقع أنه سيتعرض للقتل؟ ألم يكن محتاطا لذلك؟"

هززت رأسي وأنا أفكر.

"كان يحتاط، بل إنه كان يعرف حماية نفسه جيدا. لكن لا أعرف لماذا عجز عن حماية نفسه هذه المرة! فربما لم يكن متأكدا بعد من أن هذا الرجل هو نفسه القط الأعمى. فربما أعتقد للحظات أن هذا الرجل بريء، فاستبق القط الأعمى الأحداث وقتله على غفلة."

بحث بأنظاره داخل الغرفة وكأن القاتل كان مختبئا في مكان قريب، وحينما لم ير شيئا نظر نحو الباب وإلى الأجزاء الظاهرة من البيت، وبالطبع لم ير شيئا.

"من يمكن أن يكون هذا الشخص القريب؟ هل يمكن أن يكون من العائلة؟"

كان لدي تردد حول تصريحي بالاسم الذي كنت أشتبه به، لكنني اعتقدت حسب ما تقتضي وظيفتي أنه لا بد من إخباره به لما سيكون له من فائدة.

"أشتبه بأحد ما، التقيتم به قبل قليل. إنه ألبر الذي كان يحاول تهدئة

الشخص الثائر، ألبر سيبر... ضابط قديم... حقق مع ذكائي في ملف القط الأعمى عام 2012. أنا أتحدث الآن عن السنة التي قتل فيها القط الأعمى مغتصبي الأطفال. فهو الآن يملك المعلومات الكثيرة حول القاتل المتسلسل. وربما يعرف ذلك القاتل كما يعرفه ذكائي. بعد ذلك ترك ألبر وظيفته وفتح شركة أمن سماها درع الأمن، لكنه لم يقطع اتصاله بذكائي بتاتا، بل إنه كان يلتقي به كثيرا. وتقول زوجة ذكائي السيدة جليلة عنه: 'إنه مثل ولدنا 'كان يدخل البيت ويخرج منه بكل أريحية كما قالت."

اتجهت أنظاره من جديد نحو الباب، وسأل بذهول.

"هل تعتقد أن القط الأعمى هو ذلك الرجل الذي في الداخل؟"

رجعت للخلف بهدوء.

"من المبكر جدا أن نقول هذا. لكن من المؤكد أن ذكائي كان يثق في هذا الرجل. وكما تعلمون، الثقة تضعف الإنسان. وربما تكون هذه الثقة سبب وقوع ذكائي في الفخ على غفلة."

همس قائلا: "صحيح جدا." ثم سأل قائلا: "ماذا ستفعلون الآن بشأن ألبر؟ ألن تحققوا معه؟"

"لا داعي لذلك سيد نادر. يجب أن لا يعرف أننا نشتبه به. عِلمًا أن الرجل تحدث في أشياء متسقة جدا، فربما يكون بريئا. ولا تقلقوا، فالتحقيق يتقدم بشكل جيد. لكن ليست المسألة الوحيدة في هذا الملف هو معرفة القط الأعمى فحسب، وإنما أيضا معرفة سبب قيام القط الأعمى بقتل شخص مثل قانصو صارماشيق."

استند نادر الذي أخذ نفسا عميقا للخلف.

"إذن، يمكن القول إن بين أيدينا جريمتين لا تتفقان مع منهج القط الأعمى." حينما وافقت كلامه برأسي استمر في حديثه. "لكنكم تقولون:

ربما يكون سبب كل من الجريمتين مختلفا، أليس كذلك؟"
شبكت يدي فوق صدري.
"لا أقول ربما، وإنما أقول مختلفا بكل تأكيد."
كان يحاول الفهم.
"يعني هناك أشخاص آخرون غير القط الأعمى."
انحنيت نحوه.
"نعم، فإن لم يكن قانصو مغتصب أطفال فإن الذي قتله أشخاص آخرون بكل تأكيد."
كانت الأسئلة تدور في ذهنه وتجري.
"أهم أشخاص يقلّدون القط الأعمى؟"
ذكّرته بالاحتمال الآخر.
"أو ربما أشخاص يستعملونه..."
كان يحاول الفهم.
"نعم، ربما أشخاص يحاولون استعماله." قلتها مواصلا كلامي. "ربما أحد ما أراد أن يلقي بالجرائم التي ارتكبها بنفسه فوق القاتل المتسلسل... فربما تلوثت يده بجرائم عديدة وأراد أن يتخلص منها بتلبيسها للقط الأعمى الذي ارتكب جرائمه قبل خمس سنوات." حل صمت قصير. "وبالطبع هذه كلها احتمالات. فنحن نقوم بإنشاء سيناريوهات بمعلومات ناقصة، وبأدلة سطحية... لهذا السبب لا أريد إزعاجكم باستمرار. وحينما أصل إلى معلومات وأدلة قطعية سأقوم بإخباركم بها على الفور.. لكن من المحتمل أننا توصلنا إلى شريان في غاية الأهمية. سنتحدث بشكل قطعي حينما تنتهي الدراسة بشأنه..."
ضايقته كلماتي، فأخرج من جيبه المنديل الذي مده قبل قليل نحو

خلوصي ومسح به حبات العرق التي تجمعت فوق جبينه.

"أرى أنه من الجيد أن تخبروني على الفور بكل ما تتوصلوا إليه من معلومات وأدلة. وبالطبع أيضا أخبروني بالاحتمالات والسيناريوهات التي في ذهنكم... سنصل معا إلى الحل بشكل أسهل."

كان في صوته عتاب. فلم أرغب بجرح رجل القانون الذي كان يعشق وظيفته.

"لا تسيئوا فهمي سيد نادر، أنا لا أخفي عنكم المعلومات، وإنما لا أريد إزعاجكم بمعلومات لا أهمية لها."

"أنا أفهمكم، ومع ذلك فأنا معجب بما يدور في ذهنكم. وليس هناك من حظ دائم لنا للعمل باستمرار مع حضرة النقيب نوزات..."

شعرت بالخجل أمام هذا المدح الصريح، لكنني بقيت كتوما. فأنا لم أكن مستعدا أن أتحدث شفهيا أو كتابيا في موضوعات لست متأكدا منها حتى وإن رغب نادر بذلك.

"حسنا، سأخبركم بكل ما سأعرفه،" طبعت ابتسامة كما ينبغي على شفتي. "أنتم لستم مجبرين على فعل هذا، لكنني سأكون سعيدا إن تحدثتم إليّ بما يدور في ذهنكم أيضا."

شعر بالسعادة، ولمعت عيناه بكل سرور.

"بكل تأكيد، سأخبرك. فنحن في النهاية فريق واحد سيدي النقيب، وكل رأي له قيمة." توقف. "ألم تعثروا في منزل ذكائي على معلومات بشأن القط الأعمى؟ فهذا الرجل نذر حياته للعثور على هذا القاتل. فربما كان ذكائي يحتفظ بملف خاص."

لم أستطع إخفاء هذه المعلومة عنه لأنه سأل بصراحة.

"نعم احتفظ، حتى أنه كان يحتفظ -مخالفا الأصول القانونية- بصور

عن الوثائق المحفوظة في الأرشيف الأمني. لكن لا بد أن القاتل أخذ هذا الملف، فنحن لم نعثر عليه لا في منزله ولا في قاربه..."

"بكل تأكيد،" قالها وهو يضرب بيده اليمني مسند المقعد. "فهل يعقل أن يترك القط الأعمى خلفه الملف الذي كان السبب في موت ذكائي؟!"

بشّرته كي لا يحزن كثيرا.

"لكن هناك نسخة من الملف بين أيدينا..."

تجهم وجهه، ثم تحدث بسرور.

"كيف؟ هل القاتل ترك الملف في مكان ما؟ أثناء هروبه مثلا..."

"القط الأعمى لا يرتكب خطأ كهذا. هناك نسخة عند ألبر، وقد أعطانا إياها."

أغلق عينيه ثم فتحهما.

"دقيقة، دقيقة... ولماذا يفعل ألبر ذلك؟ بمعنى إن كان هو القط الأعمى... أليس هذا غريبا؟ لمَ يعطنا نسخة من الملف؟"

كان المدعي العام ذكيا أكثر مما كنت أتوقع.

أجبته قائلا: "ربما أخذ أهم الوثائق من الملف الذي أعطانا إياه. أقصد أنه أخذ الوثائق التي تبرهن على أنه القط الأعمى... وما دام أن المعلومات الأخرى لا تعرّضه للخطر فليس هناك من مانع لتسليمنا إياها بالنسبة إليه."

هز رأسه بشكل سريع.

"ليس هناك أي مانع بالطبع. حسنا، وهل اطلعتم على الوثائق؟ هل هناك شبهة تثير الشك حول ألبر؟ أو هل هناك معلومة..."

"تقوم زينب الآن بدراسة الملف. فإن لم تصلكم المعلومات مساء اليوم فستعلمونها غدا في الصباح..."

نهض على قدميه وهو يتحدث بتفاؤل.

"هيا، هيا يا حضرة النقيب، أرجوكم لنحل هذه القضية في أسرع وقت..."

49

"لما تخلّيت عن خيانة وظيفتي."

سمعت صوته وأنا أخرج من منزل ذكائي.

"سيدي، سيدي نوزات."

نظرت خلفي، كان المنادي ألبر، طلب انتظاري. كان إلى جانبه ذلك الرجل الضخم الذي رأيناه أمس في شركة درع الأمن. انتظرت بسرور، فربما ستكون هذه المحادثة عجيبة جدا مع هذا الشرطي القديم الذي أصبح أهم الأشخاص المشتبه بهم.

"ألن تبقوا هنا للطعام؟" قالها وهو يقترب. "هل ذهب المدعي العام؟"

"للأسف الشديد لا أستطيع البقاء، هناك عمل كثير... نعم، ذهب السيد نادر قبل قليل."

ظلّل عينيه بيده بسبب الشمس الساطعة في وجهه.

"يا للعيب! لم أستطع توديع المدعي العام. لكن كما تعلمون كنت مشغولا بأمور الجنازة وتحضير الطعام. وما زال هناك كثير من الأعمال. الأم جليلة والأقارب الآخرون سيذهبون هذا المساء بالطائرة من أجل حضور دفن سيدي ذكائي... أنا لا أستطيع الذهاب معهم، لأن عندي اجتماعًا مهمًا علمت به مؤخرا، فاضطررت للبقاء في إسطنبول. أحمد الله أن له إخوة وأقارب..." تغيّر المعنى من نظراته. "ما الأخبار يا سيدي؟ هل توصلتم إلى نتيجة؟"

"لم نتوصل بعد،" قلتها وأنا أتحول بنظراتي إلى الرجل الضخم الذي كان يقف إلى جانبه وهو يتصبب عرقا. لم يكترث الرجل بنظراتي لكن ألبر شعر بضرورة التوضيح.

"التقيتم سابقا بالسيد مردان، إنه يعمل معي. فبعد مقتل ذكائي لم أعُد أسير وحيدًا."

كان صادقا في قلقه.

"ما تقولونه صحيح، فإن كان القط الأعمى هو من قتل سيدي ذكائي فربما تكونون أنتم في الدور التالي."

تقمص دور الزاهد عن الحياة.

"وماذا بوسعنا أن نفعل إن كان الموت قدرنا... لكن..." تغيرت نظراته. "لكنني أتمنى أن أرى قاتل الأب ذكائي محكوما قبل أن أموت." استجمع نفسه. "صحيح يا سيدي، هل عثرتم على معلومات غريبة في الملف الذي أعطيتكم إياه؟ هل هناك أي دليل يقودكم إلى القط الأعمى؟"

كنت أدرك قلقه، لكنني كنت أود أن أعرف سبب قلقه هذا. هل حقا كان خائفا من مقتله على يد القاتل المتسلسل أم أنه كان يريد معرفة مدى اقترابنا منه كونه فعلا القط الأعمى شخصيا؟

"ما زلنا ننظر فيه، فالمرحوم كان يكتب بشكل غامض، ومعرفة معنى الجمل بالشكل الصحيح يأخذ وقتا طويلا."

كان يستمع إلى حديثي بشك واهتمام.

"هل تعتقدون أنه كان غامضا في بعض المواضيع؟"

"يمكن قول ذلك، لكن هذا لن يطول، فاليوم أو غدا سنفهم مغزى كلامه."

نظرت من جديد نحو الرجل الضخم الذي كان يقف إلى جانب

الشرطي القديم. جبين بارز، وعيون داكنة مختفية في أعماق الجحور، وأنف شبيه بحبة الباذنجان، وفم واسع يشبه جرح السكين العميق، فإذا جمعتم هذه الأعضاء بعضها إلى جانب بعض فسيتشكل لكم وجه لا معنى له. فإن كان ألبر حقا هو القط الأعمى فإنه وبكل تأكيد أثناء ارتكابه الجرائم لن يجد مساعدا له أفضل من هذا العملاق المسمى مردان في نقل الجثث من مكان لآخر.

"وهل أنتم في المهنة نفسها؟"

"نعم؟" قالها هذا الشخص الذي يزيد عني طولا بمقدار رأسين على الأقل. "ماذا قلتم يا سيدي؟"

"هل كنتم تعملون في الشرطة؟"

احمرّ وجهه كالطفل.

"لا، كنت رياضيًّا، ملاكما قديما. أخذني ألبر-سلّمه الله-إلى جانبه، وأنا الآن أحاول خدمته."

أحسّ ألبر بضرورة التوضيح أكثر.

"مردان من مدينتي نفسها، وأبوه صديق أبي. وحينما افتتحت شركة الأمن أخذته إلى جانبي."

تظاهرت بالتصديق.

"الإنسان محلّ الثّقة ثمينٌ في كل مكان. وخاصة إن كان في مكان مثل مكانكم فستكون قيمته أرفع." صمت لحظة، ثم سألت وكأنني أسأل عن موضوع لا أهمية له. "أنتم من يؤمّن ناطحات السحاب التي في بومونتي، أليس كذلك؟"

أجاب بابتسامة المزهو بنفسه.

"نعم، نحن نعمل في أعلى مبنيين في تلك المنطقة. ما الذي جرى؟"

"كان الطبيب الجراح المسمى قانصو صارماشيق المقتول على يد القط الأعمى... يعيش في إحدى شقق ناطحات السحاب تلك التي تؤمّنونها أنتم."

"ماذا؟ ما الذي تقولونه يا سيدي؟ هل قتل الرجل في شقته؟" نظر إلى مردان بقسوة. "ولماذا لم يخبرني أحد بالأمر؟"

صبّ عليه كلامًا غاضبًا، فأجبت بدلا من ذلك الرجل العملاق.

"لا أعتقد أنه قُتل في شقته. ربما تعرض للاختطاف في الطريق. أود أن أسألكم عن هذا، كاميرات المبنى تبقى تسجّل على مدار 24 ساعة، أليس كذلك؟"

هدأ قليلا.

"بالطبع يا سيدي، تستطيعون رؤية اللحظة التي تريدونها أو سأقوم بإرسال سجلات الكاميرا لكم..." تلعثم، وتجهم وجهه من جديد. "أم أن هذا رسالة لي يا ترى؟ هل يود القط الأعمى أن يقول لي: إنك ستكون التالي؟!"

كان يبالغ نوعا ما، وربما كان ألبر هذا جبانا أكثر مما كنت أتوقع. لكنني تركته على خوفه.

"هذا ما لا أعرفه، لكن الحذر واجب." نظرت إلى الزقاق، كانت سيارتي المخضرمة تحدق فيّ وكأنها تقول: هذا كاف، هيا لنذهب من هنا.

"على كل حال، لا بد من الذهاب يا ألبر. أنتم ستبقون في إسطنبول، أليس كذلك؟"

تجهم وجهه.

"نعم، سأبقى هنا، ولماذا سألتم؟"

ألقيت نظرة بلا شعور.

"نحن الآن نحقق في جريمة، ولا نعرف متى ومن نحتاج. على كل حال، البقية في حياتكم، وإلى اللقاء..."

"إلى اللقاء،" قالها، لكن صوته كان يسبح داخل خيبة أمل. لماذا لم أثق به؟ لماذا لم أعامله كصديق بعد؟ سرت دون اهتمام، وبعد بضع خطوات سمعت نفس الكلمات التي سمعتها قبل قليل.

"سيدي، سيدي نوزات."

لا، لم يكن المنادي ألبر، وإنما امرأة، إنها الصحفيّة بوكت. طلبت مني الانتظار مثل ألبر. علقت على كتفها حقيبة خضراء كبيرة، وبدأت بالاقتراب وفي قدميها ذلك الحذاء ذو الكعب العالي. سعدت برؤيتي لهذه الصحفية الجسورة.

"مرحبا سيدة بوكت، لم أراكم في الداخل."

"وأنا أيضا لم أراكم، لكن ابنة جارهم أخبرتني بمجيئكم. وكنت أنتظر خروجكم من الباب منذ فترة... ثم رأيتكم تتحدثون مع ألبر سيبر، فبقيت مبتعدة عنكم قليلا." اقتربت، ومدت يدها. "إن أخذتموني بسيارتكم إلى منطقة زينجيرلي كويو فسأتحدث لكم بجزئية خطرت إلى ذهني."

مددت يدي مسلّمًا عليها، كان كفّها متعرّقًا.

"بكل تأكيد سأحملكم إلى ذلك المكان،" قلتها بود. "حتى وإن لم تتحدثوا سأحملكم إلى هناك، لكن فضولي ازداد من الآن لمعرفة تلك الجزئية." فتحت باب سيارتي. "لكن لا بد من تحذيركم، المكيف لا يعمل في سيارتي."

"ليس مهما، حتى لو سرت على قدمي فلن يختلف الأمر، ففي كل خطوة ينفجر العرق من جسدي كلّه..."

انتظرت جلوسها جانبي، أدرت مفتاح السيارة. اهتزت لكن المحرك لم يعمل. فقلت في نفسي لا تفعلها يا ابني، جربت من جديد، فاهتزت هذه المرة بشكل أقوى من السابق لكنها سعلت ثم صمتت. يبدو أنها ستتركني هنا، فأخذت نفسا عميقا وجربت من جديد. اهتزت بشكل خفيف وارتفع صوت من المحرّك؛ ذلك الصوت هز السيارة بأكملها إلى أن وصل إلى تلك النقرة التي اعتدت عليها. وأخيرا اشتغل محرك السيارة. رفعت رأسي وأنا أشعر بالراحة، في تلك اللحظة رأيت ألبر منتصبا أمام الباب يحدق فينا. نظرت إلى بوكت وأنا أشير برأسي إلى الشرطي القديم.

"كيف تعرفتم إليه؟"

"أعرفه منذ أمد، كان مساعدا لسيد ذكائي. التقيت به سنةَ وقوع الجرائم."

همهمت وأنا أدوس دواسة البنزين.

"في 2012..."

فتحت النافذة إلى آخرها.

"نعم، في السنة التي قتل فيها القط الأعمى 12 شخصا... في الحقيقة كان شرطيا طيبا، ولا أعرف سبب تركه مهنته. لكن بالنسبة إليه كان الأمر جيدا. فقد قام بإنشاء شركة للأمن كما تعرفون. وهو الآن يعمل لعملاء مهمّين."

وحينما عبرنا أمام البيت رآنا ألبر فسلم برأسه.

"لا يؤمّن الشركات فحسب وإنما يؤمن أيضا ناطحات السحاب..."

حينما قالت ناطحات سحاب تذكرت الطبيب قانصو، فكان من المفيد سؤال بوكت.

"هل تعرفون أن المقتول الأخير كان يقيم في إحدى شقق ناطحات

السحاب التي تؤمنها شركة ألبر؟ اسم الطبيب قانصو صارماشيق... هل سمعتم به من قبل؟"

كررت وهي مستغرقة في التفكير.

"قانصو... قانصو... قانصو صارماشيق... أين سمعت هذا الاسم من قبل يا ترى؟ حسنا تذكرت، كان شريكا للسيد حياتي..."

هذا يعني أنها تعرفه، لا بد من المواصلة في الموضوع نفسه.

"تقصدون صاحب مستشفى سراب، أليس كذلك؟"

أجابت بوكت مؤكدة ذلك.

"نعم، حياتي دارجان... وتعرفون حكايته... فقد ابنته... ماتت ابنته الصغيرة لعدم عثورهم على عضو لها..."

كان فضولي يتزايد.

"وكيف عرفتم ذلك؟"

جمعت شعرها المتطاير في الهواء الحار.

"لأنني قمت بكتابة ذلك الخبر. فقد قام الطبيب الجراح الذي فقد ابنته لعدم توفر عضو بافتتاح المستشفيات الخاصة بنقل الأعضاء كي يبقى الأطفال على قيد الحياة. علاوة على ذلك أطلق اسم ابنته سراب على هذه المستشفيات. فهل هناك خبر أكتبه أفضل من ذلك؟" صمتت، وأدارت عينيها نحو الزقاق الضيق الممتدّ أمامنا وهي مستغرقة في لتفكير، ثم نظرت إلي. "يا سيد نوزات، لا يمكن أن يكون السيد حياتي له علاقة بهذه الجريمة. فأنا لا أصدق أبدا أن هذا الرجل يمكن أن يلحق الضرر بأحد. تحدثت معه، ومع زوجته، ومع ابنتيه اللتين ولدتا بعد ابنته سراب. هو أب طيب، وإنسان رائع..." تلعثمت، علق ذهنها بأمر ما. "مع أنه أُدينَ سابقًا بعملية تهريب الأعضاء... لكن تبين بعد ذلك أن هناك سوء فهم."

انتبهت جيدا حينما سمعتها تقول تهريب الأعضاء.

"ما الذي حدث في موضوع تهريب الأعضاء؟"

بدأت بالتوضيح دون اكتراث.

"في الحقيقة أنا لا أتذكر كل شيء، فقد قمت بالبحث قبل كتابة الخبر، وفي ذلك الوقت رأيته بعيني. حتى أنني سألته وهو يتحدث فقال: 'إنه تقصير من المستشفى الذي أعمل فيه. لم يلتزموا بالقوانين فحدث هناك سوء فهم. فأخذوني إلى النضارة وبقيت هناك ثلاث ليال. وهذا كل ما في الأمر.' ولا يوجد بشأنه مواضيع أخرى تثير الجدل. إنسان نظيف جدا. إن لم تصدقوني فقوموا بأنفسكم بالتحرّي عنه وستعرفون ذلك... أنا لا أعرف وضع الطبيب قانصو صارماشيق. لكنني حينما أعود إلى الصحيفة سأبحث عنه..."

ألقيت نظرة امتنان نحو بوكت.

"سأكون سعيدا لو أخبرتموني بما تعثرون عليه. نعم صحيح، ما تلك الجزئية التي خطرت إلى ذهنكم؟"

غطى الحزن عينيها اللامعتين.

"في الحقيقة عاهدت أن لا أتفوه بهذه المعلومة..." اختنق صوتها، لم أكن أر، لكن يبدو أن عينيها تبلّلتا. "عاهدت السيد ذكائي... قبل خمس سنوات... كانت مصادفة للجريمة الثانية عشرة التي ارتكبها القط الأعمى. اقتربت وقتها من النقيب ذكائي وهو ينظر إلى الرمز الشريطي للعبة المتروكة في مكان الجريمة. حينما أدرك وجودي تخلى عن فحص اللعبة. لكنني لم أترك الأمر أبدا. نظرت إلى جميع الرموز الشريطية للألعاب التي تركت في أماكن الجرائم، تبين لي أن القاتل قام بتغيير جميع الأرقام الحقيقية لهذه الرموز واستبدالها بأرقام من عنده. وبالطبع كان مجموع

الأرقام يساوي العدد 12. وحينما اكتشفت هذا اتصلت بسيدي ذكائي. فقال لي: 'إن كتبت هذا فإنك ستكونين بذلك قد قدمت مساعدة للقاتل المتسلسل. لطفا، فلتبقى هذه المعلومة بيننا.' لم أدرك سبب حديثه هذا. فسألته: 'ولماذا تعد أرقام هذه الرموز الشريطية مهمة؟' فأجاب: 'قد لا تكون هذه الرموز وحدها مهمة جدا، لكن كلما كانت المعلومات المتعلقة بالجريمة مخفية كان الأمر أفضل بكثير. فسيأتي يوم سيكسب من كان يعرف هذه المعلومات أهمية في التحقيق.' والحقيقة أنني حتى هذه اللحظة لم أدرك بالضبط مغزى كلامه. لكن ما دام أن ذكائي قد مات وما دام أنكم أنتم من يحقق في هذه القضية فقد اعتقدت أنه من الواجب أن أتحدث إليكم بهذه الجزئية البسيطة التي ربما لا تكون لها أي فائدة." تعلقت عيناها المبللتان بوجهي من جديد. "أم أنه تحدث لكم بهذه المعلومة من قبل؟"

تحدث لكنه لم يدخل في التفاصيل. ومن المحتمل أنه أخفى عني الكثير من المعلومات، معتبرا أن القبض على القط الأعمى مسألة شخصية. لم يكن يرغب في ترك هذه الوظيفة الصعبة لأحد غيره، لكنني لو صرحت لها ذلك لكنت مجحفا بحق صديقي.

كذبت قائلا: "بالطبع تحدث لي، لقد كان ذكائي شرطيا طيبا..."

لم تقتنع بوكت بكلماتي.

"أنا لا أشك في كونه شرطيا طيبا. كان ذكيا، ونشيطا جدا، وكتوما للغاية. هل تعرفون أنني كنت معجبة بهذا الشخص المتواضع. وأحيانا كنت أتساءل كيف يعمل ذهنه. نعم، فحينما كان يتحدث ببعض الأفكار كنت أوبخ نفسي لعدم التفكير بها من قبل. للأسف الشديد لم يعد بإمكاني الآن التحدث معه. فعلى سبيل المثال، لماذا قال لي لا تكتبي

شيئا عن تلك الأرقام الرمزية للألعاب؟ بكل تأكيد هناك سبب مهم. ومن المستحيل أنه طلب ذلك عبثا. علما أننا كنا نكتب في صحيفتنا كل شيء يتعلق بالقط الأعمى."

ألقيت نحوها نظرة جانبية وأنا أبتسم.

"لو كان الأمر بيدنا يا سيدة بوكت لما تحدثنا لكم بتلك التفاصيل المتعلقة بالقاتل. لأننا نحن أمام قاتل متسلسل لا يرحم. ومجرى التحقيق يكون جيدا في حال امتلاكنا كثيرًا من المعلومات عن هذا القاتل. علاوة على هذا فمن المهم جدا أن لا يعرف القاتل المعلومات التي بين أيدينا. لا تسيئوا فهمي، أنا لا أقول لكم لا تقوموا بواجبكم. فأنا أعرف أنكم ترغبون بالتوضيح لمؤسستكم، لكن بعض ما تكتبونه يجعلنا مقيدين لا نستطيع فعل شيء."

"فهمت ذلك،" قالتها بصوت خجول. "منافعنا ليست مشتركة دائما..."

"الأمر كذلك لسوء الحظ..."

بدأت الحديث بصوت مخلص بدا واضحا من نبرة اعترافها.

"لو أنني أعلم أن ذلك القاتل سيقبض عليه لما تخلّيت عن خيانة وظيفتي. ثقوا تماما يا سيدي لو أنهم قالوا لي: سنقبض على القط الأعمى فلا تكتبي عنه أي كلمة، لقبلت أمرهم دون أي شرط."

"المشكلة أن الحديث عن ذلك القاتل أدى إلى نشوء طبقة من المعجبين به يا سيدة بوكت. ليس الناس فحسب وإنما هناك أشخاص من مؤسستنا الأمنية أصبحوا يعجبون بالقاتل..."

تحدثت بندم.

"وأنا كنت معجبة به... حتى وإن لم أوافقه بصراحة إلا أنني كنت

في داخلي معجبة به لقيامه بقتل المتحرشين بالأطفال، لكن سيدي ذكائي..." لم تستطع الإكمال. "لم يستحق الموت... كان إنسانا طيبا، وما زال الموت مبكرا عليه..."

رأيت دموعها المنهمرة على خديها، لكنني لم أتفوه بشيء. بقي ذهني عالقا بكلماتها التي قالتها قبل قليل.

"لماذا قال لي لا تكتبي شيئا عن تلك الأرقام الرمزية للألعاب؟"

50

"جهنم فارغة. وجميع الشياطين بيننا."

حينما دخلت المركز الأمني ارتطمت بأنفي رائحة الزنبق المعهودة في الممر الطويل المضاء بالمصابيح البيضاء. رأيت حينها السيدة يتر وفي يدها اليمنى دلو أحمر بلغ الماءُ نصفَه، وفي يدها الأخرى فرشاة تنظيف سميكة مثبتة على طرف عصا. وحينما رأتني وضعت الدلو على الأرض ومسحت بظهر يدها حبات العرق المتجمعة فوق جبينها.

"ما هذا الحر يا سيدي؟! لم أر مثله من قبل ولم أسمع! ما الذي يجري؟ هل ستحدث هزة أرضية؟"

لم تكن هناك هزة أو أي شيء من هذا القبيل، لكن إن بقيت الأجواء مستمرة على هذه الحال فسيخرج الناس عن طورهم ويجن جنونهم.

"لا، لا يا سيدة يتر، لا تخافوا، لن يكون هناك أي شيء من هذا القبيل، لن يستمر طويلا وستعود الأجواء إلى حرارتها الطبيعية."

كانت تتنفس بصعوبة.

"أيام مضت ولم تعد الأجواء إلى طبيعتها. كانت الحرارة في الماضي تستمر يوما أو يومين ثم تزول، لكن هذه الحرارة لا تعرف النهاية. الجو حار جدا وكأنهم أوقدوا نارا تحتنا. لم تنقص الحرارة ليلا أو نهارا مقدار ذرة. وبالطبع هذه الرطوبة..."

لم تكن هذه المرأة تبدو بخير، وبالطبع لم تعد شابة.

"استريحوا قليلا سيدة يتر، العمل كثيرا في هذا الجو الحار ليس جيدا..."

أشارت بعينيها السوداوين نحو الأعلى.

"ليس الجميع متفهما مثلكم يا سيدي، فإن رأى من هو في الأعلى ذرة غبار هنا ستقوم قيامتي."

كانت تقصد مدير المركز الأمني؛ حقا كان المدير عصمت بك دقيقا جدا في هذه الأمور إلى درجة المرض.

"ومع ذلك لا تتعبوا أنفسكم كثيرا. حتى السيد عصمت شخصيا لن يرغب في عملكم كثيرا خلال هذا الجو الخانق."

قالت: "آه، آه يا ليت ذلك يحدث. تكون أنت المدير هنا فتأخذ يتر يوما لها ترتاح فيه."

أطلقت ضحكة صغيرة.

"هذا مستحيل، هيا، أعطاكم الله العافية."

"ولماذا مستحيل؟" قالتها من خلفي ثم تابعت. "سيكون ذلك جيدا جدا..."

لم أكترث واتجهت نحو غرفة زينب. وبينما كنت أسير في الممر سمعت صوت علي يتحدث بذلك الانفعال الجامح.

"لا داعي للتفكير بهذه الدقة عزيزتي زينب. هؤلاء منحرفون، فلا تضيعي وقتك في سبيلهم. لن يكون لذلك أي فائدة. لن يكون بمقدورك إيصال هؤلاء السفلة لمستوى الإنسان. أنا لا أطالب بقتلهم كما يفعل القط الأعمى بهم، لكنني أرى أن تُلقي بهؤلاء السفلة في السجون أو في المستشفيات أو في مكان آخر منعزل..."

جاء الرد سريعا.

"نحن نقوم بذلك في الأصل، لكن الأهم هو القيام بالبحث حول هذا المرض." كانت زينب تتحدث بإيمان. "كيف يمكن لإنسان أن يغتصب طفلا صغيرا؟! لمَ يقوم بهذا العمل القذر؟! لا بد من العثور على نتيجة لهذه الأسئلة. وبذلك سنتمكن من التعامل بشكل أسهل مع هذا المرض القبيح."

"وما شأني بهذا المرض؟!" قالها الضابط العجول معارضا رأيها. "فلينشغل بهذا الموضوع علماء الاجتماع وعلماء النفس، أما وظيفتي فهي العثور على هؤلاء الحقيرين والزج بهم في السجن بعيدا عن الأطفال."

"لكن ليس بهذا الشكل يا علي،" ردت زينب بصوت عال. "أنا أتحدث لك عن مرض -سواء كان تحرشا أو اغتصابا-يهز المجتمع بأكمله. أتحدث لك عن مشكلة إنسانية. أو على الأصح يجب أن نعرف ما هي مشكلة الإنسان بالضبط وما الذي يريده؟ فها هي إحدى المستشفيات في إسطنبول صرّحت مؤخرا عن وجود 115 فتاة حامل لديها خلال خمسة شهور فقط... نعم عزيزي علي، هؤلاء الفتيات ينجبن إخوة لهن لا أولاد، لأنهن يحملن من إخوانهن وآبائهن وأعمامهن... هذه المشكلة يا علي ليست من المسائل التي تحلّ بالسجون. يجب أن نعالج المجتمع، وأن نطهّر روحه، وأن نسعى لإزالة القذارة والسفالة منه. لذلك إن لزم الأمر لا بد أن نفكر مثل علماء النفس وأن نتصرف مثل علماء الاجتماع..."

ضحك مساعدي بغضب.

"هذه الأمور تحدث في الروايات والأفلام عزيزتي زينب، الحياة الحقيقة أبسط من ذلك. وعديمو الشرف لن يستقيموا ولن يعودوا لرشدهم، ألا تريهم يقولون: اخصونا. خذي على سبيل المثال ذلك الأحمق الذي يدعى حجابي. الرجل منحرف، جسده قذر وروحه قذرة. لا أدري، ربما

كانت له علاقة غريبة بوالدته، وربما كان عاشقا لأبيه... فإن بقيت أنا منشغلا بالبحث من أجل أن أفهمه وأفهم من هم على شاكلته فإنه في هذه المدّة سيهتك شرف ثلاثة أطفال آخرين... ها هو قد مات وانتهى. إن كنت حزينا عليه ولو بمقدار ذرة فأنا بلا شرف. لقد نقص من الدنيا شخص قذر..."

"أنت تتحدث بغضب، أنا أفهمك، أنت محق، لكن لن تحل الأمور بهذه العقلية. يجب أن لا نعتبر المسألة شخصية."

والآن أصبحت أرى كلا منهما، كانت زينب تجلس أمام جهاز الحاسوب، أما علي فواقف يستعد للرد.

"المسألة ليست شخصية، حتى لو لم أقع في تلك المصيبة فأنا أفكّر بهذا الشكل. الحياة لا تتحمل كل هذه الدقة عزيزتي زينب. السيء يبقى سيئا، ولن تستطيعي أن تقوّميه بالشكل الصحيح ولن يكون بمقدورك أن تعالجي مغتصب أطفال، أو مشته لهم. فإن أشفقت عليه وأطلقت سراحه فإنك ستكونين سبب دمار حياة أطفال أبرياء آخرين."

لاحظت انفعال زينب.

"علي، هل تستمع إليّ جيّدًا؟ هل قلت: أطلقوا سراح مغتصبي الأطفال؟ لنقم بتطبيق المنهجين بأفضل ما يمكن. وبالطبع نحن متفقان على ذلك. الأمر الذي أردت قوله هو إن هؤلاء المنحرفين لم يأتوا من المريخ، وإنما هم بشر مثلي ومثلك. جميعهم لديهم عائلات، حتى أن لبعضهم أطفالًا بعمر الأطفال الذين اغتصبهم. الشيطان لم يوسوس لأحد منهم أبدا ولم يخدعهم. أنا أتساءل عن سبب فعلهم هذا. لماذا يقوم الإنسان بهذا الأمر المشين؟! لا بد لنا أن نعرف سبب ذلك. ربما حينها نتمكن من مواجهة الذنب والمذنب بشكل أفضل."

"أنا أتفق معك في ذلك، لكن ما تقولينه يأخذ وقتا طويلا. يستمر لشهور وسنوات، المهم ما الذي يجب فعله الآن؟"

اقتربت منهما كثيرا فاضطررت للمشاركة في الحديث.

"مواجهة الذنب يأخذ وقتا طويلا يا علي. وهذا العمل ليس من عمل الشرطة فقط."

استجمع كلا منهما نفسه حينما رآني.

"لا تؤاخذاني يا رفيقَيّ، استمعت إلى حديثكما دون قصد." نظرت إلى علي. "لكن زينب مُحقّة، فنحن لن نستطيع القضاء على هذا الأمر المشين باعتقال المتحرشين بالأطفال فردا فردا، فها نحن مثلا لا نستطيع منع حدوث جرائم القتل رغم اعتقال القتلة ومعاقبتهم. ولو كان الأمر كذلك لكان منهج القط الأعمى مؤثّرًا. قتل 12 شخصا في سنة واحدة كي يكونوا عبرة لغيرهم. لكن ما الذي جرى؟ هل نقصت حوادث اغتصاب الأطفال؟ هل تخلى السفلة عن أفعالهم القذرة؟ لا أعتقد ذلك، لا بد لنا من التعمّق في جذور هذا المرض. نعم عزيزي علي، هذا العمل يتطلب نضالا كبيرا. وإذا لزم الأمر فلا بد لنا نحن أيضا أن نكون أطباء نفسيين وعلماء اجتماع. ولن نستطيع أن ننتصر بشكل آخر."

بالطبع لم يكن مساعدي مؤيدا لي بتاتا، لكنه تخلى عن المناقشة في الوقت الحالي لوقوعه بين سيده من جهة ومحبوبته من جهة أخرى. التزم الصمت وتراجع للوراء. زينب أيضا نهضت على قدميها.

"اجلسي، اجلسي عزيزتي زينب..." اتجهت أنظاري نحو الأوراق التي كانت فوق الطاولة. كانت عبارة عن وثائق حصلنا عليها من ألبر بشأن القط الأعمى. "كيف تجري الأمور؟ هل وجدت شيئا؟"

قالت بيأس وهي تجلس على مقعدها.

"لم نصادف أي معلومة مهمة حتى هذه اللحظة يا سيدي. جميع المعلومات نعرفها. لكن لم أكمل الملف حتى هذه اللحظة..."

اقتربت من الطاولة، وخلطت الأوراق.

"هل صادفت ملاحظة متعلقة بالرمز الشريطي؟ يعني الرمز الشريطي الموجود خلف الألعاب التي تركها القط الأعمى في أماكن الجرائم. كان القط الأعمى يلصق أرقاما خاصة أنشأها بنفسه على جميع الألعاب التي ارتكبها في عام 2012. وبالطبع مجموع هذه الأرقام يساوي العدد 12... هل رأيت ملاحظة من هذا القبيل في الوثائق التي قرأتها؟"

نظر علي وزينب إلى الأوراق وكأنهما سيجدان تلك المعلومة في ذلك الحين.

"لا يا سيدي لم نجد،" قالتها زينب. "لم أر ملاحظة مثل هذه. ولا أعرف إن كانت موجودة في الأوراق التي لم أطلع عليها بعد..."

تركت الأوراق التي كانت في يدي على الطاولة.

"لا تنس ذلك، إن عثرت على ملاحظة كهذه فأخبريني على الفور. ولا ننسى أيضا أن ننظر في الرموز الشريطية للألعاب التي وجدناها مع الأشخاص الثلاثة الذين قتلوا مؤخرا في هذه السنة. وسنرى ما إذا كانت هي نفسها رموز الألعاب التي عثر عليها في أماكن الجرائم قبل خمس سنوات."

"حاضر سيدي، سنحقق اليوم فيها."

نظرت إلى مساعدي الذي كان منتصبا على قدميه.

"وأنت ماذا فعلت عزيزي علي؟ هل تحدثت مع سائق التاكسي؟"

استعدّ للحديث فورا.

"تحدثت سيدي، اسم السائق جيهان بوزاجي. لقد تذكر الشخص

المشتبه به على الفور. ركب معه من منطقة قوجه مصطفى باشا. قال عنه: 'إنه رجل لطيف جدا، حينما ركب السيارة قال لي طابت أوقاتك، وحينما نزل قال: أعطاك الله العافية" ولم أر راكبا مثله قط. لكنه لم يتحدث طوال الطريق أبدا. ' اعتقد السائق أن هذا الرجل مهموم. وسألته: 'هل تحدث ذلك الرجل بالهاتف؟' قال لي: لا، بقي في زاوية المقعد الخلفي صامتا منذ ركوبه إلى أن وصلنا منطقة بومونتي."

"يتفق تماما مع شخصية القط الأعمى،" قالت ذلك زينب. "إنه يتصرف بحذر دقيق. ومن المحتمل أنه ركب سيارات أخرى قبل ركوبه هذه السيارة. ولا أعتقد أن منزله في منطقة قوجه مصطفى باشا. وربما تتضح هويته..."

توقفت عن الكلام، كانت أنظارها عالقة بمكان خلف رأسي، أدرت رأسي. كان منير منتصبا أمامي.

"مرحبا سيدي،" قالها بخجل. ربما تذكّر تحديقه في زينب دون انقطاع قبل أيام. لا بد أنه حينما رآها مع علي شعر بالخجل. لم يطل ذلك كثيرا، واقترب بجدية. "لم أجدكم في مكتبكم. ذكرَت عاملة النظافة أنكم موجودون هنا. لقد أحضرت لكم السيد مدني وهو الآن جاهز للتحقيق."

كان أفضل خبر سمعته في هذا اليوم.

"هيا لنذهب إذن،" سرت بضع خطوات، ثم عدت. "علي، تعال أنت معنا أيضا. عزيزتي زينب، أكملي هذا العمل، وموضوع الرمز الشريطي مهم، من فضلك لا تغضّي الطرف عنه..."

"حاضر سيدي، لا تقلقوا."

وحينما خرجت إلى الممر أسمعني منير الخبر الثاني.

"صدرت نتائج التشريح الخاصة بفخّار، الطفل مات غرقا في البحر. امتلأ جوفه بالمياه المالحة. وحينما غرق كان سليما. يعني لم تكن هناك جناية وإنما كانت حادثة غرق. وبالطبع لم أكن مخطئا، فهناك كلية واحدة مفقودة لكن أخذت قبل ستّة شهور وليس قبل سنة كما يزعم مدني... بمعنى أن العملية الجراحية كانت بعد مجيئهم من كيليس. ولا بد أن العملية كانت في إسطنبول ولا بد أن مدني هو من باع كلية الطفل. ويبدو أن ما قالته أيبر صحيح. لكنني لم أتحدث بعد مع مدني بهذه القضية، أردت أن نحقق معه سوية..."

لمست كتفه بامتنان.

"شكرا جزيلا منير، كان خيرا ما فعلت، وهذه القضية ربما تكون مفتاحا لقضية القط الأعمى."

ابتسم ابتسامة باهتة.

"والله يا سيدي أنتم تقومون بعملكم لكنني أعتقد أن القبض على القط الأعمى ليس أمرا محمودا."

لاحظت حينها ابتسامة علي أيضا، كان سعيدا برؤية شخص يفكر بالطريقة نفسها التي يفكر فيها. وحينما رأيته يهزّ رأسه موافقا زميله على ما قاله لم أستطع التحمل.

فقلت غاضبا: "ما الذي تتحدث عنه يا منير؟ الرجل قتل ذكائي. وإن خرجنا في وجهه سيقتلني ويقتلك أيضا من دون أدنى تردّد. الرجل قاتل، قاتل... أنحن إلى هذه الدرجة عاجزون؟! هل وصلنا إلى درجة نطلب فيها المساعدة من مجرم؟!"

تعكّر مزاج منير، لكنه لم يتراجع خطوة واحدة.

"أنا لست موافقا على قتله سيّدي ذكائي. تجب محاكمته بأقصى

العقوبات. لكنني أريد قول هذا، نحن فعلا عاجزون أمام مغتصبي الأطفال. أنا أقول هذا بصفتي واحدًا انشغل بهؤلاء السفلة منذ سنوات. ولن نحل هذه المشكلة مهما فعلنا. نزج بهم في السجون ونرسلهم إلى المستشفيات لكنهم حينما يخرجون يقومون بالرذيلة نفسها. إن أردتم يا سيدي وبّخوني، اغضبوا مني لكنني أود أن أقول لكم إنني أكون في غاية السعادة حينما يتعرض هؤلاء السفلة في السجون إلى الضرب من المساجين، أكون فرحا جدا حينما تداس أعناقهم."

رددت قائلا: "هذا الوضع بالنسبة إلى شرطي خطير يا منير." لكنه قاطعني تاركا بقية الكلام في فمي قائلا: "أعترف بذلك يا سيدي لكن هذا لن يكون مانعا لسعادتي. حقا أنا سعيد جدا حينما أرى المساجين يفعلون بهؤلاء ما لا نستطيع نحن فعله."

لم أعرف بماذا أرد عليه. ظن منير أن صمتي يدل على موافقتي له.

"في اليوم الماضي اشترت زوجتي تذكرة لحضور مسرحية من مسرحيات شكسبير يا سيدي. سئمت قليلا لكن كانت هناك عبارة تأثرت بها كثيرا. وذلك حينما قال الممثل في أحد المشاهد: 'جهنم فارغة. وجميع الشياطين بيننا.' حقا يا سيدي الأمر كذلك، هؤلاء جميعهم شياطين وأباليس، هربوا من جهنم وتسللوا بيننا. لهذا السبب يجب أن لا تشفقوا عليهم..."

كان يتحدث بيأس وتشاؤم، ولم يكن هناك أي معنى من الاستمرار في الحوار. حتى ولو تحدثت فإنه لن يدرك أن أولئك الشياطين الذين قال عنهم هربوا من جهنم هم في الحقيقة ضحايا وقرابين.

51

"ألا لعنة الله على اليأس الذي جعلنا ظالمين."

كان مدني ينتظر وعيناه التُّرابيّتان تحدّقان في نقطة ما من الطاولة. حينما رآني لمع وجهه لحظة لكن ذلك لم يطُل، فحينما لم يرَ الابتسامة نفسها ترتسم على شفتي تحرّك في مكانه قلقًا. ما الذي يجري يا ترى؟

"مرحبا سيد مدني."

جعلت صوتي باردا قدر الإمكان، وسلطويا بقدر المستطاع.

"مر... مرحبا سيد نوزات."

سحبت الكرسي، وجلست أمامه. وقف علي على قدميه في الجهة اليمنى من الطاولة، ووقف منير خلف الرجل يراقب بطريقة مستفزة.

سألت بصوت بارد خال من أي شعور.

"أي نعم، تحدث إلينا."

بدأ يتلعثم.

"ماذا، ماذا أتحدث سيد نوزات؟"

تحدثت بإيماء يكاد يكون ساخرا.

"هل تعرفون لماذا أنتم هنا؟"

أرجع عنقه للوراء وفتح ذراعيه جانبا.

"لا أع... لا أعرف يا سيدي، لا نعرف... زوجتي زنّوب تحيرت أيضا. في لحظة لم أتوقعها... أدخلوني إلى السيارة مسرعين. خافت المرأة

المسكينة كثيرا. الله أعلم بحالها الآن." حاول النظر بعينين خائفتين إلى منير الذي كان منتصبا خلفه لكنه لم يستطع رؤيته. "وهذا الضابط لم يتحدث بشيء على الإطلاق..."

أخذت نفسا عميقا متظاهرا بعدم الاستماع لما قاله.

"انظروا سيد مدني، لقد أحببتكم. واعتقدتُ أنكم مخلصون. لأن أفكانيا تحدثت لي عنكم. كنتم قانطين، ويائسين، وفي حاجة للمساعدة. ولهذا السبب بذلت كل ما في وسعي في سبيل تقديم المساعدة لكم. لكنكم لم تكونوا عند حسن ظني. لقد خدعتم السيدة أفكانيا، وخيبتم أملي فيكم."

بدأ بالدفاع فورا.

"أنا لم أخدع أحدا، صدقوني أنا صادق مخلص يا سيد نوزات. لا بد أن هناك خطأ، أنا لم أرتكب جُرمًا..."

قاطعه مساعدي بذلك الأسلوب القاسي.

"لا تتحدث قبل أن تُسأل! يجب أن تنظر إلى فم سيدي النقيب، فحينما يسأل تجب. ولا تتحدث في أمر آخر، هل فهمت؟"

تحدَّث علي بهذا الأسلوب القاسي زاد من قلق مدني، ولم يعرف بما يتحدث.

"أنا أتحدث معك، لا تتحدث قبل أن يُطلَب منك،" قالها علي موبّخًا من جديد. "هل فهمت؟"

"فه... فهمت يا سيدي"

صمت وابتلع ريقه.

"هناك موضوع جدّي يا سيد مدني. يتعلّق بموت طفل. طفل عربي مثلكم جاء من سوريا وقُتل هنا..."

تجهّم وجهه بألم.

"فخار؟ وهل قُتل فخّار؟"

انحنى منير من خلفه وأمسك بكتفي مدني.

"لا، فخار غرق في البحر."

ارتعد الرجل العجوز، واستمر منير في كلامه دون اكتراث.

"الطفل الذي نقصده طفل السيدة أيبر وزوجها جابر... ذلك الطفل صاحب النظرة الملائكية المصاب بمتلازمة داون..."

تهرب مدني بنظراته.

"برجس،" قالها بخجل وخوف. "الطفل المسكين مفقود منذ شهر، هذا يعني أنه مات..."

هز منير كتفَي مدني بقسوة.

"لا تتظاهر بالجهل! ألم تقم أنت بأخذ برجس إلى ذلك المستشفى المزيف؟!"

كان متوترا مثل شخص قُبض عليه متلبّسًا، حاول تخليص كتفيه من مخالب منير لكنه فشل.

"كذب، والله إنه كذب، إنهم يفترون عليّ."

"لا فائدة من الكذب سيد مدني،" قلتها وأنا أشبك يدي فوق الطاولة. "لقد ذكرت أيبر شخصيا أنكم نقلتموهم إلى ذلك المستشفى. وبينت أن لكم علاقات مع مهربي الأعضاء البشرية."

لم يستسلم فورا.

"لا، لا علاقة لي بهذا الأمر. فليخسفني القرآن، فليضربني المصحف إن كنت..."

صاح علي قائلا: "إن بقيت مستمرا في الكذب فسأضربك أنا بدلا من

القرآن. انظروا، إنه يذكر القرآن بلا خجل..."

كنت أتألم من هذه المعاملة القاسية لهذا الرجل العجوز، لكنني حينما تذكرت أفعاله رأيت أنه كان يستحق أكثر من ذلك. ومع ذلك كنت أدعو في نفسي أن يعترف في أقرب وقت حتى نتخلص من هذا الوضع المخزي.

"آه صحيح، من هو ميرزا هذا؟" سألت محاولا تخفيف الضغط.

"نعم، نحن نعرف لقب الرجل. انظروا سيدي مدني، إن القبض على هؤلاء السفلة مسألة وقت فقط. فإما أن تتوحدوا معنا وتساعدونا في القبض عليهم وإما سأزج بك في السجن معهم."

أوشك أن يقفز إلى الأعلى من مكانه.

"هذا خطأ يا سيدي، أنا إنسان صادق..."

لم يأذن منير له بإكمال كلامه، وضع إصبع السبابة على ظهره ودفعه بغضب.

"كفى، لا تكذب. أنت رجل حقير لا تتردد أبدا في بيع كلى الأطفال الصغار من أجل بضعة قروش. على أي موّال تلعب بنا؟"

كان مدني ينظر إليّ بعينيه اللتين ازداد الخوف فيهما وكأنه يطلب المدد منّي. فقد كان يدرك أنه لن يسمعه أحد غيري في هذه الغرفة. هززت رأسي بيأس.

"من العبث أن تُنكر يا مدني. نحن نعرف كل شيء، ولن ينقذك أحد، لكن إن اعترفت ربما..."

"لكن..."

"دعك من لكن،" قالها علي وهو ينحني نحو الرجل. "تحدث، تحدث بكل ما قمت به من سفالة."

كان علي يتقدم كثيرا، وكأنه يريد أن يُخرج ألم المناقشة التي حدثت

بيننا قبل قليل من ظهر مدني. أوقفتُ علي عند حدّه بيدي اليمني ونظرت نحو الرجل العجوز.

"نحن نعرف مدى صعوبة الأوضاع التي تواجهون. ونحن نعرف الأسباب التي أدت بكم إلى القيام بهذه الأمور المشينة... ولو لم تكونوا في حال كهذه لما كنتم ظالمين بهذا الشكل..."

لاحظت ارتجاف جسد الرجل، لم يحتمل أكثر وبدأ بالبكاء. بكى أولا بصمت ثم بعد ذلك بدأ ينحب وهو يغطي بيده السمراء وجهه الطويل النحيف. دموع مدني لم تؤثّر لا في أنظار علي ولا في أنظار منير. بعد بضعة دقائق، سكن مدني، ومسح بظهر يده اليمنى دموعه.

"لن تستطيعوا أن تدركوا يا سيدي،" قالها بصوت شخص مغلوب على أمره. "لن يستطيع أحد حتى وإن كان رحيما مثلكم أن يدرك ما مررنا به. ألا لعنة الله على اليأس الذي جعلنا ظالمين، جعلنا أناسا قساة." نظر إلى علي بتحدّ. "صحيح، لقد بعت كلية ابن أخي، لأنه لم يكن في مقدورنا شراء علاج لزوجتي، ولأننا لم نكن نعيش كالبشر في ذلك الملجأ. اعتقدنا أننا سنتخلص من الفقر، اعتقدنا أننا سنعيش بهناء مع فخار وعزز."

ما زال الوقت مبكرا للدخول في موضوع عزز.

"هل أنتم من عثر على ميرزا لبيعه كلية فخار؟"

"لا،" قالها وهو ينشق أنفه. "ميرزا عثر علينا. فالرجل له علاقات مع الموظفين في المكان الذي نقطنه. جاء إلى المقهى المقابل للملجأ، وتحدث معي هناك. وعدني بالمال الكثير. وبيّن لي أنهم إذا أخذوا كلية واحدة فإنه لن يكون هناك أي خطر على الطفل، وسيبقى على قيد الحياة. قاتلني الله، لقد لعب الشيطان في عقلي وصدقت كلماته..."

كان مدني على وشك البكاء فوبخه علي قائلا: "الشيطان أنت نفسك.

ثم تأتي الآن وتلعب دور النادم."

نصبت عيني في وجه علي لكنه لم يكترث.

"لو أنك تعلم أنه سيأتيك مال مرة أخرى لفعلت غدا نفس الأمر. حقا إنه عذرٌ أقبح من ذنب."

اقترب من مدني كثيرا، فتدخلت خوفا من أن يضربه. صحت قائلا: "توقف علي، حسنا، انتظر أنت في الخارج."

ارتبك مساعدي.

"ماذا؟ ماذا قلتم سيدي؟"

كررت بقسوة.

"قلت لك انتظر في الخارج، هيا، سنلتقي في الخارج."

ارتبك بشدة لكنه لم يعترض.

"حاضر سيدي."

بينما كان علي يخرج من غرفة التحقيق عدت إلى مدني.

"متى أجروا عملية فخار؟"

لم يكن متأكدا، حسب بأصابع يده.

"قبل ستة شهور... لا، أكثر من ستة شهور..."

أخرجت من جيبي صورة شخصية لقانصو صارماشيق ومددتها.

"أهذا هو الطبيب الذي أجرى العملية؟"

أخذ الصورة وعرفه على الفور حينما نظر إليه.

"نعم هذا، السيد حياتي، الدكتور حياتي..."

بالطبع استخدم قانصو اسما زائفا، لكنه كان من الغريب أن يستعمل اسم شريكه السابق. سألت بغية التأكد.

"هل أنتم متأكدون من أن اسمه حياتي؟"

أجاب إجابة الواثق من نفسه.

"نعم، ذكر لنا أن اسمه حياتي قبل قيامه بالعملية. كان إنسانا لطيفا جدا. قال لنا: 'لن يحدث شيء لابن أخيكم، وعاجلا سيعود إلى ما كان عليه من صحة جيدة.' وهذا ما حدث. حتى أن فخار أصبحت صحته أفضل مما كانت عليه." وحينما رأى غيوم الشك في عيني صحّح قائلا: "أقصد أنه لم يواجه بعد ذلك أيّ مشكلة صحيّة."

"هل التقيتم بعد ذلك بهذا الطبيب المدعوّ حياتي؟"

أجاب على الفور دون تردد.

"التقيت به حينما أخذت برجس إليه، وبالطبع التقيت به قبل العملية..."

جاء السؤال من منير الذي كان صامتا منذ حين.

"هل أنت من أوصى جابر ببيع كلية برجس؟"

أنكر على الفور.

"لا، عرفوا بعملية فخار. تحدثت السيدة أيبر مع زوجتي قائلة لها: 'لدينا ثلاثة أطفال، ووضعنا سيء، ونحن بحاجة للمال. نحن بحاجة للمساعدة، نريد بيع كلية برجس'. فقمنا بمساعدتهم على إثر ذلك."

ألحّ منير عليه بصوت ساخر.

"يعني أنتم لم تأخذوا مالا من هذا الرجل الذي يدعى ميرزا للقيام بهذا العمل..."

"لم نأخذ، أردنا مساعدة أصدقائنا فقط. أنا لا أتحمل مسؤولية أطفال الآخرين..."

وضع زميلي يده على الجرح.

"لكنك لم تجد أي مانع بشأن تحمل مسؤولية فخار."

تعتم وجهه لحظة لكنه استجمع نفسه على الفور.

"فخار، ابن أخي..."

وحينما رآني أنظر بعينين غير مصدّقتين، قال: "نعم، لقد شرحت ذلك، إنه ابن أخي الكبير أدهم..."

نظرت إليه باحتقار.

"وعزز أيضا ابنة أخيكم الكبير، أليس كذلك؟"

أجاب بكذب دون خجل.

"نعم، عزز أيضا الأخت الصغيرة لفخار.."

وقف منير أمام الرجل.

"ما زلت تكذب دون خجل يا رجل. فلا فخار ولا تلك الطفلة الصغيرة من أقاربك. لقد أخذتهما إلى جانبك كي تحصل على الأموال من خلالهما. ومن يدري فربما لو لم يمت المسكين فخار لبعت عضوا آخر من أعضائه. وبالطبع كنت تنتظر أن تكبر عزز كي تبيع كليتها أيضا."

انحنى الرجل بخوف إلى الجانب، كان سريعا في ذلك إلى درجة أوشك فيها على السقوط.

"ذانك الطفلان ليسا من أقاربك يا مدني،" قلتها مكرّرًا الحقيقة التي يعرفها ثلاثتنا. "أنت لست مسؤولا عن موت فخار، لكنك كنت السبب في نقل كليته بطرق خارجة عن القانون. وبالنسبة إلى عزز فسنأخذها منكم بكل تأكيد."

عبرت موجة حزن من وجهه.

"أرجوكم، لا تأخذوا هذه الطفلة منا. أعترف، لقد قمت بأشياء سيئة جدا، لكن من فضلكم يا سيدي. لن يلحق بالطفلة أي ضرر لا مني ولا من زوجتي. إن لم تكن عزز بيننا فإنه لن يكون هناك معنى لبقائنا. لقد بعنا

كلية فخار من أجلها. من أجل أن تعيش حياة طيبة. إن لم تصدقوني فاسألوا البنك، فما زالت 25 ألف ليرة كما هي موجودة فيه..."

كان مدني يبدو صادقا. لكن، هل كان صادقا فيما يقول؟ لو سألت منيرًا لأنكر ذلك، أما علي فلو سمع بالأمر لاقتحم المكان، لكن ما قاله لم يكن مستحيلا. فلدى كل إنسان مكان طيّب فيه، فهناك نقاوة لم تلوّث، وقطعة من البراءة رغم كل شيء. لا أعرف، فربما سقطت في قعر التفاؤل الغبي مرة أخرى.

"يمكنك أن تتحدث في هذه الأمور مع المحكمة،" قلتها بصوت تطهّر من الغضب. "لكن لا بد لك أن تبرهن في المحكمة على مساعدتك لنا كي تُظهر نيتك الحسنة..."

ظلّل ملامح الخوف وجهه.

"سأفعل ما تريدون، لكن لا تدخلوني السجن."

قال منير: "سننظر في ذلك، لكن سلّم لنا أولا عديم الشرف الذي يُدعى ميرزا..."

غطى وجهه الخالي من الدم موجة حزن من جديد.

"أنا لا أعرف مكان الرجل..."

سألته: "أليس لديكم رقم هاتفه؟ كيف كان يتواصل معكم؟"

"كان يأتي إلى المقهى المقابل للملجأ. لكن متى يأتي لا ندري، الله أعلم."

توقف منير من جديد خلف الرجل، وأمسك بكتفيه مرة أخرى.

"لا داعي لمجيء ميرزا، فنحن سنذهب إليه. وعلى الأصح، أنت من سيأخذنا إليه..."

حاول تخليص كتفيه لكنه فشل.

"أنا لا أعرف منزله..."

"منزله لا يفيدنا بشيء،" قلتها وأنا أنهض عن الكرسي. "ستأخذنا إلى ذلك المستشفى. إلى ذلك المبنى القذر الذي بعث فيه كلية فخار."

52

"لأن الأشرار يذهبون لكن الشر يبقى."

هذه المرة استقبلتني "وردة فكري الرقيقة". أنا لا أقصد أفكانيا، وإنما حينما دخلت من باب حانة تاتاولا سمعت حقا هذه الأغنية. "وردة فكري الرقيقة / وعندليب قلبي السعيد / رأيتك في ذلك اليوم، حرقتني آه حرقتني." رافقني صوت مزينة عبلة حتى الحديقة. كانت أفكانيا تتحدث مع مسؤول النادلين أمام الجدار الأبيض.

"أزرق نيلي عزيزي إحسان، وليس أزرق فاتحًا، الأزرق النيلي أفضل بكثير في هذا المكان. لون هذا الجدار يزعجني دائما. في الحقيقة لو أننا نطلب طلاء الجدار من أولئك الشبان الذين يقرأون في جامعة معمار سينان... سأقول لهم ضعوا الطلاء حسب ذوقكم لكنني لا أدري كيف ستكون ردود أفعال زبائننا حول اللون الجديد..."

في تلك اللحظة رآني مسؤول النادلين.

"آه، سيد نوزات، أهلا وسهلا."

حينما سمعَت أفكانيا اسمي استدارت بسرور.

"نوزات، نوزاتي، ما هذه المفاجأة الجميلة..." فتحت ذراعيها وعانقتني. شممت رائحة جلدها الذي أملأ داخلي، وأحسست أني ضعت داخل حديقة من عطر اللاوندا ذي اللون البنفسجي. بقيت مدة على هذه الحال دون أن أتحرك أو أتكلم. فهي الوحيدة التي أستند إليها في

هذه الدنيا التي فقدت ضميرها وشفقتها ورحمتها. بعد ذلك ابتعدَت قليلا عن جسدي. "من الجيد أنك جئت،" قالتها وهي تأخذ وجهي داخل كفيها. "من الجيد أنك جئت، فأنا محتاج جدا إليك."

كنت أعرف أنها في حاجة إليّ، فهي تعيش خيبة أمل منذ أن بيّنوا عدم رغبتهم إعطاء عزز لها. من المحتمل أنها كانت تستعد لتقبّل غياب هذه الطفلة الصغيرة عنها. لكنها كانت مخطئة، صار في الإمكان أخذ عزز، صار في الإمكان حماية تلك الطفلة ذات الشعر المتطاير. تركت منير وعلي في مركز الأمن ليقوما بالاستعدادات التامة لتنفيذ عمليّة اقتحام ذلك المبنى الذي يشغله ميرزا، أما أنا فأردت أن أُمضي الوقت الذي يتجهزون فيه مع حبيبتي.

"وأنا أيضا في حاجة إليك،" قلتها وأنا ألمس شعرها بلطف.

نسيت همّها، وبدت الشفقة في عينيها ذات اللون الأخضر المائي.

"ما الذي جرى يا نوزات؟ هل هناك مكروه؟"

"لا مكروه أكثر من المعروف لنا." نظرت إلى ما حولي. "هل سأبقى واقفا هكذا؟"

"أيعقل هذا؟! تعال، تعال اجلس هنا."

سحبتني نحو طاولة الخزف الصيني تحت شجرة الصنار جوار المسبح. ثم نظرت نحو رئيس النادلين الذي كان ينظر إلينا بإعجاب منذ التقائنا. "هيّا يا إحسان، لمَ أنت واقف هكذا؟ جهّز لنا هذه الطاولة..."

وبينما كان إحسان يهرع نحو الداخل أشرت برأسي نحو الجدار.

"ماذا هناك؟ هل ستطلين الجدار؟"

حدقت بعينيها الخضراوَين في الحائط الأبيض.

"لقد أهملت الحانة منذ زمن طويل وقررت القيام ببعض التغييرات."

ما زالت تخفي السبب الحقيقي.

"دعك الآن من الحائط، قل لي، ما الذي جرى، ما بك؟"

كنا ما زلنا منتصبين على أقدامنا.

"سأشرح كل شيء، لكن اجلسي الآن أمامي."

اتجهت أنظارها نحو المطبخ ثم عادت.

"بالنسبة إلى الطعام..."

أمسكتها من يديها وأجلستها على الكرسي.

"دعك من الطعام الآن، فأنا لم أمت هنا من الجوع قط..."

جلست، لكنها كانت تحدق بعينين مليئتين بالأسئلة دون انقطاع، جلست مقابلها دون اكتراث. سألت وأنا أحدق في وجهها.

"هل ترين أنني أعيش في عالم الخيال؟" لم تفهم. "بمعنى هل أعيش بالأفكار الرومانسية بدلا من الأفكار الواقعية؟"

بدت على شفتيها ابتسامة في غاية اللطافة.

"وأين المشكلة في هذا؟"

"تفاؤل لا داعي له، ومحاولة فهم الجميع، ومشاركة الجميع وجدانيا بلا معنى...الخ"

انحنت فوق الطاولة وأمسكت بيدي.

"أنت إنسان طيب، ولهذا السبب تحاول فهم الجميع. وهذا شيء جيد."

لمست يديها بلطف.

"لا أظن ذلك..."

تعتم وجهها بقلق من جديد.

"ما الذي جرى؟ يبدو أن أحدا ما أزعجك."

لم تكن عندي نيّة إزعاجها، لكنني لم أرغب الآن بإسماعها الخبر الجميل.

"أهو علي؟ لكن هذا لا يزعجك أبدا..."

تلاعبت من جديد.

"ليس عليا فحسب، وإنما أيضا منير.. ذلك الضابط الذي ينظر في قضية الطفل المفقود..."

هدأت أفكانيا، وتراجعت للخلف وكأنها ترغب برؤية أجزاء الصورة كاملة.

"نوزات، هلا شرحت الموضوع منذ البداية؟! لماذا تنازعت مع هؤلاء؟ فأنت لا تتدخل في أحد... والله لقد تشوش ذهني..."

كانت محقة، وكان لا بد من الدخول في الموضوع.

"استدعينا اليوم مدني إلى المركز الأمني..."

وسّعت عينيها.

"مدني السوري؟ عم عزز؟"

هززت رأسي مؤكدا ذلك.

"نعم ذلك الرجل العجوز، لكنه ليس عم عزز. لا عزز ولا فخار أيضا. مدني شخص غشاش، وقد باع كلية فخار من قبل..."

بدا أن الدماء قد تجمدت في عروقها.

"ماذا؟ ما الذي تقوله يا نوزات؟"

"كلّ ما قلته صحيح. حتى أن الرجل اعترف بذنبه..."

كانت مذهولة.

"والطفل الآخر؟ ذلك الطفل الذي عثر على جسده... هل هم من قتلوه؟"

كانت مذهولة جدا. تهرّبتُ بعينيّ، لكن عينيها تحدّقنا فيّ، ولم يكن هناك مفر من الاعتراف بالحقيقة.

"مات أثناء العملية... وسنعلم قريبا حقيقة الأمر."

لم ينفع اللف والدوران في كلامي بتاتا.

"وأي حقيقة ستعرفها يا نوزات؟ فقد قتلوا الطفل أثناء سرقة كليته."

أجبت بصوت لا تردد فيه.

"لا تقلقي أفكانيا، سنعثر على قتلة ذلك الطفل."

نظرت إلى وجهي في يأس.

"أتمنى أن تجدهم. لكن هذا لن يكون نافعا بالنسبة إلى الأطفال الآخرين..."

لم أفهم شيئا.

"الأطفال الآخرون... أي أطفال تقصدين؟"

أشارت بيدها إلى أماكن مظلمة في الخارج.

"الأطفال الآخرون يا نوزات. الأطفال الذين يحاولون الذهاب برفقة آبائهم كل يوم إلى دول أخرى من أجل القدرة على العيش فيها بركوب القوارب الصغيرة التي تتعرض للعواصف البحرية. الأطفال الذين يموتون غرقا وهم يحاولون اجتياز البحار. الأطفال الذين نشاهد أخبار موتهم كل يوم على شاشات التلفاز. فهل القبض على هؤلاء القتلة سينقذ أولئك الأطفال الذين تشتت أبدانهم في عرض البحار؟! هل ستستيقظ الإنسانية حينما يُلقى في السجن قتلة الأطفال الذين تُعرض أعضاؤهم الصغيرة في المزاد العلني من أجل المال؟"

كانت تستحضر اليوم كل ما كان يدور في ذهني، وأنا لم يكن في مقدوري أن أجيب عن هذه الأسئلة التي لا أعرف إجابتها. صمتَتْ فجأة، ثم

صاحت وكأن نارا أصابت جسدها. "عزز، عزز، إذن عزز في خطر." كانت تحاول النهوض على قدميها. أمسكتها من يديها وأجلستها على الكرسي.

"اهدئي أفكانيا، اهدئي. الطفلة الآن في شعبتنا. وقد أخذتها إلى هناك بيدي، وهي الآن عند شكرية. وشكرية أكثر امرأة عطوفة في هذه الدنيا.. وأثق فيها مقدار ثقتي فيك..."

لم ترفع عينيها عن وجهي إلى أن هدأت، وأخيرا تبدّد قلقها، وصار في مقدوري الآن تبشيرها بالخبر السار..

"نعم عزيزتي أفكانيا، في الحقيقة أنا جئت لإسماعك هذا الخبر الجميل. لم يبق هناك أي عائق يمنعنا من تبنّي عزز..."

أطلقت صرخة صغيرة بسرور.

"نوزات، ما الذي تقوله أنت؟!"

طبعت ابتسامة نصر كبيرة على وجهي.

"لقد قلت لك، عزز ليست من أقارب مدني. ولن تسلمه أي محكمة هذه الطفلةَ بعد ما قام به ضد فخار.. لكن لن نستطيع تبني الطفلة على الفور. يجب أن تحصل عزز على جنسية تركية. سنأخذ عزز إلى جانبنا بصفتنا أوصياء عليها. وحينما تُستوفى كل الشروط اللازمة سنتمكن من تبني الطفلة. ويجب أن نبدأ بالعمل في أسرع وقت... هذا بالطبع إن كنت ما زلت ترغبين في الطفلة."

تبللت عيناها.

"بالطبع أريدها يا نوزات، تلك الطفلة هديةٌ من الله لي."

في الحقيقة بقي ذهني عالقا في قولها: "تلك الطفلة هديةٌ من الله لي." لماذا ما زالت تقول: "لي"؟ لماذا لا تقول "لنا"؟ ألم أجعلها تشعر بالثقة تجاهي بشكل كاف يا ترى؟ علما أنني صرحت لها في لقائي السابق رغبتي

في المشاركة في تربية عزز. ربما كانت تثق فيّ، لكن وظيفتي تخيفها. فربما كانت قلقة من انشغالي بالأعمال التي تأتي بلا موعد. لكن كان لا بد لها أن تعتاد على هذا الوضع. تذكرت فجأة زوجتي كزيده. حقا، هل كانت كزيده معتادة على هذا الوضع؟ هل كانت معتادة على الهواتف الليلية، وخروجي من البيت في منتصف الليالي دون أن أصرح لها بشيء؟ هل كانت معتادة على غيابي من المنزل أيّامًا حينما كان الأمر يستدعي ذلك؟ لا، هي أيضا لم تستطع الاعتياد، لكنها تقبّلت ذلك. وهل كان من الممكن أن تعيش بشكل آخر مع رجُل شُرطيّ؟ في الحقيقة كانت متقبلة لهذا الوضع لكنها لم تكن تؤمن ببناء علاقة مشتركة تجمعنا في المستقبل. كانت أفكانيا، التي لم تدرك خيبة الأمل التي سقطتُ فيها، مستمرة في كلامها.

"الآن أصبح الموضوع متعلقا بالتشريعات القانونية. لا بد لي من العثور على محام يا نوزات. محام يفهم هذه الأمور."

كنت أحدق فيها بدلا من الإجابة. تحيرت.

"لمَ تنظر هكذا يا نوزات؟"

"لا بد لنا معًا من العثور على محام وليس أنت وحدك فقط. فعزز لن تكون ابنتك فحسب، وإنما أيضا ستكون ابنتي."

شعرَت بالخجل، كانت تريد التوضيح لكنني تكلمت قبلها دون أن أسمح لها. "لقد تحدثنا في هذا الأمر من قبل. حسنا، ستكونين الوصية على عزز، لكننا سنربيها معا، لا تنسي ذلك." ابتسمت. "سنجد محاميا جيدا. ولا تقلقي من هذا الأمر، فهناك محام ماهر في هذه الأمور، وهو صديقي. وسيحل هذه القضية بكل سهولة."

انحنت على الطاولة وبدأت تقبل يدي قبل أن أدرك ما الذي تريد فعله.

"أشكرك جدا يا نوزات. شكرا جزيلا لك يا حبيبي..."

سحبت يدي فورا، وقمت بوضع أصابعها على شفتي...

"أنا من يتوجب عليّ شكرك عزيزتي أفكانيا، لأنك علّمتني أن أكون إنسانا من جديد..."

كانت تنظر بإعجاب.

"أنت في الأصل إنسان طيب. والجميع يعرف ذلك. حتى القتلة الملوثة أيديهم بالدماء يقرون بهذه الحقيقة..." تلعثمَت، وتظلّلت عيناها الخضراوَين بالشكوك. "لكن عندك مشكلة، هل حقا أزعجوك... هل تنازعت مع علي؟"

ضغطت برفق على يديها اللتين ما زالتا بين كفي.

"زيادة على النزاع... أعتقد أنني جرحت عليًّا. لقد طردتُه اليوم صراحة من غرفة التحقيق، مع أنه لم يتجاوز حدوده معي، لكنني حينما التقيت معه خارج غرفة التحقيق كانت أقواله كافيه لتشويش ذهني. قال بإخلاص: 'أنتم تتعاطفون كثيرا يا سيدي. فلا الدنيا تستطيع تحمل حساسيتكم ولا البشر رؤوفون بهذا القدر.. الحقيقة أبسط من ذلك وأظلم. أنتم أكبر مني قدرا وسنا، فأقوالكم بالنسبة إليّ أوامر، وتطبيقها على الوجه الصحيح شرف لي، لكن لو أنكم تستمعون لصديقكم الشاب لحظة، فقط لحظة، لقلت لكم لا تخدعوا أنفسكم... السيء يبقى سيئا يا سيدي. حسنا افهموا المجرمين لكن أرجوكم لا ترحموهم. لأن هذا ظلم للضحايا...' نعم قال كل هذا بعتاب. منير أيضا كان بجانبنا. لم يتفوه بكلمة واحدة لكن عينيه كانتا مؤيدتين لأقوال زميله..."

بدت علامات التساؤل في وجه أفكانيا.

"وأنت ماذا قلت له؟"

"في البداية غضبت، لأنه تصرف مع مدني بسوء، وكاد أن يضرب هذا الرجل العجوز، ثم أتى بعد ذلك وأعطاني دروسا في التعامل، لكنه حينما قال: ' لأن هذا ظلم للضحايا 'تشوّش ذهني. تذكّرت حينها جسد فخار، وتخيّلت أن مصير عزز سيكون على هذه الشاكلة. في تلك الأثناء أدركت أن كلمات علي اكتسبت معنى. هل حقا ما أقوم به ليس صحيحا؟ هل التعاطف مع المذنبين إلى هذه الدرجة محظور؟ هل يظهر المجرمون للضحايا الذين يقتلونهم التعاطف الذي أظهره لهم؟ هل حقا السعي لفهم هؤلاء الناس الذين لا يملكون ضميرا ولا يرأفون بأحد هو في الأصل شفقة لا داعي لها؟ هل كان هذا ضعفا؟"

"أنت تظلم نفسك،" قالت أفكانيا ذلك مقاطعة كلامي. "أنت لست إنسانا ضعيفا، لكنك رحيم، وربما تكون رحيما جدا... ومحاولتك فهمَ الآخرين ليست خطأ في رأيي، ففهم الآخرين لا يعني موافقتهم. لا بد من فهم القاتل، ولا بد أيضا من فهم مغتصب الأطفال..." صمتت، أرجعت رأسها للوراء، رجع ذلك الخجل لوجهها من جديد. "آه ماذا أفعل أنا؟! أعطي دروسا لرجل كرّس حياته على هذه الأمور.. لا تؤاخذني نوزات، يبدو أنني تجاوزت حدودي."

"لا، لا" قلت ذلك وأنا أمسك بيديها. "أنت تقولين الصحيح، استمري..."

كانت تنظر وهي غير مصدقة.

"حقا يا أفكانيا، أحس أني ضائع بعض الأحيان. يهتز إيماني. وأتحطم عند رؤية الأفكار التي طالما آمنت بها قد تبدّدت أمام الحياة. أحسّ نفسي وسط ظلام. لا أستطيع أن أعرف، ما هو الصحيح، وأين الخطأ، وما الحقيقة! ستقولين وأين المشكلة فكل إنسان على هذه الشاكلة. لكن

الأمر ليس كما تظنين، ثمن الأخطاء التي نفعلها ثقيل جدا. انظري، ارتكب ذكائي خطأ فدفع حياته ثمنا لها. نعم، أخطاؤنا تصبح سلعة في حياة الآخرين. ولهذا السبب لا يمكن بأي شكل من الأشكال غض الطرف عن أقوال علي."

هدأت أفكانيا.

"فهمت، والغريب في الأمر أني فهمت عليا. فربما لو كنتُ شرطيّة لتصرّفت مع هذه الحوادث مثل علي. فرؤية حال أولئك الأطفال، ومصادفة الضحايا المعصومين الذين يُقتلون دون ذنب كل يوم قد تجعل الجميع قُساة. فربما تتخلى عن التفكير الرقيق وتبدأ بمحاكمة المذنب بدلا من محاولة فهمه، وربما تزجّ به في السجن وربما تُنهيه من الوجود... وهذا هو السهل في الموضوع. لكن الصعب ما تفعله أنت، إنّك تحاول فهم الآخر سواء كان مذنبا أو معصوما. هذا هو الأساس في الحقيقة. لأن الأشرار يذهبون لكن الشرّ يبقى. إن لم نسعى لمعرفة سبب اقتراف الناس السيّئات فكيف لنا أن نمنع وقوعها؟!" كانت تنظر بإشفاق. "أنت تفعل الصحيح يا نوزات، تحاول فهم الشخص الآخر حتى وإن كان جانيا. ولا خطأ في ذلك بتاتا، لأنك لا تتسامح مع المجرمين، ولا يمكن أن تغفر لهم، فأنا لم أرك تفعل ذلك قط. لهذا لا تُتْعب نفسك عبثا." ربتت بلطف على يدي. "يمكنك أن تُظهر للمجرمين جزءا من تفهّمك لعلي. ولا اعتراض مني على ذلك..."

قاطع ظلّ إحسان الذي وقع على طاولتنا كلمات حبيبتي.

"وها قد جاء شرابكم، والجبنة البيضاء، والشمام، والخبز المحمّر..."

وضع إحسان على الطاولة كعادته قدحين، وقارورة نبيذ، وأطباقا. تناولت القارورة وأفرغت النبيذ في القدحين.

"أشربُ لأجلك أفكانيا،" قلتها وأنا أرفع قدحي. "أشرب لأنك ذكّرتني بما نسيته..."

اعترضت بأدب وهي تهز رأسها بشكل خفيف، ثم دقت قدحها بقدحي.

"لنشرب من أجلنا عزيزي نوزات، من أجل عشقنا الذي زيّن الحياة رغم كل شيء."

53

"ولعل عاطفة المسامحة هي أكبر رذيلة عند الإنسان."

كنت أمام الباب، بجانب سيارتي المخضرمة أشاهد النجوم. السماء مغطّاة بنجوم كثيرة جدا، والمكان مضاء بلون رمادي رغم أن الوقت لم يكن صباحًا. ولو لم يكن الجو خانقا لقلت في نفسي ما أجملها من ليلة. لا، أنا لم أشرب كثيرا، وإنما شربت كأسًا واحدة ببطء شديد متلذذا. فلم أكن ثملا، ولم أكن أسيرَ العشق أيضا، فأنا ومحبوبتي تحدثنا كثيرا عن الوقائع المؤلمة التي تحدث في كوننا إلى درجة شعرنا عندها أن السعادة نفذها ذنب. في تلك اللحظة جاء الهاتف الذي كنت أنتظره. قبل فتح باب السيارة مباشرة.

"مساء الخير يا سيدي،" قالها علي. لم يكن في صوته لوم أو عتب. "انتهت التحضيرات، يمكننا البدء بالعملية."

سألت بانفعال لم أستطع كبح جماحه في وقت دارت فيه الحرارة العالية والرطوبة في رئتي حين أخذت نفسا عميقا.

"حسنا علي، وأين مكانكم؟"

أجاب مساعدي بالانفعال نفسه.

"نحن في كوجوك كوي، بالقرب من المبني الذي أشار إليه مدني..."

بعد نصف ساعة كنت في المكان الذي أشار إليه علي. كان أعضاء الفريق أسفل الزقاقين في ساحة فارغة يتهامسون فيما بينهم قبل البدء

بعملية الاقتحام، أما أنا فقد كنت بجانب سيارتي العجوز أشاهد النجوم من جديد... الكلاب تنبح في مكان ما. أصبحت الليلة مضاءة أكثر، لم يكن السبب اقتراب وقت الصباح وإنما ظهور نجوم جديدة في السماء مع مرور الوقت...

"البسوا هذا سيدي."

كان مساعدي يمد إليّ بدرع فولاذي.

"سنقتحم المبنى بعد قليل."

تناولت الدرع وهمهمت وأنا انظر إلى علي الذي كان يساعدني في ارتداء الدرع.

"هذا يجعلني أتصبب عرقا يا ولدي."

كشف الماكر عن أنيابه المتماثلة.

"هدر عرقكم خير من هدر دمكم، سيّدي."

لا اعتراض على الكلام الصحيح، لبست الدرع. وبعد عشر دقائق كنا أمام العمارة التي يتواجد فيها المستشفى الزائف. كانت العمارة مثلّثة الشكل وتقع في زاوية زقاق ضيق. خلف المبني وأمامه مساحة فارغة. اصطف الفريق الخاص المكون من اثني عشر شخصا بلباسهم وأسلحتهم وكامل تجهيزاتهم على جانبي المدخل. التقت عيناي بعيني قائد الفريق طوفان. ووافقت برأسي على بدء العملية. نظر القائد إلى رجاله، وبدأ بالعدّ بأصابعه إلى عشرة. أمسكت عليًّا من ذراعه وهمست قائلا: "لنذهب إلى الخلف. فربما يهرب أحدهم من النوافذ."

بدأ الفريق بالاقتحام بضرب الباب ثلاث مرات متتابعة، تردّد صوتها في ظلام الليل، في تلك الأثناء استطعنا الاختباء في ظلال المبنى الخلفي. حقا كان الدرع الفولاذي رهيبًا جدًّا، فقد جعل جسمي بأكمله غارقا

في العرق. حتى أن مقبض السلاح في يدي كان مبللا. ولم يكن رفيقي الوحش مختلفا عني بتاتا. لكنه لم يكن مكترثا بذلك، فقد كان ينتظر بصمت وعيناه منتصبتين في النوافذ مثل هرّة تتعقب فريستها. وفجأة بدأنا نسمع ضجيجا في الداخل، صيحات وصرخات، ثم بدأت أضواء النوافذ تشتعل الواحدة تلو الأخرى.

"هيا عزيزي علي، كن مستعدا!"

عبّر عن استعداده التام برفع يده الخالية من السلاح. بدأ الضجيج يزداد في الداخل، صوت امرأة تصرخ وصوت طفل يصيح. فتحت نوافذ الطابق الثاني، وقفز رجل منها نحو الأسفل، ثم تبعه آخر... وقع الأوّل فريسة علي.

"لا تتحرك يا حقير، نم على الأرض، وإياك أن تقف..."

نفّذ الرجل أوامر علي. أما الثاني فقد كان أكثر حركة، وأكثر استعدادا للهرب، فقد سقط على قدميه.

"إياك أن تتحرك،" صرخت وأنا أخرج من الظلال. "قف مكانك..."

لم يكترث وبدأ بالركض، فركضت خلفه. لم أستطع رؤيته بشكل واضح في قلب الظلام، لكنه كان أطول مني، وأكثر نشاطا وسرعة... بدأ الدرع الفولاذي يغرق بالعرق، وأوشكت أن أفقد الهارب.

صحت به قائلا: "توقف! شرطة، توقف وإلا سأطلق النار."

هيهات يسمعني، بدأ بتوسيع خطواته متجها نحو زاوية الزقاق وكاد أن يختفي في ظلامه، لكن ظهرت أمامه سيارة لم أعرف من أين جاءت. بدأت السيارة تسير ببطء شديد لكن الشخص كان سريعا جدا فاصطدم بها ووقع أرضا. وبينما كنت أسير نحو الرجل فتح باب السيارة، ونزل منها زينب وأكرم. هما أيضا لم يفهما شيئا مما جرى.

صحت قائلا: "إنه الشخص المشتبه به، أمسكوه..."

كلاهما سحب سلاحه في نفس اللحظة ووجهاه نحو الرجل.

"لا تتحرك، لا تتحرك..."

لكن الرجل حاول النهوض، فوضع أكرم قدمه اليمنى على ظهر الرجل ودفعه أرضا. وأسند نصل السلاح إلى رأسه.

"ألم تسمع يا حقير؟ قلنا لا تتحرك."

قال الشخص: "أنا لست مذنبا، قالوا إن الإرهابيين اقتحموا المبنى، فهربت من النافذة على الفور."

كان صوته قويا مثل فنان أوبرا. تذكّرت كلمات أيبر. فحينما كانت تتحدث عن ميرزا الذي أقنعهم بإجراء العملية لبرجس قالت عنه: "لديه صوت قوي جدا. إنه يستعمل صوته جيدا."

"حسنا،" قلتها بصوت هادئ للرجل الذي كان على الأرض. "إن كنت بريئا فلا مشكلة، يمكنك الوقوف." بينما كان الرجل ينهض عدت إلى أكرم. "فتشوا هذا الرجل."

وضع أكرم سلاحه على خصره، وبدأ بتفتيش الرجل بعد أن انتظر مسحه لثيابه من الغبار والتراب. كان خاليا من السلاح.

"هل يمكنني رؤية بطاقتك الشخصية؟"، قلتها بصوت خال من الإحساس. "يجب الاطلاع على معلوماتك العامة."

أخرج بطاقته الشخصية بحماس من الجيب الداخلي من جاكيته الصيفي. نظرت فورا إلى اسمه. كان اسمه دينتش أتشيقوز. أكان هذا الرجل ميرزا يا ترى أم لا؟ ذكرت أيبر أن عينيه جميلتان.

"تعالوا نذهب هناك،" قلتها وأنا أشير إلى ضوء الزقاق. "سنتحدث هناك بأريحية أفضل."

"حسنا، لنذهب،" قالها بذلك الصوت المؤثر. "ثقوا تماما أن لا ذنب لي..."

"إذن لا مشكلة."

اتجهت أنظاري فجأة نحو علي الذي كان في الأمام. أوقف الرجل الآخر على قدميه وبدأ بتفتيشه. وحينما رآني أنظر إليه شعر بضرورة التوضيح.

"ليس معه سلاح يا سيدي."

بدأ ذلك الرجل الذي شعر بالشجاعة بالدفاع فورا.

"وأنا أيضا بريء، فأحدهم كان يصرخ ويقول إن الإرهابيين اقتحموا المبنى، فقمنا بإلقاء أنفسنا من النافذة..."

بالطبع لم يصرخ أحد بذلك، كان يكذب بكل تأكيد.

"حسنا، حسنا وضح الأمر، وأنتم تعالوا هنا." وبينما كان يسير باتجاه الضوء نحو صاحب الصوت القوي قلت لعلي: "لنطلع على المعلومات العامة لهذا السيد أيضا."

وحينما وقفنا تحت ضوء الزقاق، بدأت بتفحص وجه الرجل الذي كان بجانبي، كان خده الأيسر ملطخا بالغبار، لكن الضوء الأصفر أظهر جمال عينيه الخضراوين بشكل كامل. لا شك أنه الرجل الذي كنا نبحث عنه.

"هل لديك اسم مزيف آخر غير اسم ميرزا؟" سألته بكل هدوء. لكنه لم يفهم قولي.

"ماذا؟ ماذا قلتم؟"

نظرت إليه بغضب وقلت: "انتهت اللعبة يا دينتش. آه، أم هل يتوجب علينا مناداتك بميرزا؟"

تحرك بقلق.

"أنتم مخطئون..."

"لا تنكر أبدا يا دينتش. أيبر ومدني أيضا اعترفا عنك بكل شيء." أشرت برأسي نحو المبنى. "سنرى بعد قليل ما سيجده الفريق من أدلة وبراهين في الداخل... وأنا متأكد أن هناك مساكين كنت ستأخذ كلاهم وأكبادهم في الغد. لن تتمكن بعد الآن من الهروب من هذا الأمر..."

ارتعد، ونظر بأمل إلى الطرف الأخير من الزقاق. وضع أكرم سلاحه فورا على رأس الرجل.

"حذار، حذار أن تفكر في هذا."

سمع كلامنا علي الذي جاء إلى جانبنا ومعه الشخص الآخر. فتحدث وهو يدفع بالشخص الذي أمسكه.

"ها هم عديمو الشرف الذين قتلوا قانصو، أليس كذلك؟"

"ماذا؟ عن أي قتل تتحدثون؟" قالها الرجل الذي دفعه مساعدي. "أنا الطبيب روحي، أنتم ترتكبون خطأ بحقي."

دفعه مساعدي هذه المرة بطريقة أقسى من المرة السابقة.

"طبيب! طبيب ماذا يا رجل؟! أنت جزّار يا حقير، جزار! ثم بعد ذلك تنظر إليّ بكل وقاحة. هيا يا سافل، قف هناك إلى جانب ذلك الوغد. قفا عند الحائط..."

توقف دينتش وذلك الشخص الذي عرّف عن نفسه بأنه طبيب إلى جانب بعضهما. كان مشهدا مخيفا، شخصان أمام أربعة من الشرطة المسلحين في منتصف الليل. كان مشهدا مرعبا كما لو أننا كنا سنقتلهم بعد قليل...

"ما تفعلونه هذا خارج عن القانون،" قالها دينتش الذي كان سيبدأ

بالاعتراض. لكن مساعدي فجر في وجهه لطمة على الفور...

"أنت الخارج عن القانون يا حقير!"

بينما كان دينتش يتأرجح نحو الشمال، تنحى شريكه من الخوف جانبا.

"من منكما سحب الزناد؟ هل أنت من فعلها؟" قالها علي وسلاحه في صدر دينتش. "أم أنك أنت من فعلها يا طبيب؟" ثم عاد من جديد نحو الأول. "لا، لقد فعلها عديم الشرف هذا. آه، ولديك اسم مزيف أيضا. ميرزا... قل يا سافل، أأنت من قتل قانصو؟"

تحدث دينتش بخوف.

"أنا، أنا، أنا لم أقتل أحدا... ولم أقتل قانصو؟!"

في الحقيقة كان لا بد لي من إيقاف علي منذ البداية، فقد بدأت أضواء المنازل المجاورة تشتعل، فربما بعد ذلك يتجمع الأهالي عند رؤوسنا. كانت زينب تنظر إليّ ولسان حالها يقول لماذا لم تتدخلوا بعد، لكنني لم أرغب في إيقاف مساعدي. فهؤلاء مخلوقات سافلة أوطأ بكثير من العائلات السورية التي تبيع أعضاء أبنائها. أقول مخلوقات لكنهم بشر مثلنا حقا. إنهم يحملون أرواحا مستعدة للقيام بشتى أنواع الشرور، ثم بعد ذلك يسامحون أنفسهم. ولعل عاطفة المسامحة هي أكبر رذيلة عند الإنسان. ولعل هذا هو السبب في تكرار القيام بالشرور نفسها. فنحن نسامح أنفسنا ونجد في النهاية مبررا مقنعا... فحينما يرتكب أحدنا خطأ تراه يقول: أنا عبد ضعيف، أرتكب الأخطاء بشتى أنواعها، قد أرتكب جريمة، لكنني ألجأ إلى ربي، وأطلب المسامحة بكل بساطة. ولهذا السبب لم أعترض على تصرف علي مع هؤلاء السفلة الأراذل. وما دام أننا بدأنا فلا بد لنا من الاستمرار حتى النهاية. حتى أنني تدخلت رغبة في

الحصول على نتيجة بشكل أسرع. توقفت أمام دينتش.

"من أجل أن لا يكشف سر موت الطفل برجس... نعم، أنا أقصد الطفل الذي قتلتموه أثناء العملية قبل شهر. ابن أيبر وجابر، ذلك الطفل الذي كان مصابا بمتلازمة داون..."

بدأ بالدفاع وهو متوتر.

"لا، لا ذنب لي في هذه القضية... ولا ذنب لأحد في ذلك. كان الوالدان موافقين على العملية. ودفعت لهما أموالهما. لكن الطفل لم يتحمل أثناء العملية... حسنا، كان هذا خطأ من قانصو، حتى أنني انفصلت عنه بعد تلك الحادثة... فأنا أقوم بخدمة المرضى. ونحن نسلك هذه الطرق لأنها غير قانونية. لكننا أنقذنا العديد من حياة الناس..."

لم أتحمل المزيد من كذبه.

"أنقذتم حياة الأغنياء... فالمال مالهم... تأخذون أعضاء الأطفال الأيتام والغرباء بثمن بخس وتطيلون بها حياة زبائنكم الأغنياء... الله أعلم بعدد الأطفال الذين ماتوا على أيديكم. ثم تأتي الآن وتكذب بلا خجل."

بدأ دينتش بالبكاء فجأة. لا بد أنه أدرك خسارته، وعلم أن لن ينجيه أحد منا.

"وهل نحن فقط من يقوم بهذه الأعمال؟" قال ذلك وهو ينشق أنفه.
"تهاجموننا لأننا صغار. أما الكبار فلا تستطيعون مضغهم بالطبع..."

غضب علي من الرجل وأمسكه من ياقته، لكنني أوقفته.

"اتركه، اتركه يتحدث..." نظرت إلى دينتش. "من تقصد؟ من هم هؤلاء الكبار؟"

تذمر متأوّهًا.

"وكأنكم لا تعرفونهم..."

وبخته قائلا: "لا تتحدث بالألغاز." بدأت أعصابي تتوتر. ومن المحتمل أن زينب كانت تنظر إليّ بذهول لكنني لم أكترث بذلك. "عمن تتحدث؟ تكلم بوضوح..."

جفف دموعه بذراع جاكيته.

"أتحدث عن الشريك القديم لقانصو... أتحدث عن السيد حياتي صاحب مستشفيات سراب... جمع ثروته من هذا العمل. لماذا عملنا مع قانصو برأيكم؟ لأن قانصو وحياتي كانا أستاذين في تجارة الأعضاء... ذُكر اسماهما في الصحف أكثر من مرة، لكنهما ينجوان باستمرار. وكان قانصو الشخص الذي أوصاني بالعمل في هذه الأمور. قال لي حينها: 'هناك المال الكثير من نقل الأعضاء. اعمل معي وسأتحمل كافة المسؤولية...' في الحقيقة أجبرني على ذلك... ولو كان الأمر بيدي..."

كان سيبدأ بالهراء من جديد، لكن ما تحدث به شيء لا يصدق. وبالطبع لا بد لنا التأكد من ذلك، لكن حياتي كان طبيبا عاديا...

"كانت العلاقة بين حياتي وقانصو سيئة، أليس كذلك؟" سألته محاولا فهم حقيقة الأمر. "هكذا يقول الجميع."

تلعثم بداية الأمر لعدم إدراكه مغزى السؤال، لكنه أجاب بعد ذلك ربما لأنه أدرك عدم وجود خطر عليه. "كان قانصو يكره شريكه السابق... كان يعتقد أن شريكه هضم حقه. كان يقول لي: 'جلس على رأس المال كله ثم وضعني عند الباب...'"

"وهل كان ذلك حقا؟"

أجاب دون أن يفكر أبدا.

"أنا لا أعرف عن هذا شيئًا، لكن قانصو أيضا لم يكن إنسانا نظيفا...

من ناحية أخلاقية بالطبع..."

صمت من جديد، كان مترددا في نفسه هل أتحدث أم أصمت؟ لكنني لم أحتمل أكثر فسألته.

"هل كان مغتصب أطفال؟"

أرجع دينتش رأسه للوراء.

"لا، لا، من أين جئتم بهذا... إنما كان يخسر المال الكثير فقط... كان يحب القمار. ليس قمارا وإنما كان متعلقا بلعبة التحدي. لعبة يلعبها الأغنياء فيما بينهم... كان يطلب الديون باستمرار. وشهدت أكثر من مرة تخاصمه مع شريكه حياتي على الهاتف... لكنه سئم من ذلك."

كان يؤكد على ما تحدث به حياتي لنا... ذكر أنه دفع له مليوني ليرة مرة واحدة. علاوة على هذا لم تنقطع طلباته بعد ذلك.

"وهل استدان قانصو منك شيئا؟" سأل علي ذلك مشتتا أفكاري. "ألهذا السبب قتلته؟"

ارتجف دينتش من جديد.

"لا، أنا لم أقتل قانصو. ولم أقرضه مالا على الإطلاق. وكان يأخذ أجرته على كل عملية مباشرة بعد كل عملية جراحية... لكنني لم أعطه حينما مات ذلك الطفل... لن تصدقوني، لكنني حقا حزنت كثيرا حينما فقدنا ذلك الطفل السوري..."

لم أكن أعرف ما إذا كان يقول الصّدق أم أنه يكذب في سبيل تخليص نفسه. لكن لم يكن لهذا أي أهمية. وفي تلك الأثناء لفت انتباهي انقطاع صوت الكلاب وارتفاع همسات الناس الذين كانوا يتكلمون فيما بينهم وهم ينظرون إلينا بفضول من شرفاتهم.

54

"إن كنت غنيا تعش، وإن كنت فقيرا تبع جسدك قطعة تلو قطعة."

"كيف غفلنا عن هذه الجزئية؟" سألت زينب بصوت مهزوم. بدا وجهها بارزا؛ لأنها عملت كعكة شعر في مؤخرة رأسها بغية التخلص من الحرارة.

"كان لا بد لنا من تثبيت ذلك منذ البداية يا سيدي. لمَ لم نفكر في ذلك؟! لقد تأخرنا كثيرا..."

استمرت العملية حتى الصباح، وبعد إنهاء التحقيق مع دينتش والطبيب روحي استطعنا العودة إلى منازلنا. وحينما التقينا من جديد في مكتب زينب كان الوقت مساء. كنا نحن الثلاثة واقفين على أقدامنا، ننظر إلى شاشة العرض المنعكسة على الحائط من جهاز الحاسوب. ظهرت صفحة جريدة أمام أعيننا. كان العنوان الرئيسي فيها "تنفيذ عملية اقتحام على مهربي الأعضاء البشرية!" مصحوبًا بصورة لشخص متوسط القامة، شعره أسود وقوي يشبه شعر الأسد، ولحية قذرة، يقف ورأسه منحن للأمام بين رجلين من الشرطة بزيهما الرسمي.

"هل عرفتموه يا سيدي؟"

لم أستطع معرفته، علقت أنظاري بالكتابة التي كانت تحت الصورة. "القبض على الطبيب الظالم متلبسا." وبينما عدت للتركيز على الرجل الذي في الصورة من جديد قال علي: "أليس هذا الرجل هو نفسه صاحب

ذلك المستشفى؟ الشخص الذي تحدثنا معه من قبل يا سيدي. شريك قانصو... الذي وضع اسم ابنته اسما لمستشفياته..."

كان علي يتحدث عن الطبيب حياتي دارجان. اقتربت قليلا من شاشة العرض، حقا كان هو بذاته، وهو الشريك القديم لقانصو. تذكرت كلمات بوكت. ذكرَت أنه كان من الأسماء التي اشتبه بها في عملية تهريب الأعضاء لكنها ذكرت بعد ذلك: "بدا أن هناك سوء فهم في الأمر." ماذا كان يعني ذلك؟ هل كنا نحن ننظر إلى ذلك الخبر الذي قيل فيه سوء فهم؟! كنت سأفكر مثل بوكت لو لم أسمع كلمات ذلك الرجل الظالم الملقب بميرزا الذي قبضنا عليه قبل حلول الصباح.

شتّتت زينب أفكاري بقولها: "هذا الخبر كان قبل ثماني سنوات. ولنقُل الخبر الأخير الذي صدر بحق حياتي دارجان قبل ثماني سنوات." لمست باحثتنا لوحة مفاتيح جهاز الحاسوب. "انظروا، وهذا الخبر قبل ست سنوات." ظهرت على الشاشة قصاصة من صحيفة أخرى. "فرع آخر من مستشفيات سراب في مدينة إزمير." كان يبدو في هذه الصورة ممتلئا بخلاف صورته السابقة، لحيته محلوقة، ويرتدي ألبسة كحلية باهظة الثمن. لكن شعره انحسر قليلا عن رأسه. كان يقف إلى جانبه وزير الصحة في تلك الفترة متظاهرا بالفخر. "افتتاح الفرع الثالث من مستشفيات سراب في مدينة إزمير."

"وبالطبع لم يكتف بثلاثة مستشفيات،" قالتها زينب مستمرة في الحديث حول المشهد. "فقد افتتح خلال عشر سنوات تسع مستشفيات. لكنه ما زال يعتقد أنه لم يكبر بعد." أشارت بيدها إلى الخبر على شاشة الجهاز. "فقد صرح بإنشاء فروع في كافة أنحاء العالم وليس في تركيا فقط. وسيمنح الأولوية لدول البلقان. وبالطبع كان المستشفى الثاني في

كوسوفو. انظروا وهذه صورة أخرى في صُحُف تلك الفترة..."

ظهرت على الشاشة صورة باهتة لحياتي دارجان وقانصو صارماشيق المقتول مؤخرا، يقفان مبتسمين للكاميرا أمام مبنى كُتبَ عليه بخطّ عريض "Hospital of Serap." كانا يرتديان لباس الأطباء المعروف ببياضه الناصع. العنوان الرئيسي للخبر هو "الأطباء الأتراك ينقلون الصحة إلى دول البلقان."

تذكرت هذه المرة كلمات المرابي صاحب الوجه الأحمر. "سيجري قانصو عملية جراحية لابن أخي في كوسوفو." فربما كان يقصد المستشفى الذي يظهر في الصورة. لم أرغب في الدخول في هذا الموضوع كي لا يتشوش ذهن رفيقي، وبالطبع كانت زينب تواصل حديثها.

"انظروا، المستشفى الأوّل في إسطنبول، والثاني في بريشتينا في كوسوفو... قد نقول أين المشكلة في ذلك؟ فالرجل يتوسع قدر الإمكان في كل مكان. هذا صحيح، لكن يجب أن لا ننسى أن كوسوفو كانت في السابق من الدول المشهورة بتجارة الأعضاء البشرية."

"هل تريدين أن تقولي إن دينتش كان صادقا فيما قاله؟" سأل علي مقاطعا. "هل تهريب الأعضاء البشرية هو العمل الرئيس لمستشفيات سراب؟"

كانت هذه الفكر في ذهن زينب منذ البداية.

"ومن أين له أين يجد المال عزيزي علي؟ كيف يمكن أن يفتتح تسع مستشفيات كبيرة خلال عشر سنوات؟!"

لكن كان لا بد لنا من معلومات كافية.

"ما المدن الأخرى التي افتتحت فيها هذه المستشفيات؟ أين افتتح فروعه في السنوات الأخيرة؟"

أدركت زينب ما يدور في ذهني.

"في بضع مدن، لكن المدن التي يجب وضع خط تحتها هي شانلي عرفه، وغازي عنتب، وهاتاي. فقد افتتحت في هذه المدن فروع من مستشفيات سراب بعد نشوب الحرب الأهلية بثلاث سنوات في سوريا. وهذه المدن المذكورة هي المدن التي لجأ إليها المهاجرون السوريون..."

تحدث علي بكره.

"يعني في المدن التي يمكن أن يحصلوا فيها على أعضاء بشرية بسعر رخيص... ولا حاجة للتفكير في هذا الأمر، فالرجل كوّن رأس مال كبير من الأعضاء البشرية... ولديه الآن مستودعٌ من هذه الأعضاء في المناطق التي يعيش فيها اللاجئون..."

"هكذا يبدو،" قلتها محافظا على كتماني. "لكننا ما زلنا في دائرة الظن يا رفاق. علاوة على هذا فالأقوال التي بين أيدينا تعود لشخص مشتبه به في تهريب الأعضاء." أشرت إلى صورة صاحب المستشفى على شاشة العرض. "كيف أُنهيَت قضية حياتي دارجان حينما دخل سجن التوقيف يا زينب؟"

تجهم وجهها بيأس.

"أطلق سراحه، بسبب عدم كفاية الأدلة، لكنكم تعرفون أنه..."

كانت تحاول إقناعي.

"لا فائدة من معرفتي يا زينب. فالمدعي العام نادر سيطلب منا شاهدا ودليلا... حسنا، ألم تفتح قضايا أخرى بحقه بعد ذلك؟"

"بالطبع، هناك خمس قضايا..."

أكمل علي بأسلوب ساخر.

"لكنه لم يأخذ أي عقوبة أبدا، أليس كذلك؟"

تحدثت زينب وكأنها تتمرّد.

"ينجو كلّ مرّة بسهولة... لم يأخذ أي جزاء على الإطلاق، بل إن هذه القضية لم تدخل المحكمة..."

حاولت استجماع أفكاري.

"كيف كان ينجو يا زينب؟ هل هناك ثغرة في القانون؟ ما الذي كان يخلّصه كلّ مرة؟"

كان واضحا أنها اجتهدت في البحث حول هذا الموضوع، وبدأت تتحدث بثقة.

"إنها مسألة معقدة نوعا ما يا سيدي. في الواقع لا يبدو أن هناك جريمة واضحة للعيان. إذ أن هناك أشخاصا يتبرعون بأعضائهم لأشخاص مرضى. وهذا ما يبدو في الظاهر. لكن هناك العديد من المرضى العاديين الذين ينتظرون مجيء دورهم. بمعنى أنه حينما تتبرع بكليتك أو بعضو آخر يجب أن يكون تبرعك لمن هم أكثر حاجة أو ممن ينتظرون دورهم. لكن حياتي دارجان وأمثاله أو أمثال دينتش أتشيقوز الذي اعتقلناه اليوم يقدّمون الناس الأغنياء على غيرهم من مختلف الدول وينقلون إليهم الأعضاء دون مراعاة للدور. وقبل فترة تم اقتحام مستشفى قام بهذا العمل، حيث تم القبض عليهم متلبسين أثناء نقل كلية من رجل نيجيري فقير إلى مريض ألماني غني. وهذه الحالة لم تكن استثنائية عندهم. فقد تبين أنهم تاجروا خلال عشر سنوات بأربعمئة عضو بشري. وهناك أيضا ما يقارب المئتي شخص باعوا أعضاءهم بشكل غير قانوني. نعم، كوسوفو أيضا كانت مشهورة بهذا الأمر. واليوم نحن أصبحنا أكثر دولة مشهورة بتجارة الأعضاء البشرية... فقد أصبح نشاط تهريب الأعضاء واضحًا جدا."

تحدث علي بذهول.

"إن كنتَ غنيًّا تعش، وإن كنت فقيرا تبع جسدك قطعة تلو قطعة."

أكدت زينب بصوت متألم.

"وكأن العار الذي يعيشه فقراؤنا لم يكن كافيا، ليعيش المساكين السوريون الآن نفس هذه المأساة."

قبض علي يده وكأنه أمام أشخاص يستعد لجدع أنوفهم وفغر أفواههم بصفتهم السبب في حدوث كل ذلك.

"تماما مثل أيبر وجابر اللذين باعا ابنهما برجس المصاب بمتلازمة داون... حقا لقد ماتت الإنسانية."

من جهة أخرى، ربما كانت هذه هي الإنسانية بعينها، فالسيد حياتي الذي ماتت ابنته لعدم وجود عضو بشري لها، اختار هذه الطرق السيئة التي تعترف بحق الحياة للأغنياء. لكن لا وقت الآن للتفلسف عن طبيعة الإنسان. إذ يجب التركيز على الموضوع الرئيس.

"حسنا يا رفاق،" قلتها وأنا أجلس على أحد الكراسي. "لنفترض أننا تأكدنا من أن حياتي دارجان كان يعمل في تجارة الأعضاء. ولنفترض أن رأس مال مستشفيات سراب مكوّن من هذه الأموال الدمويّة. ما علاقة هذا بالجرائم التي نحقّق فيها؟ نعم يا رفاق، عملنا الرئيس هو التحقيق في الجنايات الأربعة وليس في تجارة الأعضاء المخالفة للقانون. فإذا..."

لم تعطني زينب فرصة لإكمال حديثي.

"يجب أن نضيف اسما آخر إلى جانب حياتي دارجان يا سيدي." بدا أن صوتها مرح. "وهذا هو سبب حضوري مع أكرم أمام ذلك المستشفى الزائف. لكن نشوب الأحداث منعني من التحدث..."

زينب لم تتحدث عبثا، لا بد أنها توصلت إلى معلومة مهمة. سألتها

محاولا الحفاظ على هدوئي.

"هل تم التوصل إلى شيء بشأن الرمز الشريطي للألعاب التي عثر عليها في أماكن الجرائم؟"

ابتسمت ابتسامة عريضة انتشرت في وجهها.

"وهذا الأمر أيضا موجود، نعم؛ مجموع أرقام الرموز الشريطية للألعاب التي عثر عليها في الجرائم الثلاثة الأخيرة لا تساوي العدد 12. فما قاله المدعي نادر من قبل كان صحيحا. لأن أرقام الرموز الشريطية لهذه الألعاب الأخيرة ليست مثل أرقام الرموز الشريطية للألعاب التي عثر عليها قبل خمس سنوات في أماكن الجرائم. فيجب أن نضع ذلك في عين الاعتبار. لكن وفي ضوء الأمور التي عرفناها مؤخرا توصلت إلى معلومة في غاية الأهمية. بخصوص الشرطي القديم ألبر سيبر الابن المعنوي للسيد ذكائي... فقد تبين أن شركته المسماة درع الأمن تتولى تأمين مستشفيات سراب منذ ثلاث سنوات..."

ظهرت على شاشة العرض قصاصة أخرى. هذه المرة كان فيها ذكائي وقانصو وألبر. كان خبرا لمؤتمر صحفي يجمعهم. كانوا يتحدثون فيما يتعلق بحادثة اعتداء على طبيبة تعمل في مستشفيات سراب.

"يعني كان ألبر يعرف المقتول الأخير" خرجت هذه الكلمات من فمي من تلقاء نفسها. "علما أنه لم يكترث أبدا في الأمس حينما تحدثنا عن قانصو صارماشيق."

أكملت زينب من حيث توقفت.

"هذا ما كنت أتحدث عنه تماما سيدي. بالنسبة إلى الجرائم الأخرى لا أعرف، لكن بالنسبة إلى جناية قانصو صارماشيق فيبدو أن ألبر سيبر له علاقة بها... وبهذا الشكل أيضا يكون حياتي دارجان من ضمن قائمة

الأشخاص المشتبه بهم."

"هذا منطقي جدا،" قالها علي الذي كان يجلس بجانبي على كرسيه. "فقانصو يطلب مالا من السيد حياتي باستمرار. فكان حياتي يقول في نفسه ولمَ يتوجب عليّ إعطاء شريكي القديم هذا القدر من المال؟ ولا بد أن قانصو كان يهدده بقوله: 'إن لم تعطني المال فسأتحدث للجميع بأنك تعمل في تجارة الأعضاء.'"

في الحقيقة كان مساعدي يتحدث بالسيناريو الذي كان يدور في ذهني بعد أن سمعت أقوال دينتش عن مستشفيات سراب. كانت زينب أيضا تحمل الرأي نفسه. ترك علي وزينب إكمال التفاصيل لي بصفتي سيدهما.

"لم يكن يقول سأتحدث للجميع فحسب عزيزي علي، وإنما كان يقول أيضا سأفصح عن الوثائق التي بين يدي. وطلبه المال لم يكن ينتهي أبدا بالطبع. لأنه غرق في لعبة التحدي إلى درجة أصبح يرغب عندها بإيداع جميع أموال مستشفيات سراب لهذه اللعبة. ولو كان الأمر بيده لفعلها. فكان لا بد لحياتي من وضع حدّ لهذا الأمر. فتحدث بذلك للشرطي القديم ألبر. فربما اقترح ألبر شخصيًا قتل قانصو ومحوه من الوجود... ومن المحتمل أن السيد حياتي شعر بالخوف، فلم يكن يقبل بفقد ماله أو بدخول السجن بارتكابه جريمة. فهو لا يرغب أن تعيش ابنتاه بلا أب. لكن الطمّاع ألبر اقترح عليه مشروع قتل لا يمكن رفضه. وحسب مقترح السيناريو هذا فإنه لن يقبض عليهما أبدا... لأنه سيبدو أن مقتل قانصو صارماشيق وقع من قبل قاتل متسلسل. بمعنى أنه سيتم تلبيس القط الأعمى تهمة القتل. لكن لكي يبدو هذا مقنعا كان لا بد لهما من قتل شخصين آخرين قبله؛ شخصين متحرشين بالأطفال

يوافق الجميع حتى الشرطة على قتلهما..."

بدت على وجه زينب علامات الإعجاب.

"أنتم تفكرون بذكاء عال يا سيدي. بالطبع، ألبر يعرف التفاصيل الكاملة بحق القط الأعمى. والأدهى من ذلك، أن جميع التفاصيل التي جمعها النقيب ذكائي عن القاتل المتسلسل كانت تحت يده. تخدير الضحايا، وقتلهم في الأماكن المتعلقة بالأطفال، أو قتلهم سابقًا وإحضارهم إلى هذه الأماكن. وقطع قماش حمراء فوق عيونهم، وقطع آذانهم اليمنى، وألعاب متروكة إلى جانب الضحايا."

حقا لقد فكر ألبر تفكيرا شيطانيا.

"لقد فكر تفكيرا أدق من ذلك عزيزتي زينب،" قلتها مذكّرا إياها. "كان يعرف أنني سأحقق في هذه الجرائم. فقام بإجراء بحث عنّي. ولا بد أنه علم بشكل ما أن عاكف صويقان تحرش بابنتي سابقا. ولهذا السبب اختار عاكف صويقان ليكون أول الضحايا. وترك إلى جانبه لعبة شبيهة بلعبة ابنتي. فقد كان يرغب بإثارة عاطفتي، وجعل تركيزي منصبا بأكمله على القط الأعمى."

ضّيق علي الذي كان يستمع إلينا عينيه، وتحدث بهدوء.

"لكنه ارتكب خطأ. لم يلتزم بأرقام وحسابات القط الأعمى. فقد قتل ثلاثة أشخاص بدلا من 12 شخص." صمت، وتحدث كما لو أنه كان يسأل نفسه. "هل سيستمر يا ترى؟"

"لا عزيزي علي،" قلتها بصوت مليء بالثقة. "لو كان كذلك لتوجب عليه قتل 12 شخصا. لكنه لم يستطع أن يأخذ هذا العدد بعين الاعتبار. فربما اعتقد أننا لن نتعلق بهذه الجزئية. وهو محق في ذلك، فلو لم نتوصل إلى هذه الأدلة لربما غضضنا الطرف عن هذه الجزئية

غير المؤكدة."

أكدت زينب وهي مستغرقة في التفكير.

"محقون يا سيدي، ربما غضضنا الطرف. ففي النهاية نحن أمام قاتل متسلسل. قاتل متسلسل لا نعرف عنه معلومات كثيرة... فنحن لا نتوقع منه أن يبقى ملتزما بطقوسه التي قام بها في جريمته الأولى." تلعثمت. "ومن المحتمل أنهم استعملوا حافلة صغيرة تعود إلى شركة درع الأمن. هل تتذكر الشاهد الذي عثرت عليه عزيزي علي؟ فقد ذكر أنه رأى حافلة صغيرة ذات لون غامق."

"أتذكر بكل تأكيد، لكنهم استعملوا حافلة لم يكن اسم الشركة مكتوبا عليها."

"أو أنهم غطوا اسم الشركة. نعم، ولألبر شريك آخر في جرائمه. ذلك الرجل العملاق الذي يرافقه..."

"مردان،" قلتها هامسا. "مردان من مدينة ألبر نفسها، وربما له أعمال أخرى قذرة..."

"حسنا، لكن كيف يمكن لشرطي قديم أن يقوم بهذا؟" سأل هذا السؤال صاحب القلب النظيف علي. "فالرجل يقلّد قاتلًا متسلسلًا بشكل كامل. حسنا، قتل أشخاصا لا شرف لهم، لكنه لم يقتلهم من أجل المثالية، ولم يقتلهم أيضا من أجل هدف صحيح. وإنما قتلهم من أجل إسعاد مديره فقط. يعني من أجل المال..."

هذا هو السبب الذي يجعلني أحب عليا، لأنه ما زال يستغرب من الشّرور، لأنه لم يعتد أن يقف معها في أي وقت مطلقا.

"وهل هناك أسوأ من ذلك يا علي؟ فأساس هذه الجرائم كلها المال."

كنت على وشك أن أستمر في التحدث، لكن رنة هاتفي منعتني من إكمال

الحديث. نظرت، كان المتصل أكرم.

"مساء الخير سيدي،" قالها بنبرة ذلك الصوت المعروف. "عُثر على جسدين. جثتان لرجلين..."

وهل وقع ما كان يدور في ذهني يا ترى؟

"هل هما معروفان؟" سألت بخوف. "المقتولان من هما؟"

"أحدهما شرطي قديم، ضابط متقاعد اسمه ألبر سيبر، والآخر ملاكم قديم اسمه مردان قايماز..."

55

"لنتخلص من أسطورة القط الأعمى هذا."

كان مردان أمام غرفة الجلوس؛ جاثما على ركبتيه مسندا كتفه الأيمن إلى جناح الباب. ولو لم يكن الثقب الأسود الصغير في وسط جبينه، وزناد مسدس بيريتا ذو المقبض الفضي ثابتا بين أصابعه لظننا أنه جاثم يراقب الدّاخلين بفضول. كان موته مفاجئا إلى درجة لم يعثر عندها على لحظة واحدة للتحرّك. فحينما أطلق عليه النار جثم على ركبتيه فورا.

كان ألبر جالسا على الأريكة، مرجعا رأسه للوراء وفي عينيه ذهول، ويده اليمنى على خاصرته. حاله تماما مثل حال الرّجل العملاق، ففي وسط جبينه أيضا ثقب أسود صغير. والفرق الوحيد بينهما هو دخول طلقة من جبين ألبر وخروجها من خلف رأسه. ولهذا السبب كان كتفا القميص الأخضر للشرطي القديم ملطخين بالدماء. وكان الدم الجاف مستمرا في التحول من اللون الأحمر إلى الأسود. جو الغرفة خانق وإن كانت رائحة الجسدين لم تفح بعد.

"قُتلا قبل 12 ساعة على الأقل،" قالتها زينب وهي تلمس الدم الجاف وفي يدها قفاز بلاستيكي. "وربما قبل ذلك بقليل."

القط الأعمى أسرع منّا في كل وقت وحال. وهذا ما لم أستطع إدراكه. كيف كان يستطيع معرفة القتلة المزيفين قبلنا؟! لا بد أنه لم يكن ذكيًّا

فحسب، وإنما لديه المعلومات التي بين أيدينا. وبعبارة أخرى لا بد أن يكون واحدا ممن كان ينظر في هذه القضية. اتجهت أنظاري إلى علي الذي كان يتفحص مردان بدقة. فقلت في نفسي مستحيل أن يكون هذا، وعاتبت نفسي ووبختها. هل تشتبه بعلي؟! فرغم أن صديقي هذا عصبيّ، فإنّه مُخلص ولا يمكن أن يفعل مثل هذا الأمور البربريّة. لكن من جانب آخر، كان علي الشخص المثالي لأن يكون القط الأعمى. فقد تعرض للاغتصاب في صغره، وهو مليء بالكره، وفي الوقت نفسه ماهر في عِلم الجنايات، والأهم من ذلك أنه واحد ممن ينظر في هذه القضية. لا، لا، قلتها في نفسي محاولا الابتعاد عن هذا التفكير.

"لا بد أنه دخل إلى هنا مثل الضيوف بكل أريحية." كانت زينب مستمرة في التحدث بتوقعاتها. أشارت إلى الفنجان الذي كان على الطاولة أمام ألبر. "تماما مثل صديق جاء لشرب قهوة." اتجهت أنظارها نحو الطرف الآخر من الطاولة، لم يكن هناك فنجان. "لا بد أنه غسل فنجانه، ونظفه." اتجهت نحو الأريكة المقابلة. ركعت. "جلس هنا بالضبط." جعلت من يدها اليمنى مسدسا وأدارتها نحو الشرطي القديم. "أطلق عليه النار لحظة شعور الرجل بالأمان." ثم أشارت بالمسدس الخيالي نحو الباب. "حاول مردان تدارك الأمر، لكن القط الأعمى اصطاده على الفور."

كان ذهن علي عالقا في أمر آخر.

"أنا لم أستوعب، هل هذا الرجل ساحر؟ كيف يمكن له أن يقتل شخصين في اللحظة نفسها، أحدهما شرطي قديم والآخر حارس شخصي؟!"

الإعجاب بالقط الأعمى ترك فيه غضبا مليئا بالحسد جعله

يشعر بالتحدي الصعب. "أليس كذلك يا سيدي؟ هل يمكن أن يصطاد الناس هكذا على حين غرة؟"

الجواب بسيط جدا، استطاع صيدهما بذكاء وشجاعة وتجربة في القتل مثلما استطاع قتل 12 شخصا قبل خمس سنوات، وذكائي قبل يومين. لكنني لم أستطع التحدث بذلك، لأنني رأيت على الطاولة البنية التي كانت خلف العامود مباشرة في نهاية خزانة الكتب الصغيرة، قطعة قماش حمراء، فوقها مسدس سميث ويسون 38. وحينما اقتربت بضع خطوات رأيت صندوق علاج كبير. لم أستطع معرفته لكن كان من المحتمل أن تكون فيه الإبر المحتوية على ميواكريوم التي كان يستعملها أثناء خطف الضحايا.

"لم يكتف القط الأعمى بقتل الرجلين الزائفين فحسب، وإنما عرض الأدلة أيضا." لم أشعر أبدا أن مساعدي كان يتعقبني من خلفي. كان يقف على بعد خطوة واحدة خلفي ينظر إلى ما رأيته فوق الطاولة. "ما أهدأ هذا الرجل يا ناس؟" بدت في صوته نبرة الإعجاب تلك.

اشتركت زينب أيضا معنا. هزت رأسها بعد أن ألقت نظرة إلى الطاولة.

"لم يعد ما تحدثنا حوله اليوم احتمالا. فهذا يعني أن السيناريو الذي تصورناه كان حقيقة يا سيدي..."

حينما سمعت كلمات زينب استجمعت نفسي ونظرت إلى علي بعجلة.

"هل لدينا رقم هاتف صاحب المستشفى؟ رقم حياتي دارجان..." لم يدركا سبب طلبي. "بما أن هذان الشخصان قُتلا فإن التالي هو صاحب المستشفى. فحياتي دارجان هو المسبب الرئيسي لوقوع الجرائم المزيفة."

انتقل قلقي إلى علي.

"أعطانا بطاقته،" قالها وقد بدأ بالبحث عنه في جيوب معطفه. "نعم

وجدته." أخرج هاتفه واتصل قبل أن ينتظر أمري. كان يرمقني بانفعال وهاتفه على أذنه. كنت أسمع عن بعد صوت رنة الجرس، لكن لم يجب أحد. فحاول مساعدي من جديد، لكن لم يجب أحد.

"لنتصل بالمستشفى." قالتها زينب. هي أيضا أخرجت هاتفها الذكي ولمست الشاشة بسرعة. "حسنا، ها هو... سأتصل بالمستشفى المركزي..." سمعتُ عن بُعد رنة الهاتف من جديد، لكن فُتح خط دون انتظار في هذه المرة. عرّفَت زينب بنفسها للسكرتيرة، وتحدثت لها بلغة مناسبة عن مرامها.

"فهمت سيدتي،" قالت ذلك السكرتيرة التي تتحدث بالهاتف بتوتر. "لم أر مجيء الطبيب حياتي هذا اليوم، سأحوّلكم إلى مساعدته السيدة بينار..."

الاتصال بالسيدة بينار أخذ وقتا قليلا. انقطع الاتصال مرتين، فكانت زينب تتصل من جديد. وأخيرا استطاعت الاتصال بالسيدة بينار.

"كنا سنتحدث مع الطبيب حياتي. نحن نتصل بكم من شعبة الجنايات..."

تجهّم وجه زينب التي كانت تستمع إلى حديث المرأة.

"وهل أنتم أيضا لم تستطيعوا التواصل معه؟ أليس في البيت؟ زوجته وأطفاله... هم في مرمريس... هل يمكن أن يكون ذهب إلى جوارهم؟ أحقا ذلك؟ وعائلته ماذا تقول؟ هل تحدثوا البارحة في الأمس؟ حسنا، فهمت... لكن إن عرفتم عنه شيئا فأخبرونا على الفور."

نظرت إليّ وهي تغلق هاتفها.

"يبدو أن القط الأعمى خطف الطبيب حياتي. فقد ذهب سائقه هذا الصباح إلى البيت ولم يجده... ولم يره أحد على الإطلاق..."

"ربما ذهب لإغواء العاهرات..."

كان علي صاحب هذه الفكرة البراقة، وحينما رآنا ننظر بعيون مستغربة تحدث بصوت ضعيف.

"ألا يمكن ذلك؟ فالفرصة سانحة له ما دامت زوجته وأطفاله ذهبوا إلى مدينة مرمريس..."

كان احتمالا ضعيفا، وبالطبع لم يستمر مساعدي بالتحدث في هذا الرأي. كان الاحتمال القوي يتمثل في وقوع الطبيب حياتي بين يدي القط الأعمى. وربما قتله وتخلّص منه منذ وقت طويل، فهذا ما كنا نعتقد حتى وإن لم نتحدث به صراحة. لكن هذا لم يكن من الأشياء التي تحل بالتفكير، إذ كان يتوجب نهوض المؤسسة الأمنية على قدمها في إسطنبول بأكملها. وهذا ما لم أستطع القيام به بمفردي.

"أنا سأذهب للمدعي العام نادر" قلتها وأنا أستعد للتحرك. "زينب ابقي هنا، واستمرّي في التحقيق. علي، اذهب أنت إلى منزل حياتي وانظر ما إذا كان في الإمكان العثور على دليل؟ لنبقى على اتصال، فلنتّصل فيما بيننا بعد ساعتين كأقصى حد..."

حينما خرجت لفحت وجهي رياح مثل النار. حتى وإن كانت الشمس قد غربت إلا أن هذه الحرارة لم تكن تفارقنا على الإطلاق. وبينما كنت أسير من الفيلا إلى سيارتي المخضرمة تعرّق شعري بأكمله. كانت السيارة أشبه بالفرن، كأنّ حرارة الشمس بأكملها قد تفرغت على مقاعد السيارة. حل بداخل السيارة رائحة بنزين ثقيلة إلى أن اشتغل محرك السيارة. وبقيت هذه الرائحة مستمرة إلى أن وصلت قصر العدل.

وبينما كنت أدخل إلى موقف السيارات المخصص للموظفين الرسميين رأيت المدعي العام. اقتربت بسيارتي منه وناديته من النافذة...

"سيد نادرا سيد نادرا" كان شارد الذهن. "حضرة المدعي، حضرة المدعي..."

أدار رأسه، وأخيرا سمعني، أوقفت حينها سيارتي المخضرمة. وأخرجت رأسي من النافذة، وحينما رآني بدا مرتعدا.

"لا تؤاخذوني، فقد صرخت من خلفكم..."

كان مستمرا في النظر إليّ ليفهمني.

"لا، لا، ليس مهما..." اقترب، مد يده من النافذة إلى الداخل وهو يبتسم. "خيرا يا حضرة النقيب! ماذا تفعلون هنا؟"

ضغطت على يده الممدودة.

"ليس خيرا يا سيدي... جئت إليكم، فهناك بعض التطورات، ويجب التحدث..."

تجهم وجهه.

"يبدو أنها مهمّة..." كان يتكلم باضطراب. "وأنا أيضا أحاول اللحاق بأمر ما." اتجهت أنظاره نحو سيارة الميجان الرمادية التي كانت في المقدمة. "تعالوا معي، سنتحدث في السيارة... وسأترككم في مكان مناسب، تستطيعون العودة منه بسيارة تاكسي..."

"بالطبع... سأوقف سيارتي المخضرمة في الزاوية وأعود."

"المخضرمة!" قالها متعجبا. "تعبير جميل." رمق السيارة بنظرات ساخرة. "تعتنون بها جيدا، فهي لا تبدو سيئة على الإطلاق."

"شكرا جزيلا..." ضغطت على دواسة البنزين بشكل خفيف. "سآتي فورا..."

وبينما كنت اصفّ سيارتي بين سيارة بيجو حمراء وسيارة فورد بلون بيج، رن هاتفي. كان المتصل باحثتنا.

"مرحبا عزيزتي زينب، أرجوك قولي لي: لقد عثرت على دليل مهم..."

ابتسمت بسرور.

"مهم، لكنه ليس جديدا، فهناك قطع من ذلك التراب الأحمر على الأرض. لم نخطئ، فكل الإشارات تشير إلى ذلك الشخص الخارق..."

"القط الأعمى،" قلتها متمّمًا. "حسنا عزيزتي زينب، شكرا جزيلا على إخبارك لي، لكن لا بد لي من إغلاق الهاتف. فالمدعي العام ينتظرني في سيارته."

"أفي سيارته؟ وأين أنتم يا سيدي؟"

ضحكت.

"حكاية طويلة، الرجل يريد الذهاب إلى مكان ما، لذلك سأتحدث له في السيارة، لن يستمر أكثر من ساعة وبعدها سأكون بجوارك... هيا، أعطاك الله العافية."

وبينما كنت أركب سيارة الميجان فوجئت عندما رأيت المدعي العام داخلها بمفرده. وقد أدرك المدعي العام استغرابي وأنا أجلس في المقعد المجاور له.

"سمحت لسائقي جاويد بالذهاب مبكرا، فامرأته مريضة." تحركت سيارته، وسأل حينما خرج من موقف السيارات. "نعم، تحدثوا، ما تلك التطورات المهمة؟"

لم أستطع أن أدرك ما إذا كان غير مكترث أم أنه يرغب في التظاهر بعدم الاكتراث. دخلت في الموضوع مباشرة.

"عثرنا على قاتلي الضحايا الثلاثة..."

نظر نحوي في الوقت الذي كانت فيه السيارة تجري فوق الإسفلت.

"أحقا ذلك؟ هل قبضتم على القتلة؟"

انفعل الآن.

"لا، لقد قُتلا."

حين سمع هذا الخبر المهم لم يوقف سيارته ولم يخفف سرعتها.

"ومن قتلهما؟"

لو كنت مكانه لسألت عن المقتولَين، لأنني كنت سأرغب في معرفتهما أوّلًا. لكن ليس شرطا أن يفكّر المُدّعين العامّين مثل الشرطة.

"من المحتمل أنه ذلك القاتل المتسلسل الملقب بالقط الأعمى..."

رمقني ثم أدار رأسه نحو الطريق.

"وهل طبّق طقوسه من جديد؟ هل ترك الجسدين في أماكن مُخصّصة للأطفال؟"

كانت الأسئلة صحيحة لكن نبرة صوته كانت معدمة من الفضول. لا أدري، كانت هناك غرابة لدى صاحبنا المدعي.

"لا، لقد قتلهما في منزلهما... فالقاتل دخل منزلهما بكل أريحية تماما مثلما دخل منزل النقيب ذكائي. لا بد أن بعضهم يعرف بعضًا، ولا بدّ أن القتيلين كانا يثقان فيه، فقتَلهما على حين غرّة..."

ما زال مستمرا في عدم السؤال عنهما.

"حسنا، هل ترك دليلا في مكان الجريمة؟ هل استطعتم العثور على شيء مفيد في التحقيق؟"

"كالعادة لم نعثر على أي دليل، لكن عثرنا على قطع صغيرة من التراب الأحمر فقط..."

تحوّل بنظراته إليّ.

"ما التراب الأحمر هذا؟"

لم أتحدث لنادر عن هذا من قبل.

"قطع من التراب الأحمر. عثرنا عليها في منزل السيد ذكائي وفي قاربه، كما عثرنا عليها في شقة قانصو، وعثرنا عليها أيضا في فيلّا المقتولَين مؤخّرًا."

وبينما كان يغير غيار السرعة تحدث بصوت مبهم.

"عجيب..."

"نعم،" قلتها مستمرا في الحديث. "ولم نعثر على دليل آخر. علما أن رفاقنا ما زالوا يواصلون التحقيق في مكان الجريمة. لكن هناك تطور أهم بكثير. من المحتمل أن القط الأعمى قد خطف مسبب جرائم القتل ضد المتحرشين جنسيا."

ألقى نظرة إليّ من جديد.

"ومن هو ذلك الشخص؟"

بدأ بالنظر إلى الطريق دون أن ينتظر الجواب.

"حياتي دارجان، ذلك الشخص صاحب مستشفيات سراب. فهو مسبب جرائم القتل ضد الأشخاص الثلاثة. أنتم لم تسألوني لكن الشخصين اللذين قتلهما القط الأعمى هما ألبر وحارسه مردان اللذين التقيت بهما أمس في منزل النقيب ذكائي..."

فهم المغزى من كلامي.

"نعم لم أسأل لأن ذهني بقي عند القاتل. عند القط الأعمى... لم نستطع القبض على الرجل حتى الآن. الصحافة من خلفنا، وكل يوم يأتينا هاتف من الأعلى. وأخاف أن نأكل في القريب توبيخا من الوزير."

لم أقلق على الإطلاق.

"قد لا يبقى هناك حاجة لذلك. أعطوني سلطة. سأقوم بإنشاء فريق خاص. لا بد أن السيد حياتي قد اختُطف من منزله ليلا. لنطّلع على

كاميرات المراقبة. سنحصل على دليل بكل تأكيد. أنا أحسّ أن القط الأعمى في حالة ذعر. إنه يتحدى الزمن. ففي الأمس قتل شخصين، وخطف شخصا آخر. فمهما كان، لا بد له أن يترك أثرا خلفه..."

"حسنا، حسنا،" قالها بحماس. "لنفعل كل ما يلزم. ولنتخلص من أسطورة القط الأعمى هذا." تحول بأنظاره إليّ من جديد. "حقيقة لا يمكن لأحد أن يفعل هذا غيركم. فلنتحرك مباشرة..."

وبينما كان يتكلم هكذا قطعت الطريق أمامنا سيارة باسات سوداء خرجت من الطرف الأيمن. استطاع نادر أن يحرك مقود السيارة بمهارة عالية، فتخلصنا من حادث الاصطدام في اللحظة الأخيرة، لكن تعرض كلانا للاهتزاز في السيارة.

صرخ المدعي العام قائلا: "انظر أمامك يا رجل!" لكن سائق سيارة الباسات ضغط على محرك السرعة وابتعد.

نظر نادر ووجهه متجهم إلى قدمه.

سألته قائلا: "هل أصبتم بشيء؟ لا شيء بكم، أليس كذلك؟"

قال: "لا، أنا بخير،" لكنه كان يتحسس رجله اليمنى بيده. في تلك اللحظة رأيت قطع التراب الحمراء على الدعاسة. إنها قطع التراب نفسها التي عثرنا عليها في منزل ذكائي وقاربه، وفي منزل قانصو، وفي مكان الجريمة التي عثرنا عليها اليوم... ماذا يعني ذلك؟ هل كان المدعي نادر هو ذلك الشخص القاتل عديم الشفقة الذي طاردناه سنوات؟ ولم لا يكون؟ وهل هناك قاعدة تقول إنه لا يمكن أن يكون المُدعون العامّون قتلة متسلسلين؟

وحينما سأل نادر قائلا: "ماذا، إلى ماذا تنظرون؟" تبددت الأسئلة التي كانت تحرق ذهني.

"لا شيء... أنظر هكذا مجرد نظر فقط."

بدت على وجهه ابتسامة هادئة.

"لا تقلقوا، أنا حقا بخير. أنتم أيضا بخير، أليس كذلك؟"

قلت: "بخير، بخير." لكن اتجهت انظاري من تلقاء نفسها مجددا إلى قطع التراب الحمراء الصغيرة التي كانت فوق الدّعاسة.

"حقا يا حضرة النقيب، إلى ماذا تنظرون؟"

كان صوته هذه المرة قاسيا.

"أردت التأكد."

رمقني بشك.

"عن ماذا تريدون التأكد؟"

ابتسمت.

"أردت التأكد من أنكم بخير."

ارتكبت خطأ، فقد بدأ بالشك. ولم يكن هناك من معنى لإثارة شكوكه أكثر من ذلك، أخذت نفسا عميقا وبدأت النظر إلى الطريق. فربما كنتُ مخطئا، فما مدى صحّة اتهام رجل قانون اعتمادا على قطع التراب الحمراء هذه؟ لكن من جانب آخر، كان نادر يحمل الصفات الأخرى للقط الأعمى. يعرف جيّدًا منهج الشرطة في العمل. كان رجلا ذكيا، وشجاعا، وقويا. استحضرت في مخيلتي صورة الرجل الذي ظهر في كاميرات المراقبة في عمارة قانصو. وتذكرت الرموز الشريطية، أرقام الرموز الشريطية التي كانت خلف الألعاب الموضوعة بجانب القتلى... فهي الأعداد التي كانت سببا في اشتباه ذكائي فيه. وقد تحدث ذكائي مع بوكت فقط في موضوع أرقام الرموز الشريطية. لكن حينما كنا جالسين في المقهى أمام المركز الأمني تحدث حينها نادر قائلا: "ليس هناك من تلك الأرقام على لعبة

باربي التي عُثر عليها في قاسم باشا..." القط الأعمى وحده من كان يمكنه قول ذلك، لأنه كتب بيده على كل رمز شريطي أعدادا تساوي الرقم 12. وفي اليوم الذي اتصل بي ذكائي، أشار إلى احتمالية توصله إلى معرفة هوية القط الأعمى. ثم بعد ذلك قُتل. المصادفات بهذا القدر كان مبالغا فيها. نظرت إلى المدعي العام من جديد. كان يبدو متوترا، كأنّ في ذهنه مسألة لم تحل بعد. فربما لأنه خطف السيد حياتي لكنه لم يقتله بعد، فكان في حالة متوترة. وأنا أيضا كنت متوترا. فأنا لأول مرة أقع في حال كهذه. فقد كنت أجلس إلى جانب قاتل متسلسل لم يقتل 12 شخصا فحسب، وإنما قتل أيضا زميلي الذي كنت أحبه. علاوة على هذا فإن المدعي العام هذا يعدّ سيدي بصفته أعلى مني رُتبة. أول ما تبادر إلى ذهني هو إخراج سلاحي واعتقال هذا الرجل. لكن لم يكن هناك دليل كاف. إذ يستطيع التخلص من هذه القضية بكل سهولة. لذلك كان الصبر هو الحل الأفضل، فحينما أنزل من السيارة سأتصل بعلي وسنطارد هذا الرجل. كان يتوجب أن لا أثير شكوكه. حينها أدركت أننا لم نتحدث منذ مدة طويلة.

"نعم، إذا أردنا العودة إلى الموضوع الرئيسي يا حضرة المدعي،" قلتها محاولا التخلص من الصمت. "فلا بد لنا من التحرك بأسرع وقت. أعطونا تعليماتكم كي نبدأ نحن بعملياتنا. وبهذا الشكل ربما سنتمكن من تخليص حياتي دارجان من يدي القط الأعمى. فكل ثانية تمضي تسير ضدنا."

لم يكن مكترثا أبدا. يبدو أنني لم أثر شكوكه. ومهما يكن الأمر كان لا بد لي من البقاء حذرا.

"أنتم محقون، الآن سأصدر التعليمات." أخرج هاتفه أثناء قيادته

للسيارة. فوجدت في ذلك فرصة لإخراج هاتفي. أردت بعث رسالة لعلي في الوقت الذي كان يحاول فيه نادر العثور على مسؤول يتصل فيه. وحينما لمست هاتفي سمعت صوت فرامل، انزلقت على إثره للأمام، وارتطم رأسي، فشعرت بالدوار. وبينما كنت أحاول استجماع نفسي نزلت على وجهي قبضة قاسية، وتبعتها أخرى... بعدها كان ظلام، ظلام فقط...

56

"حكيمة، سمكة زرقاء..."

تباطأت الحياة، وهبت الرياح بهدوء، كانت أشجار التنّوب ذات اللون الأخضر الداكن تتلوى ببطء في الماء، والأعشاب الخضراء المائلة أطرافها إلى الاصفرار ينحني بعضها أمام بعض؛ مرة للخلف ومرة للأمام، أما تلك الصخور التي كانت بلون القرفة فبقيت ثابتة في مكانها كما هي. بدا أن العالم تحوّل إلى مكان من الزجاج، إلى عالم من الأحلام الملوّنة. في تلك اللحظة رأيت ملك الموت. له جناحان لونهما أزرق داكن يمتدان من كتفيه إلى قدميه، كان يتراقص في المياه الصافية كما لو أنه كان ثملا. وكلما تحرك تحول ذلك الريش اللامع على جناحيه إلى حراشف كبيرة، تحولت إلى حراشف زرقاء تحت الضوء المشتعل مثل قوس قزح. وبينما كنت أنظر إلى ذلك الملك كنت أشعر بحزن لا يمكن تعريفه، أشعر بحزن عميق، حزن لا يطاق.

"إنها سمكة الفايتر المقاتلة" قالها صوت معهود. "إنها في رأيي أجمل مخلوق على وجه الأرض."

كان الرجل مُديرًا ظهره إليّ، اقترب من حوض السمك، ولمس الزجاج بأصابعه. عجيب، فقد اقتربت السمكة ملصقة فمها بالزجاج كما لو أنها تعرفه. استدار الرجل والتقيت بوجه نادر. كان ينظر نحوي، وهو واثق في نفسه، يبتسم ابتسامة وحشية. تبدد ذلك الكون الساحر، ووجدت

نفسي جالسا على طقم أثاث قديم، وربما كنت جالسا على الأريكة الأكثر رثاثة في المكان، وسط صالون طويل، مضاء بأضواء حمراء من ثريا متدلية من السقف. هناك بابان في الصالون الحار جدا مثل جهنم، وهناك في الطرف الأيسر سلّم خشبي ينتهي للأعلى. لا بد أن هذا البيت مكوّن من طابقين على الأقل. لم تكن هناك أي نسمة هواء رغم أن بابَي الصالون كانا مفتوحين. كان جسدي بأكمله يتصبب عرقا، ولا أدري ما إذا كان ذلك من الرطوبة العالية في الداخل أم من الضيق الذي أنا فيه. لكن كانت عندي هموم أهم من ذلك. كان يتوجب أن أتخلص من هذا الألم الذي ينخر في رأسي، ومن هذه الرخاوة الناتجة من الحرارة. بدأت النظر بدقة إلى ما حولي. كان الحائط الخشبي الكهرماني مليئا بالصور المصفرة. صورة لشاب نقيب يرتدي الزي العسكري وبجانبه امرأة جميلة، ووسطهما طفل صغير، يبتسمون جميعهم للكاميرا. وفي الصور الأخرى كان الطفل فيها مستمرا في النشوء. مستمرا إلى أن أصبح مدّعٍ عام. كانت الصورة الأكبر على الحائط ملتقطة حينما كان نادر في الجيش بلباس الكوماندو. لعلّها أكثر ما كان يفتخر به. وهناك صورة على الصخور وفي يده بندقية مشاة ضخمة بدا فيها مثل العقاب. وأنا أنظر إلى الصور بدأ ما فيها بالتلاشي. فقد بدأت أشعر بالشدّة من جديد. أغلقت عيني وبقيت مدة من الوقت على هذه الحال.

"هل أنتم بخير؟ هل أنتم بخير يا حضرة النقيب؟"

لم أكن بخير، كنت أشعر بثقل في رأسي، ووخز في الطرف الأيسر من وجهي، حاولت تحريك يدي، لكنني فشلت، فقد كان رسغاي معقودين بواسطة غلّين منفصلين عن بعضهما في مُسندَي الكرسي الخشبي الذي أجلس عليه. فتحت عيني، ونظرت في وجهه معاندا.

"أنا بخير، أنا بخير جدا."

فهم، لكنه لم يلطم وجهي.

"فرحت،" قالها مبتسما بوقاحة. "فرحت بسلامتكم. وأعتذر منكم، لأنني اضطررت إلى ضربكم."

لم أكترث بمجاملته الكاذبة بتاتا، وتحولت بأنظاري إلى حوض السمك من جديد. وفي هذه المرة لم تجذب السمكة انتباهي، وإنما لفت انتباهي ما بداخل الحوض، نعم، كان كل موضع فيه مصمم بدقة متناهية، فقد كان ذلك الحوض المليء بالخضرة، والمرجانيات الصغيرة، والصخور، والرمال عملا فنيا رائعا. وبدا أن هذه السمكة الزرقاء معجزة هذا العمل الفني.

"جميل، أليس كذلك يا حضرة النقيب؟" كان سعيدا لاهتمامي بالنظر إلى السمكة التي في الحوض. كان مثلي يحدق في ذلك الحيوان الملوّن الذي يحاول جذب انتباهنا بفتح زعانفه. "ليس جميلا فحسب، وإنما سمكة حكيمة أيضا." أطلق ضحكة بصوت مرتفع. "حكيمة، سمكة زرقاء... لا تنظروا إلى ضحكي، لكن حقا هناك فلسفة خاصة لهذا النوع من السمك. فهو لا يقبل أحدا آخر في عالمه الخاص. ولا يسمح أن يعيش إلى جانبه ذكر آخر. يعيش مع الإناث في سبيل الخصوبة فقط. لكنه صاحب مسؤولية في الوقت نفسه. يحمي صغاره التي خرجت من البيض، يرعاها، ثم يعود لوحدته. إلى وحدته المقدسة تلك..."

ضيّقت عينيّ بغية التخلّص من الثقل الذي كان على رأسي، لكن لا فائدة.

غمغمت قائلا: "أمثلكم؟ هل تقصدون نفسكم بذلك؟"

ضحك كاشفا أسنانه اللامعة.

"مثلي، وفي الوقت نفسه مثلكم، ومثل الجميع، ومثل كل الناس. أنا لا أتحدث عن نفسي وإنما عن الإنسانية بأكملها."

وبينما كان المدعي نادر يتحدث اعتقدت أنه وخزني من ذلك العلاج الذي يخدر به ضحاياه الآخرين. لو كان كذلك لما استطعت التكلم. ومع ذلك حاولت تحريك يدي. استطعت تحريك أصابع يدي فقط رغم أن رسغيّ مربوطان بشكل قاس.

"لا تقلقوا، أنا لم أعطكم من ذلك العلاج،" قالها بصوت حزين. "أنا لم أكن أرغب في حدوث هذا. أنا حقا أُكنّ احتراما كبيرا لكم. وأنا أحترم كل من يحترم عمله. فلو لم تكتشفوا أمري لما كنتم الآن في هذه المصيبة. حسنا، أعترف أنني أخطأت في موضوع فرش مدخل بيتي بقطع التراب الحمراء تلك. خطأ لا يمكن أن يُغتفر. لكن من أين لي أن أعرف أنكم ستركبون سيارتي؟ كانت مصادفة سيئة." شبك يديه فوق صدره وصار في وضع جدي. "في الحقيقة إذا تمعّنتم في الأمر سترون أن هذه القضية كانت مبنيّة على الصدف. لا أريد أن آكل حق ألبر، لكنه حقا أعدّ خطة جيدة إذا استثنينا بعض أخطائه. ومن أين له أن يعلم أن القاتل الذي كان يقلّده هو المدعي العام نفسه؟ ولهذا السبب حينما ذهبت إلى منزله لم يشتبه بي مطلقا. فقتلته وقتلت حارسه الشخصي بكل أريحية..."

حقًّا كان الأمر عجيبا، فالسيناريو الذي كتبه القدَر هذه المرة للمجرمَين عادل.

"وأنا حزين جدا على النقيب ذكائي أيضا،" قالها المدّعي القاتل مُعربًا عن ندمه. "كنت أحترمه أيضا، ولم أرغب في قتله. وهذا هو سبب ذهابي إلى منزله. من أجل التأكد... ولو لم يُدرك أنني القط الأعمى لما ألحقتُ به الضرر. لكنه بمجرّد أن فتح الباب تيقنت أنه يعرف أنني القط

الأعمى. وبالطبع حاول إخفاء ذلك، فدعاني إلى الداخل وأكرمني. كان في ذهنه يخطّط إلى التظاهر بعدم الاشتباه بي، وكان سيقبض عليّ في اللحظة التي أكون فيها ضعيفا. لكن كما تعلمون أنهيت حياته. فهو لم يعرفني جيدا. وإن صحّ التعبير استهان بي. ولنقل إنه تكبّر، وهو خطأ كبير بالطبع... وقد دفع حياته ثمنَ خطأه. كان لا بد أن يدفعها، ولم يكن عندي حل آخر."

لم أكترث بدموع التمساح أبدا، فقد كان ذهني عالقا بجزئية أخرى. لماذا لم يقتلني في سيارته؟ ربما كي لا يترك أثرا خلفه، فبكل تأكيد لو فعلها لكانت سيارته ممتلئة بدمائي. كان في إمكانه أن يقف على الطريق في إحدى الزوايا المنعزلة ويقتلني بعد إنزالي من السيارة.

"أردت الحديث،" قالها وكأنه قرأ ما يدور في ذهني مرة أخرى. "أريد الحديث عن نفسي،" كان يتحدث بصدق. "أريد قول الحقيقة للمرّة الأولى في حياتي. أردت الحديث عن حياتي، وأفعالي، وأفكاري، وأحاسيسي." اتجهت أنظاره نحو أريكة أخرى كانت تبعد عنّا بضعة أمتار. وحينما نظرت إلى تلك الجهة رأيت الطبيب حياتي دارجان. كانت أنظار صاحب مستشفيات سراب ثابتة في مكان معين، كان في مكانه على هذه الحال. وفي صدغ رأسه الأيمن جرح جديد. كان الدم الخارج من جرحه ممتدا إلى أسفل ذقنه. اعتقدت في البداية أنه ميت، لكنني لاحظت بعدها صعود صدره وهبوطه.

"في الحقيقة، لو كنت أعلم أنني سأختطفكم لقتلته هذا الصباح في منزله. وكما تعلمون، الإبداع يحتاج إلى مجاملة. فإن لم تروا أثر ما فعلتموه في عيون الآخرين فلا معنى لما قمتم به أبدا... كنت سأتحدث إليه عن نفسي. وبالطبع لن يفهمني. فمن أين له أن يكون متفهما وذكيا

مثلكم..." احمرّ وجهه بخجل. "يا للعار! أنا أعتذر، لقد نسيت سؤالكم، ماذا تريدون شايا أم ماء؟ حتى يمكنني أن أعدّ لكم قهوة، فعندي آلة لصُنع قهوة."

أحسست بجفاف في حلقي، ولم يكن هناك من معنى للتظاهر بالبطولة.

"أريد كوبا من الماء، فهذا جيد."

توجه بخطوات سريعة نحو الطاولة المجاورة لحوض السمك. أفرغ من عُلبة بلاستيكية ماءً في كأس. ثم اقترب بخطوات سريعة أيضًا، وقرّب الكأس الذي في يده إلى فمي باهتمام كبير. حَسَاني الماء بلطف وأدب.

"شكرا جزيلا،" قلتها وأنا ألحس شفتي. "لقد أتعبتكم."

"لا شكر على واجب! هنيئا مريئا حضرة النقيب!" كان ينظر بإعجاب. "لم يعد هناك أناس مثلكم. فأنتم لا تفقدون أدبكم حتى في أقصى الظروف. ولهذا السبب ستنتهي الحياة، تعرفون هذا، أليس كذلك؟ ليس الشر هو مشكلة الإنسانية يا سيد نوزات، أنتم لا تؤيدوني في هذا الفكر. فأهم مشكلة عندكم هي الشر أما أهم مشكلة عندي فهي البربرية، والجهالة، والوضاعة... لأننا في الأصل أشرار، وليس من الممكن أن نتخلص من الشر، إنّه أمر متأصّل في طبيعتنا." توقف من جديد. "على كل حال، لا أريد التفلسف الآن. سأضع هذا الكأس مكانه وأعود." وفي غمضة عين ترك الكأس على الطاولة، ثم سحب الكرسي الذي كان عند الحائط وجلس أمامي. "أتمنى أن يكون لديكم فضول يا حضرة النقيب. أرجو أن تكونوا حريصين على فهم سبب تحولي إلى شخص قاتل لا يرحم أبدا."

انتظر للاستماع إلى ما كنت سأقوله بحماس.

"لا، ليست عندي رغبة في معرفة ذلك،" قلتها بصوت لا شعور فيه. "فربما لم تتحوّلوا مطلقا، ربما كنتم دوما هكذا. ربما تعرضتم في طفولتكم إلى حادثة سيئة، وربما كنتَ محبوبا كثيرا. لكنك كنت سيئا منذ الولادة. فالإنسان الطيب لا يفعل هذه الأمور."

جال بنظرات إعجاب في وجهي.

"توقّعاتكم جيّدة، لكنها خاطئة. فالحقيقة أبسط مما هو مكتوب في الكتب، وأبسط من جميع تلك النظريات المعقدة يا حضرة النقيب. الشر متأصل فيّ، نعم، كما هو الحال عندكم. ولنقل إن هناك حادثة ساعدت على تحقيقه. يعني بعبارة أخرى لنقل إنني أدركت نفسي."

أعجبت بتصرفه الشجاع، فأردت تشجيعه.

"أنتم محقّون، فليس هناك من معنى لتبرير فعل الشر. فقد تعلّمت هذا من خلال تجارب مؤلمة في حياتي المهنية التي امتدّت سنوات طويلة. لكن حقا لدي فضول، كيف كنتم قبل أن تصبح يدكم ملطخة بالدماء يا سيد نادر؟"

ما الذي كنت أحاول السعي لمعرفته؟ ألقى نحوي نظرات لمعرفة ذلك. اختفت لحظة تلك السعادة التي منحتها إياه ثقته غير المتناهية بنفسه، لكن بعد لحظة واحدة فقط فجّر قهقهة قوية.

"إنها أساليب التحقيق..." حرّك رأسه بيشاشة. "لا تفعلوا ذلك يا سيد نوزات، فلا داعي لهذا. فأنا سأشرح كل شيء. ولا تقلقوا فأنا لا أهدف إلى التخفيف عن نفسي أو ما شابه ذلك. أعرف أنني مُحِقّ. ولهذا السبب لن أكذب بتاتا. سنتحاور فيما بيننا، ليس مثل صديقين وإنما مثل إنسانين يعرفان الحياة... ثقوا تماما، أن هذا سيكون له قيمة لدي." اتجهت أنظاره نحو الطبيب حياتي. "تعرفون أنه يسمعنا، أليس

كذلك؟ لكنه لا يستحق أن يستمع إلى هذا الحوار الجميل..." نهض عن الكرسي بهدوء ووجهه متجهم. "أعتذر، فأنا لا أستطيع التحدث وهو يستمع إلينا..."

توجه نحو الطاولة، في تلك اللحظة لاحظت فوقها مسدسين مثل بقعتين سوداوَين. كان الأول سلاحي، والثاني سلاحه. تناول سلاحه، ووجهه نحو الطبيب حياتي دون أن يظهر أي انفعال. وضع السلاح فوق رأس الرجل. سحب زناد مسدسه قبل أن أقول له: "توقف، لا تفعلها!" لكن الطلقة التي دخلت جبين الطبيب حياتي خرجت من مؤخرة رأسه مع دماء كثيرة، وقطع لحم وعظام. مات الرجل على الفور. لم تظهر على وجه نادر أيّ علامة انفعال، ثم عاد إليّ وفي يده السلاح. كان يتصرف بأريحية كاملة كما لو أنه يقول إن هذه حالتي الطبيعية. لكن هذه كذبة كبرى، فهو أيضا تماما مثل سمكة الفايتر المقاتلة يحاول لفت انتباهي. كان لسان حاله يقول: انتبه إليّ، اهتم بي، وافهم كم أنا شخص ممتاز، وبالطبع أدركته، وبالطبع اهتممت به، وبالطبع أدركت أنه شخص مجنون بامتياز، لكنني لم أصرح له بهذا بتاتا. لكن لو تظاهرت تماما بعدم الاكتراث لظهرت حالتي الروحية على حقيقتها.

"لديه طفلتان،" قلتها وهو يقترب. "لديه طفلتان صغيرتان."

توقف أمامي دون اكتراث.

"في هذا العالم هناك كثير من الأطفال الذين يعيشون دون آباء،" نظر باشمئزاز نحو الرجل الذي قتله قبل قليل. "هناك آباء -ليسوا مثل هذا الظالم الذي يسرق الأعضاء البشرية-فارقوا الحياة مع أنهم لا يستحقون الموت." نظر إليّ بعينيه ذات اللون البني الفاتح اللتان تشبهان عيني الصقر. "ليس كل إنسان له قيمة يا سيدي النقيب. وقد حان الوقت للتخلص

من هذه الحماقة. في هذا العالم هناك المصلحون وهناك المفسدون. فقتل المفسدين ليس خطأ على الإطلاق. بل إنه إذا كنتم تؤمنون بالقيم الإنسانية وما شابه ذلك فإن في إبادة هؤلاء نفع كبير. تماما مثل تنظيف حديقة جميلة من الأعشاب الضارّة..." أشار بطرف سلاحه الذي كان في يده إلى ضحيته. "فعلى سبيل المثال، ماذا فقدت الإنسانية حينما قتلنا هذا الحقير؟ لا شيء أبدا، وماذا كسبت؟ فُتح مكانٌ آخر ليعيش إنسان آخر فيه. التراب، والماء، والأكسجين ليست عناصر أبديّة، وما الإنسان إلّا قذارة، إنّه عبء على عناصر الطبيعة ويستنزفها. انظروا، لقد خففنا بهذا الشكل قليلا من العبء."

حينما رأى نظراتي متجهة نحو سلاحه شعر بالخجل.

"أعتذر، من فضلكم لا تظنوا أنني بحمل هذا السلاح في يدي أريد تهديدكم أو ما شابه ذلك. فأنا لست سيئا إلى هذه الدرجة." جلس على كرسيه، ووضع سلاحه بعجلة في جيب معطفه. لكن صار معطفه ثقيلًا. انزعج، فأخرج من الجيب نفسه هاتفه المحمول. وحينما رأى عينيّ تحدّقان في يديه قال: "لا تؤاخذوني، اضطررت إلى رمي هاتفكم. فقد كان علي وزينب يتصلان دون توقف. والصراحة أنني كنت أرغب في الرّد على زينب وليس على علي، لكن لو فعلت ذلك لكان غباء كما تعرفون. علاوة على ذلك فقد كان في إمكانهما تثبيت مكاننا من خلال هاتفكم، لذلك رميته في الطريق."

وبينما كان يضع هاتفه في جيبه الآخر، اعتقدت حينها أن اتصال رفيقيّ علامة خير، فهذا يعني أنهما راحا يقلقان عليّ. اتجهت أنظاري نحو الساعة الخشبية التي على الحائط، كانت الساعة 22:32. فإذا التقيت المدّعي العام في الساعة 20:00 فإن هذا يعني أنه مضى على لقائنا ساعتان

ونصف. سيحتاج علي وزينب إلى مزيد من الوقت كي يعثرا عليّ، لذلك كان من المفيد جدا إطالة الحديث معه. أشرت برأسي إلى جيبه.

"أبهذا المسدس قتلت 12 مغتصبا؟"

أدخل يده وأخرج السلاح من جديد.

"نعم، بهذا... كان السلاح الحربي لأبي. كان المرحوم نقيبًا في الجيش. استشهد بكمين وضعه الإرهابيون في مدينة شرناق. كنت حينها في السنة الثانية من عمري." كان ينظر إلى السلاح بإعجاب. "لا أعرف ما إذا قتل أحدا في السابق، لكن هذا السلاح قتل النقيب ذكائي، وثلاثة محتالين، و13 مغتصبا."

13 مغتصبا؟ وهل هناك ضحية أخرى لم نكن نعرفها؟!

"أنا لم أقتل المتحرّش الأول. يا ليتني استطعت قتله، فأنا لم أستطع فعل ذلك." أدار رأسه نحو الصورة التي كانت في الطرف الأيسر من حوض السمك. تبعته نظراتي. "أمي هي التي قتلت المغتصب الأول. اسم أمي الدكتورة مقدّس. كانت أمّا طيبة جدا، ودكتورة جيدة جدا، وإنسانة طيبة جدا. كانت المرأة الأكثر تميزا في العالم. كانت امرأة قوية لا تتسامح أبدا مع الذين يعتدون عليها وعلى ولدها. يا ليتني استطعت أن أكون مثلها..." كان في صوته حزن، وفي عينيه دمع. "يقول الناس إن أبي كان رجلا شجاعا، لكنني أرى أن أمي هي البطل الحقيقي. فلا العشق، ولا العائلة، ولا المستقبل ولا أي شيء كان في مقدوره أن يعرقلها. لم تتصرف أبدا بضعف، كانت قوية باستمرار، وهكذا بقيت. بقيتُ طوال حياتي أحاول أن أكون مثلها." حقا كان يشعر بالفخر بأمه، لكنه كان يشعر ببعض الشكوك في نفسه وسأل كما لو أنه يريد التأكد. "يبدو أنني نجحت، ما رأيكم..."

أنا من لم يكترث هذه المرة.

"كما قلت قبل قليل، أنا لا أعرف أي شيء عن ماضيكم، فكيف سأعرف نجاحاتكم؟!" نظرت من جديد نحو صورة الدكتورة مقدس. "حسب ما فهمت منكم، فإنني أرى أنه لا توجد عندكم مشكلة مع والدتكم، يبدو أنها ربّتكم على الحب..."

رقّت نظراته بإشفاق.

"نعم ربتنا على الحب الكبير. كانت أمي تعبدني. وفي الواقع أنا لم أعش في طفولتي حياة بؤس إلى تلك الدرجة الكبيرة إذا استثنينا موت أبي. ففي الحقيقة غطى مكانه زوج أمي السيد مشفق." توتر وجهه بابتسامة ساخرة. "فالسيد مشفق أحبني كثيرا إلى درجة صار يخلط فيها بيني وبين أمي..."

كان القط الأعمى قد تعرض للاغتصاب في طفولته مثلما توقعنا، وبينما كنت أفكّر في نفسي في مدى هدوئه في حديثه، وإذ بهاتفه يرن. أخرج هاتفه وهو يتحدث باضطراب.

"من هذا الذي يرن في هذا الوقت؟" تجهم وجهه. "زينب، إنها باحثتكم، ولماذا تتصل؟!"

ربما كان هذا حظي الأخير. فأردت تضليل نادر.

"في حديثي الأخير معها قلت لها إنني سألتقي السيّد نادر."

تحرك باضطراب.

"أحقا قلتم ذلك؟ فليكن، لكنها لا تعرف أنك تواصلت معي، أليس كذلك؟ فحينما جئتم أنتم كنت خارجا بالفعل من قصر العدل. وفي النهاية نحن لم نلتق في مكتبي. فمن بمقدوره أن يثبت ذلك؟"

تفكيره بهذا الشكل كان مفيدا لي، لهذا السبب أردت استفزازه أكثر.

"لكنهم سيعثرون على سيارتي في موقف سيارات قصر العدل..."

ألقى نظرة استهتار.

"سأغير مكانها هذه الليلة، وينتهي كل شيء."

تركت زينب الاتصال بهاتفه.

"لا تفعلوا ذلك،" قلتها بحزن زائف. "فسيقبض عليكم في النهاية."

كان واثقا في نفسه، وأجاب بصوت مليء بالسرور تقريبا.

"أنتم مخطئون يا حضرة النقيب. فأنا لم يقبض عليّ حتى هذا اليوم، ولن يقبض عليّ أبدا." هز هاتفه في يده. "لا بد لي من الحديث مع السيدة زينب. فأنا لا أريد إثارة الشكوك حولي." ابتسم بلؤم. "إن سمحتم لي سأتكلم معها في الخارج. فأنا لا أريد إدراجكم في هذه المحادثة."

57

"لا داعي للإنكار يا سيدي، فنحن جميعا حيوانات قذرة."

"هذا الرجل يلوّث الدنيا حتى وهو ميت."

قالها نادر الذي دخل بعد أن أنهى مكالمته قبل لحظات. كان ينظر إلى جسد حياتي دارجان الذي قتله قبل قليل.

"لن أسمح بحدوث ذلك يا سيدي. سأترككم مرة أخرى وحدكم قليلًا من الوقت."

خرج من جديد، وغاب عن المكان مدة من الزمن. وكلما طال غيابه كان الأمر أفضل، لكنه لم يستمر طويلا، فقد ظهر أمام الباب بعربة يد لها عجلات. تحدث بصوت خجول كما لو أنه أخطأ في حقّي.

"سآتي فورا، سينتهي الأمر الآن."

سحب الجسد بذراعيه القويّتين ووضعه بسهولة في عربة اليد. حينها رأيت الطريقة التي من المحتمل أنه نقل بها ضحاياه الآخرين. خرج من جديد وهو يدفع العربة. تمنيت في نفسي أن يذهب لدفن الجسد. مرت دقائق والقط الأعمى لم يعد. حدقت في الباب وانتظرت وأنا أقول لنفسي كلما أطلت كان ذلك أفضل. ولكن حينما كنت أحدق في الباب الذي خرج منه جاء من الباب الخلفي. فقد جاء صوت نادر من الخلف.

"لا تؤاخذوني، لقد استغرقت وقتًا أكثر،" لا بدّ أنه دخل من الباب الآخر للصالون. كان يقترب وهو يبتسم بسخرية. "واجهتُ مشكلة في

حمله إلى الحافلة. فهذا الحقير ثقيل جدا مثل حمار ميت. لكن لن يكون هذا الجسد القذر بعد الآن قادرا على تلويث ليلتنا."

لقد بدأ يجن جنونه، أو أنه كان مجنونا منذ البداية.

"نعم، أين كنا يا حضرة النقيب؟" قالها وهو ملطخٌ بالعرق والدماء.

"آه صحيح... اتصلت بزينب... فقبل أن أضع تلك الفطيسة في الحافلة اتصلت بزينب وطمأنتها. سألتني عما إذا كنت قد رأيتكم أو التقيت بكم. فقلت لها: 'خرجت في وقت مبكر. لذلك إن كان السيد نوزات قد حضر فإنه لم يجدني.' وبالطبع لم تقتنع بجوابي فأضافت قائلة: 'ألم يتصل بكم هاتفيا؟' فأجبتها قائلا: لم يتصل، لا بد أنه ذهب إلى مكان ما. فسألت وهي قلقة: 'هل نخبر فرق العمليات؟' قلت لها: 'لا داعي للخوف، إنه النقيب نوزات وليس أي شخص آخر، فلن يكون هناك شيء خطير، لننتظر قليلا'. اقتنعت بكلامي وقالت: 'ربما ذهب إلى حانة تاتاولا، ذهب لرؤية أفكانيا. لنتصل بها.' فقلت لها: 'اتصلوا بها' وانتهى الموضوع."

ارتحت قليلا، فلا بد أن رفيقيّ أدركا أن المدعي العام يكذب، لذلك أصبح العثور عليّ مسألة وقت. فكان لا بد من إطالة الحديث معه. وبينما كان نادر يقترب مني أشرت برأسي إلى مشربة الماء التي كانت على الطاولة.

"هل يمكنني أن أشرب القليل من الماء مرة أخرى؟"

لم يشك أبدا، ولم يرفض بتاتا.

"سأحضره فورا."

أسند كأس الماء نفسه إلى شفتيّ. فشربت الماء الفاتر بهدوء وببطء شديد. وشرع حينها في الحديث.

"كيف، هل أعجبكم المنزل؟ لا أريد أن أخفي عليكم. نحن الآن

في الجزء الخلفي من منطقة كاغيتخانه. أقرب بيت لنا يبعد بضعة كيلومترات. مكان هادئ وآمن جدًّا." وحينما انتهى الماء من الكأس سأل بلطف. "هل تريدون القليل من الماء مرة أخرى؟" لم يكن هناك من داع للمبالغة، ولم أكن أودّ أن يكشف أمري.

"لا، شكرا جزيلا."

"لا شكر على واجب،" قالها وقد وضع الكأس الفارغة على الطاولة. ثم عاد وهو يمسح يده المبلّلة بينطاله. " كانت هذه المناطق في الماضي مهجورة بالفعل. كنا نأتي إلى هنا في نهاية الأسبوع. سواء كان صيفا أو شتاء." نظر إلى صورة والدته. "كانت أمي المرحومة تحب هذا المنزل كثيرا، لكن السيد مشفق كان يحبه أكثر." تلعثم. "السيد مشفق هو زوج أمي الذي تحدثت عنه قبل قليل..."

سألته كي يدخل في التفاصيل.

"الرجل الذي اغتصبكم جنسيا، أليس كذلك؟"

"نعم، هو بنفسه،" قالها مؤكدا دون اكتراث أثناء جلوسه على كرسيه. "كان رجلا وسيما للغاية. وطويل القامة، ولديه جسم رائع. عيناه السّوداوان سواد العنب تليقان جدًّا بوجهه الأسمر... كانت أمي تعشقه مثل المجنونة. وأعتقد أنها أحبّته أكثر من أبي. فكما تعرفون، النساء يحببن الأشرار دوما. درس الكيمياء، وحينما فشل في العثور على عمل في مجاله توجه للعمل في المقاولات. وهو اليوم المسلك الأكثر رواجا في تركيا. إذ أنه ليس هناك من داع لذكاء متطور، ولا للعلم، ولا للاجتهاد، مكر تجّار كاف لهذه المهنة. علاوة على ذلك القليل من رأس المال، والمزيد من العلاقات مع السياسيين، ومع موظفي البلديات أيضا. وبالطبع كان السيد مشفق يمتلك كل هذه الشروط. كان عنده مال ورثه عن عائلته،

واستطاع بناء علاقات جيدة مع كل الناس. كانت هوايته المفضلة الإبحار بالقوارب الشراعية. كان يحب اليخوت أيضا، لكنه لم يكن يتخلّى عن المراكب الشراعية. أمي أيضا كانت تحب المراكب الشراعية. وكانت تفهم في هذا المجال. وعلى هذا الشكل بالطبع تعارفا، في بحر تشمة في فصل من فصول الصيف. كان السيد مشفق يخرج للبحر بواسطة القارب في أوقات فراغه. وعلى هذا الشكل فقد نصف أذنه اليمنى. ففي يوم بحريّ عاصف مزّق الحبل المبتلّ أذنه لتصبح مبتورة. كان يطارد النساء قبل أن يتعرّف على أمي. لديه صور وما شابه في الصحف. كان في طريق الضلال، يصطاد المال، وكان دوما في عيون النساء. وحينما تعرف إلى أمي انتهت حياته تلك."

لمعت عيناه بإعجاب مثل طفل صغير.

"لا أدري ما إذا لاحظتم هذا، كانت أمي امرأة جميلة. وكان السيد مشفق معجبا بها كثيرا. فقد بدأ حياة جديدة معها أو هكذا كان يتظاهر. ومهما كان الأمر، فقد كان يعاملني بشكل جيد للغاية، كنت مثل ابنه الأصيل." أعطى لصوته نبرة ساخرة. "أو على الأصح هكذا كنت أظن. أمي كانت تحبه إلى درجة السجود له، وأنا أيضا كنت معجبا به جدا. ولهذا السبب لم أنزعج حينما لمسني كما كان يلمس أمي. خطرت إلى ذهني أشياء قذرة بالطبع، شعرت بالحرج بعض الشيء لكنني لم أعارض." أصبحت عيناه ذات اللون البني القريب من اللون العسلي تلمع بكره شديد. "لا أريد أن أخطئ في حقه، فهذا الرجل لم يقم بهذا العمل على سرير أمي مطلقا... وإنما كان يظهر حبه لي في الفناء الخلفي للمنزل... لا تنظروا إليّ هكذا يا حضرة النقيب. ففي البداية لم أدرك الفرق بين حب الأب وشهوة الذكر. كنت أظن حينها أن الإنسان، يعني الأب، يشعر بالإعجاب

إذا اقترب من ولده بهذا الشكل. حتى أنك تظن أن كل ما يجري مجرد لعبة. كان النقيب ذكائي ماهرا جدا حينما لقبني بذلك اللقب المأخوذ من اللعبة المسماة بلعبة القط الأعمى. حقا كان السيد مشفق بصفته زوج الأم المرتبط بنا، والمتفاهم، والمليء بالحب يأخذني نهاية كل أسبوع إلى الفناء الخلفي لهذا البيت ويلعب معي لعبة القط الأعمى. وحينما تنتهي كان يهديني لعبة."

كان يتحدث بأريحية كما لو أنه تغلب على كل هذه الأمور، لكنه لم يكن كذلك. ففي أعماق روحه، في أعمق أعماق روحه، هناك جرح ينزف دون توقف. ومهما فعل، ومهما حاول فإنه لم يكن بمقدوره أن يخفيه. توتّر، وبدا صوته أجشّ، لكنه لم يفقد ابتسامته.

"هذه اللعبة التي بدأت وأنا في التاسعة من عمري، استمرت ثلاث سنوات بالضبط إلى أن بلغت الثانية عشرة. وبعد يومين من عيد ميلادي وبينما كنا نلعب من جديد لعبة القط الأعمى الرائعة فقد الأب مشفق نفسه وبالغ في ذلك. احترقت نفسي، أردت الهروب من تحته والتخلص منه، لكنه فقد السيطرة على نفسه، فقد أمسكني من كتفي إلى أن وصل النهاية. احترقت نفسي كثيرا، فمسح السيد مشفق بيده على رأسي. اعتذر مني وقال: 'إن لم تخبر أمك سأحضر لك دراجة جديدة.' في الحقيقة لم يكن هناك من داع لقول ذلك، لأنني لم أكن أفكر في إخبار أحد. لكن في تلك الليلة نزل دم من شرجي، وبالطبع لاحظت الدكتورة أمي ذلك. بدأت تتفحصني بقلق، ورأت على كتفي بصمات الأصابع التي تحولت إلى لون داكن. سألتني حينها قائلة:

'ما هذه؟'

أجبتها قائلا: 'هذا بسبب الشجار مع طلاب المدرسة.'

لكنها لم تصدق، وأدركت أن هناك خطأ ما. ربما كانت تشكّ بذلك في السابق، لكنها لم تكن تفكر أن هذا الاحتمال قد يكون حقيقة، وأن الفاعل زوجها الذي كانت تحبه بجنون. لكن أصبحت هذه الحقيقة المقززة واضحة للعيان. لم تتعامل أمي بضعف، ولم تكن كحال الكثير من النساء اللواتي يتعرض قريب لهن للتحرش الجنسي. فكما تعرفون الكثير من النساء يغضضن الطرف عن هذه القذارة بقولهن: 'أنا لا أريد أن أفقد زوجي، أنا لا أريد أن يتشتت عشّنا.' أمي لم تغض الطرف. وقد قلت ذلك، كانت امرأة قوية وفي نفس الوقت ذكية. فحينما أنكرت لم تضايقني، قامت باستعداداتها وانتظرت بفارغ الصبر. وفي يوم السبت ذلك ذكرت أنّ عندها مناوبة في المستشفى وخرجت على أساس ذلك. كنت أنا والأب الحنون في هذا البيت من جديد. وبالطبع لم يرغب السيد مشفق بتفويت هذه الفرصة. فسحبني إلى الفناء الخلفي لهذا البيت بحجة رغبته في لعب لعبة القط الأعمى. ثم بحجة أنه أمسك بي، قام بحضني من الخلف، وبدأ بتقبيلي، وبينما هو على هذه الحالة سمعت صوت أمي:

'اتركه، اترك ولدي، يا حقيرا'

وحينما نظرت للخلف رأيت أمي، جاءت ووجهها محمرّ وفي يدها مسدس أبي الحربي، تنظر بكره عميق إلى هذا الرجل الذي كانت تحبه بجنون.

"أنا أتحدث معك، يا سافل، اترك ولدي!"

استدار مشفق وبدأ يثرثر قائلا: "لقد أسأت الفهم يا مقدّس، لقد أسأت الفهم يا حياتي." لكن الكره الذي في عيني أمي لم ينقص أبدا، كما أنها لم تنزل السلاح الذي كان في يدها.

فصاحت به: "اترك ابني يا سافل، يا عديم الأخلاق. اتركه بسرعة." كنت أراقب كل ما يحدث ويجري بمشاعر خجل ممزوجة بالذهول. ابتعد مشفق عني، وبدأ بالاقتراب نحو أمي.

"أستطيع التوضيح لك، حقا لقد أسأت الفهم. إن كنت لا تصدّقين فاسألي نادر."

كانت هذه الكلمات آخر قطرة في الكأس.

قالت له أمي: "اصمت يا حقير، لقد دمّرته." ثم أطلقت النار عليه. أمسك مشفق بطنه ثم ترنح وسقط على ركبتيه. امتلأ بالدماء، كان الاحمرار في قميصه الأزرق يزداد كل لحظة، وينتشر في أنحاء جسده.

بدأ يتضرع لها: "أرجوك يا سيدة مقدس، أنا بريء، من فضلك اسمعيني، اسمعيني لو لحظة واحدة..."

بالطبع خفت من صوت السلاح، فقدت نفسي، وبدأت بالبكاء وأنا أضع يدي على رأسي. لا بد أنني كنت أبدو مرعبا، لأن أمي نسيت مشفق ونظرت نحوي.

فقالت بصوت مجروح: "لا ذنب لك يا ابني، أنت بريء يا ولدي."

لكنني لم أستطع التخلص أبدا من الذهول الذي سقطت فيه. أنزلت المرأة المسكينة سلاحها واقتربت مني.

كررت بيأس قائلة: "لا ذنب لك يا ولدي، هذا الحقير استغلك." حينها رأى مشفق أمي في حالة ضعف، لم يرغب في تفويت الفرصة، فهجم بسرعة على أمي. وبينما كانا يسقطان على الأرض وقع أمامي السلاح الذي كان في يد أمي. ومع أن مشفق كان مصابا إلا أنه وضع أمي تحت جسده الكبير، وبدأ بضربها. كانت المرأة المسكينة تحاول الدفاع عن نفسها من جانب، وكانت تناديني من جانب آخر.

"ساعدني يا نادر، خذ ذلك السلاح، واقتل هذا السافل..."

عن أي قتل كانت تتحدث؟ فأنا لم أستطع التحرك من مكاني!

"ولدي نادر، أرجوك، لطفا، خذ ذلك السلاح." بقيت متجمدا مكاني، لقد شلّني الخجل والخوف اللذان شعرت بهما. لكن حدثت معجزة، فقد نزف دم كثير من مشفق، ففقد نفسه لحظات. لم ترغب أمي بتفويت هذه الفرصة، فانسلت من تحته كأنثى النمر، وتوجهت نحو السلاح. وبينما كان مشفق يحرك جفونه محاولا استجماع قوته، ذهبت أمي خلفه، ووضعت السلاح على مؤخرة رأسه، وأطلقت النار. خرجت الطلقة من شفتيه اللتان كان يقبّلني بهما. فسقط الرجل على وجهه فورا، ثم بعد ذلك رمت أمي السلاح أرضا وأسرعت نحوي.

فقالت وهي تبكي: "لقد انتهى يا ولدي، انتهى يا ابني، فهذه الحادثة لم تحدث قط. انتهت. أنت بريء." في تلك اللحظة أدركت كم كنت مخطئا، فلتقل أمي ما تودّ قوله، لكنني أدركت في تلك اللحظة أنني لم أكن بريئا أبدا."

صمت نادر، واختفت منه تماما حالة عدم الاكتراث التي كان عليها في البداية، وبدأ صوته يرتجف، وبدأت عيناه تقدحان نيرانا. كان يتهم نفسه بصراحة.

"نعم يا حضرة النقيب، أنا لم أكن بريئا،" قالها مؤكدا من جديد. "كان لا بد لي أن أمنع عديم الشرف ذاك من..."

كيف حدث لا أدري، لكنني شعرت بضرورة التخفيف عنه.

"كنتَ طفلا، كنتَ صغيرا جدا، وذلك الرجل استغلك. أمك محقّة، فأنت آخر من يلام في هذه الحادثة."

"خطأ،" قالها بصوت قوي. "أمي كانت مخطئة، وأنتم أيضا مخطئون.

أنا المذنب في الأصل لأنني أظهرت الرضا لذلك الرجل. أنا لا أتحدث عن الاغتصاب الجنسي فحسب، مع أنه ليس شيئا يمكن تمريره بسرعة. لكن يمكننا أن نقول إنّي كنت طفلا صغيرا، لم أكن أفهم شيئا، ولهذا السبب يمكن أن يسامحني الآخرون. لكن المسألة التي لن أعفو فيها عن نفسي هي عدم تقديم المساعدة لأمي في ذلك الفناء. فبينما كان مشفق الحقير يحاول قتل أمي كنت أنا متجمدا في مكاني. لم أتحرك على الإطلاق، إنه تصرف مخز وجبان. فلو أنه استطاع النهوض كي يأخذ السلاح لقتل أمي أولا، ثم قتلني بعدها. نعم، كان سيقتلني لو كان الأمر كذلك. فهذا الرجل بعد أن استغلني واستغل أمي كان سيذبحنا مثل حيوانين مسكينين. ولهذا السبب لم أسامح نفسي قط. ولو سامحت نفسي لبقيت شخصا ضعيفا طوال عمري. نعم يا حضرة النقيب، لا جدوى من أن تكون في هذا العالم على حق، ولا معنى لأن تكون عادلا ولا فائدة من أن تكون خلوقا. يجب أن تكون قويا، وشجاعا، وبلا رحمة. وبغير ذلك لن تستطيع البقاء على قدميك. لن تستطيع تحقيق النجاح..."

كان يشعر بندم شديد، ندم أزلي لا يمكن أن يزول بتاتا، ولم يكن بمقدوره أبدا أن يتخلّص منه، لقد بقي عالقا بتلك الحادثة المشؤومة التي وقعت في زمنه الماضي. صمت، واختفت أنظاره مثل روحه في مكان ما في الظلام.

"وهل نجحتم؟"

تردد صوتي في أنحاء المكان الذي ازدادت رائحته مع الحرارة العالية.

"ها!"

ارتعش كما لو أنه استيقظ من سبات عميق.

"هل أصبحت قويا، وجسورا، وبلا رحمة؟"

لم يعد يبتسم، وأصبح يتنفس من الأعماق فقط.

"لقد طال كثيرا،" قالها بهمس. "طويلا جدا. لم تأخذني أمي إلى طبيب نفسي، فقد كانت تخاف من حديثي عن الجريمة. فاعتنت بي شخصيا. واجتهدت كثيرا. وبدأت تحبني أكثر، وصارت تظهر المزيد من الشفقة. ظنّت أنها تعالجني بذلك، واعتقدت أنها ستخلصني من الصدمة. لكن هذا كان خطأ بأكمله. فلو أنها وبختني، أو اتهمتني، أو عاقبتني لكان أفضل."

ضحكت دون إرادة.

"لو كان كما قلته لكانت الكتب المقدسة نافعة. لاستطاعت أن تمنع الإنسان من ارتكاب السيئات. لكن جهنم بنفسها لا يمكنها أن تصلح الإنسان. كان لا بد من محبة أكثر، من حب أكثر، من حقيقة أكثر..."

رقت نظراته للمرّة الأولى.

"أشترك معك في مسألة الحقيقة فقط. نعم، نحن بحاجة للحقيقة، لكن الحقيقة التي تلزمنا هي حقيقة الإنسان. لا بد لكل إنسان مهما بلغ عمره أن يواجه خطأه. يجب عليه أن يعرف ضعفه، وسفالته، ووضاعته. فالإنسان يستطيع إدراك الحقيقة من خلال ذلك. لأن هذه طبيعته. وهذا ما كان يتوجب على أمي فعله، كان بإمكانها أن تنظر إليّ نظرة تفاهم، وأن تمسك يدي بحب وتقول لي: 'لست متأخرا، بإمكانك أن تصبح إنسانا عاديّا.' لكن أمي لم تدرك طبيعة الإنسان تلك. الإنسان في الحقيقة مخلوق لا يرحم، ومدمّر، وأناني، وغاو، ونفعي، وانتهازي، وضعيف، وغبي أيضا. أنا لا أتّهم أحدا، لأنني رأيت جميع هذه الصفات في نفسي، شعرت بها وعشتها شخصيا. نعم، لا داعي للإنكار يا سيدي، فنحن جميعا حيوانات قذرة. وربما نحن أقذر الحيوانات. وبالطبع

كان الشعور بالخجل في ذلك اليوم المشؤوم أكثر علاجا بالنسبة إلي من حنان الأم. فأنا لم أفقد شعور الخجل ذلك أبدا. ذلك الشعور جعلني قويا، واستطعت بفضله أن أبدأ الحياة من جديد، لقد تحسنت بفضله. استمر سنوات، سنوات طويلة جدا. لكنني نجحت بعدها..."

جاء الموضوع في وقته فسألته على الفور.

"أمن خلال قتل الآخرين؟ ألهذه درجة الأمر بسيط؟"

أكد بكل ثقة.

"نعم بالضبط، بسيط بهذا القدر. من خلال قتل الآخرين..."

بناؤه للجمل القصيرة لم يكن جيدا، لا بد لنا من التعمق في الحديث.

"أهم يستحقون الموت؟"

"لنقل إنهم أشخاص لا بد من موتهم. مثلا في عام 2012 أنا لا أعرف الأشخاص الذين قتلتهم، ولم يسيئوا لي أبدا. لكنني كنت مجبرا على قتلهم. لأنني بدأت أدرك أن ارتكاب هذه الجرائم هو السبيل الوحيد للتخلص من الصدمة التي أصابتني قبل سنوات. وهناك فيلم يتعلق بالقتلة المتسلسلين أدخل هذه الفكرة إلى رأسي. وهكذا عرفنا، وبالطبع لم يكن فيلما رائعا إلى تلك الدرجة، وإنما كان فيلما أمريكيا متواضعا. ففي الفيلم تعرض الرجل وهو صغير إلى حادثة اغتصاب جنسي، مرّ بصدمة نفسيّة، ثم بعد ذلك بدأ بقتل الأشخاص الذين يذكرونه بهذا العمل المشين. وبهذا الشكل استطاع التخلص من تلك الصدمة. وأنا فعلت كذلك. حاولت تعويض جبني الذي حدث قبل سنوات طويلة من خلال ارتكاب 12 جريمة. خطفت المغتصبين، وأحضرتهم إلى الفناء الخلفي لهذا البيت. ثم حقنتهم وخدرتهم. ثم ربطت عيونهم بقطعة قماش حمراء شبيهة بقطعة القماش التي كان يستعملها زوج أمي في اللعب معي. ثم بعد

ذلك أطلقت النار بسلاح والدي الحربي على مؤخرة رؤوسهم كما فعلت أمي بالسيد مشفق. ثم تركتهم في أماكن خاصة بالأطفال. ووضعت بجانب كل واحد منهم لعبة صغيرة تذكيرا بالألعاب التي كان يهديها لي زوج أمي بعد انتهاء لعبة القط الأعمى. وقطعت النصف الأيمن من آذان الأشخاص الذين قتلتهم كي يصبحوا شبيهين بالسيد مشفق. وأكدت على العدد 12 في جميع هذه الجرائم. لأن الذي اغتصبني مات وأنا في الثانية عشر من عمري. ومجموع الأيام التي ارتكبت فيها جرائمي تساوي العدد 12. ومجموع الشهور التي قتلت فيها تساوي العدد 12 أيضا. وكما وضح السيد ذكائي أيضا، كتبت بنفسي أرقام الرموز الشريطية خلف الألعاب بحيث تساوي الرقم 12."

نسيت لحظة الرغبة في اكتساب الوقت من أجل تخليص نفسي، واندمجت فعلا في قصة خارجة عن النطاق العقلي لإنسان يرغب بجعل حياته طبيعية من جديد.

غمغمت متسائلا: "هل أفادكم هذا العمل؟ هل استطعتم أن تكونوا في غاية السعادة؟"

أجاب دون تردد على الإطلاق.

"بالطبع، فلو لم أقتلهم لبقيت شخصا يرافقه الخجل، والخزي ولفقدت اعتباري..." توقف، نظر إلى وجهي. "أنا لم أقم علاقة مع النساء أبدا يا حضرة النقيب. حاولت لكنني لم أستطع. قالت أمي لعديم الشرف ذلك: 'لقد دمرته' قولها هذا فهمته بعد سنوات. ولهذا السبب قلت في نفسي: من المحتمل أن القتل قد ينقذني. وقلت من المحتمل لأنني لم أكن متأكدا. لكنه كان جديرا بالتجربة. جربت وعلمت بعدها أنني كنت محقا. والغريب في الأمر أنني اكتشفت خلال هذه المدة شعورا آخر،

نعم، فقد عشت مشاعر مختلفة حينما قتلت 12 شخصا.

أنا لا أنكر، ففي أول جريمتين واجهت بعض العراقيل. أنا لا أتحدث عن الصعوبات التكتيكية أثناء خطفي الضحايا. وإنما أتحدث عن القتل، أتحدث عن قبض الروح. أتحدث عن قتل شخص لم يضرك قط، قتله وأنت في حالة هدوء ولست غاضبًا. ففي الجريمة الأولى واجهت الكثير من المصاعب، رفعت السلاح ثلاث مرات، وأنزلته، ثم بعدها سحبت الزناد. استمر ترددي في الجريمة الثانية أيضا. لكن بدأت أتلذذ بالقتل منذ الجريمة الثالثة. الخوف في عيون الأشخاص الذين قتلتهم، توسلهم لي، وحرارة دمائهم التي تلطّخ وجهي. كانت أحاسيس غريبة، أعجبتني كثيرا. في البداية شعرت بالخوف لانغماسي بمثل هذا الشعور، لكنني بعد ذلك تركت نفسي. وتحولت إلى تلك الحالة البدائية الحقيقية التي كان عليها أجدادنا." صمت، ثم نظر بتردد. "هل فهمتم ما أود قوله؟ أنا لا أتحدث عن المتع البسيطة. فعلى سبيل المثال، ذهابي إلى منزل قانصو صارماشيق يعدّ من هذه المتع البسيطة. لا أنكر، فأنا كنت أرغب في معرفة قاتل قانصو صارماشيق. لأن هذا الطبيب لم يكن مغتصب أطفال، لكن دخولي شقته كان خطيرا جدا. ولهذا السبب اضطررت إلى الاعتداء على زينب رغم عدم رغبتي في ذلك. وأوشكت أن اصطدم بكم. ومع ذلك فإن عيش اللحظات الخطيرة كان أمرا جميلا. وبالطبع أنا لا أتحدث عن هذا. وإنما أتحدث عن تلك المتعة الرائعة التي يشعر بها الإنسان عند القتل." لمعت عيناه بنظرات وحشية. "آه صحيح، لا بد أنكم قتلتم أحدا يا حضرة النقيب. ألم تعيشوا ذلك الشعور الرائع؟"

لم أفهم، هل كان يلعب معي أم أنه كان صادقا في كلامه؟! لكنني أجبته بالحقيقة.

"قتلنا شخصًا ما يجعلنا قتلة وليس بشرا. وأما الشعور بالمتعة فهو دلالة على البدائية."

فجّر ضحكة كبيرة.

"وهذا ما كنت أقوله يا حضرة النقيب. البدائي نقي، وبريء. والقتل يعيدنا إلى حالتنا البريئة، والنقية، والنظيفة تلك. لكن عقلي تلوث قبل خمس سنوات مثل عقلكم بسخافات الحضارة. فتوقفت بعد أن قتلت 12 شخصا. وقلت في نفسي كفى، بهذا القدر كفاية. فلم أقتل أحدا طوال خمس سنوات. لكن كما تعرفون، شرعوا يقتلون بدلا مني. إذ بدأوا يقتلون باسمي دون أن أحصل على أي متعة، ودون أن أكسب حقي من ذلك الجمال الفريد، ودون الإحساس بالشبع من ذلك العمل المذهل، ودون الوصول إلى سرّ الظلام. لذلك لم أستطع الصبر على هذا التمرد والهمجية، ولا على هذا الإسراف. كانوا سيمحون نتاجي، نعم، لهذا السبب عدت من جديد يا حضرة النقيب..."

بينما كان نادر يتحدث بذلك أدركت أنه لم يخرج عن طور القط الأعمى بعد. أخذ انتقامه بقتل 12 شخصا قبل خمس سنوات، تعلّم خلالها القتل، ورجعت إليه الثقة التي فقدها في السابق، لكنه لم يكن يفكر في الاستمرار في القتل. فربما كان في صراع مع نفسه. لكن الأشخاص الذين قلّدوه، أيقظوا إراقة الدم في نفسه من جديد. فصار يخطط للقتل من أجل التلذذ. وربما يتحول إلى وحش حقيقي بعد قتلي. وبينما كنت أفكر في هذا، كان الوقت يضيق، فسألته رغبة في الإطالة.

"ماذا حل بجسد السيد مشفق؟ ألم يسأل عنه أحد؟"

تحدث بحماس.

"لا تظنوا أن أمي كانت سهلة يا سيد نوزات؟ فكما قلت قبل قليل إن

السيد مشفق كان يحب الإبحار في القوارب الشراعية. وفي تلك الأيام التي قُتل فيها، هبت إحدى الرياح الجنوبية المشهورة في إسطنبول. دفعت أمي القارب نحو الماء. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المركز الأمني وقالت: 'خرج زوجي إلى البحر ولم يعد.' قام رجال الأمن على إثرها بالبحث والتحقيق. فعُثر على القارب في إحدى السواحل البرية في قالاميش، لكنهم لم يستطيعوا العثور على جسد السيد مشفق أبدا." نظر إلى النافذة. "لا مانع من إخباري لكم، إنه الآن مدفون تحت شجرة الرمان بجانب ذلك الباب." أخذ نفسا عميقا وبدا حزينا. "للأسف الشديد، سيكون مكانكم نهاية هذه الليلة في مكان قريب منه. أنا لم أكن أود قتلكم أبدا، لكنني مضطر لفعل ذلك، وأنتم تعرفون هذا، أليس كذلك؟"

"لست مجبرا،" قلتها رغم تيقني بعدم تخليه عن قراره. "على العكس، إذا قتلت فسيتعمق الانشطار في روحك. قلت قبل قليل: يجب أن يواجه الإنسان نفسَه، أنت محق. لكن يجب عليك أولا أن تواجه نفسك. أنت لست طبيعيا يا نادر، لكن في إمكانك أن تتحسن، يمكنك البدء من جديد بالنظر إلى الحياة نظرة أخرى وليس بقتل الآخرين."

قاطع كلامي بضحكته العالية، ثم نظر إلى حوض السمك، ثم تحدث إلى تلك السمكة الزرقاء.

"هل سمعت؟ البدء من جديد! هل سمعت؟ السيد نوزات يقترح الضعف عليّ من جديد. إنه يقول دعك من هذا، وليأكلك الآخرون. إنه يقول فليستغلوا بدنك حتى النهاية، وليفسدوا روحك وعقلك أيضا."

نزلت السمكة الزرقاء ثم صعدت ببدنها الجميل كما لو أنها كانت توافق الرجل على ما يقول. نظر بعدها نادر نحوي بانفعال.

"هل رأيتم؟ حتى السمكة تفكر أفضل منكم." بدا متكدرا. "هذا

القدر من الكلام كفاية يا حضرة النقيب. انتهى الوقت." كان صوته حزينا. حقا كان حزينا لأنه كان سيقتلني. في تلك اللحظة أدركت للمرّة الأولى أنني سأموت. ماذا يعني هذا؟ هل وصلنا نهاية الطريق؟ بالنسبة إلى نادر كان القرار قطعيا، تهّرب بنظراته، وأدخل يده اليمنى في جيبه، وأخرج سلاحه. وبينما كان يمشي إلى الخلف. "انتظر، قلتها صارخا. "لدي طلب، ما دام أنك تتلذّذ بالقتل أطلق النار وأنت تنظر إلى عينيّ."

توقف، لكنه لم يستمر كثيرا.

"حسنا، كما تريدون."

توقف أمامي، وأسند سلاحه إلى جبيني. حدّقت فيه، بدأ يتهرّب بنظراته، ثم تشجع بعد ذلك.

"لا أستطيع الكذب عليكم يا حضرة النقيب، أنا متلذّذ بقتلكم. فأنا أعرف نفسي؛ أعرف جيدا نفسي التي في الأعماق." بقينا لحظات ننظر إلى بعضنا. لا، سيطلق النار، ولا شك في ذلك. يبدو أنها كانت إلى هذا الحد، يبدو أنها كانت النهاية. تذكّرت أفكانيا فقط. وفرحت لأنها ستأخذ عزز إلى جانبها. فهذا عزاء لها. وبينما كنت أفكر في هذه الأمور صاح علي بصوته في الصالون.

"ألقه، ألق ذلك السلاح من يدك."

رجفت بفرح وأنا جالس على الأريكة. أدركني رفاقي. ذُهل المدعي العام، ثم نظر إلى مساعدي دون أن يتنازل عن شيء.

"الضابط علي، أنت، ها..." بدت على وجهه ابتسامة ساخرة. "بالطبع ستكون أنت، ومن له أن يعرف الخدعة التي قام بها سيدك لتعرف أنه هنا؟"

"اترك سلاحك،" حذره علي من جديد. أصبح متوترا من إطالة نادر

الحديث. "أقول لك اترك سلاحك وإلا سأطلق النار."

لم يتخل نادر عن ابتسامته الساخرة ولم يترك سلاحه أيضا، فتوقف جانبي وقال وهو يضع السلاح فوق صدغي. "لا أظن ذلك، إن أطلقت النار فسأقتل سيدك النقيب." صمت، وتكلم بشكل جدي. "هيا، تفضل، أطلق النار أنت أولا."

كان علي مترددا.

أمره نادر قائلا: "أنت من عليه أن يترك سلاحه يا حضرة الضابط، وإلا فسأقتل النقيب نوزات."

بدا علي لحظة أنه سيتخلى عن سلاحه، فقام نادر الذي لم يرغب بتفويت هذه الفرصة بحركة سريعة وأطلق النار على علي. سحب علي أيضا زناد سلاحه، فانفجر صوت السلاحين في المكان. وبينما كنت أحبس الأنفاس وأنا أراقب، صرخ علي: "آه!". رأيت حينها عليا ساقطا على الأرض، يمسك كتفه. أحسست أن ذلك التأوه خرج من فمي، أحسست أنني وقعت معه على الأرض وأحسست أنني أمسك بكتفي.

"حقير" صرخت به. "حقيرا" قلتها وأود بالهجوم على نادر. وبالطبع لم أستطع القيام بذلك. فالأريكة التي كنت أجلس عليها كانت ثقيلة جدا إلى درجة لم أستطع معها التحرك على الإطلاق.

تحدث نادر بذلك الأسلوب الساخر المستفز.

"لا تغضبوا يا حضرة النقيب، فرفيقكم هو من رغب في ذلك."

نظرت إلى مساعدي بقلق. كان يتقلب على الأرض، ووقع سلاحه بعيدا عنه بمقدار متر. كنت أستعد للموت، لم تخطر إلى ذهني فكرة ضربه على الإطلاق. وهذا الذي كان يؤلمني. ولا بد أن المدعي العام أدرك ذلك، فاتجه بخطوات ثابتة نحو مساعدي ليتلذذ بطعم عمله. كانت صدى خطواته

على الأرضية الخشبية تتردّد في أذني مثل ساعة تعلن لحظة الموت بحركة عقاربها. وربما كان نادر يسير وهو يضرب الأرض بقدميه عن قصد، رغبة في الاستعراض المهيب. كان يقترب من علي والسلاح في يده اليمنى.

صرخت قائلا: "توقف! توقف، اتركه واقتلني."

لم ينظر إليّ أبدا. رآه علي، فحاول الوصول إلى سلاحه الذي كان على الأرض كمحاولة أخيرة. وبالطبع وصل نادر إلى ذلك السلاح قبل علي. فدفع بقدمه ذلك السلاح نحو الجدار، ووجه سلاحه نحو رأس علي.

"أنت يا حضرة الضابط لم تحبني قط بصفتي مدّعٍ عام، لكن ربما أحببت شخصية القط الأعمى. ففي النهاية كنتُ أقوم بما لم يستطع القانون القيام به. فقد كنت أقضي على مغتصبي الأطفال. لكن إن كان لا بد من الاعتراف، فأنا أعترف أنني لم أحبك لا بصفتي مدّعٍ عام ولا بصفتي القط الأعمى. ولهذا السبب سأطلق النار عليك وأنا متلذذ بذلك."

مدّ إصبع السبابة نحو الزناد، لم أرغب في رؤية ذلك المشهد الرهيب، فأطبقت عينيّ، في تلك اللحظة سمعت صوت طلقتين متتابعتين. لكن صوت السلاح كان من خلفي. فتحت عينيّ، فرأيت جسم نادر يهتز. نعم، لقد أصيب القط الأعمى، نظر إلى الخلف بصعوبة. وبدت على وجهه ابتسامة مليئة بالندم.

قال: "زينب، الباحثة زينب. إنها زينب التي طالما خفت منها في هذا الفريق..."

لم يستطع المواصلة، وقع سلاحه من يده أولا، ثم سقط في مكانه. فحينما أدرت رأسي رأيت زينب منتصبة أمام الباب الآخر وفي يدها سلاحها مثل ملاك منقذ. كانت أنظارها فوق المدعي. وحينما أصبح نادر بلا حركة ركضت نحوي.

"اتركيني الآن،" قلتها بقلق. "اطلبي المساعدة من أجل علي، فليرسلوا سيارة إسعاف."

ركضت زينب بعجلة نحو علي. فحينما رأى رفيقنا المشاكس حبيبته بدا سليما.

"لا شيء هناك،" كان صوته جيدا. "لا شيء هناك يا زينب، طلقة دخلت وخرجت."

بعد أن اتصلت زينب بسيارة الإسعاف، وضعت قطعة من القماش فوق الجرح، ثم عثرت على المفتاح، وحلت قيودي، فأخذت نفسي عند علي.

"أنا بخير،" قالها. "لا تقلقوا، أنا بخير يا سيدي."

الغريب في الأمر أن هذا المشاكس حقا كان يبدو بخير.

"حسنا،" قلتها بسرور. "حسنا، لكن لا تتحرك كثيرا."

اتجهت أنظاري نحو القط الأعمى. لم يمت بعد، كان يتنفس. اقتربت منه، وجثمت على ركبتي. حينما رآني بدت على شفتيه ابتسامة مريرة، كانت باردة لكنها تلمس داخل الإنسان.

"هذا هو الصحيح،" قالها بصوت قادم من أعماقه. "انتصر القوي... الذكي، الشجاع..." لم يستطع إكمال كلامه. أخذ نفسا عميقا. تابع مكررا. "هذا هو الصحيح يا حضرة النقيب. كان لابد لي أن أحسب حسابا لقدوم زينب. لم أحسب، فوجدت ما أستحقه." بدأ يسعل، كانت الدماء تسيل من فمه. "هذا هو الصحيح... قانون الطبيعة... لكن الوظيفة بعد الآن وظيفتكم. فهذه اللعبة لها قاعدة. الذي يمسك به يصبح القط الأعمى، لكن في هذه اللعبة أنا من قبض عليكم ولستم أنتم من قبض عليّ يا حضرة النقيب. من بعد الآن أنتم القط الأعمى.

خذوا بثأر الأطفال الصغار.. وها أنا أترككم وحدكم في مواجهة مغتصبي الأطفال..." سعل من جديد، وسرح مرة أخرى، حاول الكلام بشيء ما، لكن فمه المفتوح لم ينطبق مرة أخرى. تحوّل صوته إلى غرغرة، نفدت أنفاسه، ثم همَد تمامًا. بقيت عيناه البُنيّتان عالقتين في النافذة وكأن الأمان قادم من هناك. حينها لاحظتُ اللون الأزرق في الخارج. كانت قِطَعٌ من الظلام تُضاء مع أصوات الرعد في السماء. وفجأة فُتح الباب ودخلت منه رياح رطبة ولطيفة ملأت المكان.

"يا للروعة،" قالها علي من مكانه. "يا للروعة! أخيرًا سيهطل المطر."

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر لكل من وداد البيرق المدير العام لمجموعة ألفا للنشر، ومحمد سعيد أيدن محرري الخاص، ونرمين مولو أوغلو صاحبة وكالة القلم، والسيد ألكار شاهين، وأ.د إلهان ألماجي، ولأصدقائي فيكان بيترما، كمال قوجاك، أورال أسنه، وأيهان بوزقورت، وأردينتش تشكيك، ومرت أورتشن أوزيورت، وكركان كوراك، ولابنتي كول أوميت كوراك، ولزوجتي ولدان أوميت ولكل من ساندني في كتابة رواية صرخة الخطّاف. فلولا مجهود هؤلاء الناس الرائعين لما كانت هذه الرواية.

المؤلف

ولد أحمد أوميت في عام 1960 في غازي عنتاب. تخرج من قسم الإدارة العامة في جامعة مرمرة عام 1983. وفي 1985-1986 درس السياسة في موسكو في أكاديمية العلوم الاجتماعية. في عام 1989 نشر ديوانا شعريا تحت عنوان "شارع الزولو". ثم نشر عام 1992 أول مجلد قصصي بعنوان "كانت ليلةً ساقها عارية". ثم تبعه مجموعة قصص بوليسية بعنوان (صوت يمزق الليل) و (مفتاح أجاثا كريستي) و(الشيطان يكمن في التفاصيل). وله عملان للكبار والصغار بعنوان (مملكة ليس لها وجود) و (حكاية داخل حكاية). وفي عام 1996 نشر أول رواية له بعنوان (الليل والضباب). تبعها مجموعة من الروايات بعنوان (رائحة الثلج)، (باتاسنا)، (دمية)، (سوار نيناتا)، (خريطة الروح البشرية)، (الحُب كَلبٌ)، (مذكرات قاتل)، (القوم)، (باب الأسرار)، (صروح اسطنبول)، (اغتيال السلطان)، (أجمل أخ في بي أوغلو)، (وداعا يا وطني الجميل). وله أعمال أخرى بالاشتراك مع إسماعيل كولكتش وعبد القادر إلتشي أوغلو. ترُجمت معظم أثاره إلى ما يزيد عن عشرين لغة. جمع أعمال الكاتب تصدر باللغة التركية عن دار أوريست للنشر.

المترجم

درس رَبّاع ربابعة بكالوريوس اللغة العربية في الأردن في جامعة اليرموك وتخرج فيها سنة 2010.حصل على ماجستير اللغة التركية وآدابها في جامعة يلدز تكنيك وتخرج فيها سنة 2013. عمل بعدها مدرسا للغة التركية في جامعة اليرموك في الأردن قبل شروعه منذ عام 2016 في تحصيل درجة الدكتوراه في اللغة التركية وآدابها.

صرخة الخطّاف

في يوم دافئ، عُثر على جثة في حديقة أطفال في إسطنبول. تُركت الضحيّة جالسة أسفل لعبة التزحلق، بعد أن أصيبت برصاصة واحدة في مؤخرة الرأس، وتُركت بين قدميها دُمية باربي. عندما يصل النقيب نوزات إلى مسرح الجريمة، يصاب بصدمة عندما يرى أنّ الضحية هو الرجل الذي تحرّش بابنته أيسون، وقد احتُجز سابقًا لكن أُطلق سراحه بسبب نقص الأدلة.

تكشف التحقيقات الأولية أنه قبل عقد من الزمان، أقدم قاتل متسلسل يلقّب بالقطّ الأعمى، على قتل اثني عشر متحرّشًا بالأطفال تركهم في أماكن مخصّصة للأطفال، رصاصة واحدة في الرأس وبين قدمي كلّ منهم دمية، ولم يقبضوا عليه. والآن، يعتقد النقيب نوزات أن القطّ الأعمى قام من سباته ليُعاود عمله. لكنّه لاحظ تغييرات طفيفة في أسلوبه، تقوده لاحقًا إلى ما لم يتوقّع.

يصل النقيب وفريقه أثناء جمعهم المعلومات إلى مجتمع اللاجئين السوريين في تركيا، فيشهدون معاناة الناس الذين أجبروا على النزوح من وطنهم بسبب الحرب، وكيف يُجبَر المرء على بيع فلذة كبده والتضحيّة بأغلى ما لديه من أجل أن يُبقي على ما يستطيع من عائلته التي حملها معه من أقاصي الدنيا أملًا في حياة كريمة قد لا يجدها.

ولد أحمد أوميت في عام 1960 في غازي عنتاب. بدأ سيرته الروائية عام 1996 حين نشر أول رواية له بعنوان (الليل والضباب). تبعها مجموعة روايات من بينها: (رائحة الثلج)، و(خريطة الروح البشرية)، و(صروح اسطنبول)، و(اغتيال السلطان). تُرجمت معظم أعماله إلى ما يزيد عن عشرين لغة.»

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق
منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة

Illustration: Shutterstock
Cover design Diana Chamma

ISBN 978-9948-38-521-9
9 789948 385219

روايات
REWAYAT